

تاريخ
محمد كرد علي
في تراث العرب والمسلمين
مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
تحرير وتقديم
د. محمد ناصر الدين
استعادات

فِي تُراثِ
العَرَبُ وَالمُسلِميْنَ

في تراث العرب والمسلمين

محمد كرد علي

تحقيق وتدقيق: د. محمد ناصر الدين

On Arab and Islam Culture

By Mohammad Kurd Ali

الطبعة الأولى: مايو - أيّار، 2021 (1000 نسخة)



لبنان ــ بيروت / الحمرا

تلفون: 345683 1 961+ / 541980 1 961+

بغداد ــ العراق / شارع المتنبي عمارة الكاهجي

تلفون: 9647714440520+ / 9647811005860+

info@daralrafidain.com | dar alrafidain

daralrafidain@yahoo.com | Dar.alrafidain

www.daralrafidain.com | دارالرافدين@daralrafidain

ISBN: 978 - 9922 - 634 - 00 - 5

فِي تُراثِ
العَربُ وَالمُسلِميْنَ

العلّامة محمد كرد علي

تحقيق وتدقيق
د. محمد ناصر الدين



www.daralrafidain.com

الفهرس

العلّامة العَلَم

مقدّمة عامة بقلم الدكتور محمد ناصر الدين

يمكن اعتبار العلّامة السوري محمد كرد علي (1953 - 1876) أحد المفكرين المعاصرين القلائل ممّن روّجوا في بداية العصر الماضي إلى نوع من العلمانية ـ الإسلامية المعاصرة، وبشكل عضوي (Synthetic) ومركّز كما يقول الباحث الفلسطيني المرموق سليم تاماري في كتاب يتناول أحوال سورية في خضم الحرب العالمية الأولى. يمكن اعتبار كرد علي اليوم، مع المجموعة الطليعية المتنورة التي جمعته وإياها مجلة المقتبس (1914 - 1908) الصادرة في دمشق في مطالع القرن العشرين، رُواداً للحداثة العربية في الفكر والصحافة والأدب، وهي مجموعة ضمّت إليه رفيق العظم من سورية، أحمد زكي باشا من مصر، جرجي زيدان وشكيب أرسلان وعيسى اسكندر المعلوف وأحمد رضا من لبنان، ومحمد رضا الشبيبي من العراق وغيرهم من الأسماء اللّامعة مثل أخيه أحمد كرد علي وشكري العسلي.

ولدَ محمد كرد في السليمانية في شمالي العراق لأب كردي وأم شركسية، وتعلّم في الكتّاب القراءة والكتابة والقرآن الكريم، ودرس المرحلة الإعدادية في المدرسة الرشدية، ثم أتمّ تعليمه الثانوي في المدرسة العازرية للراهبات العازريات بدمشق، التي أتقن فيها إلى جانب العربيّة اللغتين الفرنسية والتركية، وتفتّحت قريحته مبكراً على مطالعة الصحف والتبحّر في كتب التراث، إذ يشير في أحد مقالاته في المقتبس إلى قائمة من ذخائر التراث كانت قد شكّلت في بدايات وعيه ذائقته الأدبية والفكرية: «وإنّي لا أزال أذكر ما كنتُ أُكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمع الأنفس للفتح بن خاقان وخُطب ابن نباته وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه وخزانة الأدب لابن حجّة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أطرب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كُتب لي الاطلاع على الآداب

الفرنسوية والتركية، وأنشأتُ أبحث عن كتبٍ كُتِبَتْ بلا تكلّف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل ابن هارون وأبي حيان التوحيدي والراغب الأصفهاني والغزالي والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين، غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقّف تلك الأسفار المُسجّعة وفي اللغة مثل نهج البلاغة و«البيان والتبيين» و«الذريعة والإحياء» وغيرها مما لا يتّسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة مادة أدب كما مادة علم لا تبلى على الدهر جِدَتها ولا تخلق ديباجتها، كما كنتُ أعجبُ من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفيّ الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي الطيّب وابن عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس وأبي فراس الحمداني».

كان لا بد لمن سيصبح أول وزير للمعارف والتربية في سورية ورئيساً لمجمع اللغة العربية في دمشق منذ تأسيسه (1919) حتى وفاته (1953) أن ينهل من خزانة التراث العربي الغنية والضاربة في التاريخ، إذ لا حداثة ممكنة لا تتوكأ على حمولة معرفية تمتد لأكثر من ألفي عام في الشعر والأدب والخطابة والبلاغة واللغة. اتصل محمد كرد علي بعددٍ من علماء الشام المعروفين، يتتلمذ على أيديهم ويغرف من بحار علومهم وأدبهم وأبرزهم الشيخ سليم البخاري، والشيخ محمد مبارك واستاذه الأكبر الذي يشير إليه في أكثر من موضع من «المقتبس» ويستشهد فيه في كتبه، ألا وهو العلامة طاهر الجزائري، وقد قرأ كرد علي على هؤلاء العلماء الأفذاذ كتب الأدب واللغة والبلاغة والفقه وعلم الاجتماع والتفسير وعلم الرجال والأسانيد والفلسفة.

استهوت الصحافة محمد كرد علي مبكراً، ليُعهد إليه بتحرير جريدة (الشام) الأسبوعية عام 1897 بعد أن أمضى خمسَ سنوات كاتباً في قلم الأمور الأجنبية عام 1892 وهو في سن السابعة عشرة لإجادته التركية والفرنسية. أخذ محمد كرد علي يراسل مجلة (المقتطف) المصرية لمدة خمس سنوات، وقد شغفته القاهرة التي اعتبرها قبلة لكل مريدي نهضة العرب والمسلمين وكانت تجربة محمد علي باشا في الإصلاح والتحديث لما ينقضي ذكر أحوالها بعد، ليسافر كرد علي إلى القاهرة سنة 1901 لابثاً فيها حقبة قصيرة في تحرير جريدة «الرائد المصري» ويعود أدراجه إلى دمشق بعد تفشّي الطاعون في القاهرة، وتبدأ فترة من الاضطرابات والملاحقات من البوليس التركي إذ أن كرد علي لم يوفر الأتراك وولاتهم من النقد اللاذع في مقالاته كافة. يعود محمد كرد علي إلى مصر عام 1906، وينشر «المقتبس» المجلة الأشهر في حينها بعد جريدة «الجوائب» التي أنشأها

أحمد فارس الشدياق في الأستانة وطار صيتها في الآفاق. نشر كرد علي في المقتبس البحوث العلمية والأدبية والتاريخية، كما تولّى في الوقت ذاته تحرير جريدة «الظاهر» اليومية، ولما أغلِقَت دعاه الشيخ علي يوسف صاحب جريدة المؤيد - وهي يومئذٍ كبرى جرائد العالم الإسلامي - إلى التحرير فيها فعمل فيها حتى سنة 1908 حيث غادر القاهرة إلى الشام بعد الانقلاب العثماني فيها. في دمشق تابع حتى سنة 1914 إصدار مجلة المقتبس ، وكانت المقتبس ترصد بعينٍ أخبار الولايات العثمانية واحتكاكها الصعب مع الحداثة في مطالع القرن العشرين، وبعين أخرى الضوء القادم من الغرب، إذ كانت باريس قبلة لعلاّمة الشام الكبير، وهو يشير في إحدى محاضراته إلى ما لهذه العاصمة من فضل في مساعدة العرب في ترقية علومهم ومعارفهم أيام نهضة محمد علي باشا، وإن كان يعيب على الفرنسيين في محاضرة أخرى حربهم التي فاقت المئة عام مع الدين والتدين. حين اشتدّت على كرد علي وشايات المغرضين، يمّم وجهه شطر عاصمة النور التي زارها سراً وأقام بها فترة وجيزة قبل بداية الحرب الأولى، ليرصد أزاهير حركتها العلمية ونهضتها السياسية والفكرية ويلتقي بكوكبة من رجال الفكر والسياسية فيها، فكان أن توّج هذه الرحلة بما يقارب الأربعين مقالة نشرها في المقتبس، وما لبثت أن تحولت إلى كتاب بعنوان «غرائب الغرب» جمع فيه كرد علي رحلات أخرى إلى لبنان والجليل والقلمون السوري ومحطات ارتادها في طريقه إلى أوروبا في تلك الفترة.

بعد هزيمة تركيا في الحرب الأولى، استطاع محمد كرد علي أن ينتزع من حكومة الملك فيصل ممثلة بالحاكم العسكري علي الرضا الركابي قراراً بتغيير ديوان المعارف بأعضائه ورئيسه واستبداله بأول مجمع علمي عربي في دمشق عام 1919، ليكون «مجمع اللغة العربية» في عاصمة الياسمين أول مجمع رسمي عربي استحق ريادته بفضل جهود علامة الشام الأكبر. لئن ذاع صيت محمد كرد علي كمؤرخ، وكصحفي وصف جريدته المقتبس بأنها «معتدلة في السياسة، وطنية بلا تحفظ، ناقدة للسلوك الإداري العثماني في الحكم»، فإن الإطلاع على مؤلفات كرد علي الأخرى ولا سيما «خطط الشام» (8 - 1925) الكتاب المرجع في الجغرافيا السياسية في سورية الكبرى، ومؤلّفِهِ الآخر «الإسلام والحضارة العربية» (1934) تطرح تحديات جدية على كل من يصر على إخراج محمد كرد علي من خانة «المفكّر» وإدراجه في خانة الصحفي أو المؤرخ حصراً. تشكل نصوص «الإسلام والحضارة العربية» أول محاولة جدية من عقل عربي لنقد الاستشراق، كما أن مراجعات محمد كرد علي لصفحات إشكالية من التراث وإبراز جماليتها وإمكانية استخدامها في

حداثة ممكنة هي خطوة أولى في مشروع كبير سيشرع به مفكرون وشعراء ومثقفون كبار أمثال حسين مروة، ومحمد عابد الجابري، وأدونيس وجورج طرابيشي وغيرهم في ما بعد.

مقدمة هذا الكتاب

أشرنا في المقدمة العامة إلى نوع من العلمانية ـ الإسلامية العضوية التي ميزت محمد كرد علي وكوكبة من رفاقه في مطالع القرن العشرين، إضافة إلى تعمّقه بالتراث العربي والإسلامي ومقدرته على تناول هذا التراث بعين قادرة على تظهير جماليته، وعرضه كما هو بغثّه وسمينه، والأهم هو القدرة على تسييله في مخاض الحداثة الصعب، في مواجهة رياح عاتية قادمة من الغرب تحمل فكراً مغايراً، ونظرة مختلفة إلى الوجود والإنسان والثقافة، هذا الغرب الذي لم تكن الجغرافيا عند جبل طارق ومضيق البوسفور وسبتة ومليلة لتفصل كتلته البشرية وعمقه الجغرافي عن الشرق الغافي في سباته الطويل تحت حكم «الرجل المريض» أو السلطنة العثمانية بل كانت تُسمع أصداء صليل السيوف وهمهمات الخيول والحمم القادمة من البحر من أيام الحروب الصليبية حتى بروز الأطماع الاستعمارية في تركة الامبراطورية المهزومة. في الفترة التي أصدر فيها محمد كرد علي «المقتبس» لم تكن أوروبا قد كشرت عن أنيابها بشكل واضح في بلاد الشام مع الوعود التي قُطعت للشريف حسين بمساعدة العرب في نيل استقلالهم وكان الجمع ممكناً عند النخبة المتنورة بين ما تنتجه الجامعات في باريس وبرلين وليدن ولندن وبين القيم الشرقية التي كان يمكن أن تعطي لهذا العلم روحه التي توجّهه نحو الخير والمحبة والعدل بين الشعوب. العلمانية ـ الإسلامية المتنورة لمحمد كردعلي كانت ترى أن الأخلاق ملازمة للعلم وأن على كل جامعة عظيمة أن تسعى في إيجاد الأداة أو الآلة، إضافة إلى الروح التي تحرك هذه الآلة في سبيل الخير والعدل. لم يجد محمد كرد علي ضيماً من الاعتراف للغرب بتفوقه التقني والعلمي ولكنه في ما اخترناه من المقالات والخطب التي استجمعناها من «المقتبس» لم يرَ أن الشرق العربي والإسلامي عاجز عن مجاراة هذا الغرب في الميادين كافة، خاصة أنه يستند إلى حضارة قديمة لها قدمٌ في الصين وقدمٌ في الأندلس، مع تبيان أن القرار التقني والتكنولوجي (خاصة في الفصل الذي يتناول فيه تجربة محمد علي باشا في التحديث) هو في المقام الأول قرار سياسي، يتطلب رؤية ترفض أن تفصل بشكل حاد بين علوم

الدين وعلوم الدنيا بحيث «تنسى القديم ولا تتعلم الجديد» ويتحول الغرب إلى سوبرماركت كبير، نستورد منه ولا نتعلم الحرفة والروح العلمية والنقدية التي توجه الاكتشافات والاختراعات.

لم يبدِ محمد كرد علي كثير إعجاب بالنخب الشرقية في الإرساليات الامريكية واليسوعية التي نفضت عنها كل ما يمتّ إلى هويتها وتراثها ولغتها وتحولت إلى بوق لهذه الحضارة القادمة إلينا بكتبها وجنودها، وخاصة أن دين هذه النخبة بمعناه الحضاري الواسع لا التعبدي الضيق المحصور بملّة معيّنة هو «الدين الذي يأمر أصحابه أن يتعلموا لغة اليهود والحبشة ويحث على تفهّم أسرار الكون من طرقها حتى لم يأتِ على الإسلام قرنان ونصف إلا وقد تناول أهله بمعونة الحلفاء ما عرف من علوم البشر وتداولوه بينهم وصبغوه بصبغتهم حتى أنشأوا لهم مدنية لو لم يكتب لها القيام لانقطعت من العالم سلسلة المصريين واليونانيين والرومانيين والفرس والهنود ولاضطر أهل المدنيّة الحديثة أن يرجعوا مبتدئين بالعلوم بحيث لا يتيسر لهم تأسيس المدنيّة التي أسسوها في ثلاثة قرون إلا أن تؤسّس في عشرين أو ثلاثين قرناً - إن ديناً هذا شأنه وهو لم يمنع أيضاً من تعلم العلم والفلسفة ليس في الأديان التي لا تنطبق مع روح هذا العصر». معالم العلمانية الإسلامية العضوية سنجدها في المنتخبات التي دعت في ما دعت إليه إلى وسطية في العقيدة، واعتدال في نقل الأخبار وتموضعٍ متكافئ مع الغرب يرفض مقولة التابع والمتبوع والتركيز على لبنات أساسية لنهضة العرب والمسلمين والمشارقة من إصلاح للتعليم، والتركيز على الصناعة، والارتقاء بطموح أفراد الأمة من «الموظف الكسول» إلى العقل المبدع والمنتج والصناعي والحرفي، والأخذ من علوم الغرب بطرف ومن حكمة الشرق وروحانيته بطرفٍ آخر.

أردنا في هذه الاستعادة لآثار محمد علي كرد في مقالاته حول العرب والمسلمين التي اصطفيناها من المقتبس أن نضيئ على هذه الوسطية العقلانية كما أردنا في القسم الأكبر من الكتاب استعادة عرض قسم مهم من التراث العربي، بمحاسنه ومثالبه، في التسامح والقصاص والآراء حول الفرق والمذاهب، والصناعات والمآكل والمدن والخطابة وأن نخلص هذا التراث من أيدي فرقتين: السلفيون ممن حولوه إلى ميدان للرجم وقطع الأيدي وسحل الأعين وإحراق العلم والعلماء في صحف الجهل والتكفير والتخلف، وفرقة أخرى لا ترى خلاصاً إلا بالدوس على تاريخها وثقافتها، وتقديم البلاد والجغرافيا والتاريخ لمستعمر ومستوطن استشعر محمد كرد علي في إحدى المقالات أطماعه في فلسطين وحذر منها. نطوف مع علاّمة الشام الأكبر في صفحات من تراثنا بحلوّها ومرّها، ولنا في آثاره رحلة طويلة حول الأسفار والآداب والفنون وصدور المشارقة والمغاربة.

د. محمد ناصر الدين

التمثيل في الإسلام

للتمثيل يدٌ في تربية الملَكات وترقيق الشعور والإحساس يعدّه الغربيون من العوامل في إنهاض الأمم، ويعدّه العامة من المسلّيات. وما هو إلا أُمثولات، ويراه فريق هزلاً، وما هو إلا عين الجِد. وأيٌّ نفس لا تتأثر بالفضيلة والرذيلة، والسعادة والشقاء، والماضي والحاضر، والمُفجع والمُطرب. وكأنّ الغرب خُصَّ بمزية التمثيل كما اختص بكثير من المزايا ولم ترُج سوقه في الشرق في عصر من العصور إلا في مملكة الشمس المشرقة بلاد يابان فإن التمثيل فيها قديم كما نقل أحد الفرنجة وقد جاءت إلى بلاد الألمان ممثلة يابانية منذ بضع سنين اسمها سادایاكو من أعظم الممثلات اليابانيات فأدهشت القوم بتمثيلها.

وليس من حجة تاريخية يُستأنس بها على وجود التمثيل عند العرب غير عبارة كنت قرأتها في بعض أسفار كمال بك الشهير وأظن في مقدمة روايته «**جلال الدين خوارزمشاه**» تُشعر بأن عرب الأندلس عرفوا التمثيل واشتغلوا به قليلاً. وما أدري على أي شيء بنى هذه الحادثة التاريخية على حين يكاد يكون في حكم الإجماع اتفاق الباحثين في مدنية المسلمين على أنهم ما عرفوا التمثيل على نحو ما كان عليه عند أمم الحضارة القديمة. قال أحد فُضلاء الألمان أن التمثيل لم يشتغل به العرب بداعي غلظ حجاب النساء عندهم والحظر عليهم في الخروج والتمثيل لا يتم بدون مثول النساء فيه.

ذاكرت مرة أحد الأئمة في معنى التمثيل عند المسلمين فقال أنه من خصائص الجنس الآري وأن الجنس السامي ومنه العرب لا يعرف التمثيل ولا شَغَل نفسه به لأن حالته لا تقتضي ذلك. ولعل الفُرس ألّفوا كتاب ألف ليلة وليلة لأنهم من جنس آري وفي هذا الكتاب شيء من التمثيل. والعلوم والفنون تحدث في الأمم بحسب الدواعي والبواعث وفي العربية شيء من الروايات وقِطَع تمثيلية ولكنها مبعثرة غير منظّمة.

وسألت أحد الحكماء عن ذلك فقال ليس التمثيل طبيعياً في الأمم والعرب يأنفون منه لما عُرفوا به من الأخلاق فيرون من سقوط المروءة أنْ يُمثَّل مجلس الأمير أو الوزير وإن كان لا يخلو من حكمة فكيف بمجلس صبابة وغرام. أما اليونان فقد ابتدعوا التمثيل لأنّ لهم خيالات وتصورات خُصّوا بها دون سائر الأمم ونقل الأوربيون التمثيل عن اليونان لأنهم أرادوا أن يتشبهوا بهم حذو القذة بالقذة. وهناك أسباب أخرى زهّدت المسلمين ذلك لأنهم أُمّة لم تنقل عن غيرها إلا ما مست حاجتها إليه وانطبق مع عاداتها وليس العرب أُمّة خيال بل أمّة حس وحقيقة.

هذا ما قاله العالِمان المشار إليهما. وأنت ترى أن التمثيل في بلادنا حديث النشأة. كانت بعثته الأولى سنة 1382هـ في سورية ومنها انتقل إلى مصر. وما برحت حاله تتقلب بين هبوط وصعود وإن لم يعد ذلك صعوداً بالنسبة للأمم الراقية. وليس ذلك فيما أحسب إلا لانقطاع الرغبات في الآداب العربية واقتصار القوم من التمثيل على الأغاني والمناظر لا على المعنويات والجواهر.

الرسم والتصوير

ما برح أهل الإخصاء في مدنية الإسلام يعجبون من كونها بلغت عند أهله شأواً بعيداً على حين لم يكن لهم هوى في التصوير والرسم كما لأهل المدنية من الأمم الغربية لهذا العهد مثلاً فيحكم أولئك الباحثون حكماً إجمالياً على مجموع ما قام من تلك المدنية بجزء طفيف اطلعوا عليه منها.

نعم حَظَر الإسلام رسم الأشخاص مجسّمة على حجر أو خشب أو نحوِه تفادياً من أن يرجع العرب إلى عبادة الأصنام والوثنية التي جاء الإسلام للقضاء عليها. أما الرسم الذي يمثّل الأجسام إلى حد ما فهو مباح لا حظر فيه ولا وزر على فاعله. والدليل على ذلك أنه كان يرِد على الصحابة أقمشة من بلاد الروم وفارس رُسمت عليها صور أشخاص وغيرهم فاستعملوها في ألبستهم وفرشهم وأثاثهم وتحاشوا من وضعها في مكان عالٍ فلم يجعلوها ستائر للنوافذ ولم يعلقوها على الجدر مخافة أن يُشعر ذلك بتعظيمها.

أما رسم المسائل العلمية وتصويرها كالنبات والبيطرة والحيوان والهندسة فقد استعمله المسلمون بحسب الحاجة إليه. نرى مثلاً من إجادتهم في هذا الشأن من رسوم كُتِب أبقتها لنا الأيام ومنها كتاب كليلة ودمنة الذي عُرّب في القرون الأولى وشاع بين الطبقات كافة مزيناً بصور الأشخاص. وكذلك مقامات الحريري فقد نقل لي من زار مكتبة باريس أن فيها نسخة من المقامات مصورة بأبدع الصور كُتبت في القرن السادس. ولابن عربشاه الدمشقي كتاب فارسي اسمه المرزبانامة مزيّن بالصور أيضاً.

قال أحد العلماء الأعلام في أحوال الإسلام: أفرط الأوربيون في استخدام الصور والرسوم حتى صار مصوروهم يتخيلون من ضروب التصوير ما لا يتحقق في الحس وابتذل التصوير والرسم حتى صرت إذا قلت للغربي أنك زرت البلد الفلاني مَثلاً ولم تأته بصور شمسية يكاد لا يفهم منك ولو كنت من الفصاحة بحيث يشترك في دَرك ما تقوله الكبير والصغير، مما يكاد يدل على أن

تلك الأمم لا تقبل أذهانها إلا المحسوسات وتدق عن تصور ما لا تراه في صورة مرسوماً رسماً مجسماً. قال وليس من العقل تصوير كل الكتب ولا جعلها خلواً من الرسوم بتة مع مسيس الحاجة إلى التصوير ولاسيما في المسائل العلمية والأدبية وإن الإكثار من الرسوم يضعف قوة التصوير.

ومن العجيب أن المسلمين وإن حظَر دينهم التجسيد والهياكل والتماثيل فقد أبقوا في مصر على ما وجدوه منها مثل تمثال أبي الهول فإنه بقي سالماً إلى قبيل القرن الخامس، حتى إذا اشتد التعصب قام بعض الجهلة يتقربون إلى الله بالعبث بها. وقد ذكر ذلك عبد اللطيف البغدادي الفيلسوف المشهور في رحلته وردّ عليهم رداً تفهم منه أن المسلمين كانوا من التسامح بحيث لا يطيلون يد الأذى حتى لما حرّمه شرعهم.

نقل ابن أبي أصيبعة أن الملوك من اليونانية وغيرها كانت تعلّم أولادها الحكمة والفلسفة وتؤدبهم بأصناف الآداب وتتخذ لهم بيوت الذهب المصورة بأصناف الصور قال وإنما جُعلت الصور لارتياح القلوب إليها واشتياق النظر إلى رؤيتها، فإن الصبيان يلازمون بيوت الصور للتأديب بسبب الصور التي فيها وكذلك نَقشت اليهود هياكلها وصوّرَت النصارى كنائسها وبيعها وزوّق المسلمون مساجدهم.

شذرات حكمية

سئل أبو سليمان المنطقي لِمَ لم يصف التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ كما صفا ذلك في الفلسفة فقال: «إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم، وعرف حقيقة أقوال متقدميهم، بل كان في القوم من رأى رأي العامة وحطّ إلى ما حطّت إليه ولم يبن منهم كثير شيء مع قدم الزمان ولقاء المحققين الفاضلين وهذا إذا حلّ لا يكون قادحاً فيما نصصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة، وفرسان الصناعة، على أنّ الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ومن العبرانية إلى السريانية ومن السريانية إلى العربية قد أخلّت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد ولو كانت معاني يونان تهجس في أنفس العرب مع بيانها الرائع، وتصرفها الواسع، وافتنانها المعجز، وسعتها المشهورة، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب، وكاملة بلا نقص، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم كان ذلك أيضاً ناقعاً للغليل وناهجاً للسبيل ومبلغاً إلى الحد المطلوب ولكن لابد في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها وذلك للعجز الموروث عن الهيولى، والضعف الثابت في الطينة الأولى، وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ومعاذاً للعالم».

قال أبو حيان لأبي سليمان ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة فقال ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفِهم طريقتهم مؤسسة على مكايل اللفظ باللفظ وموازنة الشيء بالشيء إما بشهادة من العقل مدخولة وإما بغير شهادة منه البتة والاعتماد على الجدل وعلى ما يسبق إلى الحس أو يحكم به العيان أو على ما يسنح به الخاطر المركّب من الحس والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشأ وسائر الأعراض الذي يطول إحصاؤها ويشق الإتيان عليها وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع وإسكات الخصم بما اتّفق وإتمام القول الذي لا محصول فيه ولا مرجوع له مع بوادر لا تليق بالعلم ومع سوء أدب كثير نعم ومع قلة تأله، وسوء ديانة، وفساد دخلة، ورفض الورع بتحمله، والفلسفة أدام الله توفيقك محدودة بحدود ستة كلها تَدلّك على أنها بحث عن جميعها في العالم

من ظهر للعين وباطن للعقل ومركب بينهما ومائل إلى حد طرفيهما على ما هو عليه واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله ومسموعه ومرئيه وموجوده ومعدومه من غير هوى يمال به على العقل ولا إلف تغتفر معه جناية التقليد مع أحكام العقل الاختياري وترتيب العقل الطبيعي وتحصيل ما ندَّ وانقلب من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حساً وعياناً وكانت محققة عقلاً وبياناً ومع أخلاق الهيئة واختيارات علوية وسياسات عقلية ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها ولا تبلغ أقصى ما لها من حقها في شرفها.

ثم قال وكان شيخنا يحيى بن عدي يقول إنّني لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمّنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام والكلام بنا كثر وانتشر، وصح وظهر، كأن سائر الناس لا يتكلمون أو ليسوا أهل الكلام لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت. أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوي والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعي والإلهي والحديثي والصوفي قال وكان يلهج بهذا وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أصولاً، وجعلوا ما يدعونه محمولاً عليها ومسؤولاً من عرفها وإن كانت المغالطات تجري عليهم ومن جهتهم بقصدهم مرة وبغير قصدهم أخرى قال وكان يصل هذا كثيراً بقوله والدليل على أن النحو والشعر واللغة ليس بعلم أنك لو لقيت في البادية شيخاً بدوياً قحاً محرماً لم ير حضرياً، ولا جاور أعجمياً، ولم يفارق رعية الإبل، وانتياب المناهل، وهو على قبح هيئته التي لا يشق غباره فيها أحد منا وإن كلف (كذا) فقلت له هل عندك علم قال لا: هذا وهو يسيّر المثل، ويقرض الشعر، ويسجع السجع البديع، ويأتي بما لو سمعه واحد من الحاضرة وعاهُ واتخذه أدباً، ورواهُ وجعله حجة، وكان يقول هذه الآداب والعلوم هي قشور الحكمة وما انتثر منها على فائت الزمان لأن القياس المقصود في هذه المواضع والدليل المدّعى في هذه الأبواب معها ظِلّ يسيرٌ من البرهان المنطقي والرمز الإلهي والإقناع الفلسفي.

قال أبو حيان رويت لأبي سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئاً لقلت: الحواس مهالك، والأوهام مسالك، والعقول ممالك، فمن خلّص نفسه من المهالك، قويَ على المسالك، ومن قويَ على المسالك، أشرفَ على المهالك، شرفاً يوصله المالك، قال أبو الخطاب الكاتب: أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم فلو زدتنا منه فقال: الحواس مضِلّة، والأوهام مزلّة، والعقل مَدلّة، فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث ومن أدرك في الثالث فقد أفلح ومن ضلّ في الأول وزلَّ في الثاني خاف ومن خاف في الثالث فهو من الهمج واستزاده مظهر الكاتب البغدادي فاستعفى قال: هذا حديث قوم أباعد منا على بعض

المشابهة. قلنا وما قلناه كافٍ فيما قصدنا فإن استتب خفت العار، واستحليت الغار، (كذا) ولكلٍ أفق يقطفون منه، ولولا هذه اللطائف التي هي شعلة النفوس الوافرة والناقصة، لكانت الصدور تتقرح بأساً، والعقول تتحير يأساً، والأرواح تزهق كمداً، والأكباد تتفتت صمداً، فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة، وهذه الأسرار في هذه الطريقة.

الحق مشاع

لعلّ بعض الناظرين في هذا العنوان يعدّه خروجاً عن القصد وخطلاً في القول وضلّة عن سبيل السلامة وما حُكمُ من يبادر إلى التنديد بادئ الرأي إلا حُكم من استغواه الهوى واستهواه الغرض فإن الحق كان ولا يزال مشاعاً بين الأمم والبلدان والمذاهب وما قط كان وقفاً على أمّة معينة ولا على بلد خاص ولا على مذهب معلوم. الحق كنز ثمين يأخذ كلٌّ منه بحسب استعداده وأسبابه بل نور يعمّ العالمين على قدر خلاصهم من العوائق وبصرهم بالاستنارة به.

يخطئ كل الخطأ من يَذهب إلى أن كل ما يعتقده أهل المذاهب والنحل لا ضل له من الحق وأن أهل النِحل المتعددة في الإسلام مثلاً كالاباضية والسنية والمعتزلة والشيعة قد ضلّوا إلا قليلاً والحقيقة التي يقتضي اعتبارها أن الحق تقسّم بين أهل هذه المذاهب والنِحل ومن أراد أن ينشده فلا يتأتى له ذلك إلا بالنظر فيما كتبه أئمة هذه المذاهب ثم ينخّل ما يقرأه وينتحل ما يراه الحق المطلق وهكذا الحال في العلم الذي هو من الأوضاع البشرية فإنه ما خُص بقبيل ولا بجيل بل هو موزَّع على القدماء والمحدثين والشرقيين والغربيين.

توخيت أن أصرح هنا بهذا الفكر على جلبته حباً بتقرير جملة تقطع ألسنَ من يشاغبون في كل ما لم تألَفُهُ أسماعهم ويعتقدون أن ما لم يعرفوه ولا آباؤهم ليس من الحق في شيء. فلا يعظمنّ على بعضهم إذا قرأوا في طريد هذه الصحيفة ما لا ينطبق مع رغباتهم فالعلم كالحق كثير الأفنان والفنون لا دين له ولا نحلة وناشره معه خازن أمين يجمعه ليصرفه عند مسيس الحاجة. وربما كان فيما يجمعه كحاطب ليل يجمع بين الجيّد والرديء ولا يكاد يشعر ولذلك كان على من أوتي نوراً من الحق أكثر من غيره أن يقبسه صاحبه ويدلّه على عوراته.

فقد خالف ابن عباس عمر وعلياً وزيد بن ثابت وكان أخذ عنهم وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة وإنما اخذوا العلم عنهم وخالف مالك كثيراً من أشياخه وخالف الشافعي وابن القاسم

وأشهب مالكاً في كثير من المسائل. قال ابن الأزرق وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعي وقال: لا أحد أمنُّ عليَّ من مالك وكاد كلّ من أخذ العلم عنه أن يخالفه بعض تلامذته في عدة مسائل وما عُدّ ذلك من سوء أدب التلميذ مع شيخه ولا من الخروج عن مراجعة الحق الذي توزعته عقول الناس ونال كلٌّ منهم قسطاً منه.

روى ابن جرير عن أبي مخنف عن الصقعب بن زهير عن الحسن قال: أربع خصال كنَّ في معاوية لو لم يكن فيه منهنَّ إلا واحدة لكانت موبقة؛ انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزّها أمرَها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً وقد قال رسول الله (ص) الولد للفراش وللعاهر الحجَر، وقتله حِجراً ويلاً له من حِجر وأصحاب حجر مرتين، روى ابن جرير هذا وما عدَّ من الشيعة.

ورأى المنذر بن سعيد أرجوزة لابن عبد ربه يذكر فيها الخلفاء ويجعل معاوية رابعهم ولم يذكر علياً فيهم ثم وصَلَ ذلك بذكر الخلفاء من بني مروان إلى عبد الرحمن بن محمد، فلما رأى ذلك منذر غضب وسب ابن عبد ربه وكتب في حاشية الكتاب:

أو ما عليّ لا برحت ملعناً يا ابن الخنيثة عندكم بإمامِ

رب الكساء وخير آل محمد داني الولاء مقدَّم الإسلامِ

قال هذا منذر بن سعيد قاضي الجماعة بالأندلس وما عُدَّ شيعياً. وكم في تاريخ السلف من أمثال هذه الأنباء التي تدلّنا على مبلغ حرية القوم وأن الحق مشاع ليس وقفاً على فئة وأن التقيد برأي واحد أو عدة آراء ولاسيما في المسائل العلمية ليس من السداد في شيء بل هو سبب عظيم من أسباب انحطاط العلم في الشرق.

العلم الصحيح

قالوا: العِلم علمان علم الأبدان وعلم الأديان أو دنيوي وديني فالدنيوي عِلم ما فيه صلاح المعاش وحفظ النظام في عالم الكون والفساد، والديني كل ما له مساس بالمعاد وتهذيب النفس والابتعاد عن المنكرات في هذه الفانية للظفر بالباقيات الصالحات في تلك الدار الباقية.

كان العلم الديني لأول أمره موجزاً مندمجاً لم يتعدّ قواعد مقررة وأصولاً نافعة، فكان العربي يقصد الرسول عليه السلام يعلّمه الدين في ساعة ثم يحيله على القرآن ويقول له اذهب راشداً وبشر عشيرتك وأهلك فقد عرفت من الدين جوهره وسره وما ينبغي له. فمن ثم دام الإسلام إلى السذاجة حتى قامت قائمة العصبيات من أجل التنازع على الملك وتجاذُب حبل السلطة فمزُج الدين بالسياسة ودخَل في الإسلام من لا يهمه منه غير المغانم وراح بعضهم يدسّون ما لم يُقل فيما قيل وكثر المنافقون ممن سعوا بالدين في سرّهم وهُم من اتباعه في جهرهم وأنشؤوا يلبسون ثياب الأصدقاء وهم له أعداء ماكرون دسوا عوامل إفسادهم وفي القوم يومئذٍ صفوة من الأخيار توفّروا على محاربة البدع والموضوعات بكل لسان وبنان بل بكل سيف وسنان وكانوا على إخلاصهم وتأثيرهم كلما استأصلوا شأفة فاسد نبض من الأفسد نابض، ورجال السياسة وأكثرهم لا يرجع في الغالب إلى رأي ومذهب يُدهنون من وراء ذلك لحمَلة الدين ويبذلون لهم ما يستغوونهم به لينطقوا بألسنتهم ولا يفسدوا عليهم أمرهم إذا رفعوا أصواتهم ونعوا عليهم تبديلهم لما أُنزِل وإلصاقهم به ما ليس منه. ولما رأى العقلاء عائث الفساد يدب دبيبه في علوم المعاد خافوا أن يتدرج من العبث بالأعراض إلى العبث بالجواهر فلم يروا بداً من التدوين والتقييد والدلالة على مواضع الضعف والسخف ليبدو السليم لا شائبة فيه. وأنت خبير بما يقتضي ذلك من التطويل دع عنك ما يتخلله بالطبع لأن في القائمين به العالم العامل وفيهم صاحب البدعة والمقالة.

مضى على هذه الحال ردح من الزمن وعلوم الدين لم تمتزج بشيءٍ من علوم الدنيا إلى أنْ دخلت علوم الحضارة في الملة وسمّوها علوم الأوائل ورأت من بعض خلفائنا من أخذ بيدها وهيأ لها أسباب انتشارها فعندها كثُرت المذاهب والآراء ونشأ العراك الأول بين العلوم الدينية والعلوم الدنيوية أي بين الدين القائم بالتسليم وبين الفلسفة المبنية على البرهان.

وظلّت حال العلم الديني تابعة لمجرى السياسة إن جاء عاقل من الأمراء والملوك يكِلُ أمرَه لجهابذة من المحققين ينظرون فيه وهم مؤتمنون مأمونون وإذا ولي رقاب الناس جاهل ينزل نفسه في كل المنازل فيتولى من الخلق أمور دنياهم ودينهم ويقرّب إليه كل من يتابعه على أهوائه ولا ينكر عليه فعلاته، والعقلاء بمعزل لا ينطقون إلا كارهين وربما تدرعوا الخمول وآثروا الانقطاع على الدخول في المجتمع لامحاضِه النصح وتخليصه من المفاسد الطارئة عليه. نعم أن التاريخ لم يخل من وجود عقلاء في كل دور من أدواره ولكن قوتهم ضئيلة لا تنفع وصوتهم خريد لا يُسمع إذا نَسَبْتهم لأولئك المنافقين في خدمة الآمرين والناهين وقد قلّ عددهم كثيراً في هذه الديار خصوصاً بعد الدولتين النورية والصلاحية وصار العِلم أشبه بتقاليد ورسوم منه بعلم وعمل ومناطق ومفاهيم.

وما فتئت العادات يتخيلها بعضهم من الدين ويدسونها فيه وللجهل الكلمة النافذة في الهيئة الاجتماعية إلى أن كان القرن التاسع والعاشر وما يليهما من قرون الهجرة وهي من العصور المظلمة في تاريخ الإسلام حقيقةً فعندئذ قلّ المميّز والمفكّر وبطلت علوم الحكمة جملة واحدة وصار من يتعاطاها في نفسه وبين خاصته كمن يأتي أمراً إدّاً ويخون دينه وأمّته وبطَل النظر في الأصول وتحتّمَ على كل عقل أن لا ينظر في غير الفروع مما أملته خواطر المتأخرين. فأصبح بذلك يعّد العالِم كل العالم من يحفظ من هذه الفروع أكثر. اعتبِر ذلك بما تتلوه في تراجم أعيان العلماء في هذه القرون فإنك لا تراها تتعدى الأقوال والآراء وأهل كل جيل يقدسون قول من سلفهم ولو ببضع سنين. نعم إنك لو أنصفت لا تكاد ترى لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والخلاص من التقليد البحت ولقد أتت أيام في معظم الأصقاع الإسلامية حُرّمَ النظر فيها حتى في الكتاب والسنة وعد الناظر فيهما محاولاً للخروج عن سنن الجماعة فإذا خالف فردٌ ما ألفوه أهانوه ومن قاوم بفكره سجنوه أو نفوه وشردوه وإذا خافوا بأسه قتلوه وجعلوه عبرة ومثلاً للآخرين.

تأصلت الأوهام فعُدّت من أقدس القربات وسار الناس مع تيار الجهل وتقديس أقوال أدعياء العلم والتقوى وصدرت الأحكام بعوامل الأوهام وغدت هذه البلاد كبرج بابل في التبلبل والتشويش

اتخذت كل منها لها أئمة وأولياء وأنشأت تكبّر أمرهم وتدّعي لهم مقاماً ما ادّعوه لأنفسهم وراح الفقيه يكفّر الصوفي والصوفي ينقم على الحديثي والأصولي يحمِل على الفروعي واشتغل أهل كل قطر بل أهل كل مصر بتقديس من تواطؤوا على تقديسهم والطعن فيمن عداهم ممن لم يصوَّروا لهم بالصورة المناسبة لِما وقر في نفوسهم وركَزَ في طبائعهم وعشّشَ في مخيلاتهم. وهكذا امتزجت علوم الدين بالمشاغبات والمماحكات لو بُعث الشارع وأصحابه لرأوا الاختلاف بين ما ورد وما صار إليه مستحكماً بعيد الأطراف يصعب الجمع بينهما كما يصعب الجمع بين النقيضين. ماذا أَصِفُ مِن تسرب الجهل إلى العبث بالعقول في تلك القرون وأنك لترى أثراً من آثاره لهذا العهد عند بعض من فطموا أنفسهم عن النظر في المعقولات منا فترى كلمات التضليل والتكفير والتبديع والتفسيق أسرع إلى أفواههم من الماء إلى الحدور وتشهد الغر الغمر يتحكم بالجنة فيعطيها لمن يشاء ويحرمها من يشاء فوا رحمتاه على أناس أضاعوا فضل عقولهم في الجدل ولكم كان الخير يأتي من جهتها لو اشتغلت بالمفيد ونبذت الأهواء ظهرياً ولكن إذا أراد الله بقوم سوءً رزقهم الجدل ومنعَهُم العمل.

قلت فيما سلف أن علوم الدنيا دخلت في الملّة لما رأت من يعضدها من رجال السياسة وكان ذلك في القرن الثاني. بيد أنها لم تنتشر الانتشار المطلوب إلا في القرن الثالث. شاعت قرنين ثم أخذت تضعف إلى أواخر القرن السابع أيام قلّ المشتغلون بها ولو على طريقة نظرية بعلوم العقل التي لا قائمة لأمة بدونها مهما أخلصت في دينها. وإذا استفتيتَ تواريخهم تجد المتلبسين بشعار العلماء لا يعدّون في جملتهم ذاك الرياضي والجغرافي وربما فضّلوا عليهما المعمار والثرثار. من أجل هذا نرى المدارس على تفنّنِ القوم في إنشائها بعد القرون الوسطى فنازلاً خاصة بالفقيه والمحدث والقارئ والرباطات للمجذومين والمعدمين والكسالى ولم نجد مدرسة اللهم إلا بعض مدارس الطب موقوفة على الرياضيين والطبيعيين والفلكيين والمؤرخين كأنّ علومهم هذه أباطيل لا تصح الإعانة عليها وحسبُ الرياضي أن يغضي الفقيه عنه ما دامت الحال بين هبوط وصعود والأجدر بها أن تُدعى سقوطاً إلى منتصف القرن الماضي أيام أخذَ السلطان عبد المجيد في البلاد العثمانية ومحمد علي باشا في هذا القطر يسهّلان السبل لهذه العلوم ويعدان أهلها في مصاف العلماء وأنشئت المدارس لتعليمها وغدا المشتغلون بالعلوم الدنيوية حزباً والمتوفرون على تعليم العلوم الدينية حزباً آخر، على أنه لم تُحمد عودة تلك العلوم الدنيوية التي سماها بعضهم عصرية وبعضهم دعاها حديثة لما نتج عنها من حركة كانت أشبه برد فعل ماثلت الأمة معها صائماً أخذ منه الجوع

فلم يجد ما يُطعَمه حتى ساقته الأقدار إلى مائدة مترف موسر وقد حوت ما طاب وحلا من صنوف الأطعمة والحلواء، فأخذ يلتهم ما وصلت يده إليه بدون تروٍ ويزدرده بلا مضغ ويمزج بارده بحارّه وحلوَهُ بحامضه ويؤخّر ما يقتضي تقديمه ويقدّم ما يحسن تأخيره. ونشأت ناشئة لم تدرِ مِن العلم الحقيقي غير قشوره، شربت مصة من مورده ظنّتها غاية ما يرتوي به المرتوون وراحت تعد المروق غاية النور والإزراء على النبوات من آيات الحكماء والطعن بالشرائع من عمل الجهابذة النحارير وإنكار القديم مهما كان نفعه والتعلق بالحديث مهما ضؤل قائله من دواعي النهوض والاستنارة. وعلى الجملة ينبذون كل ما ليس لهم به علم من تراث أجدادهم حاسبين الصحيح منه والسقيم في مقام واحد مماحكين ولو بان لهم الراجح من المرجوح.

يقول فتية اليوم أنه لا نجاح للأمة إلا بنبذ ذاك القديم مباشرة والأخذ بهذا الحديث على علّاته، وفاتَهم أن ما يسوغ في الغرب لا يتمّ في الشرق، وأن لكل أمة طبيعة ومنازع لا مناص من مراعاتها، وأن إقامة مدينة جديدة في بادية أسهل من إصلاح مدينة قديمة لا غنية عن البناء فيها، وأن من العقل أن لا يُنبذ ذاك القديم بل يُرجع فيه إلى الأصل القليل ويؤخذ النافع منه ويُترك ما عدا ذلك من تخريف المخرّفين وضلالات المبتدعين، والأخذ من هذا الحديث بالعلم الصحيح الذي تمس إليه الحاجة وإطلاق الحكم للعقل يعمل معمله في طريقه.

العلم الصحيح هو الذي يبعث صاحبه على عمل النافع ولو كان في ذلك ضياع مصلحته الشخصية فلا يبالي حامله بغضب الرؤساء والزعماء ولا يستغويه رضى الغوغاء والدهماء؛ يتجشم المخاطر في نشر خاطر، ويركب كل صعب وذلول لإنارة مظلمات العقول.

العلم الصحيح هو الذي خلص من ضغط الأهواء السياسية والمذهبية وسلَم من التأثيرات والغايات فلقنه صاحبه بريئاً من شوائب النزعات والنزغات وأثّر في نفسه تأثيراً مجرداً، فإذا نطق بعده فلا ينطق إلا بما يوحي إليه هاتف الفهم السليم والعقل الحكيم، فلا يتعصب للآباء والجدود ومألوفات المحيط وعادات الأهل والإقليم، ويتحزب لشيخه وأستاذه ولو تجلى له أنهما عن طريق الحق ناكبون.

العلم الصحيح هو الذي يَحترم صاحبه به آراء غيره ولو كانت مباينة لأفكاره كل المباينة ولا يعدها سخافات وترهات فينكر كل ما لا يَعلم ويستكثر ما وعى.

ولا يعد حطّة عليه أن يتسقط الحكمة إن وجدها وفي أي المظاهر ظهرت فيأخذ نفسه بالتعلم ولو شاب وجاوز الثمانين.

العلم الصحيح هو الذي تكون نتائجه أكثر من مقدماته وفروعه خيراً من أصوله يأخذ له حامله من نفسه فلا يتكبر عن إفادة ولا يستنكف من استفادة ويسعى إلى بثّ ما يعرِف في كل أفق ويعدّ البشر أخوة فلا يقصر في تعليمهم مما علم يقين أنّ إصلاح الأفراد سلّمٌ للوصول إلى إصلاح الجماعة والمصلحة العامة هي أبداً موضوع نظر من رُزقَ حظاً من هذا العلم.

العلم الصحيح هو الذي يربي الملَكات ويهذّب النفوس فلا يستخدم صاحبه علمَه أداة للغلبة بالباطل والإدلال على الأقران والذهاب بفضل الشهرة والمحمدة الزائلة والتبجح والتنطس فامنح اللهم بفضلك هذه الديار شيئاً من هذا العلم وكثِّر فيها سواد أهله بمنِّك وحُسن تسديدك.

التفسير والمفسّرون

التفسير من العلوم التي قارنت ظهور الإسلام ونزول القرآن على النبي (ص) إذ كان ما من آية تنزل على النبي (ص) إلا ويفسرها لأصحابه إلا أنه تأخر تدوينه إلى عصر تابعي التابعين استغناءً بالحفظ عن الكتابة ولندرة الكتّاب فيهم مع اشتغالهم كافة بالحروب لنشر الدعوة الإسلامية ثم دُوّنَ على ما ستراه بعد هذا.

فالمفسرون من الصحابة: الخلفاء الأربعة وأبي بن كعب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبو موسى الأشعري وعبد الله بن الزبير وابن عمر وأنس بن مالك وأبو هريرة وجابر وعبد الله بن عمرو بن العاص.

وأكثر من نروي عنه في التفسير من الخلفاء الأربعة علي رضي الله عنه لتأخر وفاته، وابن مسعود روي عنه أكثر مما روي عن علي لاشتغال علي بالخلافة ومحاربة الخوارج وغير ذلك، وأما ابن عباس حَبر الأمة وعالمها وترجمان القرآن فقد روي عنه في تفسير كتاب الله ما لا يحصى كثرة وأحسن الطرق عنه طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي المتوفى سنة ثلاث وأربعين ومائة وعليها اعتمد البخاري في صحيحه، وطريق قيس بن مسلم الكوفي المتوفى سنة عشرين ومائة عن عطاء بن السائب، وطريق اسحق صاحب السيرة، وأوهى طريقة طريقة الكلبي عن أبي صالح والكلبي هو أبو النصر محمد بن السائب الكلبي المتوفى سنة ست وأربعين ومائة فإن انضم إليه رواية محمد بن مروان السدي الصغير فذلك سلسلة الكذب. ومن الطرق الواهية عنه طريق مقاتل بن سليمان الأزدي المتوفى سنة خمسين ومائة إلا أن الكلبي يفضّله لما في مقاتل من المذاهب الرديئة، وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطعة فإن الضحاك لم يلقَه فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة فضعيفة لضعف بشر وإن أخرج له ابن جرير وابن أبي حاتم وإن كان من

رواية جرير عن الضحاك فأشد ضعفاً لأن جريراً شديد الضعف متروك الحديث ولذلك لم يُخرج له ابن جرير في تفسيره.

هذه طرق تفسير ابن عباس جيّدها ورديئها نقلناها برمّتها وميزنا غثّها من سمينها لئلا يغترّ كلّ أحد بنسبتها إلى ابن عباس فإن لابن عباس منزلة في تفسير القرآن لا تضارع، وليس كل من روى عنه شيئاً محقاً في روايته بل فيهم الضعيف والكذاب فينبغي لمن نقل له شيءٌ عن ابن عباس في التفسير أن يتبين الطريق التي روي له منها فإن كانت من الطرق الجيدة اعتمدها وإلا ردّها.

وأما أبيّ بن كعب المتوفى سنة عشرين فعنه في التفسير نسخة كبيرة يرويها أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية عنه وهذا الإسناد صحيح ولا أعلم لها وجوداً إلى يومنا هذا. وأما مفسرو التابعين فمنهم مجاهد بن جبر المكي المتوفى سنة ثلاث ومائة قال عرَضتُ القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، وعلى تفسيره اعتمد الشافعي والبخاري ومنهم سعيد بن جبير المتوفى سنة أربع وتسعين وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة خمس ومائة وعطاء بن أبي رباح المتوفى سنة أربع عشرة ومائة وطاوس بن كيسان المتوفى سنة خمس ومائة، وهؤلاء كلهم أصحاب ابن عباس والآخذون عنه.

ومنهم علقمة بن قيس المتوفى سنة اثنتين ومائة والأسود بن يزيد المتوفى سنة خمس وسبعين وإبراهيم النخعي المتوفى سنة خمس وتسعين والشعبي المتوفى سنة خمس ومائة وهؤلاء أصحاب ابن مسعود، ومنهم عبد الرحمن بن يزيد ومالك بن أنس والحسن البصري وعطاء الخرساني ومحمد بن كعب القرظي المتوفى سنة سبعة عشر ومائة وأبو العالية رفيع بن مهران المتوفى سنة تسعين والضحاك بن مزاحم وعطية بن سعيد المتوفى سنة إحدى عشرة ومائة وقتادة والسري الكبير والربيع بن أنس.

ثم جاء بعد هؤلاء طبقة دوّنوا التفاسير وجمعوا فيها بين أقوال الصحابة والتابعين كسفيان بن عيينة ووكيع ابن الجراح وشعبة ابن الحجاج ويزيد بن هرون وعبد الرزاق وآدم بن أبي إياس واسحق بن راهويه وروح بن عبادة وعبد الله بن مجيد وأبو بكر بن أبي شيبة.

ثم جاء بعد هذه الطبقة طبقة أخرى حذت حذو التي قَبلها إلا أنها اتّسعت في الرواية والطُرق التي جاءت الرواية منها كابن جرير وعلي بن أبي طلحة وابن أبي حاتم وابن ماجة والحاكم وابن

مردويه وابن المنذر وغيرهم.

ثم انتصب من بعد هذه الطبقة طبقة أخرى فألّفوا تفاسير مشحونة بالفوائد وأقاويل الصحابة والتابعين إلا أنها محذوفة الأسانيد كأبي اسحق الزجاج وأبي علي الفارسي وعلي بن أبي طلحة وأبي العباس المهدوي، وحذا حذوهم أبو جعفر النحّاس وأبو بكر النقّاش إلا أنهما اقتصرا فاستدرك الناس عليهما.

ثم ألّف في التفسير طائفة من المتأخرين عن هؤلاء فاختصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال بتراً فدخل من هنا الدخيل والتَبسَ الصحيح بالعليل ثم صار كل من نَسخ له قولٌ يورده ومن خطر بباله شيءٌ يعتمده ثم تناقل المؤلفون ذلك خلفاً عن سلف واعتمدها الناس واندرست كتب الأئمة لعدم الباحث عنها فاندرست كتب التفسير وعلم التفسير ولم يبق في أيدي الناس شيءٌ مما يصحّ الوقوف به والاعتماد عليه. قال السيوطي رأيت في تفسير قوله تعالى غير المغضوب عليهم نحو عشرة أقوال مع أن الوارد عن النبي (ص) والصحابة والتابعين ليس غير اليهود والنصارى حتى قال ابن أبي حاتم لا أعلم لذلك خلافاً لأَحد.

ثم نبغ بعد هؤلاء قوم نبغوا في بعض العلوم فكل واحد منهم ملأ تفسيره بما غلب على طبعه من الفنون واقتصر على ما تمهّر فيه كأن القرآن أنزل لأجْل هذا العلم فقط فالنحوي ليس له إلا تكثير وجوه الإعراب وإنْ كان بعضها بعيداً ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر والأخباري ليس له إلا القصص والأخبار عمن سلف من الأمم حقاً كان ذلك أو باطلاً كالخازن والبقلي. والفقيه يورد الأحكام الفقهية وربما استطرد إلى ذِكر أدلتها وردّ كلام المخالفين فيها إلى غير ذلك مما لا ارتباط له بعلم التفسير بوجه من الوجوه كما فعل القرطبي في تفسيره وصاحب العلوم العقلية يشحن كتابه بأقوال العلماء والفلاسفة ومناظراتهم والرد عليهم كما فعل فخر الدين الرازي في تفسيره الكبير.

وصاحب البدعة من أهل كل مذهب يملأ كتابه ببدعه ويؤول كل ما يمكنه تأويله من آي القرآن للاستدلال به على بدعته، فإن عرَضَ له من الآيات ما يخالف بدعته عمَدَ لصرفها عن ظاهرها واختلق لها معنى لا يعارض بدعته ولا يبطلها وإن لم يكن بيده حُجّة على تأويل القرآن وصرفه عن ظاهره الذي كلّف الناس بالعمل به غير مخالفته لبدعته التي يرى أنها الحق الصراح وأن نصوص الشرع وإنْ خالَفَتْها يجب أن تُرَدَّ بالتأويل إليها.

وهذه طريقة عامة المفسرين من أهل الكلام كُلّ واحد منهم يستدل بالآية على ضدّ ما يستدِلُّ بها مخالفهُ عليه، ومن قرأ تفاسيرهم رأى كيف يغلب حُبّ النَفْس على الإنسان فيخرج به إلى نقض أساس دينه وتشويه محاسنه ويرحم الله أبا العلاء حيث يقول:

وكم من فقيه خابط في ضلالةٍ   وحجّته فيها الكتاب المنزلُ

والملحد يشحن كتابه بالكفر والخرافات وأنواع الإلحاد ويجعل القرآن حجّة على كفره ويؤول النصوص القرآنية للوصول إلى هذا الغرض، كما فعل أهل التفسير من المتصوفة ومن قرأ تفاسيرهم لم يصدّق أن القرآن أُنزل بلسان عربي مبين. وأكثر الناس يقرؤون كُلّ ما يبصرون، ويعتقدون كل ما يقرؤون لا يفرقون في الأقوال بين حق وباطل، ولا في الرجال بين مسلم ومبتدع وملحد والأمر لله العلي الكبير.

ومُجمل القول في علم التفسير أنه مهجور بين الطلاب طلاب العلوم الشرعية في الممالك الإسلامية كلها وأن من نظر منهم في كتاب من كُتبِهِ نظرة من غير قصد أو بقصد لا يصحبه شيء من الاعتناء والاهتمام وعنايتهم بالدواوين الشعرية على أنهم لا يتعاطون نظمه ولا يحسنون لو تكلفوه فوق اعتنائهم بعلم التفسير أضعافاً مضاعفة. والذي يقرؤون شيئاً من كتب التفسير يشتغلون بكل شيءٍ سوى التفسير فيضيع المقصود من الفن فيما بين تلك المباحث التي لها أول وليس لها آخر.

والذي ينظر فيما طبع من نحو قرن في مصر وهي محط رجال العلوم الدينية وكعبة العلوم التي يفِد إليها الحجاج من جميع الآفاق والقدوة لجميع أهل الأمصار يرى العجب العجاب. يرى أن الذي طبع منها إلى الآن تفسير الجلالين بحاشية الصاوي وبحاشية الجمل، البيضاوي بحاشية الشهاب، الكشّاف بقطعة من حاشية السيد، تفسير فخر الدين الرازي، تفسير أبي السعود، النسفي، تاج التفاسير، ابن جرير الطبري طُبع من نحو سنتين فقط، الدر المنثور للسيوطي، تفسير ابن عباس وبعض تفاسير ضئيلة.

هذه هي كتب التفاسير التي تتداولها أيدي الناس اليوم وهي التي يعتمد عليها طلاب العلوم الشرعية في تفسير كتاب الله جل شأنه والوقوف على المراد منه.

فأما تفسير الخازن وهو أكثر كتب التفاسير تداولاً وأعظمها انتشاراً بين عامة المسلمين وطَلبة العلوم الشرعية فهو الكتاب الذي يقف القلم حائراً عند وصفه لا يدري ما يقول فيه وما الذي

يحذّر به المسلمين منه، وخير ما يقال فيه أنه مجموعة الأكاذيب ولا أرى إلا أنّ الإنسان لو جرد ما فيه من الأكاذيب الموضوعة على لسان رسول الله (ص) والأقاصيص الكاذبة التي وضعها اليهود كقصة بابل والغرانيق وإرم ذات العماد وغيرها لكانت فوق نصف الكِتاب وبعد ذلك فأشياءٌ إن لم تضر لم تنفع.

وهو على اشتماله على هذين الوصفين اللذين هما من أقبح أوصاف المؤلفات فهو العمدة لعامة المسلمين وأكثر طَلَبة العلوم الشرعية وأكثر انتشاراً بينهم. ولقد أرى أن نُسخَه التي نُشرت في مصر لا تقل عن مائة ألف نسخة فسَدَ بواسطتها عشرة أضعاف هذا العدد من المسلمين ودخَلَ عليهم في دينهم ما ليس منه من حديث موضوع وتفسير مفترى. ومن العجيب أنه لا يوجد في علماء الإسلام من ينهى الناس عن نَشر مثل هذه الكتب المفيدة للعلوم والشرائع المضرة بالأخلاق والعقائد، وقد لا يخلو بلد من بلاد الإسلام عن قوم من أهل العلم ولو قليلين يعرفون ما في هذه الكتب من المفاسد ولا يحظرون على الناس استعمال هذه الكتب لاتقاء شرها، بل ربما سئلوا عنها فأثنوا عليها خيراً مسايرة لأميال الناس عامة ومصانعة لهم فيما هو من أهم مهمات الدين.

وأما تفسير الجلالين بحاشيتيه الجمل والصاوي فهما يساويان تفسير الخازن انتشاراً وكثرة تداول إلا أن انتشار الخازن بين العوام أكثر وانتشار هذين بين الخاصة نعني طلاب العلوم الشرعية أكثر. فأما الشرح فهو غاية في الاختصار لا يمكن الاستقلال به في فهم كتاب الله تعالى مع علل فيه أُخر يعلمها من جمع بينه وبين بعض تفاسير المتقدمين الموثوق بها وبمؤلفيها، وأما حاشيتاه الضخمتان فهما من مؤلفات متأخري أهل العلم بمصر وحسبك هذا في معرفة منزلتيهما بين المؤلَّفات.

وأما الكشّاف ومختصره للقاضي البيضاوي فهما المشكلة التي لا تُحل إجمالاً وإغلاقاً وغموضاً، ولشدة عراقتهما في ذلك أكثرَ المتأخرون من تعليق الحواشي والشروح عليهما لبيان عباراتهما وتوضيح مقاصدهما حتى لو جُمعت الحواشي والشروح التي عليهما لأربت على ألف مجلدة وما ذكره صاحب كشف الظنون مما كتب عليهما قليل من كثير ولولا أنهما بحيث يخفيان إلا على من أَلِف حلَّ الرموز والطلاسم واستخراج المخبآت لم يعتن من جاء بعدهما بالتوسع في الكتابة عليهما والمبالغة في توضيح غوامضهما. وفوق هذا كله اشتمالها على مسائل كثيرة خارجة عن التفسير بالمَرّة لا ترتبط فيه بوجه من الوجوه كالمسائل الكلامية التي حَشَيا به كتابيهما وهي ليست

من فن التفسير ولا من متعلقاته، وإنما كان الغرض من ذكرها بيان معتقديهما والاستشهاد له بكتاب الله.

ويلحق تفسير أبي السعود بهذين التفسيرين فإنه صورة أخرى لهما مع بعض تغييرات قليلة جداً، ويلحق تاج التفاسير بتفسير الجلالين ونسبته إليه كنسبة تفسير أبي السعود إلى تفسيري الكشاف والبيضاوي وإن اختلف عنه فيسيراً.

وأما تفسير فخر الدين الرازي وهو كتاب العامة والخاصة وعُمدة الناس في هذا الموضوع فأبو حيان المفسّر يقول في تفسيره: تفسير الإمام فخر الدين فيه كل شيءٍ إلا التفسير. وما أحسن ما ترجم به أبو حيان هذا التفسير الكبير بل البحر العميق ولقد يفتح الإنسان جزءاً من أجزاء هذا التفسير للمراجعة والكشف فيه عن آية من آي كتاب الله فلا يشعر إلا وقد توسط بحراً لجياً لا يخلص الإنسان منه إلى ساحل. ويظهر مما كتبه الإمام فخر الدين في مقدمة كتابه أنه قد أودع كتابه كثيراً مما لا تعلّق له بعلم تفسير كتاب الله ولا ارتباط له.

ولقد رأينا لمتأخر من متأخري المصريين يدعى السحيمي حاشية على شرح عبد السلام على جوهرة التوحيد تقع في أربع مجلدات ضخام على أن الأمير وهو أطول باعاً منه في علم الكلام وأدق نظراً استوعب الكلام على شرح عبد السلام في مجلد صغير وكان في قدرة السحيمي أن يضيف إلى مجلداته الأربع أربعة أخر ولكن رأى أن الاقتصار على هذا المقدار كاف في البلاغ إلى ما قصده من البرهان على سعة اطلاعه.

وجاء الألوسي من متأخري أهل العراق فأخذ تفسيره من تفسير الإمام فخر الدين إلا أنه حذف منه كثيراً من الزوائد وأضاف إليه وأحسن غاية الإحسان شيئاً من أقوال سلف المفسرين ومتقدميهم، وإن لم يميز بين ما قوي سنده من هذه الأقاويل وما وهي، فبقي في الأمر بعض لبس وإشكال وأضاف إليه أيضاً جملة كبيرة من تفاسير المتصوفة.

وأما تفسير الدر المنثور للجلال السيوطي فقد زعم أنه اختصر به على حسب عادته تفسير ابن جرير الذي جمع فيه صحاح الأحاديث المتعلقة بتفسير كتاب الله تعالى وبيان أسباب النزول وأضاف السيوطي في مختصره أحاديث واهية الإسناد في هذا الموضوع نفسه ومزجها بتلك الأحاديث أحاديث الأصل فاختلطت بها حتى لا يمكن التمييز بينها وقلّت الثقة في الجميع.

وأما تفسير محيي الدين فهو مسخ للقرآن ونقض للدين من أساسه ويرى بعض الباحثين أنه ليس من مؤلفات محيي الدين وإنما هو من مؤلفات القاشاني أحد الملاحدة الباطنية نسبه لمحيي الدين وبين عوام المسلمين من يستميتون إلى ما يقوله محيي الدين مهما كان حاله. والظن بمحيي الدين أنه لا يضع مثل هذا الكتاب ولا يذهب هذه المذاهب الفاسدة في تفسير كتاب الله تعالى. وسواءٌ كان من مؤلفات محيي الدين أو غيره فإن انتشاره بين المسلمين بحت ضرر سيّما ولا موقف يوقف الناس على الصحيح والفاسد من هذه الكتب.

وأما تفسير ابن عباس فهو من مؤلفات مجد الدين الفيروز آبادي صاحب القاموس جمع فيه رواية محمد بن السائب الكلبي عن ابن عباس وقد علمتَ مما ذكرناه في المقدمة حال ابن السائب الكلبي وضعفه وقلة ثقة العلماء بمروياته.

هذه كتب التفسير التي نقرأها اليوم وإن كان قد فاتنا ذكر شيءٍ منها فإنه لا يخرج عن مضارعة واحد من هذه الكتب التي ذكرناها فلم يبق بيدِنا ما يصحّ الاعتماد عليه والثقة به غير تفسير ابن جرير وهو الحسنة الوحيدة للمطابع الإسلامية بعد قرن وأكثر من ظهور المطابع في الممالك الإسلامية ولولا أنّ بعض أمراء الأعراب من سكان الجزيرة العربية راسل بعض تجار الكتب بمصر في شأنه وأعانه على ذلك بمساعدات جليلة لم يظهر له ظل في عالم المطبوعات اكتفاءً عنه بالخازن والجمل.

تسامح العظماء

يظنُّ من لا عَهد له بدَرس مشاهير رجال الإسلام أنهم كانوا جبابرة لا يُحسنون غير البطش والكَرّ والفَرّ، على أن الباحث في سيرهم يراهم من أشد الأمم حرصاً على ما فيه قوام عمرانهم، ولم يكن في قلوبهم غالباً شيء مما يقال له تعصب أو تحزب بل ساسوا رعاياهم سياسة العدل لم يحابوا ولم يداجوا فقدروا الكفاءات قدرها ولم يعتبروا في مصالحهم إلا أهل الغناء والعلم. وربما لا يصدّق الأغمار في هذه الأعصار لو قلنا لهم أنّ معاوية بن أبي سفيان اصطفى لنفسه ابن أثال النصراني من أطباء دمشق وأحسن إليه وكان كثير الافتقاد له والاعتقاد فيه. وصحب تياذوق الطبيب الحجاج بن يوسف الثقفي المتولي من جهة عبد الملك بن مروان وخدمه بصناعة الطب وكان يعتمد عليه ويثق بمداواته وكان له منه الجامكية الوافرة والافتقاد الكثير.

وخدَمَ جورجس بن جبرائيل الخليفة المنصور وكان عظيماً عنده رفيع المنزلة ونال من جهته أموالاً جزيلة والمنصور هو الذي يقال له الدوانيقي لبخله. وخدم بختيشوع بن جورجس هارون الرشيد وتميّز في أيامه وكان رئيس الأطباء كلهم في بغداد. وكان جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس حظياً عند الخلفاء رفيع المنزلة عندهم كثيري الإحسان إليه وحصّل من جهتهم من الأموال ما لم يحصّله غيرُه من الأطباء وكان مكيناً عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك أحبَّه مِثل نفسه وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب أعطاه الرشيد مرة من أجل مداواة إحدى حظاياه خمسمائة ألف درهم وأحبّه مثل نفسه وجعله رئيساً على جميع الأطباء. وأمر له المأمون مَرّةً بألف ألف درهم وبألف كرّ حنطة ورَدَّ عليه سائر ما كان قُبض منه من الأملاك والضياع وصار إذا خاطبه كنّاهُ بأبي عيسى جبرائيل وأكرمه زيادة على ما كان أبوه يكرمه وانتهى به الأمر في الجلالة إلى أن كان كلّ من تقلّد عملاً لا يخرج إلى عمله إلا بعد أن يلقى جبرائيل ويكرمه وكان عند المأمون مثل أبيه.

ووُجِد في خزانة بختيشوع بن جبرائيل مدرج فيه عمل بخطّ كاتب جبرائيل بن بختيشوع الكبير واصطلاحات بخطّ جبرائيل لِما صار إليه في أيام خدمته الرشيد وهي ثلاث وعشرون سنة يذكُرُ أنّ رزقَه كان من رَسْم العامة في كل شهر من الورق عشرة آلاف درهم، يكون في السنة مائة وعشرون ألف درهم، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألفا ألف وستمائة وستون ألفاً، ونُزله في الشهر خمسة آلاف درهم يكون في السنة ستون ألف درهم، في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف وثلثمائة وثمانون ألف درهم، ومن رسم الخاصة في المحرَّم من كل سنة من الورق خمسون ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم، ومن الثياب خمسون ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم. تفصيل ذلك: القصب الخاص الطرازي عشرون شقة، الملحّم الطرازي عشرون شقة، الخز الصوري عشر شقاق، الخز المبسوط عشر شقاق، الوشيّ اليماني ثلاثة أثواب، الوشي النصيبي ثلاثة أثواب، الطيالسة ثلاثة طيالس، ومن المسور والفنك والقماقم والدلق والسنجاب للقبطين. وكان يُدفع إليه في مدخل صوم النصارى في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم، وفي يوم الشعانين من كل سنة ثياب من وشي وقصب وملحم وغيرهم بقيمة عشرة آلاف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة مائتا ألف وثلاثون ألفاً، وفي يوم الفِطر في كل سنة من الورق خمسون ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألف ألف ومائة وخمسون ألف درهم، وثياب قيمة عشرة آلاف درهم؛ على الحكاية يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة مائتا ألف وثلاثون ألف درهم.

ولفصد الرشيد دفعتين في السنة كل دفعة خمسون ألف درهم من الورق مائة ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألفا ألف وثلثمائة ألف درهم. ولشرب الدواء دفعتين في السنة كل دفعة خمسون ألف درهم مائة ألف درهم يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ألفا ألف وثلثمائة درهم. ومن أصحاب الرشيد على ما فصل منه مع ما فيه من قيمة الكسوة وثمن الطيب والدواب وهو مائة ألف درهم من الورق أربعمائة ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة تسعة آلاف ألف ومائتا ألف درهم. تفصيل ذلك عيسى بن جعفر خمسون ألف درهم، زبيدة أم جعفر خمسون ألف درهم، العباسة خمسون ألف درهم، إبراهيم بن عثمان ثلاثون ألف درهم، الفضل بن الربيع خمسون ألف درهم، فاطمة أم محمد سبعون ألف درهم. كسوة وطيب ودواب مائة ألف درهم، ومن غلة ضياعه بجند يسابور والسوس والبصرة والسواد في كل سنة قيمته بعد المقاطعة ورقاً ثماني مائة ألف درهم،

يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ثمانية عشر ألف ألف وأربعمائة ألف درهم، ومن فضل مقاطعته في كل سنة من الورق سبعمائة ألف درهم، يكون في مدة ثلاث وعشرين سنة ستة عشر ألف ألف ومائة ألف درهم، وكان يصير إليه من البرامكة في كل سنة من الورق ألفا ألف وأربعمائة ألف درهم. تفصيل ذلك: يحيى بن خالد ستمائة ألف درهم يكون في مدة ثلاث عشرة سنة أحد وثلاثين ألف ألف ومائتي ألف درهم، يكون جميع ذلك مدة أيام خدمته للرشيد وهي ثلاث وعشرون سنة وخدمته للبرامكة وهي ثلاث عشرة سنة سوى الصلات الجسام فإنها لم تذكر في هذا المدرج من الورق ثمانية وثمانين ألف ألف درهم وثمانمائة ألف درهم، منها خمسة وثمانون ألف ألف درهم ثلاثة آلاف ألف وأربعمائة ألف درهم.

التذكرة: الخراج من ذلك ومن الصلات التي لم تذكر في النفقات وغيرها على ما تضمنه المدرج المعمول من العين تسعمائة ألف دينار، ومن الورق تسعون ألف ألف وستمائة ألف درهم. تفصيل ذلك ما صرفه في نفقاته وكانت في السنة ألفي ألف ومائتي ألف درهم على التقريب وجملتها في السنين المذكورة سبعة وعشرون ألف ألف درهم وستمائة ألف درهم ثمن دور وبساتين ومتنزهات ورقيق ودواب والجمازات سبعون ألف ألف درهم ثمن آلات وأجر وصناعات وما يجري هذا المجرى ثمانية آلاف ألف درهم. ما صار في ثمن ضِياع ابتاعها لخاصته اثنا عشر ألف ألف درهم. ثمن جواهر وما أعده للذخائر عن قيمة خمسمائة ألف دينار خمسون ألف ألف درهم. ما صرفه في البِرّ والصلات والمعروف والصدقات وما بذل به خطه في الكفالات لأصحاب المصادرات في هذه السنين المقدم ذكرها ثلاثة آلاف ألف درهم. وما كابره عليه أصحاب الودائع وجحدوه ثلاثة آلاف ألف درهم. ثم وصّى بعد ذلك كله عند وفاته إلى المأمون لابنه بختيشوع وجعل المأمون الوصي فيها فسلَّمها إليه ولم يعترض في شيء منها عليه بتسعمائة ألف دينار. ولا عجب فيما قاله فثيون الترجمان أن جنس جورجس وولده كانوا أجمل أهل زمانهم بما خصهم الله به من شرف النفوس ونبل الهمم ومن البِرّ والمعروف والأفضال والصدقات وتفقُّد المرضى من الفقراء والمساكين والأخذ بأيدي المنكوبين والمرهوقين على ما يتجاوز الحد في الصفة والشرح.

وبلغ بختيشوع بن جبرائيل من عِظَم المنزلة والحال وكثرة المال ما لم يبلغه أحد من سائر الأطباء الذين كانوا في عصره وكان يضاهي المتوكل في اللباس والفَرَس وبلغ من كمال المروءة ومباراة الخلافة في الزي واللباس والطيب والفرش والصناعات والتفسيح والبذخ في النفقات مبلغاً يفوق الوصف وكان أيضاً لطيف المحلّ من المهتدي بالله وشكا إليه ما أُخذ منه في أيام المتوكل لنكبة

وقعت عليه من هذا لفرط إدلاله عليه فأمر أن يَدخل إلى سائر الخزائن فكل ما اعترف به فليُردّ إليه بغير استئمار ولا مراجعة فلم يبق له شيء إلا أخذهُ وأُطلق له سائر ما فاته وحاطه كُل الحياطة.

وكان عبيد الله بن بختيشوع متصرفاً ولما ولي المقتدر الخلافة استكتبه لحضرته وبقي معه مديدة وصار ابنه جبرائيل من خاصة عضد الدولة بن بويه وكان يكرمه كثيراً ويغدق عليه المشاهرات ووصله الصاحب بن عباد بما قيمته ألف دينار وكان دائماً يقول صنفت مائتي ورقة أخذت عنها ألف دينار يعني بذلك الكناش الذي وضعه بأمر الصاحب في الأمراض التي تعرض من الرأس إلى القدم.

وكان عيسى المعروف بأبي قريش صيدلانياً أكرمه المهدي مرة ولم يزل يطرح عليه الخلع ويدر الدنانير والدراهم حتى علت رأسه وكنّاه أبا قريش أي أبا العرب. وخلف اثنين وعشرين ألف دينار مع نعمة سَنية. وكان عبد الله الطيفوري من أحظى خلق الله عند الهادي وزكريا بن الطيفوري كان من جماعة القائد أفشين كان منه إن امتحن الصيادلة في معسكره كما امتحن يوسف لقوة الكيميائيُّ زمن المأمون صيادلةَ بغداد. وكان إسرائيل بن زكريا الطيفوري جليل القدر عند الخلفاء والملوك كثيري الاحترام له وكان مختصاً بخدمة الفتح بن خاقان بصناعة الطب وله منه الجامكية الكثيرة والأنعام الوافر. وكان المتوكل بالله يرى له كثيراً ويعتمد عليه ولهُ عند المتوكل المنزلة المكينة وَجَدَ مرّةً على المتوكل لمّا احتجم بغير إذنه فافتدى غضبه بثلاثة آلاف ديناروضَيعةً تغُلّ له في السنة خمسين ألف درهم، وكان متى رَكِبَ إلى دار المتوكل يكون موكبه مثل موكب الأمراء وأجلاء القواد. وكان يزيد بن زيد بن يوحنا متطبب المأمون وخدَمَ إبراهيم بن المهدي وله من الإحسان الكثير والأنعام الغزير والعناية البالغة والجامكية الوافرة. وتقدم سابور بن سهل عند المتوكل وكان يرى له وكذلك عند من تولّى بعده من الخلفاء وكان عالماً بقوى الأدوية المفردة وتركيبها، وكان موسى بن إسرائيل الكوفي متطبب إبراهيم بن المهدي. وكان سلمويه بن بنان متطبب المعتصم اختاره لنفسه لمّا استخلف وأكرمه إكراماً كثيراً يفوق الوصف وكان يرد إلى الدواوين توقيعات المعتصم في السجلات وغيرها بخط سلمويه وكل ما كان يرد على الأمراء والقواد من خروج أمر وتوقيع من حضرة أمير المؤمنين فبخط سلمويه، وولّى أخا سلمويه إبراهيم بن بنان خزن بيوت الأموال في البلاد وخاتمه مع خاتم أمير المؤمنين ولم يكن أحد عنده مثل سلمويه وأخيه إبراهيم في المنزلة، وكان المعتصم يسميه أبي فلمّا اعتل سلمويه عاده المعتصم وبكى عنده فلما مات امتنع المعتصم من أكل الطعام يوم موته وأمر بان تُحضر جنازته الدار ويصلّى عليه

بالشمع والبخور على زي النصارى الكامل ففعل وهو بحيث يبصرهم ويباهي في كرامته وحزن عليه حزناً شديداً. وعالج إبراهيم بن أيوب الأبرش إسماعيل أخا المعتز وبرئ فأجازته أمه والمتوكل بست عشرة بدرة وكان أخصّ المتطببين عند المعتز لمّا أفضت الخلافة إليه. وكان جبرائيل كحال المأمون يدخل إليه في كل يوم عند تسليمه من صلاة الغداة فيغسل أجفانه ويكحل عينيه فإذا انتبه من قائلته فَعلَ مثل ذلك وكان يجري عليه ألف درهم في كل شهر.

وأجرى الرشيد على ماسويه أبو يوحنا ألفي درهم في الشهر ومعونة في السنة عشرين ألف درهم وعلوفة ونزل وألزمه الخدمة مع جبرائيل وكان لهذا في الشهر عشرة آلاف درهم ومعونة في السنة مائة ألف درهم وصلات دائمة وإقطاعات.

وخدم يوحنا بن ماسويه بصناعة الطب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل وكان له منهم الإنعام الكثير والمنزلة السامية وله عليهم دالّة الأقران على أقرانهم لا الخدم على مخدوميهم. وكان ميخائيل بن ماسويه متطبب المأمون وكان به معجباً وله على جبرائيل بن بختيشوع مقدماً حتى كان يدعوه بالكنية أكثر مما يدعوه بالاسم وكان لا يشرب الأدوية إلا مما تولى تركيبه وإصلاحه له. وبلغ حنين بن إسحاق عند المأمون منزلة عالية لأنه كان رئيس جماعة التراجمة لعهده وكانت له الإقطاعات الحسنة والجواري الجيد والإحسانات الفائضة وزادت مكانته كثيراً بعد خروجه من المحنة التي ألحقها به أعداؤه وأمر المتوكل الأطباء الذين طلبوا قَتْل حُنين وسعوا فيه لديه أن يحمل إليه كل منهم عشرة آلف درهم. وأمر أن يضاف إليها مثلها من خزانته فكان زهاء مائتي ألف درهم. قال حنين في كلامه على ذلك: ثم أن الخليفة أمر بإصلاح ثلاث دور من دوره التي لم أسكن قط منذ نشأت في مثلها ولا رأيت لأحد من أهل صناعتي مثلها وحمل إليها سائر ما كنت إليه محتاجاً من الأواني والفرش والآلة والكتب وما يشاكل ذلك بعد أن شهد لي بالدور وتوثق بشهادات العدول لأنها كانت خطيرة في قيمتها لأنها تقوّم بألوف دنانير فلمحبته لي وميله إليّ أن تكون لي ولعقبي ولا تكون عليّ حجة لمعترض فلما فرغ مما أمر به من الحمل إلى الدور وجميع ما ذكر وتعليقها بأنواع الستور ولم يبق غير المضي إليها أمر بحمل المال الضعف الكثير بين يدي وحملني على خمسة أرؤس من خيار بغلاته الخاصة بمواكبها ووهب لي ثلاثة خدم روم وأمر لي كل شهر بخمسة عشر ألف درهم وأطلق لي الفائت من رزقي في وقت حبسي فكان شيئاً كثيراً وحَمَل من جهة الخدم والحرم وسائر الحاشية والأهل ما لا يمكن أن يحصى من الأموال والخلع والإقطاع وحصّلت

وظائفي التي كنت آخذها خارج الدار من سائر الناس آخذها من داخل الدار وصرت المقدَّم على سائر الأطباء.

وخدم يوحنا بن بختيشوع بصناعة الطب الموفق بالله طلحة بن جعفر المتوكل وكان يعتمد عليه كثيراً ويسميه «مفرّج كربي». وحظي بختيشوع بن يوحنا من الخلفاء وغيرهم واختص بخدمة المقتدر بالله وكان له مِنه الإنعام الكثير والجواري الجيد والإقطاعات من الضياع وخدَمَ بعد ذلك الراضي بالله فأكرمه وأجراه على ما كان باسمه في أيام أبيه المقتدر.

اتصل ثابت بن قرة الحراني بالمعتضد وأدخله في جملة المنجمين وأقطعه ضياعاً جميلة وكان يجلسه بين يديه كثيراً بحضرة الخاص والعام ويكون بدر الأمير قائماً والوزير وهو جالس بين يدي الخليفة. قال أبو إسحاق الصابي وهو ممن حظي عند الأمراء أيضاً: إن ثابتاً كان يمشي مع المعتضد في الفردوس وهو بستان في دار الخليفة للرياضة وكان المعتضد قد اتكأ على يد ثابت وهما يتماشيان ثم نتر المعتضد يده من يد ثابت بشدة ففزع ثابت فإن المعتضد كان مهيباً جداً فلما نتر يده من يد ثابت قال له: يا أبا الحسن وكان في الخلوات يكنيه وفي الملأ يسميه: سهوتُ ووضعت يدي على يدك واستندتُ عليها وليس هكذا يجب أن يكون فإن العلماء يَعلون ولا يُعلَون.

وكان سنان بن ثابت بن قرة في خدمة المقتدر بالله والقاهر وخدَمَ أيضاً بصناعة الطب الراضي بالله. وكان ابنه ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة في خدمة الراضي بالله أيضاً وخَدَم بصناعة الطب المتقي بن المقتدر بالله والمستكفي بالله والمطيع لله. واتصل أبو الحسن الحراني ثابت بن إبراهيم بن زهرون بعضد الدولة وكان له منه الجاري السَني. وكان غالب طبيب المعتضد بالله وكان أولاً عند الموفَّق طلحة بن المتوكل وارتضع سائر أولاد المتوكل من لبن أولاد غالب فكان يُسرّ بهم، فلما تمكّن الموفَّق من الأمر أقطعه ونوله وأغناه وكان له مثل الوالد وعالج الموفق من سهم كان أصابه في ثندوته وبرىء فأعطاه مالاً كثيراً وأقطعه وخلع عليه، وقال لغلمانه من أراد إكرامي فليكرمه وليَصِل غالباً فوجّه إليه مسرور بعشرة آلاف دينار ومائة ثوب ووجّه إليه سائر الغلمان مثل ذلك وصار إليه مال عظيم، ولما قَبَضَ على صاعد وعبدون أُخذ لعبدون عدة غلمان نصارى مماليك فمن أسلم منهم أجري له رزق وتُرك ومن لم يُسلم منهم بعثه إلى غالب وكان عدد من أنفذ إليه سبعين غلاماً أزمة وغيرها فلما ورد عليهم معهم رسولٌ من قبل الحاجب قال غالب: أي شيء أعمل بهؤلاء؟ وركب من وقته إلى الموفَّق فقال: هؤلاء يستغرقون مال ضيعتي مع رزقي. فضحك الموفَّق

وتقدَّم إلى إسماعيل زيادة في إقطاعه الحرسيات وكانت ضياعاً جليلة تغل سبعة آلاف دينار وأوعدها له بخمسين ألف درهم في السنة وبعد الموفق طلحة خدم لولده المعتضد بالله أبي العباس أحمد وكان مكيناً عنده حظياً في أيامه وكان المعتضد يحسن الظن به ويعتمد على مداواته.

وخدم أبو عثمان سعيد بن غالب المعتضد بالله بصناعة الطب وحظي عنده وكان كثير الإحسان إليه والإنعام عليه. وعوّل الملوك على صاعد بن بشر في العلاج ولطالما حصّل له مال عظيم وحشمه الخليفة ووزيره وزكّاه وقدّمه على جميع من كان في زمانه. وكذلك ديلم داود بن ديلم خدم هذا المعتضد بالله في الطب وخصّ به فكانت التوقيعات تخرج بخط ابن ديلم لمحلّه منه ومكانته وكان يتردد إلى دور المعتضد وله منه الإحسان الكثير والأنعام الوافر. ومنهم أبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي كان منقطعاً إلى الوزير علي بن عيسى. ومنهم عيسى طبيب القاهر كان عمدته ويركن إليه ويفضي إليه بأسراره. وكان إسحاق بن شليطا خادماً بالطب للمطيع لله. وفنون المتطبب كان يختص بخدمة بختيار ويكرمه ويعده أمراً عظيماً. ونظيف القس الرومي استخدمه عضد الدولة في البيمارستان الذي أنشأه ببغداد وخلع عليه خلعاً سَنية. وكذلك أبو غالب بن صفية تقدم في زمن المستنجد بالله والمستضيء بأمر الله. وكذلك أمير الدولة بن التلميذ من رجال المستضيء بأمر الله وبلغت به الأنفة والغنى أنه كان لا يقبل عطيّة إلا من خليفة أو سلطان، مدحه السيد النقيب الكامل بن الشريف الجليل والشريف أبو يعلى محمد بن الهبارية العباسي بقصيدتين غراوين وذكر أفضاله وكماله كما مدح الشريف الرضي أبا إسحاق الصابي كثيراً وكان بينهما مودة أكيدة. وكذلك مدحه الطغرائي وابن جكينا وغيرهما كما مدح الشريف ابن الهبارية أبا الفرج يحيى بن صاعد بن التلميذ من أسرة أمير الدولة وكان له جماعة من الأنساب كل منهم متعلق بالفضائل والآداب.

ومنهم أوحد الزمان أبو البركات هبة الله بن علي بن ملكا البلدي اليهودي كان في خدمة المستنجد بالله. ومنهم أبو الخير المسيحي طبيب الناصر لدين الله. وابن نصر بن المسيحي حظيّهُ أيضاً أَمَرهُ هذا الخليفة عقيب برئه من مرض على يده أن يدخل دار الضرب ويحمل من الذهب مهما قدِر أن يحمله ففعل به ذلك، ثم أتته الخلع والدنانير من أم الخليفة ومن ولديه الأميرين محمد وعلي والوزير نصير الدين أبي الحسن بن مهدي العلوي الرازي ومن سائر كبار الأمراء بالدولة فحصّل من العين الدنانير عشرين ألف دينار ومن الثياب والخلع جملة وافرة وألزم الخدمة وفرضت له الجامكية السنية والراتب والإقامة. وكان أبو الفرج صاعد بن هبة الله بن توما طبيب نجم الدولة أبي اليمن نجاح الشرابي وارتقت به الحال إلى أن صار وزيره وكاتِبه ثم دخل إلى الناصر وكان

يشارك من يحضر من أطبائه في أوقات أمراضه ثم حظي عنده الحظوة التامة وسلم إليه عدة جهات يخدم بها وكان بين يديه فيها عدة دواوين وكتّاب قال ابن القفطي: إنه كان بمنزلة الوزراء واستوثقه الناصر على حفظ أموال خواصّه وكان يودِعها عنده ويرسله في أمور خفية إلى وزرائه ويظهر له في كل وقت.

وخدمَ أبو الحسين صاعد بن هبة الله بن المؤمل المسيحي بالدار العزيزة الناصرية الإمامية وتقرب قرباً كثيراً. وكسب بخدمته وصحبته الأموال وكانت له الحرمة الوافرة والجاه العظيم. ووصل أبو الحسن بن سوار المعروف بابن الخمار بالطب إلى أن قبّل له محمود الملك الأرض وكان الملك محمود عظيماً جداً. وتقدم أبو سهل المسيحي عند سلطان خراسان. وأجرى الرشيد على منكه الهندي رزقاً واسعاً وأموالاً كافية. وخدمَ إسحاق بن سليمان الإسرائيلي الإمام أبا محمد عبيد الله المهدي صاحب أفريقيا بصناعة الطب. وكان يحيى بن إسحاق الطبيب في صدر الدولة عبد الرحمن الناصر لدين الله الأندلسي واستوزره ووليَ الولايات والعمالات وكان قائد بطليموس زماناً وكان له من الناصر محل كبير كان ينزله منزلة الثقة ويتطلع على الكرائم والخدم. وهارون بن موسى الأشبوني خدم الناصر والمستنصر بصناعة الطب وإسحاق بن قسطار من أحبار اليهود خدَمَ بالطب الموفق مجاهداً العامري وابنه إقبال الدولة علياً. وحسداي بن إسحاق من أحبار اليهود أيضاً خدمَ بالطب الحكم بن عبد الرحمن الناصر لدين الله. وكان ابن بكلارش يهودياً من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب وخدمَ بها بني هود.

وحظي بليطيان الطبيب بطريرك الإسكندرية على النصارى الملكية في أيام الرشيد ووهب له مالاً كثيراً وكتب له منشوراً في كل كنيسة في يد اليعقوبية مما أخذوها وتغلبوا عليها أن تُرَدّ إليه فرجع بليطيان إلى مصر واسترد من اليعقوبية كنائس كثيرة. وخدمَ إبراهيم بن عيسى بالطب الأمير احمد بن طولون وكذلك سعيد بن توفيل. وكان إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس في خدمة الحاكم بأمر الله ويعتمد عليه في الطب. وكان موسى بن العازار في خدمة المعز لدين الله العلوي وكان في خدمته أيضاً ابنه إسحاق بن موسى المتطبب وكان جليل القدر عند المعز ومتولياً أمره واغتم المعز لموت إسحاق لموضعه منه ولكفايته وجعل موضعه أخاه إسماعيل بن موسى وابنه يعقوب بن إسحاق. وكان أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر طبيب الحاكم بأمر الله ومن الخواص عنده وكان العزيز أيضاً يستطبه ويرى له ويحترمه وكان متقدماً في الدولة الفاطمية. وكان الحقير النافع من أطباء الحاكم الخاص وكان ابن مقشر مكيناً في الدولة الفاطمية حظياً عند الحاكم بلغَ منه أعلى المنازل

وأسناها وكان له منه الصلات الكثيرة والعطايا العظيمة ولما مرض ابن المقشر عاده الحاكم بنفسه وأطلق لمخلفيه مالاً وافراً.

وخدم أفرائيم بن الزفان الخلفاء الذين كان في زمانهم بمصر وحصّل من جهتهم من الأموال والنعم شيئاً كثيراً. وكان ابن جميع الإسرائيلي من أطباء الملك الناصر صلاح الدين وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده عالي القدر نافذ الأمر يعتمد عليه في صناعة الطب. وخدم أبو البيان بن المدور الخلفاء المصريين في آخر دولتهم ثم خدمَ صلاح الدين يوسف وكان يرى له ويعتمد على معالجته وله منه الجامكية الكثيرة والافتقاد المتوفر وتعطل في آخر عمره من الكبر والضعف فأطلق له الناصر في كل شهر أربعة وعشرين ديناراً مصرية تصل إليه ويكون ملازماً لبيته ولا يكلّفه خدمة وبقي على تلك الحال وجامكيته تصل إليه نحو عشرين سنة. وكان الرئيس بن هبة الله الإسرائيلي من خدمة الخلفاء المصريين بالطب وكانت له منهم الجامكية الوافرة والصلات المتوالية. وخدم الموفق بن شوعة الإسرائيلي الملك الناصر بالطب لما كان بمصر وعَلَت منزلته عنده. وممن حظي في أيام هذا أيضاً وأيام أخيه الملك العادل أبي بكر بن أيوب أبو المعالي بن تمام اليهودي. وكان السلطان صلاح الدين أيضاً يرى لأبي عمران الرئيس موسى الإسرائيلي ويستطبّه وكذلك ولده الأفضل علي وهو الذي يمدحه القاضي السعيد بن سناء الملك بقوله:

أرى طبّ جالينوس للجسم وحده	وطِبّ أبي عمران للعقل والجسمِ
فلو أنّه طَبَّ الزمانَ بعلمهِ	لأبراهُ من داء الجهالة بالعلمِ
ولو كان بدر التمّ من يستطبّهُ	لتمّ له ما يدّعيه من التَمّ
وداواهُ يوم التمّ مِن كَلَفٍ به	وأبرأهُ يوم السرار من السقمِ

وكان إبراهيم بن الرئيس موسى في خدمة الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب. وكان أبو سليمان داود بن أبي المنى بن أبي فانة الطبيب حظياً عند خلفاء مصر. وكذلك ابنه أبو سعيد بن أبي سليمان جعله الملك العادل في خدمة ولده الملك المعظم وأكرمه غاية الإكرام وأمر أن لا يدخل قلعة من قلاعه إلا راكباً مع صحة جسمه فكان يدخل في قلاعه الأربعة كذلك وهي قلعة الكرك وقلعة جعبر وقلعة الرها وقلعة دمشق. وخدم أبو سعيد بالطب أيضاً الملك الناصر والملك العادل.

وكان أبو شاكر بن أبي سليمان مكيناً عند السلاطين جعله الملك العادل في خدمة ولده الملك الكامل فبقي في خدمته وحظي عنده الحظوة العظيمة وتمكن عنده التمكين الكثير ونال في دولته حظاً عظيماً وكان له من إقطاعات ضياع وغيرها ولم يزل يفتقده بالهبات الوافرة وكان الملك العادل يعتمد عليه وكان يدخل في جميع قلاعه وهو راكب. وكان أبو الفضل بن أبي سليمان طبيباً للملك المعظم في الكرك ثم خدم الملك الكامل. وكان عيسى الرقي المعروف بالتفليسي في خدمة سيف الدولة بن حمدان يأخذ أربعة أرزاق رزقاً بسبب الطب ورزقاً بسبب النقل ورزقين بسبب عِلمَيْن آخرين. وأنعم صلاح الدين على سكرة الحلبي المتطبب وخلع عليه وأقطعه أراضي مؤبدةً.

وخدمَ موفق الدين بن المطران بالطب الملك الناصر صلاح الدين وحظي في أيامه وكان رفيع المنزلة عنده عظيم الجاه. وكان يتحجب عنده ويقضي أشغال الناس ونال من جهته من المال مبلغاً كثيراً قال أبو الظاهر إسماعيل وكان يعرف ابن المطران ويأنس به: إن العجب والتكبر الذي كان يغلب على ابن المطران لم يكن على شيء منه في أوقات طلبِه العلم وقال إنه كان يراه في الأوقات التي يشتغل فيها بالنحو في الجامع يأتي إذا تفرغ من دار السلطان وهو في ركبة حفلة وحواليه جماعة كثيرة من المماليك الترك وغيرهم فإذا قرب من الجامع ترجل وأخذ الكتاب الذي يشتغل فيه في يده أو تحت إبطه ولم يترك أحداً من العلماء يصحبه ولا يزال ماشياً والكتاب معه إلى حلقة الشيخ الذي يقرأ عليه فيسلم عليه ويقعد بين الجماعة وهو بكَيس ولطف إلى أن يفرغ من القراءة ويعود إلى ما كان عليه ثم أنه أسلم فزوّجه صلاح الدين إحدى حظايا داره وترقّت حاله عند سلطانه إلى أن كاد يكون وزيراً وحصلت له أموال جمّة من أمراء الدولة في حال مباشرته لهم في أمراضهم وتنافسوا في العطاء له.

وممن خدم صلاح الدين أيضاً بالطب أبو منصور النصراني وأبو النجم النصراني وأبو الفرج النصراني وخدم هذا الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين ثم صار أولاده خدمة أولاد الملك الأفضل. وخدم أبو الحجاج يوسف الإسرائيلي بالطب الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين وكان يعتمد عليه وخدم أيضاً الأمير فارس الدين ميمون القصري. وكان عمران الإسرائيلي حظياً عند الملوك واعتمدوا عليه ونال من جهتهم الأموال الجسيمة والنعم التي تفوق الوصف ولم يخدم أحداً من الملوك في الصحبة ولا يقيد معهم في السفر وحرص به الملك العادل بأن يستخدمه في الصحبة فما فعل وكذلك غيره من الملوك.

وكان موفق الدين يعقوب المسيحي خدمَ الملك المعظم عيسى وصار معه في الصحبة وكان حسن الاعتقاد فيه حتى انه كان يعتمد عليه في كثير من الآراء الطبية وغيرها فينتفع بها ويحمد عواقبها وقصد الملك المعظّم أن يوليه بعض تدبير دولته والنظر في ذلك فما فعل واقتصر على مداومة صناعة الطب فقط وكان قد عرض للحكيم يعقوب في رجليه نقرس وكان يثور به في أوقات يألم بسببه وتعسر عليه الحركة فكان الملك المعظم يستصحبه في أسفاره معه في محفة ويفتقده ويكرمه غاية الإكرام وله منه الجامكية السَنية والإحسان الوافر.

وخدمَ صدقة السامري بالطب الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب وبقي معه سنين كثيرة في الشرق وكان يحترمه غاية الاحترام ويكرمه كل الإكرام ويعتمد عليه وله منه الجامكية الوافرة والصلات المتواترة. وكان مهذب الدين يوسف بن أبي سعيد السامري شمس الحكماء في خدمة الملك الناصر صلاح الدين وخدم أيضاً لعز الدين فرخشاه بن شاهان شاه بن أيوب وخدمَ بعده لولده الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه وحظي في أيامه من جهته من الأموال والنعم شيئاً كثيراً وكان يستشيره في أموره ويعتمد عليه في أحواله.

هكذا كان عظماء الإسلام يعاملون أهل ذمتهم من نصراني ويهودي وسامري ومجوسي. يبوحون لهم بأسرارهم ويطلعونهم على خويصة أنفسهم ويوسدون إليهم مهمات أمورهم ويأمنونهم على حُرمهم وأرواحهم ويغدقون عليهم هباتهم وإحساناتهم ويرفعون منزلتهم ومكانتهم لا ينظرون في ذلك إلى نِحلة ولا مذهب ولا يعتدون بمخالف ولا بموافق بل يتبدرون الكفاءات ويختارون الأصلح والأنسب وقد قابل أولئك المقرَّبون ساداتهم بصنوف الأمانة وخدموهم فأحسنوا خدمتهم وقلما خان منهم إلا بعض أفراد فسدتْ فِطرُهُم واختلّت عقولهم وأحلامهم وضلّوا عن سواء السبيل.

التقية

الأمم في أول نشأتها تحتاج إلى كتم أمرها وضمّ أطرافها والتماسك في كل أحوالها خوف عدو قاهر ومليك مقتدر وعدة ضخمة وعدد من مال ورجال، حتى إذا استحكم أمرها وأصبحت كفؤا لمناوئها تُظهر ما كانت تُضمر وتُقدم إقدام الاتييّ على الوادي وتلوب على من تضمه إليها وتكثّر به سواد قومها. وهكذا حال الأفراد فإن العالِم أو صاحب الدعوة إذا كان في مبدأ شأنه بين قوم يخاف بادرتهم إذا فاتحهم بأفكاره يخفي شيئاً مما يكنه ضميره حتى إذا اشتدت شكيمته واستحكمت منّتُه واستجاش له أنصاراً وخاصّة يقبلون ولو جانباً من أفكاره وعلمه يتدرج في بث دعوته فيبدأ بالضعاف أو المستضعفين إلى أن يصل إلى الأقوياء والعظماء. وهذا الضرب من الكتمان يسمى التقية مشتقة مِن أتّقاه أي خافه وهي ضد العلانية. عادة راجت ولا تزال رائجة في المشرق خصوصاً بين المغلوبين المخالفين أمام الغالبين الظالمين ولَكَم ذهب بها فيما غبر أرواح رجال لم يحسنوا استعمال التقية ونجا بها أناس جعلوها شعراً يلبسونه ومجناً يتقون به عادية من يخالفونهم أو يريدونهم على العلم بما لا يعتقدون به من علم ورأى ونِحلة.

جاء الرسول العربي عليه الصلاة والسلام فقام يبث دعوته وتحمّل فيها صنوف الأذى والإهانة ولمّا كثُر أنصاره ومريدوه من المهتدين وخاف امتداد الأذى هاجر إلى المدينة وهناك أقام على تلقين اليقين علانية. ولذلك أجمع رأي الصحابة على عهد عمر بن الخطاب لما أرادوا التأريخ أن يبدأوا من سنة الهجرة لأنه الوقت الذي حكم فيه الرسول على غير تقية فكأنّ الدور الأول ما كان إلا لتأسيس ما بدأ ظهوره من الدعوة في المدينة فلم يحسبوه. وقد جاء في القرآن آيات تدل على الأخذ بالتقية وآيات على عكسها بحسب المناسبات.

قال الخازن في تفسير قوله تعالى: {لاَّ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ} أي

إلا أن تخافوا منهم مخافة ومعنى الآية أن الله نهى المؤمنين عن مداراة الكفار ومداهنتهم ومباطنتهم إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين أو يكون المؤمن في قوم كفار فيداهنهم بلسانه وقلبه مطمئن بالإيمان دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل دماً حراماً أو مالاً حراماً أو غير ذلك من المحرّمات أو يُظهر الكفار على عورة المسلمين. والتقية لا تكون إلا مع الخوف من القتل مع سلامة النية إلى الله تعالى: {إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ}. ثم أن هذه التقية رخصة فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل كان له بذلك أجر عظيم. وأنكر قوم التقية وقالوا إنما كانت التقية في جِدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين فأما اليوم فقد أعز أمة الإسلام والمسلمين فليس لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم. قال يحيى البكاء: قلت لسعيد بن جبير في أيام الحجاج: ابن الحسن يقول التقية باللسان والقلب مطمئن بالإيمان. فقال سعيد: ليس في الأمان تقية إنما التقية في الحرب. وقيل إنما تجوز التقية لصون النفس من الضرر لأن دفع الضرر عن النفس واجب بقدر الإمكان.

واختلفت مذاهب المسلمين في التقية فروى المؤرخون أنه كان سبب اختلاف نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر من زعماء الخوارج أن نافعاً قال التقية لا تحل والقعود عن القتال كفر واحتج بقوله تعالى: {إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً}. وبقوله: {يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ}. وخالفه نجدة فقال: التقية جائزة واحتج بقوله عز وجل: {إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً}. وبقوله عز وجل: {وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ} فالأزارقة من الخوارج وهم أصحاب ابن الأزرق المشار إليه يقولون إن التقية غير جائزة في قول ولا عمل. وحكى الكعبي عن النجدات وهم أصحاب نجدة بن عمار أن التقية جائزة في القول والعلم كله. وقال الصُّفرية الزيادية وهم فرقة من الخوارج أيضاً: التقية جائزة في القول والعمل. والردّي عند الخوارج هو الذي يعلم الحق من قولهم ويكتمه.

أما الشيعة فلهم في التقية تجوّز لم تعرفه فرقة من المسلمين فيما أحسب فكل ما أرادوه تكلموا به فإذا قيل لهم ذلك ليس بحق وظهر لهم البُطلان قالوا إنما قلناه تقية وفعلناه تقيةً. هذا ما نقله الشهرستاني في الملل والنحل وليس في الأيدي كتاب من كتبهم نرجع إليه فيما قالوه هم في حقها.

والعقل يقضي بأن يُستعمل في دار التقية ما لا يُستعمل في دار العلانية على حسب الأحوال. وقد تترتب مفاسد دينية ودنيوية على سوء استعمال التقية ولكن قَلَّ في العلماء وأرباب المقالات من

أحسن استعمالها وساعده محيط بلاده على تحقيق أمانيه. والتوسط في كل شيء محمود المغبة فكيف بالتوسط مع الطواغيت والمرء لا ينجو معهم بدونه.

عهِدْنا الحجاج لما هزم عبد الرحمن بن الأشعث وقتل أصحابه وأسر بعضهم يتلقى كتاب عبد الملك بن مروان في عرض الأسرى على السيف فمن أقر منهم بالكفر خلّى سبيله ومَن أبى قتله. فأتى منهم بعامر الشعبي ومطرف بن عبد الله بن الشخير وسعيد بن جبير. وكان الشعبي ومطرف يريان التقية وكان سعيد بن جبير لا يراها فذهب عامر ومطرف إلى التعريض والكناية فعفا عنهما وأما سعيد بن جبير فأبى ذلك فقُتل. وكان مما عرَّض به الشعبي: أصلح الله الأمير، نبا بنا المنزل، وانخزل بنا الجناب، واستحلسنا الخوف، واكتحلنا السهر، وخبطتنا فتنة لم نكن فيها بررة أتقياء ولا فجرة أقوياء. قال: صدق والله ما برّوا بخروجهم علينا ولا قووا خلّيا عنه. ثم قدم إليه مطرف بن عبد الله فقال هل الحجاج: أتقرّ على نفسك بالكفر؟ قال: إن من شق العصا، وسفك الدما، ونكث البيعة، وأخاف المسلمين لجديرٌ بالكفر. قال خليا عنه. ثم قدم إليه سعيد بن جبير فقال له: أتقر على نفسك بالكفر؟ قال: ما كفرت بالله مذ آمنت به. قال اضربوا عنقه.

أرأيت رجلاً معروفاً بصلابة دينه ووفرة علمه وثبات جنانه وقوة برهانه فادى بروحه من أجل الحق وغلّب الموت على القول بما يخالف ما وقع في نفسه؟ أبى إباؤه وأنفت أنفته أن يلجأ إلى تقية لا يرضاها ذوو النفوس الكبيرة فذهب مثال الكمال وأنموذج الفضيلة والتقوى أبد الدهر. هذا هو سعيد بن جبير الذي لا تفتأ الألسن تذكره بالرحمة وتسخط على من قتله شر قتْلة.

ومن التقية المحمودة إن صح أن يسمى التقية ما يأتيه بعض العلماء من الامتناع عن إفشاء بعض الأسرار في الدين للعامة وقد أرجع الغزالي هذه الأسرار التي يختصّ المقربون بدركها ولا يشاركهم الأكثرون في علمها إلى خمسة أقسام: الأول أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكلُّ أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعليهم أن لا يفشوه إلى غير أهله فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك وإخفاء سر الروح من هذا القسم. الثاني من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصديقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكلّ الفهم عنه ولكن ذكره يضر بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصديقين وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم فلا يبعد أن يكون ذِكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر نور الشمس بأبصار الخفافيش وكما تضر رياح الزرد بالجعل. الثالث أن يكون الشيء بحيث لو ذُكر صريحاً لفُهم ولم يكن فيه

ضرر ولكن يكنّى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعُه في قلب المستمع أغلب كما لو قال قائل رأيت فلاناً يقلد الدُرّ في أعناق الخنازير فكنى به عن إفشاء العلم وبث الحكمة إلى غير أهلها. الرابع أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلاً بالتحقيق والذوق. الخامس أن يعبّر بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويعتقده حقاً والبصير بالحقائق يدرك السر فيه.

قال صاحب كتاب «إيثار الحق على الخلق»: كثرت البدع وكثرت الدعاة إليها والتعويل عليها وطالب الحق اليوم شبيهٌ بطلابه في أيام الفترة وهم سلمان الفارسي وزيد بن عمر بن نفيل وأضرابهما رحمهما الله تعالى. وان نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارعه وبلده وجيرانه وأترابه صنيعٌ أسقط الناس همة وأدناهم مرتبة. قال ولا ينبغي أن يستوحش الظافر بالحق من كثرة المخالفين له كما لا يستوحش الزاهد من كثرة الراغبين ولا المتقي من كثرة العاصين ولا الذاكر من كثرة الغافلين بل ينبغي منه أن يستعظم المنّة باختصاصه بذلك مع كثرة الجاهلين له الغافلين عنه.

ونسب تنكب الناس عن طريقة الحق لعدم الحرص وقوة الداعي وللخوف من شر الأشرار مع الترخيص في التقية بإجماع الأمة فقد أثنى الله على مؤمن آل فرعون مع كتم إيمانه وسمّيت به سورة المؤمن وصحَّ أمر عمار بن ياسر بذلك وتقريره عليه ونزلت فيه: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان». وقد قيل من عَرف الخلق جدير أن يتحامى ولكن من عرفَ الحق فعسير أن يتعامى. والذين آمنوا أشد حباً لله. ونسبه أيضاً للخوف من الشذوذ من الجماهير والانفراد عن المشاهير.

وذكر أيضاً أنه زاد الحق غموضاً وخفاءً أمران: أحدهما خوف العارفين مع قلّتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق مع جواز التقية عند ذلك بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام قائلاً: ومازال الخوف مانعاً من إظهار الحق ولا برح المحق عدواً لأكثر الخلق. وقد صح عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال في ذلك العصر الأول: حفظتُ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعاءين، أما أحدهما فبثثته في الناس وأما الآخر فلو أبثه لقطع هذا البلعوم.

وما زال الأمر في ذلك يتفاحش وقد صرح الغزالي بذلك في خطبة المقصد الأسنى ولوّح بمخالفته أصحابه فيها كما صرح بذلك في شرح الرحمن الرحيم. وأشار إلى التقية الجويني في مقدمات البرهان في مسألة قِدم القرآن، والرازي في كتابه المسمى بالأربعين في أصول الدين. قال: «وثانيهما الاعتماد على الكتابة في حفظ العلم فإنه أدّى إلى كتم أهل العلم لكثير من مصونه في أول

الأمر ثم لمُهمّات الدِين في آخره وكان العلم في أول الأمر يُبذل من أهله لأهله مشافهةً ولو سراً وذلك أول النقص وهو محفوظ في الصدور غير مبذول لأهل الشرور في الشعور، فلما قلّ الحفظ وطال الأمر وكُتبَ ليحفظ وتعذّرتْ الصيانة وخيف العدوان من أعداء أهل الإيمان كتمَ بعضهم فلم يُظهر علمَه فازداد النقص واتقى بعضهم فتكلّمَ بالمعاريض الموهمة للباطل خوفاً على نفسه ورمّزَ بعضهم فغلطَ عليه فيما قصدَهُ في رمزه فتفاحش الجهل».

وأما الفرق بني ما يجوز من المصانعة والمداهنة وما لا يجوز من الرياء فما كان من بذل المال والمنافع فهو جائز وهو المصانعة وربما عبر عنه بالمداهنة والمداراة والمخالفة وما كان من أمر الدين فهو الرياء الحرام. ومن كلام الإمام الداعي إلى الله تعالى يحيى بن المحسن عليه السلام في الرسالة المخرسة لأهل المدرسة: «لا يجوز أن تكون الموالاة هي المتابعة فيما يمكن التأول فيه لأن كثيراً من أهل البيت عليهم السلام قد عرف بمتابعة الظلمة لوجه يوجب ذلك فتولى الناصر الكثير منهم وصلى بهم الجمعة جعفر الصادق وصلى الحسن السبطُ على جنائزهم وأقام علي بن موسى الرضا مع المأمون وكثَّر جماعته وتزوج ابنه محمد ابنة المأمون وغير ذلك. والوجه فيه أن الفعل لا ظاهر له فتأويله ممكن». وذكر الإمام المهدي محمد بن المطهر عليهما السلام أن الموالاة المحرمة بالإجماع هي مولاة الكافر لكفره والعاصر لمعصيته ونحو ذلك. وهو كلام صحيح والحجة على صحّة الخلاف فيما عدا ذلك أشياء كثيرة منها قوله تعالى في الوالدين المشركين بالله: {وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً} ومنها قوله تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا على إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}.

تأمّلْ هذا المنقول في التقية من كلام ذاك الإمام المجتهد وهو نموذج من تأليف مَن عمِلَ بعلمه ولم يكتم حقيقةً إرضاء لخاطر ولم يتق رثاء وخوفاً وطمعاً. ذاك كلام أبي عبد الله محمد المرتضى من أكابر علماء القرن التاسع أنفت نفسه من التعصب لعادات الآباء والمشايخ فتجانف طرقَ أسلافه وحكّم الإنصاف في أقوال فرق الإسلام ولولا عراقته في الشرف وبُعد غوره في العلم وإخلاصه في أقواله وأعماله لاضطهد وأوذي ونال من صنوف العذاب ألواناً. أقْدمَ هذا الإقدام مؤثراً أن ينصرف عنه جانب من حطام الدنيا مثل تولي الإمارة عند الزيدية وشرطها عندهم أن يتقلدها أعلم الناس وأشرفهم وكان هو جامعاً لهذين الشرطين وهو من أسرة تولت زعامة الناس فرأى

الدعوة إلى الحق خيراً من الإمامة والإمارة فردّ على أبناء مذهبه الأصلي في كتاب ضخم يقع في زهاء ألف ورقة وسماه العواصم والقواصم وخلّف مصنفات غيرها دلّتْ على سعة فضله وعقله وأنه ممن أحسنوا استعمال التقية ولم يتأذوا بالعلانية ورخصت أعمارهم في عيونهم فأفادوا واستفادوا. وكتابه «إيثار الحق» المنقول عنه آنفاً رأيه في التقية أكبر دليل على ما توصف به.

وإذا قابلنا بين كلام هذا الإمام وكلام من اشتهر أكثر من شهرته لا نعتم أن نشعر بفرق بين المشارب والعقول ولكلٍّ ذوقه وعقله. فمن مشاهير المؤلفين والفلاسفة الفخر الرازي وكل من قرأ مصنفاته ير فيها عقلاً كبيراً ومادة واسعة. ومع هذا وَجد له أهل البصر ما يُنتَقد في حياته العلمية.

درّس الرازي والتفت حوله التلاميذ والأساتذة فكان إذا ركب يمشي معه ثلثمائة تلميذ فقهاء وغيرهم ونال الحظوة من أمراء عصره والحظوة عند شعوبه وتعاظم حتى على الملوك، ومع هذا مال الرازي إلى مذهب الجبر القاضي بأن الإنسان كالريشة في الهواء لا عمل له ولا تدبير ينفعه وأن القضاء والقدر يدوران به على مرادهما، وهو المذهب الذي عشش اعتقاده في صدور معظم المسلمين فكان من دواعي انحطاطهم وإن لم يشعر ظاهر الشريعة ولا المأثور عن الأمناء عليها في الصدر الأول بشيء من هذا المعنى. وإنما رأى الرازي الخير في نصرة هذا المذهب لأنه كان متسلطاً بكثرة على أهل بلاده فقرر كما قال عن نفسه ما أعتقده أنه هو الحق وتصور أنه الصدق. ولقد رد عليه بعض علماء المسلمين وسفّهوا رأيه فيما ذهب إليه حتى أن كلّ محب لاحترام العلم وإكرام صنيع حملته ليرجو أن تكون بعض هذه الأفكار التي أخذها العلماء على الرازي هي التي سجّل على نفسه في وصيته بأنه رجعَ عنها.

وأنت ترى أن اليماني والرازي المشار إليهما قضيا حياةً طيبةً ممتعين بثمار عقلهما وغادرا هذه الدار بلا إهانة وفتنة واكتفى معاصروهما ومن بعدهما من العلماء بالرد عليهما في الورق فكانا مثالاً فيمن نفعته التقية وعرف استخدامها. وإذا جئنا نستشهد بمن جنى عليهم عدم استخدام التقية نخرج عن قصد الاختصار. قال الثوري: «إذا رأيت العالِم كثير الأصدقاء فاعلم أنه مخلّط لأنه إن نطق بالحق أبغضوه».

وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية قد صرح بما اعتقد صحته فعاداه أعداء التجديد والتحقيق وأشياع التخريف والتلفيق من علماء السوء الرسميين وآذاه من شأنهم مسايرة الحزب الغالب من

الأمراء الذين لا مذهب لهم إلا المال ولا دين إلا بسطة الجاه ولا سياسة إلا حكم الناس بما يريدون ولا عقل إلا الاعتصام بالقوة والجبروت.

قضى فساد محيط ابن تيمية والجهل المركب الذي فُطر عليه من جُنّوا في التجني عليه بممالأة من لا رأي لهم أن قضى سجيناً سنين عديدة في جب يوسف بقلعة الجبل بالقاهرة وأعواماً في برج بالإسكندرية وأعواماً في قلعة دمشق إلى آخر ما عومل به من الحبس وكان القصد من هذا كله إيقاف قريحته عن الانبعاث تفادياً من أن يجرف سيلها العرم ما وهى من باطل الاعتقاد ووجد ضعاف العقول وأسرى التقليد آباءهم عليه من الأضاليل والخزعبلات. ولا أقول إن ما لقيه ابن تيمية من الألاقي حبس قلمه عن الكتابة وعلق تأثيره في نفوس مئات من القريبين للخير ولكن من لنا بعشرة عملوا عمله في تاريخ الإسلام رزقوا نفساً كنفسه وعزيمة كعزيمته يستهين بروحه وراحته ويستميت في نصرة الحق وإماتة الباطل من دون ما تقية؟

ولقد شهدنا رجلاً قام في القرن الثاني عشر في وسط جزيرة العرب دعا إلى مثل دعوة ابن تيمية واستنار بعلمه. واهتدى بهديه فعاش سعيداً والنفع به عميماً ألا وهو محمد بن عبد الوهاب. والفطرة العربية فصاح فيهم صيحة أراد بها زحزحتهم عما كانوا فيه من العبادات والمعاملات لأنها من شأن أهل الجاهلية منافية للإسلام فأذعن أعلامه بين أناس ما عرفوا إلا الشرك والوثنية. وكان نصيب هذا الداعية من علماء عصره أن بدّعوه وفسقوه وكفروه ولو طالت إليه يد الأشرار لمزقوه كل ممزق وجعلوه سلفاً ومثلاً للآخرين.

نعم نفعت تلك البادية في بث الدعوة بلا تقية ولا مصانعة أكثر من الشام ومصر زمن ابن تيمية. والدعوات كلها سياسةً كانت أو علمية ما فتئت تبدأ في البوادي والأقاصي ثم تمتد امتداد شواظ من نار فتلتهم الأقرب فالأقرب. وأهل المدن يستغرقون في الترف على الأغلب ويتبنكون النعيم حتى تكاد تنزع منهم وجداناتهم إلا قليلاً فيلجأون إلى المشاغبة في كل ما لم يألفوه والتمويه في الحق والباطل. ولذلك ترى سكان الجبال والأرياف أنشط في كسب العلم وأرغب في التجديد ونزع التقليد لبعدهم عن نشأة السرف والترف.

ومعاذ الله أن يُفهم من هذا القول أن ابن تيمية لم يحسن استخدام التقية وابن عبد الوهاب أحسنها ولكن الأول جمع الشروط كلها فخانته بيئته وأسلمه قومه لأهواء الحاسدين. وهذا هو السبب الذي من أجله اعتاد بعض أصحاب الأفكار والمجددين المصلحين منذ القديم أن يهجروا مساقط

رؤوسهم لبث دعوتهم وترويج بضاعتهم كما ترحّلَ التاجر بتجارته والصانع بنتائج صنعته. عهدنا معظم العلماء لمّا أن يشتد عليهم في وطنهم الضغط الناشئ من حسد حاسد وكيد كائد ينزلون صعقاً آخر ليقدروا بقيمهم الحقيقية ويثمنوا بما يساوون. كان هذا شائعاً في بلاد الإسلام أيام كان فيها بقايا من العلم ونسيس من الحياة الاجتماعية فكان العالم إذا كُرب أن تُكربه التقية في بغداد يهجرها إلى الشام وإذا اشتدت به الحال هنا يغادرها إلى مصر أو المغرب أو الأندلس وإذا وقع عليه ما لا ترضى به نفسه في الروم يرحل إلى فارس.

إليك حكم التقية في العلم والعلماء والدين والأمراء. ولم أفض فيما يستعمله أهل السياسة من التقية لأن ما هم بسبيله مبني في الغالب على الخديعة والحيل مدعوم بالرهبوت والجبروت مصبوغ كل يوم بصبغة تخالف صبغة أمس.

وأني لأرجو أن لا يكون جماع أهل العلم والسياسة داخلين في غمار من وصفه أحد الأعراب بضعف فقال: «سيء الرؤية، قليل التقية، كثير السعاية، ضعيف النكاية» ولا أن يكونوا مثل من قال المأمون فيهم لرجل وعظه فأصغى إليه منصتاً فلما فرغ قال: «قد سمعت موعظتك فأسأل الله أن ينفعنا بها غير أنّا أحوج إلى المعاونة بالفِعال منا إلى المعاونة بالمقال فقد كثر القائلون وقلَّ الفاعلون».

تبذير الكبراء

الإسراف الغالب آفة من آفات الحضارة ولا إسراف إذا لم توجد حضارة وعلى نسبة حضارة الأمة وغناها يكون في الأكثر بذخها وإسرافها وإن شئت فقُلْ إسراف أهل البسطة والغنى. مثاله ما نسمعه لهذا العهد عن ديار الغرب وإيغال الموسرين من أهله في الإنفاق على كل ما طاب وحلا وبهرج وزخرف فينفق الفرد في الشهوات والتبرج ما يكفي لإعالة عشرات الألوف أعواماً. وتأتينا عنهم أنباء لا تكاد تصدق لولا تناصرها واتفاق المشاهدين لها عياناً على إثبات ما يقال ويروى. ولو استقريت تاريخ الأمم لرأيت الشيء الكثير من ذلك قبل ألوف من السنين وآخر من انتهت إلينا أخبار ترفهم الرومان واليونان لما بلغت الحضارة بينهم حدّها.

وهذا الشرق أيضاً ما خلا في كل دور من أدواره من مسرفين كانوا إخوان الشياطين وإسراف اليوم يختلف عن إسراف أمس فإنه كان في غابر الأحقاب مقصوراً على رجال الدول والكلمة النافذة عند الملوك والسلاطين أما اليوم فالإسراف يكون من الرعاة والرعاية معاً خصوصاً بعد أن انتقلت الثروة إلى الأفراد. وتاريخ العرب لم ينقل إلينا سوى أخبار الأمراء والملوك وما عني المؤرخون بنقل أخبار الأفراد من الأغنياء ولذلك كان علينا إذا رغبنا أن نستشهد تاريخنا ونبحث في حالتنا الاجتماعية في القرون العابرة أن نقتصر على إيراد ما انتهى إلينا عِلمُه من أخبار أولئك العظماء وهي لا تخلو من عبرة وتسلية.

خذ لك أمثلة لا تستغرب بعدها زوال الممالك الشرقية وتقرأ فيها نموذجاً من تفنّنهم في دُورهم وقصورهم وأفراحم ومجتمعاتهم. فقد رأتِ الرميكية زوج المعتمد بن عباد الأندلسي الناس يمشون في الطين فاشتهت المشي فيه فأمَر المعتمد فسُحِقت أشياء من الطيب وذرّت في ساحة القصر حتى عمّتْهُ ثم نُصبت الغرابيل وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطِيب وعُجِنت بالأيدي

حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريها وغاضبها في بعض الأيام فأقسمت أنها لم تر منه خيراً قط قال ولا يوم الطين؟ فاستحت واعتذرت.

ولمّا اقتعد ابن أبي عامر الذروة في أيام الحَكم الأندلسي صنع قصراً من فضة لصبح أم هشام وحمله على رؤوس الرجال فجلب حبها بذلك وقامت بأمره عند سيدها الحكم وحدّث الحكم خواصّه بذلك وقال إن هذا الفتى قد جَلَبَ عقول حُرمنا بما يتحفهم به.

وكان في دار القاهر بالله عشرة آلاف خادم من الخصيان ويفرّق الأضحية من الإبل والبقر أربعين ألف رأس ومن الغنم خمسين ألف رأس. وكان عز الدولة بن بويه متوسعاً في الإخراجات والكلف وكان يتناول أحد الموظفين بإيقاد الشمع أمامه ألف منٍّ في كل شهر.

ولما بعث ملك الروم يتوعد المستكفي بالله بالقتال استعرض عسكره فكان جملة العسكر المصفوف مائة ألف وستين ألفاً ووقف الغلمان بالزينة والمناطق الذهبية وكذلك الخدم والخصيان ووقف الحجّاب وكانوا سبعمائة وزُيّنت دار الخليفة بالسُتور والبُسط فكانت جملة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين ألف ستر من الديباج المذهب وكانت جملة البُسط اثنين وعشرين ألف بساط وكان في جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة تشتمل على ثمانية عشرة غصناً وأوراقها من ذهب وفضة وأغصانها تتمايل بحركات موضوعة وعلى الأغصان طيور خُضر من ذَهب وفضة يُنفخ الريح بها فيصفّر كل طير بِلغته.

وحكى الصابي عن بعض الرُسل قال: دُعينا إلى باب مسعود يعني ابن محمود بن سبكتكين بغزنة فشاهدنا بالباب أصناف العساكر وملوك جرجان وطبرستان وخراسان والهند والسند والتُرك وقد أقيمت الفيلة عليها الأسرّة والعماريات الملبسة بالذهب مرصعة بأنواع الجواهر وإذا بأربعة آلاف غلام مرد وقوف سماطين وفي أوساطهم مناطق الذهب وبأيديهم أعمدة الذهب ومسعود جالس في سرير من الذهب لم يوضع على أرض مثله وعليه الفرش الفاخرة وعلى رأسه تاج مرصع بالجواهر واليواقيت وقد أحاط به الغلمان الخواص بأكمل زينة، ثمّ قام مسعود إلى سماط من فضة عليه خمسون خواناً من الذهب على كل خوان خمسة أطباق من ذهب فيها أنواع من الأشربة فَساقهم الغلمان، ثم قام مسعود إلى مجلس عظيم الأقطار فيه ألف دست من الذهب وأطباق كبار خسروانية فيها الكيزان وعلى كل طبق زرافة ذهب وأطباق ذهب فيها المسك والعنبر والكافور وأشجار الذهب مرصعة بالجواهر واليواقيت وشموع من ذهب في رأس كل شمعة قطعة من الياقوت الأحمر تلمع

لمعان النار وأشجار العود قائمة بين ذلك. وفي آخر المجلس رحى من ذهب تطحن المسك والكافور والعنبر وفي جوانب المجلس بحيرة في جوانبها من الجواهر والعنبر والفصوص شيء يقصر الوصف عنها وذكر أشياء أخر تحيّر الأسماء والأسماع ـ قاله ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار.

ومما يعد في باب ترف الكبراء وسرفهم ما رواة المقريزي من أعذار (طعام الختان) بني ذي النون ملوك طليطلة من الثغر الجوفي في الأندلس وكانت لهم دولة كبيرة وبلغوا في البذخ والترف إلى الغاية ولهم الإعذار المشهور الذي يقال له الإعذار الذنوبي وبه يضرب المثل عند أهل المغرب وهو عندهم بمثابة عرس بوران عند أهل المشرق. وبوران هي ابنة الحسن بن سهل امرأة المأمون قالوا لما دخل إليها نثرت عليه جدّتها ألف لؤلؤة من أنفس ما يكون فأمر المأمون بجمعه فأعطاه بوران ثم أوقد تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون منّاً (رطلاً) وقالوا أن المأمون لم يرقه هذا الإسراف وقال فيه. وأقام المأمون في معسكر الحسن سبعة عشرة يوماً يعدّ له كل يوم ولجميع من معه ما يحتاج إليه وخلع الحسن على القُوّاد مراتبهم وحمّلهم ووصَلهم وكان مبلغ ما لزمه خمسين ألف ألف درهم وكتب الحسن أسماء ضياعه في رقاع ونثرها على القواد فمن وقعت بيده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث فتسلمها وأوعز إلى النوتية بإحضار السفن لإجازة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور الملك بمدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحراقات المعدة لذلك ثلاثين ألفاً أجازوا الناس بها أخريات نهارهم.

والمتتبع لهذه الأخبار يعثر منها على الكثير ولاسيما في أيام مباهاتهم وولائمهم وأعراسهم فقد روى المؤرخون أن أبا الجيش خمارويه بن طولون صاحب مصر لما زوّج ابنته أسماء للمعتضد بالله العباسي على صداق قدره ألف ألف درهم جهّزها أبوها بجهاز لم يُعمل مثله حتى قيل كان لها ألف هارون ذهب وشرط عليه المعتضد أن يحمل كل سنة بعد القيام بجميع وطائف مصر وأرزاق جنودها مائتي ألف دينار ويقال إن المعتضد أراد بزواجها افتقار الطولونية وكذا كان. وذكر ابن الأثير في حوادث سنة ثمانين وأربعمائة كيف نُقل جهاز ابنة السلطان ملهشاه السلجوقي إلى دار الخلافة على مائة وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة وثلاث عماريات وعلى أربعة وسبعين بغلاً مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من الذهب والفضة وكان على ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة لا يقدّر ما فيها من الجواهر والحلي وبين يدي البغال ثلاثة وثلاثون فرساً من الخيل الرائقة عليها مراكب الذهب مرصعة بأنواع الجواهر

ومهد عظيم كثير الذهب وسار بين يدي الجهاز سعد الدولة كوهرائين والأمير برسق وغيرهما ونثر أهل نهر معلى عليهم الدنانير والثياب وكان السلطان قد خرج عن بغداد متصيداً ثم أرسل الخليفة المقتدي بأمر الله الوزيرَ أبا شجاع إلى تركان خاتون زوجة السلطان وبين يديه نحو ثلثمائة موكبية ومثلها مشاعل ولم يبق في الحريم دكان إلا وقد أشعل فيها الشمعة والاثنتان وأكثر من ذلك وأرسل الخليفة مع ظفر خادمه محفّة لم يُرَ مثلها حُسناً وقال الوزير لتركان خاتون سيدنا ومولانا أمير المؤمنين يقول إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وقد أذن في نقل الوديعة إلى داره، فأجابت بالسمع والطاعة وحضر نظام الملك فمن دونه من أعيان دولة السلطان وكل منهم معه من الشمع والمشاعل الكثير، وجاء نساء الأمراء الكبار ومن دونهم كل واحدة منهن منفردة في جماعتها وتجمُّلها وبين أيديهن الشمع الموكبيات والمشاعل، يحمل ذلك جميعه الفرسان ثم جاءت الخاتون ابنة السلطان بعد الجميع في محفّة مجللة عليها من الذهب والجواهر أكثر شيء وقد أحاط بالمحفة مائتا جارية من الأتراك بالمراكب العجيبة، وسارت إلى دار الخليفة وكانت ليلة مشهودة لم ير ببغداد مثلها، فلما كان الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لسماط أمر بعمله حُكي أن فيه ألف منّ من السكر وخلع عليهم كلهم وعلى كل من له ذِكر في العسكر وأرسل إلى الخاتون زوجة السلطان وإلى جميع الخواتين وعاد السلطان من الصيد بعد ذلك.

وهكذا كانت أعمال أولئك الرجال تصدُر عنهم بلا روية ولا حساب لأن الرعايا والبلاد والثروة كانت لهم يتصرفون فيها بما يشاؤون. وأين هذا الترف من ذاك الاقتصاد الذي أُثر عن عمر بن عبد العزيز وقد أمر جليسه رجاء بن حيوة أن يشتري له ثوباً بستة دراهم فأتاه به فجسّه وقال هو على ما أحب لولا أن فيه ليناً. قال رجاء: فبكيت قال: فما يبكيك قال: أتيتك وأنت أمير بثوب بستمائة درهم فجسسته وقلت هو على ما أحب لولا أن فيه خشونة وأتيتك وأنت أمير المؤمنين بثوب بستة دراهم فجسسته وقلت هو على ما أحب لولا أن فيه ليناً فقال: يا رجاء إن لي نفساً تواقة تاقت إلى فاطمة ابنة عبد الملك فتزوجتها وتاقت إلى الإمارة فوليتها وتاقت إلى الخلافة فأدركتها وقد تاقت إلى الجنة فأرجو أن أدركها. وقال: قوّمت ثياب عمر بن عبد العزيز وهو يخطب باثني عشر درهما وكانت قباءً وعمامة وقميصاً وسراويل ورداءً وخفّين وقلنسوة.

بل أين ذاك الإسراف من زهد نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام وديار الجزيرة ومصر فإنه كان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا في الذي يخصّه من مُلك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين ولقد شكت إليه زوجته الضائقة فأعطاها

ثلاث دكاكين في حمص كانت له يحصّل لها منها في السنة نحو العشرين ديناراً فلما استقلّتها قال: ليس لي إلا هذا وجميع ما بيدي أنا فيه خازن للمسلمين لا أخونُهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك. وكذلك كان خليفته صلاح الدين يوسف بن أيوب فإنه كان على كثرة فتوحه وبسْط يده على ذخائر وكنوز عظيمة لم يدّخر منها شيئاً وفرّقهُ في وجوه المبرات وإقامة المعالم الخيرية حتى إذا لحق بربه لم يخلّف في خزائنه غير دينار واحد صوري وأربعين درهماً ناصرية ولما بنى له أحد رجاله في دمشق قصراً مشرفاً بهجاً وبّخه على عمله ولم يرضَ أن يسكنه لما أنفق عليه من النفقات الفاحشة.

وبالجملة فتاريخ الأمة ينعي على المسرفين أعمالهم كما ينادي بالثناء على المقتصدين من رجالها فإن جاء مثل ابن عباد وابن أبي عامر والقاهر والمستكفي والحسن بن سهل فقد جاء أمثال عمر بن عبد العزيز ونور الدين وصلاح الدين وكل منهم ذُكر بعمله ولقي جزاءه في قصده وإسرافه.

ثروة العرب

قد يظن من يطالع تاريخ الإسلام بدون أن يُعمل نظره معملَه أن ما يراه في تضاعيف سطوره من أخبار الثروة وطول ارقامها وتفاني الباحثين عنها والمتفانين في نيلها ضرباً من ضروب الغلو ساق إليه تسرع المؤلف او اختلاق منه ليجعل لمن يتكلم عنه وقعاً في النفوس ويحبّب إليها مطالعة كتابه خصوصاً والبشر في كل دور من ادوارهم كادوا يجعلون الدينار معبودهم.

لو لم يرِد إحصاءُ الثروة الإسلامية في كتب الثقات ما كان كلام بعضهم عنها بحيث يصحّ نقله. فقد لقي الرسول عليه الصلاة والسلام ربَّه وحاله من الزهد في المال والرفاهية حاله واستنَّ معظم أصحابه بسنته وكان من أمْر أبي بكر وعمر وعلي من الزهد في المال ما شاع ذكره وظهَر أثرُه وتحدّثَ به السمار في الامصار. قال معاوية وقد ذكَر المال «أمّا أبو بكر فلم يُرد الدنيا ولم ترَده وأما عمر فأرادته الدني ولم يرِدها وأما عثمان فأصاب منها وأما نحن فتمرّغنا فيها ظهراً لِبَطْن».

على هذا النحو كان التأثل والارتياش: راح الخليفة الأول وأسباب الفتوح معدودة ولم يصل قُوّاده إلى أقصى جزيرة العرب ليفتحوا بلاداً عامرة كفارس ومصر والشام كانت خزانة الثروة والأموال بما كان فيها من حضارة قديمة، وإنما تهيّأت الفتوحات وكثُرت الغنائم أيام الخليفة الثاني ففتح الله للمسلمين تلك البلاد الغنية فعفّ عنها هو ومعظم أصحابه وكان يصادر من عُمّاله من يجمع مالاً من غير حِلِّه. أما الخليفة الثالث فأخذ نصيباً من الدنيا هو وعمّاله وربما أغرَق هؤلاء في نيلها بطُرق لم تُعهد زمن الخليفتين السالفَين لأنّ معظمهم من أنسبائه وخاصّته لا يحاسَبون فيما هم فاعلون، حتى إذا جاء الخليفة الرابع أراد إرجاع الخلافة إلى طورها اللائق وقتّر على نفسه وعلى خاصته وذويه ولم يتّسع له الوقت حتى تظهَر فيها أخلاقُه بالقول والفعل لاشتغاله بدفع غوائل الفتن.

جاء معاوية فانقلبت الخلافة إلى ملك عضوض وبدأ يستكثر من المال فيعطيه الأديب والطبيب والخطيب والفقيه والكاتب والقائد والعامل ومن ماثلهم يجعلهم عدّته في توطيد الملك له

ولذريته فكثرت الأموال والناس على دين ملوكهم. ولم يكن الا قليل حتى أبدى عبدة الدرهم نواجذهم من غير نكير وكاد ينسى ما كان عليه أهل الصدر الأول الا قليلاً ففي حوادث سنة اثنتين وثلاثين **أن الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كان الفَرس يُشترى بمائة الف وحتى كان البستان يُباع بالمدينة بأربعمائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والأموال والناس يُجبى إليها خراج الممالك وهي دار الأمارة وقبة الإسلام فبطرَ الناس بكثرة الأموال والخيل والنِعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنّوا وتفرّغوا.**

وكان عبد الرحمن بن عوف الزهري أحد الثمانية الذين سبقوا الخَلق إلى الإسلام تاجراً كثير الأموال بعد أن كان فقيراً باع مرّة أرضاً له بأربعين ألف دينار فتصدّق بها كلها، وتصدّق مرة بسبعمائة جَمل بأحمالها قدمَت من الشام وأعان في سبيل بخمسمائة فرس عربية، ومات أبو طلحة الانصاري أحد من شهِد بَدراً في سنة أربع وثلاثين وكان أكثر الانصار مالاً.

وكان الزبير بن العوام ابن عمة النبي وأحد العشرة كثير المتاجر والأموال قيل كان له الف مملوك يؤدّون إليه الخراج فربما تصدّق بذلك في مجلسه وقد خلّف أملاكاً أبيعت بنحو أربعين ألف الف درهم وهذا لم يُسمع بمثله قط.

وكان طلحة بن عبيد التميمي أحد العشرة من الأجواد يقال له طلحة الفياض وطلحة الجود ويقال أنه فرّق في يوم واحد سبعمائة ألف ويروى أن إعرابياً من أقاربه قصدَه وتوسّل إليه فوصَلَه بثمانمائة ألف درهم ويروى عن عمرو بن دينار عن مولى طلحة أنّ دَخْل طلحة كان كل يوم ألف درهم ويقال أنه خلّفَ من المال ألفي ألف درهم ومائتي ألف دينار وقال ابن الجوزي: «خلّف طلحة ثلاثمائة حِمل ذهباً وروى ابن سعد بإسناد له: قومتُ أصول طلحة وعقاره بثلاثين ألف ألف درهم».

وخلّف عمرو بن العاص نائب معاوية على مصر **أموالاً عظيمة من ذلك سبعون رقبة بَعير مملوءة ذهباً وكان معاوية قد أطلق له خراج الديار المصرية ست سنين شارطه على ذلك لمّا أعانه على وقعة صفين.** جمع ابن العاص ما جمع لا من الخراج الذي كأن يستأثر به وحده وإنما من تلوّنه في أساليب استخراج المال من أهل مصر ولذا صادره عمر بن الخطاب لما كان عاملاً له عليها. روى الديري في كتاب الحبس على التهمة عن أبي القاسم بن سلام في كتاب الأموال في اسناد له عن هشام بن أبي رقية وكان ممن افتح مصر قال افتتحها عمرو بن العاص فقال: «من كان عنده مال فليأتنا به قال: فأتي بمال كثير قال: وبعد ذلك بعَث إلى عظيم أهل الصعيد فقال: المال فقال: ما عندي مال فسجنه قال: وكان عمرو يسأل من يدخل عليه هل تسمعونه يذكُر أحداً قالوا: نعم

يذكر راهباً بالطور فبعث به مع رسول من قِبله إلى الراهب فأتي بقلة من نحاس مختومة برصاص فإذا فيها كتاب وإذا فيه يا بنيّ إن اردتم مالكم فاحفروا تحت الفسقية فبعث عمرو الأمناء إلى الفسقية فحفروا فيها فاستخرجوا منها خمسين اردباً دنانير قال فضرب عنق القبطي وصلَبه».

ومصر هي أم المدن الإسلامية بثروتها وتربتها ذَهَب كما وصفها أحد حكّامها ولم يزل أمراؤها يستنزفون أموالها ففي سنة خمس وثمانين «**مات متولي مصر والمغرب عبد العزيز بن مروان الأموي أخو الخليفة وقد ولي الديار المصرية عشرين سنة وخلّف أموالاً لا تحصى**»، وسنة 515 مات بمصر الأفضل أمير الجيوش شاهنشاه أحمد بن أمير الجيوش بدر الأرمني وكانت ولايته ثمانياً وعشرين سنة على الديار المصرية و«**استولى الآمر على حواصله كلها ولم يُسمع في الدنيا بمثلها كثرة كانت دوابه باثني عشر ألف ألف دينار وكان لبن المواشي التي له يغلّ في العام ثلاثين ألف دينار، وأما ابن خلكان فنقَلَ عن صاحب الدُول المنقطعة قال: خلّف الأفضل وزير الديار المصرية وأمير جيوشها ستمائة ألف ألف دينار ومائتين وخمسين أردباً دراهم وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج**».

قيل أن جملة ما أنفقه عبد الله محمد بن أبي يوسف أحد ملوك الأندلس في سَفرة له مائة وعشرون حملاً ذهباً فكم كان في خزائنه يا ترى؟ ولا يخفى على ذي بصر أن أحوال العرب الاجتماعية لم تكن في الدرجة التي نتصورها ولو حُفظَت لنا كتبهم وسجلاتهم من الضياع لكان حُكمُنا على مدنيتهم من هذا القبيل صحيحاً لا شوب فيه ولا تخليط، ولا شك أنه كان للقوم عناية بالمال وطرق استثماره وأخبار أصحابه عنايتَهم بالشؤون التي قلما يخطر بالبال أن كتاب العرب دوّنوا فيها وصنّفوا. وما تعب يعانيه من يود الخوض في ذكر أحوال العرب على جليتها إلا ناتج من قلة الظفر بكل ما كتبوه، وقد صام القوم عن العلوم الاجتماعية قرابة خمسمائة سنة لم يكن لهم فيها بعد ابن خلدون فيما احسب كتابة ولا رسالة يصح الرجوع إليها في المعضلات.

رغب كثير من أهل الإسلام في الدنيا على أصولها ونشدوها من أبوابها وادخروا الأصفر والأبيض بعرق الجبين والكدح المشروع والطرق المعقولة والارتياض والاستنفاض والصناعات والتجارات والزراعات. وإن قلّ من جمعوا المال من حلّه وأنفقوه كذلك قلتهم في كل امة بحيث يتأتى للباحث في تراجم كبار الأغنياء في العالم أن يُرجع طبقاتهم إلى ثلاث: إمّا سارق بطرق تجارية أو صناعية كما في الغرب اليوم، أو سارق برشوة ومَظلمة كما في الشرق قديماً وحديثاً، أو وارث ترك

له أهله مالاً جَنوه بتلك الأسباب وقليل منهم بالعمل واتخاذ أسباب الرزق. ولا يعقل أن يكسب المرء من حلالٍ صرف ويسير على قانون مشروع أو معقول ويتسنى له أن يكون من رجال الخزائن والصناديق.

كان إمام أهل مصر الليث بن سعد الفهمي المتوفي سنة 175 «**مِن بحور العلم له حشمة وافرة وكان نظير ملك قيل كان دَخْل الليث في السنة ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة مال قط وكان نواب مصر من تحت اوامره**» وسنة 302 صادر المقتدر بالله العباسي حسين ابن الجصاص الجوهري وسجنه قال ابن الجوزي: «وأخذوا منه ما قيمته ستة عشر ألف ألف دينار قال بعضهم: رأيت ابن الجصاص يقبن بين يديه بالقبان سبائك الذهب قال الكتبي في ذيل الوفيات: «كان ابن الجصاص من أعيان التجّار ذوي الثروة الواسعة ولما بويع لعبد الله ابن المعتز وانحلّ أمره وتفرّق جمعه وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص هذا فوشى به خادم صغير لابن الجصاص فصادره المقتدر على ستة آلاف ألف دينار قال ابن الجوزي: أخذوا منه ما مقداره ستة عشر ألف ألف دينار عيناً وورقاً وقماشاً وخيلاً وبقي له بعد المصادرة شيء كثير إلى الغاية من دُور وقماش وأموال وبضائع وضِياع».

قال ابن الجصاص في سبب ثروته: «إنه كان في دهليز أبي الجيش خمارويه بن احمد ابن طولون وكان وكيله في ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه وما كان يفارق الدهليز لاختصاصه به فخرجت إليه قهرمانة لهم في بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم يُر قَبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه كل حبة منه تساوي مئة ألف دينار وقالت: يحتاج أن يخرط هذه حتى تصغر فتُجعل في آذان اللعب وفي قلائده قال: فكدت أطير وأخذتها وقد قُلتُ السمع والطاعة وخرجتُ في الحال مسروراً وجمعتُ مائة حبة أشكالا في النوع الذي طلبَته وأرادَته وجئتُ عشياً وقلتُ إنّ خَرطَ هذا يحتاج إلى انتظار زمان وقد خرطتُ اليوم ما قدِرنا عليه وهو هذا ودفعت إليها المجتمِع وقلت الباقي يُخرط في أيام فقنعَتْ بذلك وأعجبها الحَبّ فخرجَت وما زلت أياماً في طلب الباقي حتى اجتمَع فحمْلتُه إليها وقامت عليّ المائة حبة بدون المائة ألف درهم وأخذت منهم جوهراً بمائتي ألف ألف دينار ثم لزمت دهليزهم وأخذتُ لي غرفة كانت فيه فجعلتُها مسكني وكان يلحقني من هذا أكثر مما يُحصى حتى كثُرت النعمة وانتهيتُ إلى ما استفاض خبره».

هكذا اغتنى ابن الجصاص المتوفي بعد العشرين والثلثمائة تقريباً وله أخبار ونوادر لا تَصدر إلا عن النوكى كان يتظاهر بها ليرى الوزراء منه هذا التغفل فيأمنوه على انفسهم إذا خلا بالخلفاء.

ومما يدل على مقدار الثروة الإسلامية النظر في مصادرات الملوك لأمرائهم وقوادهم فقد صادر المنصور سنة ثمان وخمسين ومائة خالد بن برمك **وأخذ منه ثلاثة آلاف ألف ثم رضي عنه**.

وفي سنة 219 غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ونفاه، وفي سنة سبع غضب المعتصم على أحمد بن أبي دؤاد القاضي وصادره وأخذ منه ستة عشر ألف ألف درهم، وفي سنة تسع عزل القاضي القضاة يحيى بن اكثم وأخذ منه مائة ألف دينار. وكان الوزير ابن الفرات ذا جبروت وفتْك وزِّرَ مرات للعباسين ثم صودر وقُتِل، قيل كان دَخله من مُلكه في السنة ألفي ألف دينار وكان له من الخيل والمماليك والتجمّل مالا يكون مثله لسلطان. ولما جرت المحنة على الوزير أبي علي بن مقلة صاحب الخط المشهور في زمن الراضي بالله في سنة 324 أخذ خَطّه بألف ألف دينار **ومات ايتاخ التركي الأمير مقدّم جيوش الواثق سنة أربع وثلاثين ومائتين خافه المتوكل فقبض عليه وأميت عطشاً وأخذوا له ألف ألف دينار**.

جاء في ذيل الدول وسنة 753 قبَضَ السلطان على الوزير علم الدين بن زنبور وصودر بعد الضرب والعذاب فكان المأخوذ منه من النقد ما يزيد على ألفي ألف دينار، ومن أواني الذهب والفضة نحو ستين قنطاراً، ومن اللؤلؤ نحو أربعين، ومن الحياصات الذهب ستة آلاف، ومن القماش المفصل نحو ألفين وستمائة قطعة، وخمسة وعشرين معصرة سُكر، ومائتي بستان وألف وأربعمائة ساقية، ومن الخيل والبغال ألف، ومن الجواري سبعمائة ومن العبيد مائة ومن الطواشية سبعون إلى غير ذلك. وكان القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد العباسي من أملاكه في السنة سبعمائة ألف دينار **ومات سنة 301 أمير جند يسابور علي بن احمد الراسبي وخلّف تركة عظيمة منها ألف ألف دينار وألف فرس**. وخلّف أحمد ابن يونس الحراني من أطباء الأندلس ما قيمته أزيد من مائة ألف دينار نال أكثرها من الطب. وكان أبو عبد الله بن الكتاني من أطباء الأندلس وفلاسفتها ذا ثروة وغنى واسع وفي عيون التاريخ أن عبد الله بن محمد الأسدي المعروف بابن الأكفاني قاضي قضاة بغداد المتوفي سنة 405 أنفق على ما قيل مائة ألف دينار على طلب العلم. وخلّفَ خاسر

الشاعر أيام الرشيد ستة وثلاثين ألف دينار وليس هذا بعجيب على من نَظَمَ بيتين في مدح محمد بن زبيدة لما بايعه الرشيد، فحَشت فاه دُراً باعه بعشرين ألف دينار.

وذُكِر أنّ السلطان سنجر بن ملكشاه المتوفي سنة 552 صاحب خراسان وغزنة وما وراء النهر الذي خُطب له بالعراقين واذربيجان وايران وارمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة وضُربت السكة باسمه في الخافقين اصطبح خمسة أيام متوالية ذهبَ في الجود بها كلَّ مذهب فبلغ ما وهبه من العين ستمائة ألف دينار غير ما أنعم به من الخيل والخلع والأثاث وغير ذلك، وقال خازنه اجتمع في خزائنه من الأموال ما لم اسمع أنه اجتمع في خزائن احد من الملوك إلا كاسرة. وقلت له يوماً حُصّلَ في خزائنك ألف ثوب ديباج أطلس وأحِبُّ أن تبصرها فسكت وظننت أنه رضي بذلك فأبرزت جميعها وقلت أما تنظر إلى مالك أما تحمد الله تعالى على ما أعطاك وأنعمَ عليك؟ فحمد الله تعالى ثم قال: يقبح بمثلي أن يقال مالَ إلى المال، وأمر الأمراء بالأذن في الدخول عليه ففرَّق عليهم الثياب الأطلس وانصرفوا واجتمع عنده من الجوهر ألف وثلاثون رطلاً ولم يُسمع عند أحد من الملوك بمثل هذا ولا بما يقاربه - قاله ابن خلكان.

قال صاحب الدوَل: خلّف الملك الأفضل ستمائة ألف ألف ديناراً عيناً ومائتين وخمسين أردباً دراهم نقد مصر، وخمسة وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس، وثلاثين راحلة إحقاق ذهب عراقي ودواة ذهب فيها جوهر قيمته اثنا عشر ألف دينار، ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة مجالس في كل مجلس عشرة مسامير على كل مسمار منديل مسرود مذهّب بلون من الألوان أيما احب منها لبسَه، وخمسمائة صندوق كسوة لخاصته من دق تنيس ودمياط وخلّف من الخيل والرقيق والبغال والمراكب والطيب والحلي والتجمل مالا يعلم قدره إلا الله تعالى، وخلّف خارجاً عن ذلك من البقر والغنم والجواميس ما يستحي الإنسان من ذكر عدده وبلغ ضمان ألبانها في سنة وفاته ثلاثين ألف دينار ووُجد في تركته صندوقان كبيران فيهما أبر ذهب برسم الجواري والنساء.

ذكر الطبري في سنة ثلاث عشرة ومائتين أن المأمون ولى أخاه المعتصم الشام ومصر وابنه العباس بن المأمون الجزيرة والثغور والعواصم وأعطى كل واحد منهما ومن عبد الله بن طاهر الخمسمائة ألف دينار وقيل إنه لم يُفرّق في يوم واحد من المال مثل ذلك.

وكان أبو محمد عبد الله بن احمد الطالبي المصري صاحب رباع وضِياع ونِعم ظاهرة وعبيد وحاشية كثير التنعم؛ كان بدهليزه رجل يكسر اللوز كل يوم من أول النهار إلى أخره برسم

الحلوى التي ينفذها لأهل مصر من الأستاذ كافور الاخشيدي إلى من دونه فمن الناس من كان يرسل له الحلوى كل يوم ومنهم كلّ جمعة ومنهما كل شهر وكان يرسل إلى كافور في كل يومين جامين حلوى ورغيفاً في منديل مختوم قال ابن خالكان: ودفع أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم والد أبي عبد الله محمد صاحب الإمام الشافعي لهذا الإمام عند قدومه إلى مصر ألف دينار من ماله وأخذ له من ابن عسامة التاجر ألف دينار ومن رجُلين آخرين ألف دينار وكان أبو محمد من ذوي الأموال والرباع وله جاه عظيم وقدر كبير.

هذه أمثلة مما عثرنا عليه تصور للقارئ حالة الثروة عند العرب بعض التصوير والله اعلم بالصواب.

الخاصة والعامة

قال الراغب: الناس ضربان خاص وعام فالخاص من قد تخصص من المعارف بالحقائق دون التقليدات ومن الأعمال ما يتبلغ به إلى جنة المأوى دون ما يقتصر به على الحياة الدنيا، والعام إذا اعتبر بأمور الدين فالذين يرضون من المعارف بالتقليدات ومن أكثر الأعمال بما يؤدي إلى منفعة دنيوية وإذا اعتبر بأمور الدنيا فالخاص ما يتخصص بأمور البلد مما ينخرم من افتقاده إحدى السياسات المدنية والعام ما لا ينخرم بافتقاده شيء منها. وهم من وجه آخر ثلاثة: خاصة وعامة وأوساط والأوساط هم المسمّون في كلام العرب بالسوقة فالخاص هو الذي يسوس ولا يساس والعام هو الذي يساس ولا يسوس والوسط هو الذي يسوسه من فوقه وهو يسوس من دونه. ومن وجه آخر ثلاثة أضرُب: أصحاب الشهوات وهمهم الجدة واليسار والأكل والشرب، والبعال وأصحاب الكرامة والرياسة وهمهم المدح واستجلاب الصيت والمحمدة، وأصحاب الحكمة وكل واحد منهم يستعظم من هو من جنسه. قال بعض الحكماء: ما من إنسان إلا وفيه خلق من خلاق بعض الحيوانات وبعض النبات لكون الإنسان مشاركاً لها في الجنسية وإن كان مبايناً لهما في النوعية، فمن الناس غشوم كالأسد وعائث كالذئب وخبّ كالثعلب وشرِه كالخنزير وجامع كالنمل ووقح كالذباب وبليد كالحمار وأَلوف كطير الوفا ووضيع كالسرق وآنف كالأسد والنمر وغيور كالديك وهادئ كالحمام، ومنهم حَسن المنظر والمخبر كالأترج ومنهم بخلاف ذلك كالعفص والبلوط، ومنهم قبيح المنظر حَسن المخبر كالجوز واللوز، ومنهم حسن المنظر قبيح المخبر كالحنظل والدفلى، والمؤمن الخيّر هو في الحيوانات كالنحل يأخذ أطايب الأشجار ولا يقطف ثمراً ولا يكسر شجراً ولا يؤذي بشراً ثم يعطي الناس ما يكثر نفعه ويحلو طعمه ويطيب ريحه، وهو في الأشجار كالأترج يطيب حملاً ونوراً وعوداً وورقاً، والمنافق الشرير هو في الحيوانات كالقمل والأرضة وفي الأشجار كالكشوت فلا أصل له ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا زهر يفسد الثمار وييبس الأشجار، وكالشجرة التي قلّ ورَقُها وكثُر شوكها وصعُب مرتقاها.

هذا ما ذكره الأصفهاني في وصف طبقات الناس وما يُرجى منهم من المنافع وما يُخشى من مضارّهم قاله منذ زهاء ثمانمائة سنة ويقال مثله بعد قرون، كما يصح إطلاقه على ألوف من السنين من قبل. ويرى الناظر في هذه الحياة الدنيا من سلطان الأوهام الكثيرة تأثيراً في دفع الناس بعضهم عن بعض ولولا ذلك لاختل النظام أو كاد. وكان معظم تأثير الأوهام في خلال القرون الوسطى أيام انتشار الإقطاعات وتسلط الأشراف ورؤساء الديانات في الغرب أما في الشرق - ونريد به البلاد العربية - فإن الأوهام كانت تتسلط على الناس بعد الإسلام بحسب حال الحكومات المتغلبة من العقل والجهل والدين والإلحاد، ولذلك أتت على العامة أدوار كانوا يعتقدون أن الخاصة من طينة غير طينة البشر فهم أحق بالتقديس فقدَّسوهم ورفعوهم فوق أقدارهم ولم تكن نفوس الطبقة العالية من التهذيب بحيث تُحْسن استعمال هذه الامتيازات التي امتازت بها بل استعملتها ذرائع إلى الاستكثار من الثروة من غير حلها وللتبجح بالباطل بما لم يأمر به شرع إلهي ولا عقل إنساني، ولذلك صرتَ ولا تزال ترى بين الطبقة العليا والدنيا من الفروق ما لا تراه في أكثر الأمم اللهم إلا الهنود والصينيين فإن مسافة الخلف بين طبقات الناس هناك مما يعجب منه أيضاً.

انتبهَ أهل الغرب لسر الاجتماع البشري أكثر منا. والغالب أن سلطة الأشراف أو أهل الطبقة العالية بلغَتْ عندهم قبيل نهضتهم مبلغاً لا تطيقه نفس بشرية، فكان القيام على نزع تلك السلطة من أول الإصلاح عندهم ثم بقيت الطبقات تتقارب بعضها مع بعض وإلى اليوم لم يبلغ هذا التقارب أشدّه عندهم ولكنه لو قيس بما بين مختلف الطبقات في شرقنا لعُدّ غاية الارتقاء.

إذا تقارب الخاصة من العامة وعَرف كلٌّ حقه ولم يتعدّه تستقيم أحوال المجتمع وتقوى دعائمه وتثبت في نفوس أبنائه روح التضامن الحقيقي، وإذا بقيت كل طبقة مقتصرة على أهل طبقتها يحدُث بين الطبقات سوء التفاهم ما لا يكون منه حضارة ولا غبطة، والعامة هم سواد كل أمة وهم القائمون على الزراعة والصنائع المختلفة والأعمال الصعبة والخاصة أفراد قلائل وقوّتهم بأفكارهم وعقولهم في الأعم الأغلب من أحوالهم. والعاقل ينبغي له أن يُحسن الانتفاع من كل شيء في هذا الوجود فما الحال بانتفاعه من مخلوق مثله لو علّمه بعض الضروريات لكان عمله له ولغيره أتمّ وأعم.

مضى العهد الذي كان العلم فيه مقصوراً على أهل طبقة خاصة ككهنة قدماء المصريين وأشراف اليونان والرومانيين ورهبان الأديار والصوامع في القرون الوسطى. مضى ذلك الزمن

وما نظن يعود مثله على البشر بعد وقد أخذت حضارة الغرب تنفذ أنوارها حتى إلى القفار ويستنير بها المتمدن والمتوحش بحسب ما رُزِق من قوة بصر وبصيرة. طوي ذلك البساط بما عليه جملةً ولن يعود إلى سالف حاله بعد أن توفر جمهور كبير من علماء الغرب يخطبون العامة في مجالسهم بما لا يعلو عن أفكارهم ويعلمونهم في مدارس ليلية أقاموها لتعليم من لم يسعده الحظ بالتعليم وبعد أن أنشؤا جرائد خاصة ووضعوا المجلات والكتب ليلقنوهم الأفكار الصحيحة والمعارف اللازمة من أيسر الطرق وأخصرها، وبعد أن فتحوا لهم المعارض والمتاحف ودور التمثيل لتكون منهم مقومات العقول على طرف الثمام. وبعد كل ما أقاموه لمنفعتهم من أسباب التعليم يستحيل أن يغالط عامتهم في حقائق الأشياء بعد اليوم وقد غولطوا فيها زمناً طويلاً.

قال سيايل Gabriel Séailles: لا غِنية للديمقراطية عن خيرة رجال كما لا يسعها إلا أن تقدّر الذكاء والعلم والفضيلة حقّ قدرها. ولا مشاحة في أن الديمقراطية تأتي على الحواجز التي كانت تحول بين الطبقة العالية وجمهور الأمة فتدكها من أساسها وذلك لأن المجتمع يختار كبار الرجال من جمهور أهل البلاد ممن ينشئون أبداً بين ظهراني عامة الناس ولا يزالون ينمون ويتجددون بما يصدر إليهم من حوض القوة والنشاط وأعني بهذا الحوض العامة. فإذا اعتزل أولئك الرجال واقتصروا على الاجتماع بأبناء طبقتهم محتقرين ما عداها فإنهم يقضون على أنفسهم بالضعف وعلى أمرهم بالفشل. ليس الشعب هو الجمهور بل هو الأمة وهو الحاكم المتحكم. والفكر لا يكون إلا مجردات ونظريات إذا لم يكن له كيان وحقيقة تؤثر في عقول أبناء الأمة وإراداتهم. وعلى الطبقة الخاصة من الناس وهي في الأصل ممتزجة بجهلاء الأمة وأهل الوضاعة منهم أن يكون لها اتصال بالشعب وعليها أن تعمل على إقناعه لتنال ثقته تتصل به وتشركه في معرفة الحقيقة السامية التي تخضع لناموسها الإرادات مختارة وعلى مجموع من يتألف من هم المجتمع الديمقراطي أن يشتركوا في الحياة الوطنية.

ولقد وقر في نفوس خاصتنا زمناً طويلاً بأن اجتماعهم بالعامة يعد منقصة وسُبّة لذلك كانوا وأكثر من يتطاولون إلى التشبه بهم من أهل الطبقة الوسطى في العقول يشمئزون من الاختلاط بغير طبقتهم، كأنّ العلم بزعمهم يفسد إذا ألقي على من ينتفع به أو أنه تذهب برَكته ويزول بهاؤه ورواؤه وقد كان هذا الخلق يقوى في الشرق على عهد ضعف الوازعَين الديني والسياسي وانحلال التربيتَين البيتية والمدرسية.

وما مجالس الوعظ أيام الحضارة الإسلامية إلا من بَركة تلك العقول الكبيرة والتربية الراقية فكنت ترى أمثال الحسن البصري والفخر الرازي وابن الجوزي ومئات غيرهم في المساجد والمنابر يعظون العامة ليعلموهم ما حُرموا منه فيما ينفعهم في دينهم ودنياهم. بدأ ذلك على عهد الخليفة الرابع فكان يأتي بواعظ العامة ويسأله فإن رآه متمكناً من العلم بحيث لا يضل الناس بكلامه أذن له بالوعظ وإلا منعَه وما كان جلة العلماء يستنكفون من تفهيم العامة كما كانوا يعلّمون الخاصة.

وظاهر أن ما كانوا يلقونه على مسامع جمهور الناس من أنواع العلوم لم يكن في صعوبته كالذي يلقونه على خواصهم، ولذلك قلما كان يتأتى العبث بعقول العامة في القرون الستة الأولى للإسلام فقربوا من الخير والسلامة من أكثر العصور المتأخرة ممن جعلوا الدين سلماً إلى الدنيا وقشور العلم للمباهاة. ومقادير الخاصة والعامة في كل أمة نسبية في الغالب فقد يكون رجل من طبقة الخواص في أمّة فإذا قيس بغيرها من الأمم الراقية لا تُنزله إلا منزلة العوام.

قال الأصفهاني: لا شيء أوجب على السلطان من مراعاة المتصدين للرياسة بالعلم، فمن الإخلال بها ينتشر الشر وتكثر الأشرار ويقع بين الناس التباغض والتنافر وذلك أن السواس أربعة: الأنبياءُ وحكمهم على الخاصة والعامة ظاهرهم وباطنهم، والولاةُ وحُكمهم على ظاهر الخاصة والعامة دون باطنهم، والحكماءُ وحكمهم على بواطن الخاصة، والوعظةُ وحكمهم على بواطن العامة. وصلاح العالم بمراعاة أمر هذه السياسات لتخدم العامة الخاصة وتسوس الخاصة العامة وفساده في عكس ذلك ولما تُركت مراعاة المتصدي للحكمة والوعظ، وترشّحَ قومٌ للزعامة بالعلم من غير استحقاق منهم لها فأحدثوا بجهلها بدعاً استغووا بها العامة واستجلبوا بها منفعة ورياسة فوجدوا من العامة مساعدة لمشاكلتهم لهم وقرب جوهرهم منهم:

فكلٌّ قرين إلى شكلِهِ   كأُنسِ الخنافسِ بالعقربِ

وفتحوا بذلك طرقاً منسدة ورفعوا بها ستوراً مسبلة وطلبوا منزلة الخاصة فوصلوا إليها بالوقاحة وبما فيها من الشره فبدّعوا العلماء وكفروهم اغتصاباً لسلطانهم ومنازعة لمكانهم وأغروا بهم أتباعهم حتى وطؤهم بأخفافهم وأظلافهم فتولّد من ذلك البوار والجور العام.

ولقد بقي من دروس الوعظ أو القصاصين كما كانوا يدعون قديماً أثرٌ ضئيل في بعض البلاد الإسلامية، ولكن ضررها يربو على نفعها لأن من يتولون أمرها في الأكثر قلما يدركون مبلغ

أقوالهم وتأثيراتهم ومعظمهم ممن تزبّبوا قبل أن يتحصرموا فراحوا على قلة علمهم وعملهم يدعون إلى الخرافات في الأغلب يستسهلون الكلام في الزهد في الدنيا وذكر فضائل الأيام والمواسم، وأكثر خُطب الجمع من هذا القبيل أو هي أدهى وأمرّ. وأما الخاصة الحقيقيون في الأمة فقد اضطرتهم الفوضى في العِلم والنظام إلى أن يقبعوا في بيوتهم ويكونوا أحلاسها واقتصروا اليوم في تعليم العامة على من يلوذون بهم من أهلهم وأصحابهم وجيرانهم والعِشرة تعدي جراثيمها.

القيام على تعليم العامة عندنا ليس بالأمر الحديث كما هو في الغرب ولكن أصوله بليت بين أظهرنا ونمت أي نمو عندهم شأن الأمم الراقية والنازلة هذه يمسخ فيها كل شيء حتى جمال وجوه أهلها وتلك يرتقي فيها كل شيء حتى موبقاتها وشرورها. ولا نقصد بتعليم العامة أن نعلّمهم ما يصدهم عما هم بسبيله من أمور المعاش ولكننا نقصد أن يعلموا كعامة أبناء اليابان القواعد الأساسية القليلة ليستحيل بعدها التلاعب بأهوائهم ويكونوا عوناً للخاصة في كل عمل نافع لا عثرة في سبيل كل مشروع ينهضون بلا سبب معقول ويسكنون كذلك.

نريد أن يعلم العامة القراءة والكتابة البسيطة ومبادئ التاريخ والجغرافيا والحساب والاقتصاد والصحة وتدبير المنزل وشيئاً من آداب الدين التي لا تعلو عن أفهامهم، وعندما يشاركون الخاصة في الفهم إن لم يكن في معظم مسائل الوجود ففي بعضها، وهناك من الفائدة للخاصة ما لا ينكره عاقل ويكفي أنهم لا يعدّون غرباء كأنهم من عالم أخر إذا نزلوا بين قوم في الأرياف والقرى والدساكر إذ يجدون فيها من يزيل عنهم موجبات الوحشة ويقدرهم قدرهم في الجملة. هذه الطبقة من العامة إذا كثرت في الشرق العربي مثلاً تكون حاله أحسن مما هي عليه بما لا يقاس ويقل تبرم المتعلمين المنوّرين من عِشرة الأميين العاميين ولاسيما في المدن الصغرى حيث لا عقل يفكر إلا في الأمور البسيطة من المعاش وقلّ من يشارك في الشؤون العامة.

قال الجاحظ تقول العرب: لولا الوئام لهلك الأنام وقال بعضهم في تأويل ذلك لولا أن بعض الناس إذا رأى صاحبه قد صنع خيراً فتشبه به لهلك الناس وقال الآخرون إنما ذهب إلى أنس بعض الناس ببعض كأنه قال إنما يتعايشون على مقادير الأنس الذي بينهم ولو عمّتهُم الوحشة عمتهم الهلكة.

وإذا لم يتيسر لبلادنا الآن أن نؤسس لها مجامع ومدارس لهذا الضرب من التعليم فما أحرى كل من رُزق علماً خرج به عن العامية أن يجمع حوله طائفة من أهله وجيرانه يرشدهم ويلقنهم

بحسب ما يعرف ويصحح لهم أفكارهم إلقاءً ويعلّمهم ما لم يسعدهم الحظ بتعلمه في كتاب. ولا أعلم في بلادنا أحداً يهتم لتعليم العامة وتصحيح الأفكار مثل الشيخ طاهر الجزائري على اتساع مادته في العلوم المختلفة اتساعاً لم أره في عالم عربي، وقد انتبه بعض علماء فارس لهذه النكتة فأخذوا ولا سيما في العهد الأخير يخدمون العامة بما ينفعهم ويطبقون لهم المدنية على حسب عقولهم، وهم هناك بضعة عشر رجلاً ورأسهم المجتهد السيد جمال الدين فقد قرأت له خطباً في هذا الموضوع لا تقل في جودتها عن خطب أرنست لافيس وجبرائيل سيايل وغيرهما من فلاسفة فرنسا المعاصرين ممن لا يرون حطة في أقدارهم أن يتنزلوا لتعليم العامة لاعتبارهم إياهم عمد أخبية المجتمع وقواعد بنيان بني الإنسان.

إن يوماً نرى فيه هذه البلاد مملوءة بخزائن كُتب يختلف إليها العامة فيتناولون فيها ما شاؤوا من المطبوعات والأسفار البسيطة النافعة ومدارس ليلية أو نهارية ابتدائية لتعليم الكبار والصغار والبنات والصبيان ومعارض ومتاحف في كل مديرية أو متصرفية أو عمالة لهُو يوم سعيد يسوغ بعدها لأمتنا أن تدعي أنها راقية تستحق استقلالها في سياستها إذ حُرّرَت العقول من ظُلمتها.

الإخصاء في العلوم

المخصي هو الذي يتفرد بدراسة فن واحد مِن أخصى الرجل إذا تعلم علماً واحد والنتفة (كهمزة) من ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه قال في التاج: وكان أبو عبيدة إذا ذُكر له الأصمعي يقول ذاك الرجل نتفة قال الأزهري: أراد أنه لم يستقص كلام العرب إنما حفظ الوخز والخطيئة منه أي القليل. فالإخصاء هو موضوع بحثنا هنا يتوقف عليه نجاح العلم وارتقاؤه ولا يقال عن أمة أنها مرتقية في علومها إلا إذا كثر فيها الأخصائيون في كل علم من علوم الحياة والاجتماع وكل من تفردوا في الغالب وطار ذكرهم في الآفاق وتناقلت أعمالهم الأجيال بعد الأجيال والعصور غبَّ العصور وكانوا بلا مراء من أهل الإخصاء صرفوا وكدهم إلى معاناة علم واحد والنظر في دقائقه وخفاياه ودرسه من عامة أطرافه.

وَهِم قوم أن الإخصاء في العلوم يُرتجل ارتجالاً فالمهندس يتعلم الهندسة وحدها والأثري يدرس علم الآثار والمؤرخ التاريخ والكيماوي الكيمياء والطبيعي الطبيعيات والفلكي الأفلاك فيبرزون وترتقي مداركهم. ولكن دلّ تاريخ العلم في الأمم القديمة والحديثة على أنه لا يخصي في عِلم إلا من سبق له أن شارك في علوم كثيرة ولو مشاركة بسيطة لأن للعلوم علاقة بعضها ببعض كعلاقة البشر بعضهم ببعض، فكما أنه لا يتيسر النفع لأمّة أن تبقى وراء تخومها منعزلة عن جاراتها فكذلك العلم الواحد وهو ثمرة عقول العالَمين لا يُتقن إلا إذا قُدّمت له المقدّمات وشدا صاحبه شيئاً من أكثر ما ينفع، وقلّ ما سمع بأن رجل أثر في إنهاض أمة أو خدم علماً أو نَفع نفعاً بذِكر وكان ما تميز به وحده هو كل رأس ماله العلمي والعقلي، حتى أن نفس علماء الدين في الإسلام الذين أثروا تأثيراً كبيراً كانوا مشاركين في علوم الدنيا مشاركة تامة، والغزالي والماوردي والفخر الرازي وابن تيمية وابن حزم وابن القيم وأبو حاتم الرازي والجاحظ وغيرهم كثيرون لم يؤثروا في قومهم ولم يزالوا مؤثرين إلا لأنهم سعوا في تنمية ملكات عقولهم بالعلوم الرياضية والتاريخية

فعرفوا كيف يسلكون ولذلك ترى لكلامهم قبولاً لا تراه لغيرهم ممن لم يشاركوا مشاركتهم في العلوم الدنيوية.

وكذلك الحال فيمن عُرفوا بالعلوم المدنية كنصير الدين الطوسي وابن رشد وابن سينا والفارابي وعبد اللطيف البغدادي وابن الهيثم والبتاني والبيروني ومئات غيرهم لم يَنفعوا في علومهم التي تفرّدوا فيها إلا بعد أن عرفوا من علوم الدين ما حسُنت معه سيرتهم وسريرتهم.

وإذا أمعنّا النظر في تاريخ هذه الأمة نجدها لم تعهد الأخصائيين في العلوم المدنية إلا في أواخر القرن الثاني أو في منتصف الثالث على حين بدأت بالنقل وتعلُّم علوم الحضارة منذ القرن الأول للهجرة، ولما عمّت هذه العلوم وخصوصاً الفلسفية نشأ بحكم الطبع أناس متفردون ودام هذا التفرد على أشده إلى أواخر القرن السادس ثم أخذ يضعف بضعف طرق التعليم وزهد الحكومات في العلم إلا ما كان منه تحت ستار الآخرة تمويهاً على عقول السذج. وفساد السياسة فساد العالم فكيف بالعلم وهو الذي لا تنفق سوقه إلا في أرض الراحة والطمأنينة ولا يقوى إلا بالبواعث والدواعي؟

وكأنّ العقول في أهل هذه البلاد ضعفت بعد اشتغالها الطويل قروناً فأخلدت إلى الراحة طوعاً أو كرهاً في القرون الخمسة الأخيرة التي لم تبق منها إلا حثالة من فروع الدين واللغة فقط وقلَّ في كبار المشتغلين من أهلها بعقولهم من أصبح يدعى نتفة من علم فضلاً عن أخصائي. أو كأن ضعف أمة قوة أخرى كما قال بعضهم:

حياةُ بعضٍ مماتُ بعضٍ　　　　حياةُ كلٍّ محالُ فرضِ

فقد كنا هنا كلما ضعفت عقولنا وزهدنا في ترقية مداركنا وانصرفنا إلى التافه الذي لا يؤبه له قويت الأمم الغربية بعلومها ومدارك أهلها وطفق العلم يعمّ أفرادها جيلاً بعد جيل حتى جاء القرن الثامن عشر الميلادي وقد كثر الأخصائيون فيهم وزادوا في القرن التاسع عشر أي زيادة. وأتى هذا القرن العشرون وقد كاد يعمّ العلم قضهم وقضيضهم وذكورهم وإناثهم. ومِن جمهور المتعلمين يخرج في العادة الأخصائيون وهم إما مسوقون بنابل من طبيعتهم إلى إتقان فن أو فنَّين والتبريز فيهما على الأقران أو أنّ أحدهم ينمّي في نفسه الميل إلى فنّ ينفع الناس نفعاً حقيقياً. قال عبد الله بن مسلم بن قتيبة: من أراد أن يكون عالماً فليطلب فنّاً واحداً ومن أراد أن يكون أديباً فليتفنّن في العلوم.

وقال احد الحكماء: اقصُد من أصناف العلوم ما هو أشهى لنفسك وأخف على قلبك فإن نفاذك فيه على حسب شهوتك له وسهولته عليك.

ما ظَهَرَ في الغرب أمثال نيوتن ولابلاس وكيتي وشيلر وهيكل وهيجل وفيختي وماكولي ولايبنز وسبينوزا وكانط وكونت وديكارت وشوبنهور وروسو وفولتير وديدر ودروين وهاكسلي ومئات غيرهم إلا بعد أنْ نظُمَ التعليم عندهم تنظيماً حسناً وعمَّ الإصلاح أصوله وفروعه فصار الإخصاء في أفراد منهم الآن على ما يُعجب منه، بل أصبح العِلم الواحد ينقسم إلى فروع كثيرة ويَشتغل في كل فرع منه عدة أفراد. فواحد للميكروبات وآخر للعدسيات وبعضهم للأجواء وآخرون للأضواء وغيرهم للماء وفريق للسماء وأفراد للكهرباء وطائفة للكيمياء وآخرون للعيون وبعضهم للجنون وهكذا تجد لكل ما يخطر ببالك وما لا يخطر من فروع المعرفة مئات من الأخصائيين ومئات من المجامع العلمية الخاصة بها والمدارس الموقوفة عليها. وبحق ما قال أحد أساتذة كلية أكسفورد في مأدبة أقيمت لجماعة من أساتذة الإنكليز في كلية السوربون بباريز منذ شهور أن كانت القرون الوسطى هي قرون التعميم في التعليم فإن هذا العصر عصر الإخصاء فيها.

أما هذه البلاد على ما دخل إليها حتى الآن من قشور علوم الغرب فليست إلا كأوروبا في قرنها الخامس عشر أو السادس عشر تحتاج الآن إلى تعلّم ما يخرجها عن حد الأمية ثم أن تتعلم البسائط من أوليات العلوم واللغات فإذا تمت لها هذه الأمنية ينشأ فيها بحكم الطبع أولئك الأخصائيون الذين تتطالُّ نفوسنا إلى الاستكثار منهم بين أظهرنا لقيام جامعتنا وإحكام ملكات العلوم فينا والانتفاع بحقائقها ودقائقها في العمليات، لا الاقتصار على النظريات منها كما نحن فيها حتى اليوم اللهم إلا الطب والهندسة والحقوق.

إن من يقول بأن الأخصائيين اليوم بيننا ينبغي أن يكثروا بين أظهرنا وجمهور الأمة في التعليم كما ترى هو كمن يريد أن يعلم التعليم العالي لمن لم يتعلّم مبادئ القراءة والكتابة. فحالنا الآن إذا قِست ما أخذناه من بحور العلوم الزاخرة إلى ما عليه حقيقتها حال مَن لم يعرف القراءة البسيطة وأهله يريدون أن يعلموه الفلسفة التي هي علم العلوم، أو كمن هو في سَفر بعيد وتريده أن يقطع في اليوم في دقيقة وأن يعدي من سِيف البحر إلى سيفه الآخر ولا سفينة لديه، أو كمن تريده على أن يخطب في علم ما وراء الطبيعة في صحراء أفريقية.

قال لاروس في معجمه الكبير: اتّسعَت معارف البشر النظرية والعملية بعد استقرار أمرها فاحتاج الناس أن يقّسموها بحسب استعدادهم وحاجاتهم إلى أقسام لا آخر لها ينقطع إليها أفراد ويبحثون في مضامينها، فالأصول من المعارف هي المعلومات العامة وتفرعاتها هي الأخصائيات. لقد كان بادئ بدءٍ كل شيء مفهوماً في الفلسفة فكانت لفظة عام عند الأمم الجاهلة تتناول جميع العلوم وتنقسم إلى قسمين المحسوسات والمعقولات ودعيت علوم الطبيعة وعلوم ما وراء الطبيعة. أما الصنائع اليدوية فلم تكن منظمة تنظيماً معقولاً ولا جارية على طريقة معقولة، وكان أرباب الأفكار يحتقرونها فلا يمارسها إلا الصعاليك ينصرفون إليها تقليداً ويخلفون في تعلمها آباءهم بدون وقوف على القوانين الميكانيكية أو الطبيعية التي كانوا يعملون بها على الدوام.

ثم حسُنت حال الإنسان بالتدريج ودخلت الأعمال في طور نظام وانتظمت العلوم الرئيسة لاسيما الآداب والفنون وعلوم النظر والعلوم العملية أي التجارة والصناعة والحرف ونشأ الإخصاء في كل فرع من فروع هذه الطبقات. فالطبيب مضطر إلى تعلم أمور كثيرة ولا يخصي في تعاطي فرع واحد إلا في المدن أما في القرى فيمارس كل فرع من فروع الأمراض الباطنية والخارجية. وهكذا الحال في الأعمال التجارية والصناعية فإن كل حرفة أو مهنة تنقسم على أقسام تدعى تقسيم الأعمال. وقد دخل كل علم اليوم في دائرة الإخصاء حتى ما يلزم الطاهي والبائع والسوقي في المعارف فأصبح من الضروري بالنظر لتكاثر أعمال البشر وانتشارها أن يزيد أبداً الإخصاء في كل علم وشأن. وإذا نظرت إلى الإخصاء من حيث العِلم فإنه دليل الكفاءة وبدونه لا يكون عالِم فإن المبادئ الأولية من جميع العلوم هي ولا شك نافعة لكل الناس حتى العامة، ومتى حاز المرء قسطاً من هذه العلوم السطحية ورأى أن يتبحر فيها يجب عليه تعيين الموضوع الذي سينصرف إليه وبدون ذلك يتقدم المرء في علمه تقدماً بطيئاً ويخلط فيه ويبقى متوسطاً إلى الضعف. والإخصاء ضروري أيضاً في العلم العملي أي في المعامل والأعمال اليدوية وذلك للإسراع فيها ويرى أرباب معامل الأبر والخياطة في لندن أنّ في تقسيم الأعمال اقتصاداً كبيراً.

إذا قُسّمت الأعمال وأخصى المشتغلون بالعلوم وتوسعوا فيها فالإخصاء يؤدي ولا جرم إلى الضعف الأدبي. وذلك أن العاملات مثلاً إذا قضين نهارهن في عملهن السهل اللطيف في الظاهر كأن يتوفرن على إدخال الخيوط في أبرهن فإنهن لا يفقدن شيئاً من حواسهن ولكن ثبت بالإحصاء أنهن يفقدن حاسة النظر في أقرب وقت أما القوى العقلية والقوى المماثلة لها فإنها تتأذى أيضاً. أما في العلم المحض فإنّ من ينصرفون إلى الإخصاء ككثير من الرياضيين والمهندسين والفلكيين

يعيشون في العالم كأنهم ليسوا منه ويدهشون معاصريهم بغرابة أخلاقهم وتشتت أفكارهم التي جرت مجرى الأمثال. وبالجملة فيقضى على كل مخصٍ في العلم أو في الصناعة أن يحرز حظاً من المعارف لأول أمره وأن يخصي في علمين أو ثلاثة فإذا مارس أحدها أراح غيره.

وقال الراغب الأصفهاني في الذريعة: حق الناس أن لا يترك شيئاً من العلوم أمكنه النظر فيه واتسع العمر له إلا ويخبر بشمه عرفَه وبذوقه طيبه ثم أن ساعده القدر على التغذي به والتزود منه فيها وإلا لم يَصر لجهله بمحله وغباوته عن منفعته إلا معادياً له بطبعه:

فمن يكُ ذا فم مُرّ مريضٍ يجد مُرّاً به الماءَ الزُلالا

فمن جهِل شيئاً عاداه والناس أعداء ما جهلوا بل قال الله تعالى: وإذا لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم. وحكي عن بعض الفضلاء أنه رؤي بعد ما طعن في السن وهو يتعلّم أشكال الهندسة فقيل له في ذلك فقال: وجدته عِلماً نافعاً فكرهتُ أن أكون لجهلي به معادياً له ولا ينبغي للعاقل أن يستهين بشيء من العلوم بل يجعل لكلّ حظَّه الذي يستحقه ومنزلَه الذي يستوجبه ويشكر من هداه لفهمه وصار سبباً لعلمه. ولقد حُكي عن بعض الحكماء أنه قال: يجب أن نشكر أيادي الذين ولَّدوا لنا الشكوك إذ كانوا سبباً لما حرك خواطرنا لطلب العلم فضلاً عن شكر من أفادنا طَرَفاً من العلم ولولا مكان فكر من تقدّمَنا لأصبح المتأخرون حيارى قاصرين عن فِهم مصالح دنياهم فضلاً عن مصالح أخراهم. فمن تأمل حكمة الله تعالى في أقل آلة يستعملها الناس كالمقراض حيث جمع سكينين مركّباً على وجه يتوافى حدّاهما على نمط واحد للقرض أكثرَ تعظيمَ الله تعالى وشُكرَه ويقول سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين.

ومن أجمل ما يروى في باب الانفراد بعِلم والإلمام بعلوم أخرى ما قاله أبو حاتم السجستاني قال: قدِم علينا عاملٌ من أهل الكوفة لم أرَ في عُمّال السلطان أبرع منه فدخلت عليه مُسلّماً قال: يا سجستاني مَن علماؤكم بالبصرة؟ قلت: الزيادي أعلمُنا بعِلم الأصمعي، والمازني أعلمُنا بعلم النحو، وهلال الرازي أفقهنا، والشاذكوني أعلمُنا بالحديث وأنا أنسب إلى علم القرآن، وابن الكلبي أكتبُنا للشروط فقال لكاتبه: إذا كان غداً فاجمعهم لي فجمعَنا فقال: أيُّكم المازني؟ فقال أبو عثمان أنا. فقال: هل يجزىءُ في كفارة الظهار عتق عبد أعور؟. فقال المازني: أنا صاحب عربية لست بصاحب فقه. فقال: يا زياد كيف تكتب بين رجل وامرأة خلعَها زوجها على الثلث من صداقها؟، فقال: ليس هذا من

علمي هذا من عِلم أبي حاتم. فقال لي: يا أبا حاتم كيف تكتب إلى أمير المؤمنين تصَف فيه خصاصة أهل البصرة وما أصابهم في الثمرة من الجوائح وتسأل النظر لهم؟ فقلت: أنا صاحب قرآن لست بصاحب بلاغة وكتابة فقال: أقبِح بالرجل يتعاطى العلم خمسين سنة ولا يعرف إلا فنّاً واحداً حتى إذا سُئل عن غيره لم يحر فيه جواباً لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا لأجاب.

ومن استقرى تاريخ العرب يجد من أمثال الكسائي مئات كما قلنا ممن كتب لهم التقدم في علوم كثيرة فقد ذكر ابن خلكان وابن أبي أصيبعة في ترجمة كمال الدين بن يونس المتوفى سنة 639 وهو ممن لم يشتهروا كثيراً بيننا أنه تبحّر في جميع الفنون وجَمع من العلوم ما لم يجمعه أحد وتفرّد بعلم الرياضة وكان الفقهاء يقولون أنه يدري أربعة وعشرين فنّاً دراية متقنة منها المذهب والخلاف العراقي والبخاري وأصول الفقه وأصول الدين والحكمة والمنطق والطبيعي والإلهي والطب وفنون الرياضة من إقليدس والهيئة والمخروطات والمتوسطات والمجسطي وأنواع الحساب المفتوح منه والجبر والمقابلة والأرثماطيقي وطريق الخطأين والموسيقى والمساحة معرفة لا يشاركه فيها غيره إلا في ظواهر هذه العلوم دون دقائقها والوقوف على حقائقها، واستخرج في علم الأوفاق طرقاً لم يهتد إليها أحد وكان يبحث في العربية والتصريف بحثاً مستوفياً وكان له في التفسير والحديث وما يتعلق به وأسماء الرجال يد طولى، وكان يحفظ من التواريخ وأيام العرب ووقائعهم والأشعار والمحاضرات شيئاً كثيراً، وكان أهل الذمة يقرؤن عليه التوراة والإنجيل وشرح لهما هذين الكتابين شرحاً يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما له مِثله، وكان في كل فنّ من هذه الفنون كأنه لا يعرف سواه لقوَّته فيه قال صاحب وفيات الأعيان: وبالجملة فإن مجموع ما كان يعلمه من الفنون لم يُسمع عن أحد ممن تقدّمه أنه قد جمعه قال أبو بشر ثمامة بن الأشرس الخميري المعتزلي وكان خصيصاً بالمأمون: رأيت رجلاً يتردد على باب المأمون ورأيت عليه أبهة أديب فجلست إليه ففاتشته في اللغة فوجدته بحراً وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيج وحده وعن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً عارفاً باختلاف القوم وبالنجوم ماهراً وبالطب خبيراً وبأيام العرب وأشعارها فقلت له من تكون وما أظنك إلا الفراء فقال: أنا هو.

وكان القاضي أبو الفرج المعافي النهرواني فقيهاً أديباً شاعراً عالماً بكل فن قال ابن خلكان ذكَرَ أحمد بن عمر بن روح أن أبا الفرج المذكور حضر في دار لبعض الرؤساء وكان هناك جماعة من أهل الأدب فقالوا: في أي نوع من العلوم نتذاكر فقال: ابو الفرج لذلك الرئيس خزانتك قد جمعت أنواع العلوم وأصناف الأدب فإنْ رأيتَ أن تبعث غلاماً إليها فتأمره أن يفتح بابها ويضرب بيده إلى

أي كتاب منها فيحمله ثم يفتحه وينظر في أي العلوم فنتذاكره ونتجارى فيه وقال ابن روح: وهذا يدل على ان أبا الفرج كان له أنسة بسائر العلوم وكان أبو محمد الباجي يقول إذا حضَر القاضي أبو الفرج فقد حضرت العلوم كلها. وقال: لو أوصى رجل بثلث ماله لأعلم الناس لوجب أن يدفع إلى أبي الفرج المعافى وكان ثقة مأموناً في روايته. هذا ما حضرَنا من أمر الإخصاء والأخصائيين ولعل بعض مؤازرينا يكتبون فصلاً واسعاً في حالة الإخصاء عند الغربيين والطرق التي يعتمدون إليها بتفصيل أوسع وأشفى.

المعتزلة

من العادة أنّ كلّ فرقة أو أهل مذهب إذا أرادت أن تصِف الفرقة المخالفة لها تبخسها حقها وربما نَسبت إليها ما لم تقله اعتقاداً منها بأن تنفير الناس عن المخالف والدعوة إلى المذهب لا يتيسران إلا بهذه الطريقة الغثة الباردة حتى أن بعضهم جوّزوا الكذب على المخالف وما ندري أي دين سماوي أو مذهب فلسفي يجوّز الكذب في أمثال هذه المسائل. والمعتزلة ما خلوا ممن يرميهم بما ليس فيهم خصوصاً أيام استحرت المجادلات بينهم وبين الفرق الأخرى من أهل الإسلام أيام كانوا ممتّعين على عهد أوائل الدولة العباسية بحريتهم الدينية على أصولها ولم يلاقوا من أرباب السلطة شدة ولا عنتاً. وقد كثر بحث الغربيين في العصر الأخير عن المعتزلة ومنشأهم حتى قال بعضهم أن من سوء طالع المسلمين أن ينقرض المعتزلة فإنهم كانوا معدلين لأمزجة الحكومات وأرباب المذاهب الأخرى إذ جروا مع العقل وطبّقوا المنقول على المعقول ونظروا إلى الجوهر أكثر من العارض ومن حكَّم العقلَ في أقواله وأفعاله يحترمه أحبابه وخصومه على السواء.

ولقد استطلعنا رأي أحد كبار علماء الإسلام في أمر المعتزلة فأملى علينا الجملة التالية فكانت خلاصة أحوالهم وغاية الغايات في الإفصاح عنهم. قال دام نفعه:

في أواخر عصر الصحابة ظهرت ثلاث فرق من فرق الإسلام أولاها الخوارج وهذه الفرقة من الفرق التي اعترضت على علي بن أبي طالب في تجويزه التحكيم بأمر الخلافة وكانت تحكُم بكفر الفاسق صريحاً كشارب الخمر ونحوه فضلاً عمن يسعى في سفك دماء المسلمين لأجل مأرب دنيوي ومذهبها مبني على هذه القاعدة. وكان في ذلك العصر قد دخلت الناس أفواجاً في دين الإسلام بسبب الفتوحات العظيمة وأكثرهم ممن لم يتهذب بمكارم أخلاق الدين فكان الناس يسمون المتساهل في الدين فاسقاً ويجعلونه من المسلمين البتة وكان كثير من الناس يصرح بأن الأمور كانت مقدرة عليهم تخفيفاً عنهم من الملام وفي خلال ذلك هبت فرقة لهم شِدة تمسّكٍ بالدين وتحلٍ بآدابه فأنكروا

ذلك وصرحوا بأن الإنسان مختار في أعماله وأن الله تعالى لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه وجعلوا الناس ثلاثة أقسام مؤمن وكافر وفاسق فالمؤمن من يقوم بجميع شروط الدين والكافر الجاحد مطلقاً والفاسق من أتى بكبيرة ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن واعتزلوا مجلس الحسن البصري لأنه لم يرضَ بالتصريح بسلب اسم المؤمن عن الفاسق فسميت هذه الفرقة المعتزلة. وفي أثناء ذلك ظهرت فرقة هي بالفرقة السياسية أشبه منها بالفرقة الدينية وهي فرقة الشيعة المشايعة لأمير المؤمنين على بن أبي طالب والشيعة حزبان حزب منهم كانوا يقولون أنه هو الأحق بالخلافة غير ان عوارض الأحوال أوجبت تأخيره لكثرة أعدائه من المنافقين وغيرهم وكانوا لا يطعنون في الذين أخروه عنها وقسم آخر يقولون إنما أخّروه لعداوة في أنفسهم لا رعاية لمصلحة الأمة ثم أخذَ كلّ مَذهب دوراً من الأدوار كما يُعلم من التواريخ المفصلة.

وإذا كان الخوارج أرباب حرب وضَرب وتحمّس في الدين وعبادة ونسك ولم يكن لهم بصيرة في العلم كانت أمورهم العلمية بسيطة جداً وأكثر ما يقابِلون به السيف. أما المعتزلة فكانوا في أمرهم أرباب تؤدة وتأنٍ واستبصار بما يقتضيه الوقت وكان مقتضى مذهبهم القيام بإنكار المنكر ولو أفضى الأمر إلى سلّ السيف إلا إن كان ذلك مشروط فيه الإمكان، فكان المعتزلة بغيضين إلى فريقين العامة والأمراء، أما الأمراء فلِما يشترطونه في الإمارة من الشروط التي إذا انتشرت في أفكار العامة لم يتيسر لأمير أن ينطلق في أمر الأمّة بما يشاء وأما العامة فلأنهم ينفرون ممن يُخرجهم عن الدين بمجرد إتيان المنكرات التي أَطلق لهم العنان فيها من طرفٍ خفيّ أمراءُ السوء الذين يهمهم أن تكون العامّة ممن يعينونهم على مقاصدهم وكانت هذه الفرقة أعظم الفرق في المفاضلة عن الدين وردّ شُبَه الملحدين، وكان الجمهور يقولون لا حاجة لنا إلى الجدل فإن كلّ من خالفنا استتبناه فإن تاب فيها ونعمت وإلا طهّرنا الأرض بسفك دمه عليها. ولم يزل الأمر كذلك حتى أفضت النوبة إلى المأمون وكان ممن خالط ناساً منهم وكان لهم دهاء عظيم في مخالطة الطبقات العالية مع انكماشهم وشدّة وَرَعِهم فتلقّفَ المأمون أفكارهم فقويت في نفْسه، فلما أفضت الخلافة إليه بادر إلى إعلانها وكان مقتضى الحال أن يدعو إلى مذهبهم كما يقتضيه حال كلّ مَن أخذَ بمذهب، إلا أن المأمون للمبدأ الذي كان عليه وهو إطلاق الحرية للموافق له والمخالف وجد من الواجب أن يطلق العنان لكُل الفرق، فالتي أخطأت يتيسر إقناعها بالحجة والبرهان والتي معها الحق ينبغي أن تُتّبع على ما معها منه فانطلقت في عصره جميع الفرق وجعل في داره مجالس للمناظرات بين أرباب الملل والنِحل وكان العصر المُفرد في ذلك.

ثم لما أفضى الأمر من بعده خفَّ إطلاق العنان لهم. غير أنه بقيت في ذلك بقية حتى أفضت النوبة إلى المتوكل فقام في اضطهاد الفرق المخالفة للجمهور رعاية لمشرب العامة وخلاصاً من فرقة إذا قوي أمرها في مشارق الأرض ومغاربها كان فيها الخطر على أمر الخلافة لأنها شرطت فيها شروطاً يصعب القيام بها على كثير، ولم تزل حالة المعتزلة بين انخفاض وارتفاع حتى انحطت الأمة انحطاطاً زائداً وقبل انقراضها كان كثير من الملوك يسعى إلى إبادتهم بالسيف كما يُعلم من التاريخ ولم يبقَ لهم ملجأ غير اليمن فإن فيه تكوّنَ حزبٌ ذو عدة وعدة يصعب محوه وهم المسمّون: الزيدية فما الزيدية إلا فرقة من فرق المعتزلة يخالفون جمهورهم في بعض مسائل الإمامة ونحوها.

ومذهب المعتزلة في كون الإنسان مختاراً ليس كما ينقله عنهم المخالفون لهم، فإنهم ينقلونه على صيغة مستبشعة ينفر منها العوام فضلاً عن الخواص فمن ثم وافقهم عليه كثير من علماء أهل السنة كما وافقهم على كثير مسائلهم الفرعية التي استخرجوها، وكانت هذه الفرقة كثيراً ما تُذكَر في التاريخ بأنها معتزلة مع أن المترجم يكون من المخالفين للمعتزلة في باقي مسائلهم أشد المخالفة فكان يقع للناظر في التواريخ اضطراب وحقيقة الأمر تُفهم مما ذكر التاج السبكي في الطبقات فقد نقل في ترجمة القفّال عن الحافظ ابن عساكر أنه قال في القفّال: بلغني أنه كان مائلاً عن الاعتدال قائلاً بالاعتزال في أوّل أمره ثم رجع إلى مذهب الأشعري. قال السبكي وهذه فائدة جليلة انفرجت بها كربة عظيمة وحسيكة في الصدر جسيمة، فإن مذاهب تحكي عن هذا الإمام في الأصول لا تصح إلا على قواعد المعتزلة وطال ما وقع البحث في ذلك حتى توهم أنه معتزلي واستند الوهم إلى ما نقل أن أبا الحسن الصفار قال سمعت أبا سهل الصعلوكي وسئل عن تفسير الإمام أبي بكر القفّال فقال قدّسه من وجه ودنّسه من وجه أي دنّسهٌ من جهة نصرة مذهب الاعتزال. والقفّال هو أستاذ عصره قرأ عليه الأشعري علم الفقه وقرأ هو عليه علم الكلام وهو معدود من كبار أئمة الشافعية وعلّل السبكي ذلك بقوله: اعلَمْ أن هذه الطائفة من أصحابنا ابن سريج وغيره كانوا قد برعوا في الفقه ولم يكن لهم قدم راسخ في الكلام وطالعوا على الكِبر كُتب المعتزلة فاستحسنوا عباراتهم.

والمعتزلة هم الذين أحدثوا علم الكلام وكان الأولون ينهون عنه إلا أن النفوس لما كانت مولعة بالعلم مطلقاً تابعهم عليه غيرهم وألّفوا فيه كثيراً وأوهموا اللائمين لهم بأن الكلام المنهي عنه إنما هو الكلام على طريقة المعتزلة غير أن الكتب التي أُلِّفَت على طريقة المعتزلة أمتن جداً لما كان في أصولهم من منع التقليد البتة ولذلك لم يكن بعضهم يقلد بعضاً وإنّ كل إنسان مكلّف بقَدَر ما أدّاه إليه اجتهاده ووسعه ولا يخفى الفرق بين المقيّد والمطلق. وهم الذين وسعوا أصول الفقه حتى أن

أكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم غير أنّ الأصوليين لم يحبوا أن يتركوها لهم وهذا ظاهر لمن يتتبع فن الأصول عصراً فعصراً. وأما ما يرميهم به خصومهم من أن الاعتزال نشأ من انتشار كتب الفلسفة فهي فرية لأن الاعتزال وقواعده الأصلية نشأت قبل ترجمة كتب الفلسفة المتعلقة بالإلهيات بلا خلاف وكثير مما قالوه كمسألة الاختيار المطلق ومسالة خلود العاصي مؤبداً ونحو ذلك كان يستعين خصومهم في الرد عليهم بها بكلام الفلاسفة، وإنما كان دأب المعتزلة بمقتضى متانتهم أن يخوضوا في أي شيء كان من العلوم التي كانت قبل وأن يجرؤوا على ما يظهر لهم لاعتقادهم وجزمهم بأنه لا توجد حقيقة تختلف عن الدين فكانوا أشد الناس إسراعاً للخوض في الفنون، وأكثر المؤلفات النهمة في العلوم المنوعة ما عدا الفقه يدُهم فيها أطول من يد من يخالفهم إجمالاً. والتاريخ يُظهر ذلك بأجلى مظاهره وأما الفقه فإنهم أخذوا فيه بما أخذ به غيرهم لاعتقادهم أن الخطب فيه سهل غير أن لهم في الفقه دقائق غريبة يجدها الإنسان في تضاعيف الكتب هم منشئوها، وأما الحديث فإنهم رأوا كثرة الوضع وظهر لهم أن التمييز بين الصحيح وغيره يعسر ولا سيما ما روي من طُرق غيرهم فإنهم لا يطمئنون إليه لاعتقادهم أن كثيراً من أهل الورع والصدق من غيرهم ربما يجوّزون وضع الحديث للمصلحة، وشاهدوا في عصرهم أحاديث وضِعت في حقهم مثل «القدرية مجوس هذه الأمة» فنفروا من المحدِّثين وثلبوهم أشد ثلب. ولما كان علم الحديث أهم علوم الدين وهم أشد الناس ولوعاً به ذهبوا إلى قاعدة غريبة وهي أن كل حديث لا يخالف القرآن وهو قريب من مقاصد الشارع أو كان مما يدل على مكارم الأخلاق سلّموا به إجمالاً بدون نظر في رواته وما وجدوه مخالفاً لذلك ردّوه البتة ومن هذا نشأ كثرة ما تراه من ذكر الأحاديث في كتب مثل الجاحظ والزمخشري وغيرهما من أئمة المعتزلة فهم يبحثون عن القول لا عن الراوية.

غير أنهم يعتقدون أن من أخذوا بقوله كان على مذهبهم ومشربهم. وقد وقع في التواريخ مناقشات كثيرة في مسألة نِحل كثير من المشهورين في العلم والفصل والسبب في ذلك أن كثيراً من المتقدمين كانوا لا يصرّحون بما يصرح به المتأخرون فكان كل فريق يدعي أن فلاناً منهم ويظهر لمن راجع كتب مناقب المشهورين على طريقة المتقدمين فإنهم كانوا يفيضون في كل شيء على طريقة المتأخرين الذين يطوون كل شيء لا يوافق مآربهم الخاصة ظناً منهم أنهم بذلك يحسنون صنعاً وكثيراً ما يذكرون منقبة وهي في الباطن مثلبة وربما كانت موضوعة.

ما يبلغُ العاقلُ من جاهلٍ ما يبلغ الجاهل من نفسهِ

هذا ما قاله ننقله بلفظه ومعناه من لسان ذاك الإمام الكبير وقد قال المرتضى وإماما أجمعوا عليه فقد أجمعت المعتزلة إلى أن للعالم محدثاً قديماً قادراً عالماً حياً لا لمعانٍ ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عيناً واحداً لا يدرك بحاسة عدلاً حكيماً لا يفعل القبيح ولا يريده كلف تعريضاً للثواب ومكن من الفعل وأزاح العلة ولابد من الجزاء وعلى وجوب البعثة حيث حسنت، ولا بد للرسول صلى الله عليه وآلة من شرع جديد أو إحياء مندرس أو إفادة لم تحصل من غيره وأن آخر الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن معجزة له وإن الإيمان قول ومعرفة وعمل وأن المؤمن من أهل الجنة وعلى المنزلة بين المنزلتين وهو أن الفاسق لا يسمى مؤمناً ولا كافراً إلا من يقول بالإرجاء فإنه يخالف في تفسير الإيمان وفي المنزلة فيقول الفاسق يسمى مؤمناً وأجمعوا على أن فعل العبد غير مخلوق فيه وأجمعوا على تولي الصحابة واختلفوا في عثمان بعد الأحداث التي أحدثها فأكثرهم تولّاه وتأولّ له وأكثرهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص وأجمعوا على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي تعداد علمائهم مصنفات عدة كالمصابيح لابن يزداذ وغيره. هذا ما قاله واحد منهم في حقيقة ما أجمعوا عليه.

وإليك ما قاله الشهرستاني صاحب الملل والنحل وهو ليس منهم: «والمعتزلة ويسمون أصحاب العدل والتوحيد ويلقّبون بالقدرية وهم قد جعلوا لفظ القدرية مشتركاً وقالوا لفظ القدرية يُطلق على من يقول بالقدر خيره وشره من الله تعالى احترازاً عن وصمة اللقب إذ كان الذم به متفقاً عليه لقول النبي عليه السلام القدرية مجوس هذه الأمة، وكانت الصفاتية تعارضهم بالاتفاق على أن الجبرية والقدرية متقابلتان تقابلَ تضاد، فكيف يُطلق لفظ الضد على الضد وقد قال النبي عليه السلام القدرية خصماء الله في القدر والخصومة في القدر وانقسام الخير والشر على فعل الله وفعل العبد لن يُتصور على مذهب من يقول بالتسليم والتوكل وإحالة الأحوال كلها على القدر المحتوم والحكم والمحكوم، فالذي يعمّ طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول أن الله تعالى قديم والقِدَم أخص وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا هو عالم بذاته حي بذاته لا بعلم وقدرة وحياة وهي صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات في القِدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق في محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه فإنما وجد في المحل عرض فقد فنيَ في الحال، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معاني قائمة بذاته ولكن اختلفوا في وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفي رؤية الله تعالى بالأبصار في دار القرار ونفي التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسماً

وتحيزاً وانتقالاً وزوالاً وتغيراً وتأثراً، وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها وسمّوا هذا النمط توحيداً واتّفقوا على أنّ العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والرب تعالى منزّه أن يضاف إليه شر وظلم وفعل هو كفر ومعصية لأنه لو خلق الظلم كان ظالماً كما لو خلق العدل كان عادلاً، واتفقوا على أن الحكيم لا يفعل إلا الصلاح والخير ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسموا هذا النمط عدلاً واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض، والتفضل معنى آخر وراء الثواب، وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسمّوا هذا النمط وعداً ووعيداً، واتفقوا على أن أصول المعرفة وشكر النعمة واجب قبل ورود السمع، والحَسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل واعتناق الحسن واجتناب القبيح واجب كذلك، وورود التكاليف ألطافٌ للباري تعالى أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء عليهم السلام امتحاناً واختباراً ليهلَك من هلك عن بينة ويحيى من حيّ عن بينة واختلفوا في الإمامة والقول فيها نصاً واختياراً».

وهنا ذكر الشهرستاني مقالة كل طائفة من طوائف المعتزلة مثل الواصلية أصحاب أبي حذيفة واصل بن عطاء والهذيلية أصحاب أبي الهذيل حمدان بن أبي الهذيل العلاف والنظامية أصحاب إبراهيم بن سيار بن هاني النظام والحائطية أصحاب أحمد ابن حائط والحدثية أصحاب فضل بن الحدثي والبِشرية أصحاب بشر بن المعتمر والمعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي والمزدارية أصحاب عيسى بن صبح المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار والثمامية أصحاب ثمامة بن أبي أشرس النميري والهشامية أصحاب هشام بن عمرو الفوطي والجاحظية أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ والخياطية أصحاب أبي الحسين بن أبي عمرو الخياط والجبائية والبهشمية أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي وابنه أبي هاشم عبد السلام.

ومِن رجال المعتزلة الحسنان عليهما السلام ومحمد بن الحنفية وسعيد بن المسيب وأبي الأسود الدؤلي وعلقمة والأسود وشريح من أصحاب عبد الله بن مسعود والحسن البصري وعبد الله بن عمر وأبو الدرداء وأبو ذر الغفاري وعبد الله بن عباس وغيلان بن مسلم الدمشقي قتله هشام بن عبد الملك وقتل صاحبه صالحاً في أبشع صورة لأنه أنكر على بني أمية سوء سياستهم في الرعية وواصل بن عطاء وهو الذي أنفذ أصحابه إلى الآفاق وبث دعاته في البلاد فبعث عبد الله بن الحارث إلى المغرب فأجابه خلق كثير وبعث إلى خراسان حفص بن سالم وبعث القاسم إلى اليمن وبعث

أيوب إلى الجزيرة وبعث الحسن بن ذكوان إلى الكوفة وعثمان الطويل إلى أرمينية ومنهم عمرو بن عبيد وكان المنصور العباسي يبالغ في تعظيمه ورثاه وقلما عهد أن الخليفة رثى رعية بقوله:

صلّى الإله عليك من متوسّدٍ	قبراً مررت به على مُرَّانِ
قبراً تضمن مؤمناً متخشعاً	عبَد الإلهَ ودان بالقرآنِ
وإذا الرجال تنازعوا في شبهةٍ	فصل الحديثَ بحجة وبيانِ
ولو أنّ هذا الدهر أبقى صالحاً	أبقى لنا عمراً أبا عثمانِ

ومنهم أبو الهذيل العلاف الذي قال فيه المأمون أطلّ أبو الهذيل على الكلام كإطلال الغمام على الأنام. ومنهم إبراهيم النظام وهو الذي يقول فيه الجاحظ: الأوائل يقولون في كل ألف سنة رَجل لا نظير له فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو إسحاق النظام، وبشر بن المعتمر الهلالي وأبو عمرو بن بحر الجاحظ وعبد الرحمن بن كيسان الأصم وأحمد بن أبي داؤد وثمامة بن الأشرس ومنهم الجعفران اللذان يضرب المثل بعلمهما وزهدهما كما يضرب المثل في حسن السيرة بالعُمَرين وهما أبو محمد جعفر بن مبشر الثقفي وأبو الفضل جعفر بن حرب ومنهم أبو جعفر الإسكافي وأبو عبد الله الدباغ وأبو علي الجبائي ومنهم أبو العباس الناشيء ومحمد بن عمر الصيمري والسيرافيان أبو القاسم وأبو عمران وقاضي القضاة عبد الجبار الهمداني ومنهم الصاحب بن عباد والقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني والجوهري صاحب الصحاح والشريف المرتضى وأبو بكر الرازي وأبو بكر الدينوري.

ومما يؤثر من أخلاق أئمة المعتزلة وورعِهم ما قاله الواثق لأحمد بن أبي داؤد: «لم لا تولّي أصحابي (أي المعتزلة) القضاء كما تولّي غيرَهم؟ فقال يا أمير المؤمنين إن أصحابك يمتنعون من ذلك وهذا جعفر بن مبشر وجّهتُ إليه بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها فذهبتُ إليه بنفسي واستأذنتُ أن يأذن لي فدخلتُ من غير إذن فسل سيفه في وجهي وقال الآن حلَّ لي قتلك فانصرفت عليه فكيف أولي القضاء مثله». وروي أن أحد أئمتهم جعفر بن مبشر أضرت به الحاجة حتى كان يقبل القليل من زكاة أخوانه فحضرَه يوماً بعض التجار فتكلّم بحضرته في خطبة نكاح فأُعجب به ذلك التاجر فسأل عنه فأُخبرَ بمسكنته فبعث إليه بخمسمائة دينار فردها فقيل له قد عذرناك في رد مال السلطان

للشبهة وهذا تاجرماله من كسبه فلا وجه لردّك فقال جعفر إنه استحسن كلامي أفتراني أن آخذ على دعائي إلى الله تعالى موعظتي ثمناً لو لم أكن فعلت هذا ثم ابتدأني لقبِلت. وروي أن بعض السلاطين وصله بعشرة آلاف درهم فلم يقبل وحمَلَ إليه بعض أصحابه بدرهمين من الزكاة فقبل فقيل له في ذلك فقال: أرباب العشرة أحق بها مني وأنا أحق بهذين الدرهمين لحاجتي إليهما وقد ساقهما الله إلي من غير مسألة وأغناني بهما عن الشبهة والحَرام.

وفي طبقات السبكي: قال ابن الصلاح هذا الماوردي عفا الله عنه يُتهم بالاعتزال وقد كنت لا أتحقق ذلك عليه وأتأوّل له وأعتذر عنه في كونه يورِد في تفسيره في الآيات التي يختلف فيها أهل التفسير تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة غير متعرض لبيان ما هو الحق منهما وأقول لعلّ قصده إيراد كل ما قيل من حق أو باطل ولهذا يورد من أقوال المشبّهة أشياء مثل هذا الإيراد حتى وجدته يختار في بعض المواضع قول المعتزلة وما بنوه على أصولهم الفاسدة، ومن ذلك مصيره في الاعتراف إلى أن الله لا يشاء عبادة الأوثان قال في قوله تعالى: «وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الأنس والجن» وجهان: في «جعلنا» أحدهما معناه حكمنا بأنهم أعداء والثاني تركناهم على العداوة فلم نمنعهم منها وتفسيره عظيم الضرر لكونه مشحوناً بتأويلات أهل الباطل تلبيساً وتدليساً على وجه لا يفطن له غير أهل العلم والتحقيق مع أنه تأليف رجل لا يتظاهر بالانتساب إلى المعتزلة بل يجتهد في كتمان موافقتهم فيما هو لهم فيه موافق ثم هو ليس معتزلياً مطلقاً فإنه لا يوافقهم في جميع أصولهم مثل خلق القرآن كما دل عليه تفسيره في قوله عز وجل: «ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدَثٍ» وغير ذلك ويوافقهم في القدر وهي البلية التي غلبت على البصريين وعيبوا بها قديماً.

فتنة جبل الدروز

إلى الجنوب من دمشق على نحو عشرين ميلاً منها كورة واسعة مخصبة الرباع اسمها حوران فيها نحو ستمائة قرية وفي شرقي تلك الكورة إقليم ممرع فيه السهل والجبل إلا أنه أُطلق عليه اسم جبل حوران كما يقال له جبل الدروز الآن لأن معظم سكانه منهم وهو يمتد من شمالي حوران إلى جنوبه ويحدّه من الشمال اللجاة وهي أرض بركانية ذات حرار وعرة للغاية ومن الشرق البادية ومن الجنوب قفر مترامي الأطراف يتصل بوادي الحجاز ومن الغرب الجنوبي النقرة والنقرة سهل جيد التربة في وسط حوران.

وطول هذا الجبل نحو 15 ساعة على راكب المطايا وعرضُهُ 8 ساعات وهو من الجهة الجنوبية والجهة الغربية أي نحو ثلاثة أرباعه سهل خصيب تضاهي تربته تربة السهل من بلاد حوران وغوطة دمشق والبقاع العزيز وربما كانت أحسن منها وفيه 108 قرى ويقدر نفوسها عل التخمين بخمسين ألف نسمة وربما استطاع حمل السلاح منهم نحو ثمانية آلاف. وآخر عمل فظيع قاموا به أنهم غزوا جيرانهم من أهل قريتي معربة وغصم وسكانهما مسلمون ومسيحيون فقتلوا 59 رجلاً وجرحوا ثلاثة بين القتلى أربع نساء بينهن والدة شيخ معربة وزوجته وأخته ونهبوا القسم الأعظم من السهوة وجيزة وسماقية وطيسة من بلاد السهل فطفح كأس الصبر منهم ولم تر الدولة بُدّاً من إرسال حملة عليهم تؤدب عصاتهم وتضرب على أيدي الفوضويين والعدميين منهم وتؤلّف شاردهم وتؤمّن خائفهم وتخضعهم للقوانين كسائر الأفراد العثمانيين.

ولعل كثيرين يتساءلون عن تاريخ عمران هذا الجبل ونزول الدروز فيه فالمعروف من حاله أنه كان في الدولة القديمة تابعاً لحوران تشهد بذلك الآثار القليلة الباقية إلى اليوم في بعض أمهات قراه مثل السويداء قاعدته القديمة وصرخد وقنوات فإن الكتابات اليونانية واللاتينية والنبْطية والعربية المكتوبة بخط سباءٍ تدل على أنه كان عامراً للغاية.

وفي السويداء بل في أكثر قرى الجبل على ما انتابها من الخراب والتدمير بعض الآثار اليونانية والرومانية مثل القناة والمعبد والمسلة يُظن أنها من القرن الرابع والخامس للميلاد والجامع الخرب المزبور عليه بعض كتابات يونانية والخزان الكبير لجمع الماء الذي أنشئ على أكمة تشرف على السويداء وعلى طريق قرية القنوات جسر مهم للغاية جُعل على عمد هائلة يظن أنه من القرن الأول وأنه كان ناووساً.

والظاهر من عاديات قنوات أنها كانت أهم من بصرى قاعدة بلاد حوران كلها وكان فيها أبرشية للروم ولا تزال بعض الطرق هناك مبلطة ببلاط كبير سلِمَ من عوادي الأيام ومعظم الدور محفوظة كما كانت بنوافذها وأبوابها الحجرية.

ومن الآثار التي تجلب الأنظار ذلك المسرح التياترو الجميل الذي قام على يمين الوادي وأكثره منحوت في الصخر وقطره نحو 19 متراً وفيه تسعة صفوف أسفله على متر ونصف تحت الملعب وفي وسطه حوض ماءٍ وهو مطل على الوادي ومصانع المدينة وجبل حرمون (الشيخ) وفي مكان شاهق آثار معبد ذي أدراج في الصخر تؤدي إلى برج أصم ربما كان جزءاً من حصن مشرف على المضيق. ويستدل من الأبنية السفلى أن تاريخها يردُّ إلى ما قبل عهد الرومان وعلى ميلة قليلة نحو الشرق برج عظيم مدور دائرته 25 متراً وربما كان برجاً لدفن الموتى وهناك بعض خرائب كنائس وجادّات وأروقة وأرتجة وبعض قطع من هياكل وتماثيل وملاعب.

وعلى ثلاثة أرباع الساعة من قنوات في الجنوب الشرقي قرية ساله وفيها معبد من أهم معابد حوران تشبه هندسته معبد هيرود في القدس وفيه من رسوم الأسود والغزلان والخيول المسرجة وغيرها ما يأخذ بمجامع القلوب. وهناك أيضاً مذبح في سفح درجات المعبد وكان هذا المعبد خاصاً بعبادة إله السماء ومن الآثار المهمة آثار شهبا وطرقها معبّدة واسعة تكاد تكون أوسع طرق حوران وقد يبلغ عرض الشارع فيها سبعة أمتار وستين سنتيماً.

وليس في الأيدي ما يُستدل منه على منزلة تلك البلاد من العمران على عهد العرب وكانت قبيل الإسلام منازل قبائل بني غسان كما كانت البلاد المجاورة لها، فقد بنى النعمان ابن المنذر الغساني من ملوك القرن الرابع للميلاد قصراً في السويداء بقي منه في بعض جهاته ووجدَت في صرخد صخرة اللات التي عبدها الأنباط والعرب كما ذكر هيرودوتس وعليها كتابة تدل على أنها نصبت لذي الشرى وهو معبود نبطي له آثار في بصرى وبتراء (وادي موسى).

والغالب أن صرخد حازت في الإسلام مكانة أعظم من مكانة السويداء فبالَغَ الملوك بتحصين قلعتها ليدفعوا عوادي البدو عن القرى العامرة، وقد كثر ذكرها في كُتب التاريخ على عهد الدولة الصالحية ومن بعدها من دول الجراكسة خصوصاً بعد أن استولى على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون المجاورة المِلِكُ الناصر السلطان صرح الدين بن أيوب وولّى أخاه الملك العادل أبا بكر بن أيوب عليها، فأصبح لتينك المدينتين شأن عظيم حتى عُدّت الكرك من الممالك مثل مملكة بعلبك ومملكة حماة ومملكة شيزر وغيرها. ومعظم هذه الممالك أصبحت فيما بعد قرى حقيرة في القرون الأخيرة لغلبة الجهل على الحكومات التي تعاورتها ولقلة الأمن وانتياب الغارات والزلازل والأوبئة التي اجتاحت سكانها.

ويؤخذ مما رواه أبو الفداء صاحب حماة أن بلاد صرخد وما والاها وبعبارة أخرى جبل الدروز كانت تدعى في عهده أي في القرن الثامن بجبل بني هلال قال:

صرخد بلدة ذات قلعة مرتفعة وليس لها سوى ماء المطر في الصهاريج والبرَك وهي قاعدة جبل بني هلال وليس وراء عملها من جهة الجنوب والشرق إلا البرية ومن شرقيها تُسلك طريقٌ يُعرف بالرصيف إلى العراق وعلى هذا الرصيف بين صرخد وبغداد عشرة أيام.

وقلعة صرخد شاهد أبد الدهر بعظمة تلك البلاد وهي كما قال الثقات أضخم وأهم من قلعة حلب.

وقد جدد الملك الظاهر بيبرس فيما جدد من المصانع في بلاده ما تهدّم من قلعة صرخد وجامعها ومساجدها وكذلك فعل ببصرى وعجلون والصلت وكانت قلعتا كوكب وعجلون لعز الدين بن أسامة وكان هذا ملك صرخد سنة ثمان وستمائة للهجرة وقال ابن خلكان: إنه ملَكَ صرخد سنة إحدى عشرة وستمائة. قال لأن أستاذه الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب حجَّ في السنة المذكورة وأخذ صرخد من صاحبها ابن قردجة وأعطاها مملوكه أيبك، والظاهر أن الأول أصحّ واستمرت في يد أيبك إلى سنة أربع وأربعين وستمائة فأخذها الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل من أيبك المذكور. وممن تملّكَ صرخد أقوش الأفرم أحد أمراء بني أيوب.

ومن الأدلة على استبحار العمران في الجبل أنه نشأ من بعض أمهات مدنه أعلام ومشاهير ومنهم عز الدين السويدي من أهل القرن السابع كان عالماً عاملاً ويونس بن إبراهيم ابن سليمان

الصرخدي النحوي اللغوي 698 وإبراهيم بن سليمان التميمي الصرخدي الفقيه خطيب صرخد مات فيها سنة 618 وبدر الدين السلختي قاضي غزة نسبة إلى صرخد أيضاً وبعضهم يقول صلخد وسلخة والأصح صرخد فيما نرى والروايات الثانية تحريف طرأ مثله على بلدان كثيرة في سورية مثل عربيل فيقولون عربين وجماعين لاستسهالهم النطق بالنون أكثر من اللام.

قال ابن أبي أصيبعة: «حدّثَني نجم الدين حمزة بن عبد الصرخدي أن نجم الدين القمراوي وشرف الدين المتاني وقمرا ومتان هما قريتان من قرى صرخد قال كانا اشتغلا بالعلوم الشرعية والحكمية وتميزا واشتهر فضلهما وكانا قد سافرا البلاد في طلب العلم ولما جاآ إلى الموصل قصدا الشيخ كمال الدين بن يوسف (الفيلسوف العلّامة) وهو في المدرسة يلقي الدرس فسلّما وقعدا مع الفقهاء ولما جرت مسائل فقهية تكلّما في ذلك وبحثا في الأصول وبان فضلهما على أكثر الجماعة فأكرمهما الشيخ وأدناهما ولما كان آخر النهار سألاه أن يريهما كتاباً له كان قد ألَّفه في الحكمة وفيه لغز فامتنع وقال: هذا كتاب لم أجد أحداً يقدر على حَلّه وأنا ضنين به فقالا له: نحن قوم غرباء وقد قصدناك ليحصل لنا الفوز بنظرك والوقوف على هذا الكتاب ونحن بائتون عندك في المدرسة وما نريد نطالعه هذه الليلة وبالغداة يأخذه مولانا. وتلطّفا له حتى أنعم لهما وأخرج الكتاب فقعدا في بيت من بيوت المدرسة ولم يناما أصلاً في تلك الليلة بل كان كل واحد منهما يملي على الآخر وهو يكتب حتى فرغا من كتابته وقابلاه ثم كررا النظر فيه مرات ولم يتبين لهما حلُّهُ إلى آخر وقت وقد طلع النهار فظهر لهما شيء منه من آخره واتضح أولاً فأولاً حتى انحل لهما اللغز وعرفاه. فحملا الكتاب إلى الشيخ وهو في الدرس فجلسا وقالا: يا مولانا ما طلبْنا إلا كتابك الكبير الذي فيه اللغز الذي يعسر حله وأما هذا الكتاب فنحن نعرف معانيه من زمان واللغز الذي فيه عِلمه عندنا قديم وإن شئت أوردناه فقال قولا حتى أسمع فتقدم النجم القمرواي وتبعه الآخر وأورد جميع معانيه من أول الكتاب إلى آخره وذكرا حل اللغز بعبارة حسنة فصيحة فعجب منهما وقال: من أين تكونان قالا: من الشام قال: من أي موضع منه قالا: من حوران وقال: لا أشك أن أحدكما النجم القمراوي والآخر الشرف المتاني قالا: نعم فقام لهما الشيخ وأضافهما عنده وأكرمهما غاية الإكرام واشتغلا عليه مدّة ثم سافرا».

وهذه الرواية تدل كل الدلالة على انتشار العلم في هذه المزارع في القرون الوسطى وأمتان بلد شرف الدين المتاني قرية موجودة إلى اليوم أما قمرا فهي قميرة خربة واقعة إلى الجنوب من

صرخد على مسافة ساعتين ومنها الفقيه موسى القمراوي أديب مناظر حاذق توفي سنة 625 ومن شعره:

لما تبدّى بالسواد حسبتُهُ بدراً بدا في ليلةٍ ظلماءِ

لولا خلافتُه على أهل الهوى لم يشتهرْ بملابس الخلفاءِ

ومن قرى صرخد العرَّمان بتشديد الراء وفتحها والعامة اليوم تخففها قال ياقوت: أنشدني أبو الفضل محمد بن مياس العرَّماني من ناحية صرخد من عمل حوران من أعمال دمشق لنفسه.

يعادي فلان الدين (؟) قومٌ لو أنهم لأخمصِه تربٌ لكان لهم فخرُ

ولكنهم لم يذكروا فتعمّدوا عداوتَه حتى يكون لهم ذِكرُ

وأنشدني أيضاً لنفسه:

ولمّا اكتسى بالشعر توريد خدّهِ وما حالة إلا نزول إلى حالِ

وقفتُ عليه ثم قلتُ مسلّماً ألا انعِم صباحاً أيها الطلل البالي

وأنشدني أيضاً لنفسه يمدح صديقه موسى القمرواي وقمرى قرية من قرى حوران أيضاً قريبة من قرية العرَّمان:

أصبحتَ علامة الدنيا بأجمعها تُشَدُّ نحوك من أقطارها النجبُ

بأنَّ على كبد الجوزاء منزلةً تحقّها من جلالٍ حولها الشهبُ

ما نال ما نلتَ من فضل ومن شرفٍ سراة قوم إن جدّوا وإن طلبوا

وفي الجبل إلى اليوم قريتان باسم نجران قال ياقوت أن نجران موضع بحوران من نواحي دمشق وهي بيعة عظيمة عامرة حسنة مبنية على العمد الرخام منمّقة بالفسيفساء وهو موضع مبارك ينذر له المسلمون والنصارى ولنذور هذا الموضع قوم يزورون في البلدان ينادون من نذَرَ نَذْر

نجران المبارك وهم ركاب الخيل وللسلطان عليهم قطيعة وافرة يؤدّونها إليه في كل عام. وقال مثل ذلك في دير نجران أيضاً وما ندري إن كانت نجران هذه هي نجران جبل حوران أم هي واقعة في السهل من قرى بصرى الحرير.

وتبين مما تقدم أن العمران قديم في هذا الجبل وليس في الأيدي نصوص يُركن إليها اللهم إلا إذا كان شيء في بطون التاريخ والجغرافيا جاء بالعرَض ولم نهتد إلى معرفته. وقد كان سكانه على ما مر بك آنفاً مسلمين ومسيحيين ولم ينزل الدروز إلا في القرون المتأخرة ويقول أحدهم أنهم رحلوا إلى جبل حوران منذ نحو مائتين وعشرين سنة أيام ابتدأ قوم من دروز لبنان يهاجرون وأولهم أسرة بني حمدان التي بطش بها التنوخيون أمراء لبنان. ومنذ ذلك الحين أصبح كل من يُغلب في الحروب القيسية واليمنية في لبنان ومن عضه الدهر بنابه أو غضب عليه الحاكم يرحل إلى ذلك الجبل ثم انضم إليهم أناس من دروز وادي التيم وصفد وجبل الأعلى والقنيطرة وجوار دمشق.

نزل الدروز هنا وهم مستضعفون وفقراء وما زالوا يطردون المخالفين لهم من سكان البلاد الأصليين بالقوة ويستصفون أملاكهم ومنها ما هو إلى اليوم من أرباب البيوتات في دمشق وبأيديهم صكوك بملكيتهم لها حتى كاد الجبَل إلا قليلاً جداً يكون لطائفة الدروز وزعمائهم بنو الأطرش وبنو الحلبي والمغوش وعامر وناصر والعزام توزعوا على القرى ومن أكبر زعمائهم بنو الأطرش وبينهم وبين بني مقداد المسلمين سكان بصرى وما جاورها طوائل قديمة يتربّص كلّ منها بجارِه الدوائر منذ نحو قرن. ويعتقد الطرشان أن بني مقداد هم الحائل دون تعديهم حدود جبلهم ولولاهم لامتد سلطانهم على سهول حوران فاستأثروا بها كما استأثروا بهذا الجبل.

وأول الوقائع التي قام بها الدروز في الجبل وتمت لهم الغلبة وقعت بينهم وبين إبراهيم باشا المصري سنة 1830 في جنوبي اللجاة كتبت فيها الهزيمة للمصريين وقتل منهم الفريق محمد باشا وغيرهم من قوادهم وفي سنة 1838 أنفذ إبراهيم باشا أحد رجاله شريف باشا في أربعمائة فارس إلى قرية أم الزيتون في محلّ يعرف بوادي اللواء على نحو خمس ساعات عن السويداء لتجنيد الدروز فقتلهم الشيخ حمدان الدرزي عن آخرهم ولم يُبقِ إلا على مقدّمهم. وكذلك جرى لمحمد باشا القبرصي فلم يظفر بهم.

ومنذ ذاك العهد اعتصموا بجبالهم ونشأ لهم شيءٌ من الاستقلال عن الحكومة وأيقنوا بأنها تخاف بأسهم وتحسب لهم ألف حساب وزاد سوادهم وقوتهم في حوادث الستين وقد هاجر إليهم من

لبنان كثير من أبناء مذهبهم فاعتزوا بهم ولقد قتلوا من جند الدولة والأهالي المساكين ما لو أحصي لبلغ مقداره نصف سكان الجبل اليوم. ووقائعهم في قرية أم ولد وقرية الكرك وقرية كحيل والحراك وبصرى الحرير وبصرى إسكي شام وجوارها وقرية المليحات ومع عرب المعجل وعرب السرحان وعرب الخريشة وعرب ولد علي وغيرهم مشهورة إلى الآن على الألسن دع عنك نحو عشرين قرية اغتصبها الدروز من الحوارنة في قضاء عاهرة وقضاء السويداء وقضاء صرخد وهي أقضية الجبل اليوم التابعة لمركز اللواء الذي كان أول أمس شيخ سعد فأصبح أمس شيخ مسكين واليوم غدا درعا.

نعم لم يكن سكان جبل الدروز كما قال عارفٌ بأحوالهم منذ أربعين سنة إلا أقل القليل من سكانه فالجهة الجنوبية أي قرى صرخد وجوارها كانت بأيدي المسلمين والمسيحيين من أهالي حوران والقرى الغربية كانت بيد حمولة الزعبية من حوران إلى أن اعتاد أشقياء دروز لبنان وحاصبيا وراشيّا أي وادي التيم وعكا وصفد والقرى المجاورة لدمشق والقنيطرة ومن اعتادوا القتل والنهب وقطع الطريق وتعذرت عليهم الإقامة في بلادهم أن يعتصموا في هذا الجبل فضاقت عليهم قراهم الأصلية فجلوا الحوارنة عن بلادهم وأصبح جبلهم ملجأ الأشقياء.

أما وقائعهم المشهورة فكان أولها سنة 1295 شرقية بينهم وبين أهالي بصرى الحرير فساقت الدولة إليهم قوة إلى موقع القراصة ولما لم تحسن الإدارة زاد الدروز جرأة إلى أن كان سنة 1297 شرقية وقد هجموا على قريتي الكرك وأم ولد وذبحوا سكانها عن بكرة أبيهم ثم سيقت عليهم قوة بقيادة المشير حسن فوزي باشا أسفرت عن ربط دية شرعية مسقطة على الدروز وتأسيس قائم مقامية جبل الدروز وجعلها ثماني نواح وتعيين قائم مقام ومديرين للنواحي منهم.

وما برحوا يشغلون الحكومة فترسل عليهم الحملات كل مدة ويراوغون ثم يستعطفون رجالها بالكذب والرشى تارة وتارة يتحد أشقياء المقرن القبلي مع عرب السردية فيغزون قرى بني صخر والحويطات والسرحان وقرى حوران الجنوبية وينضم أشقياء المقرن الشرقي إلى عرب الصفا يغزون تجار بغداد والزور وأشقياء المقرن الشمالي يتحدون مع عرب الحسن ويغزون قرى جبل قلمون والنبك وحمص ويتحد بعضهم مع عرب اللجاة يسلبون قرى جبل حوران وتارة يقتلون الموظفين ويمثلون بالعسكر ولا يدفعون الأموال وينهبون التجار حتى أرسلت عليهم الحكومة حملة

مهمة سنة 1311 رومية فضربتهم ضربة لو وضعت بعدها الإصلاحات الإدارية المعتبرة ولم تعف بعد قليل عن زعمائهم لاستقام الأمر ولم يعودوا إلى سالف أحوالهم حتى صيف هذه السنة.

أحلَّ أشقياء الدروز في حوران قتل من خالفهم والاعتداء على مجاوريهم وعلى القوافل الآتية من العراق ونجد حتى كادت التجارة تنقطع بين أقطار العراق ونجد والشام بسبب غاراتهم على الأقاليم المجاورة وخرّبوا جانباً عظيماً من القرى والمزارع وأخذوا المواشي وسفكوا الدماء حتى التجأ إليهم كل من عصا الدولة من العسكر الفار من الجندية والأشقياء وخربت بأعمالهم كثير من القرى والمزارع وأصبحوا بفعلاتهم يحولون دون امتداد العمران في أطراف هذه الولاية ولولاها لاستفاض عمرانها ولاسيما من جهة الشرق والجنوب عمراناً تزيد مساحته على ولاية عظمى من الأرض المنبتة ولكفت ملايين من المهاجرين وأهل البادية.

أما الفوائد التي ستنجم من إدخالهم حظيرة الطاعة فامتداد العمران الى الجنوب مراحل كثيرة حتى يبلغ من الأزرق إلى بلاد الكرك بل قرى الملح إلى الجوف فينتفع بما فيها من المياه المعطلة ويمتد من جهة الشرق إلى تدمر مسافة عشرة أيام. وتدمر هي المدينة المعروفة بتاريخها المجيد، ويتصل بجهة الشمال ببلاد حماة وحلب. ولعل هذا المبحث لا يصدر إلا وقد أخلد أولئك العصاة إلى السكون بهمّة قائد الحملة العام سامي باشا الفاروقي فيضع لهم أساساً راسخاً في الإصلاح لا يتمكن أحدهم من نقض عروته ويعاملون في عهد الدستور بما لم تكن الدولة تعاملهم به في عهد الاستبداد، ويشرط هذا الجرح النغار بل الآكلة المزمنة في جسم سورية بمشراط الجراح الماهر الذي أحسنت الحكومة ظنها به في هذه المهمة، فيصبح جبلهم منتاب المصطافين كما أصبح جبل لبنان من قبل فجبل حوران ليس دون جبل الشيخ وجبل قلمون وجبل اللكام وغيره من جبال سورية بهوائه ومائه ويزيد عليه خصب تربته وبعده عن الرطوبة. هذا ويقل الماء الجاري في جبل حوران وأكثره ينابيع قليلة تكاد تكفي لشرب الشفة فقط أما الزروع فلا تنمو بالسقيا بل تنمو بماء السماء كسائر بلاد حوران. وحدث ما شئت أن تحدث عن خصب التربة فإن الحبوب تجود فيه كل الجودة وتقل الأشجار فيه اللهم إلا الكرم والتين وبعض السنديان والزان وأكثر الغابات لم يبق منها إلا جذوع أشجارها تجدها بالقرب من السويداء وسهوة الخضر وسهوة بلاطة ومياماس وابي زريق وساله وقنوات وعتيل في ذروة الجبل أي في طرف قليب حوران ولم يبق إلا شجرات معدودات بين قنوات والجبل والله أعلم.

أصل الدروز

هذا ما لخصناه من كتاب «حل الرموز في عقائد الدروز» لأستاذنا سليم أفندي البخاري من علماء دمشق وهو لا يزال مخطوطاً لم يُنشَر بعد:

«ينسب الدروز إلى رجل يقال له محمد بن إسماعيل الدرزي كان أحد أصحاب دعوة الحكام بأمر الله العبيدي ويسمى في كتب هذه الطائفة نشتكين الدرزي والدرزي بالفتح معناه الخياط فارسي معرب والعامة تضم الدال ويقولون في الجمع الدروز والصواب الدرزة محركة. أما الحاكم هذا فإنه سادس خليفة من خلفاء الدولة العبيدية ويقال لهم الفاطميون ولقبه الحاكم بأمر الله وكنيته أبو علي واسمه المنصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن عبيد الله المهدي.

واختلف المؤرخون في صحة نسبهم فبعضهم صحّحه وجعله متصلاً بفاطمة الزهراء عليها السلام ونسب عبيد الله المهدي إلى محمد الحبيب بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم ابن إسماعيل بن جعفر الصادق. وطعن أكثر العلماء والمؤرخين في هذه النسبة وجعلوا نسبهم متصلاً بالحسين بن محمد بن أحمد القداح وكان مجوسياً وقيل يهودياً فقالوا أن أمهم فاطمة بنت عبيد اليهودي واسم المهدي هذا سعيد ولقبه عبيد الله وزوج أمه الحسين ابن محمد بن أحمد بن عبيد الله القداح بن ميمون بن ديصان وقيل هو سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون وميمون هذا هو صاحب كتاب الميزان في نصرة الزندقة كان يظهر التشيع لآل البيت ونشأ لميمون عبد الله وكان يعالج العيون التي نزل إليها الماءُ بالقدح (هو إخراج الماء الفاسد منها) وتعلّمَ عبد الله من أبيه ميمون الحيل وأطلعه أبوه على أسرار الدعوة لآل البيت ثم سار القداح من نواحي كرج وأصفهان إلى الأهواز والبصرة ثم إلى سلمية من أعمال سورية يدعو إلى آل البيت.

ثم توفي القداح وقام ابنه أحمد مقامه وتوفي أحمد وقام مقامه ابنه محمد ثم قام بعده ابنه الحسين وكان ببغداد فسار إلى سلمية حيث كان له بها ودائع وأموال من ودائع جده عبد الله القداح وكان يدعي أنه الوصي وصاحب الأمر والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه. واتفق أنه جرى بحضرته حديث النساء بسلمية فوصفوا له امرأة رجل يهودي حداد مات عنها زوجها وهي في غاية الحسن والجمال فتزوجها الحسين المذكور ولها ولد من اليهودي يماثلها في الجمال فأحبها وأحب ابنها وأدّبه وعلّمه العِلم فتعلّم وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة ومات الحسين ولم يكن له ولد فعهد إلى ابن اليهودي الحداد وهو عبيد الله المهدي وعرّفه أسرار الدعوة من قول وفعل وأعطاه الأموال والعلامات فدعا له الدعاة.

قال ابن خلدون: ولا يلتفت لإنكار هذا النسب لأن إغراء المعتضد لابن الأغلب بالقيروان وابن مدرار بسلجماسة بالقبض على عبيد الله لما سار إلى المغرب وشعر الشريف الرضي في قوله:

ما مقامي على الهوان وعندي	مقول صارم وأنف حميّ
ألبس الذل في بلادي الأعادي	وبمصر الخليفة العلويّ
من أبوه أبي ومولاه مولا	ي إذا ضامني البعيد القصيّ
لفَّ عرقي بعرقه سيد الن	اس جميعاً محمد وعليّ
إن ذلي بذلك الجد عزّ	وأوامي بذلك الربع ريّ

شاهد بصحة نسبهم وأما المحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر بالقدح في نسبهم وشهد فيه أعلام الأئمة فهي شهادة على السماع.

وبدأت دولة الفاطميين من ذي الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين إلى سنة سبع وستين وخمسمائة وفي أيامهم كثرت الرافضة واستحكم أمرهم ووضعت المكوس على الناس واقتدى بهم غيرهم وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين في ثغور الشام كالنصيرية والدرزية، والحشيشية نوعٌ منهم.

وكانت أحوال الحاكم بأمر الله متناقضة فعنده شجاعة وجبن ومحبة للعلماء وانتقام منهم وميل إلى أهل الصلاح وقتلهم وسخاءٌ وبخل بالقليل. لقب نفسه الحاكم بأمر الله وعنده من دعاته رجلان أعجميان من دعاة الباطنية أحدهما يقال له محمد بن إسماعيل الدرزي وثانيهما يقال له حمزة بن علي بن أحمد. أما الأول فإنه قدم إلى مصر في أواخر سنة سبع وأربعمائة ودخل في خدمة الحاكم ووافقه على إثبات دعوته وصنّف له كتاباً كتَب فيه أن روح آدم انتقلت إلى علي بن أبي طالب ومنه إلى أسلاف الحاكم متقمصة من واحد إلى آخر حتى انتهت إلى الحاكم وقرأ هذا الكتاب في الجامع الأزهر بالقاهرة فهجم الناس على مؤلفه ليقتلوه ففرّ منهم وحدث شغب عظيم في القاهرة ونهبوا بيت الدرزي وقتلوا كثيرين من أصحابه فأرسله الحاكم سراً إلى بر الشام فنزل بوادي التيم بالقرب من جبل الشيخ وكان الأمراء التنوخيون الذين أتوا من العراق إلى الشام من الباطنية ولذلك كانوا مستعدين لقبول دعوة الدرزي فانقادوا إليها ومن ذلك تسميتهم بالدروز. وقتل الدرزي المذكور في وقعة مع التتر سنة إحدى وعشرة وأربعمائة.

وثانيهما حمزة بن علي بن أحمد وكان وقع الخلاف بينه وبين الدرزي وبعده تقدم مكانه فأجابه البعض واتخذ معبداً سرياً لعبادة الحاكم وجعل نفسه ثانياً له فهو مقدّس ومحترم يلقّب عندهم بهادي المستجيبين وحجة القائم وغير ذلك. وهم يكرهون محمد الدرزي ويشتمونه ويكرهون التسمية باسمه لما أنه أراد أن يغتصب منصب حمزة ويتقدم عليه بما فعلَه كما يُعلم من رسالة الغاية والنصيحة من كتبهم. ولما قتل الحاكم قرب حلوان زعم الدروز أنه خرج في ليلة منفرداً إلى البركة الزرقاء ومن هناك عرج إلى السماء متخفياً عن أعين الناس وكتب حمزة بعد وفاة الحاكم الرسالة المسماة بالسجلّ المعلّق وعلقها على أبواب الجامع وفيها يقول أن الحاكم اختفى امتحاناً لإيمان المؤمنين وشرع حمزة يجتمع هو وأتباعه في المعبد السري يعبدون الحاكم حتى ثارت عليهم المسلمون وظفروا بهم وطردوهم ففروا من مصر ونزل بعضهم في الجبل الأعلى من الديار الحلبية وبعضهم في جهة حوران ثم تفرّقوا من هناك فذهب بعضهم إلى جبل الشوف والآخر إلى وادي التيم ولم يزالوا في نمو وازدياد إلى هذا العصر.

للدروز عادات قديمة توارثوها منها أن لهم قضاة منهم يحكمون في المعاملات المدنية الجارية بينهم على مقتضى الشريعة غير أنهم يخالفونها في بعض المعاملات بحكم العادة الموروثة فلا يسوغ لأحدهم مثلاً أن يوصي بجميع ماله لأحد أولاده ويحرم الباقي من ميراثه إن كان هذا المال الموصى به من كسب يده. وأما إذا كان متنقلاً إليه بطريق الإرث عن آبائه وأجداده فلا يسوغ له

لأنه حينئذ يكون من حقوق الأسرة والأصول والفروع متساويان فيه فللورثة استحقاق في تقسيم هذا المال.

ومنها أن المرأة لا ترث شيئاً من دار أبيها حتى أن هذه العادة سرت إلى مجاوريهم في الجبل من بقية الطوائف. وكذا يخالفون في النكاح والطلاق إذ لهم في ذلك أصول خاصة لا يجوز عندهم الجمع بين امرأتين فإن لم يطلّق التي عنده لا يمكنه التزوج بغيرها وتطلق المرأة بأدنى سبب ولا يجوز عندهم رد المطلّقة ولو كان بعد زوج آخر.

ويقرأون القرآن ويؤولونه بتأويلات ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص فالجسد يسمى قميصاً عندهم وإن الميت حين موته تنتقل روحه إلى من يولد وقتئذ فالأرواح الإنسانية لا تنتقل عندهم إلا إلى قوالب إنسانية ويقولون أن الهوية الإلهية تنتقل في قالب وتحل في قالب آخر في كل عصر فتتجلى في كل زمن وتجلت أخيراً في الحاكم وأن حمزة أيضاً ظهر في كل عصر بقالب ففي زمان كان فيثاغورس الحكيم وفي زمان كان شعيباً وفي زمان كان سليمان بن داود وفي زمان كان المسيح الحق فهو النبي الكريم عندهم. وحمزة العصر المحمدي هو سلمان الفارسي.

ويُقسمون إلى قسمين العقال والجهال ويقال لهم أيضاً العوام ونساؤهم أيضاً ينقسمن إلى قسمين عاقلات وجاهلات فيقال للعاقلة جويدة وللجاهلة غير جويدة والعقال طبقتان طبقة الخاصة هي التي يعتمد عليها ويوثق بها حقاً إذ أنها حصلت على تمام المعرفة بأسرار الديانة وطبقة العامة وهي التي يحسن الظن بها. وأما الجهال فلا حظ لهم من الديانة سوى الدخول تحت اسم الدرزية وأينما وجد هؤلاء العقال تتخذ هناك معابد للعبادة تسمى بالخلوة وهي حجرة ضمن حجرة وفي كل ليلة جمعة يلتئم أهل كل طبقة في الخلوة الخاصة بهم ويجتمعون جميعاً في الخلوة الخارجية فيقرأون شيئاً من المواعظ ومن هؤلاء العقّال طبقة أتقياء يقال لهم المتنزهون وهم مثابرون على العبادة والورع ومنهم من لم يتزوج ومنهم من لم يأكل لحماً مدة حياته ومنه من هو صائم كل يوم ولهم زيادة احتياط في التورّع حتى أنهم لا يذوقون شيئاً من بيت أحد من غير العقّال والعقّال جميعهم يعتقدون أن أموال الحاكم والأمراء حرام فلا يأكلون شيئاً من طعامهم ولا من طعام خدمِهم حتى ولا من طعام حمل دابة مشتراة من مال حاكم لكنهم يستحلون أموال التجار من أي جهة كانت فإن حصل

بين أيديهم شيءٌ من مال اعتقدوا حرمته يذهبون به إلى أحد التجار فيستبدلونه منه وينزهون ألسنتهم عن ألفاظ الفحش والبذاءة ويتجنبون الإسراف لأنه يورث نقصاً في أخلاق الموحدين عندهم.

ويحرص الدروز جداً على كتمان عقائدهم ولذلك يعبّرون عن مرامهم في لغتهم ورسائلهم بطريق الرمز والكناية، ويَذكرون مباحث من علم الكلام وبعض مقالات غلاة المتصوفة وتأويلات الرافضة وخصوصاً الإسماعيلية من غلاة الشيعة. ثم أنهم لاعتقادهم التناسخ وهو التقمص يزعمون أنه إذا مات أحدٌ من كبار العقّال الذين يعتقدون بولايتهم تذهب روحه إلى جهة الصين وتحل في قالب ولهذا يزعمون أن لهم وراء جبل الصين كثيراً من الأولياء ويعتقدون أنه كان قبل عالم الإنس عالم الجن والحن والرم وعوالم أُخَر، ويقولون أنه كان قبل دور الحاكم سبعون دوراً وكل دور أربعة آلاف ألف سنة «أربعة ملايين» وتسعمائة ألف سنة فيكون قد مضى من مبدأ الخليقة إلى دور الحاكم ثلاثمائة ألف ألف سنة وثلاثة وأربعون ألف ألف سنة «ثلاثمائة وثلاثة وأربعون مليون سنة» وأول الأدوار دور العلي وآخرها دور الحاكم وهو دور القيامة ويثبتون لكل دور من السبعين دوراً سبعةَ نطقاء وسبعةَ أوصياء وسبعةَ أئمة فيكون مجموع النطقاء لجميع الأدوار أربعمائة والأوصياء كذلك والأئمة كذلك والناطق هو الرسول والوصي هو الأساس. ويقولون أن أصحاب التكليف في كل عصر ستة كما كانوا في هذا العصر ومدة دعوة الناطق السابع مضمّنة في مدّة الناطق السادس، وأولوا العزم خمسة في كل دور كما أنهم خمسة في هذا الدور الأخير قالوا وإنما كانوا خمسة لا غير لأن القوة في النهاية عند الخامس من كل شيءٍ ففي المقامات الربانية كانت عند الخامس وهو الحاكم وفي النطقاء انتهى العزم عند الخامس (يعنون به محمداً عليه الصلاة والسلام) وفي الأوصياء عند الخامس (يعنون به علياً كرم الله وجهه) وفي الأئمة عند الخامس (يعنون به محمد بن عبد الله القداح) وينتظرون ظهور يأجوج ومأجوج من داخل الصين ويحترمونه، ويقولون يأتي هؤلاء القوم الكرام بألفي ألف وخمسمائة ألف من العساكر إلى مكة وفي صباح اليوم الثاني يتجلى لهم الحاكم بأمره من ركن البيت اليماني ويهدد الناس بسيف مُذهّب في يده ثم يعطيه حمزة وهو أيضاً يقتل الكلب والخنزير ويعطي الدروز حكومة الأرض جميعها ويستخدم بقية الناس في حكم الرعية.

وبعد فإن لهم مواجب دينية وفرائض توحيدية أوجبوا على جميع أهل ملتهم حفظها ومعرفتها والعمل بها وسترها عن غير أهلها وهي أربع وخمسون فريضة. منها عشر مقامات ربانية وهم العلي والبار وأبو زكريا وعلي والمعل والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم وكلهم إله واحد. ومنها أربع تظاهرَ الباري بها وهي الهيئة والاسم والنطق والفعل فالهيئة هي الصورة التي ظهر بها

والاسم هو اسم الحاكم الذي تسمى به والنطق هو المجالس والسجلات التي يتكلم بها وتصدر عنه والفعل هي المعجزات التي كانت تصدر منه كقهر الملوك وقتل الجبابرة وظهوره بين الأعداء وحده وخروجه أيضاً وحده في أنصاف الليالي وظهوره في الحر الشديد وقت الهاجرة مع عدم تأثير الشمس في وجهه وعدم رؤية ظل له في ضوء الشمس والقمر وغير ذلك من الأمور التي ذكروها معجزات له في كتبهم كالسيرة المستقيمة ومجرى الزمان وغيرهما.

ومنها عشر فرائض توحيدية الأولى معرفة البارئ وتنزيهه عن جميع المخلوقات؛ الثانية معرفة الإمام قائم الزمان وتمييزه عن سائر الحدود الروحانيين؛ الثالثة معرفة الحدود الروحانيين بأسمائهم ومراتبهم وألقابهم وإنّ قائم الزمان أولهم وهو الذي نصّبهم وهم مطيعون لأمره ونهيه؛ الرابع صون اللسان؛ الخامسة حفظ الإخوان؛ السادسة ترك عبادة العدم؛ السابعة التبرؤ من الأبالسة؛ الثامنة التوحيد للمولى في كل عصر وزمان؛ التاسعة الرضى بفعله؛ العاشرة التسليم لأمره وهي مذكورة في رسالة ميثاق النساء ورسالة البلاغ والنهاية.

ومنها عشرة مواجب دينية وهي كن لهن في نَفاسهم وأعراسهم وجنائزهم على السنة التي رسمت لهم فهذه ثلاثة الرابعة أجيبوا دعوتهم الخامسة اقضوا حاجاتهم السادسة اقبلوا معذرتهم السابعة عادوا مَن ضَامهم الثامنة عودوا مرضاهم التاسعة برّوا ضعفاءهم العاشرة انصروهم ولا تخذلوهم وهي في رسالة التحذير والتنبيه.

ومنها عشرون إمامية منها أربعة أنواع النوع الأول أسامي وهي خمسة: الأول علة العلل، الثاني السابق الحقيقي، الثالث الأمر، الرابع ذو معة، الخامس الإرادة. النوع الثاني طبائع جوهرية وهي خمس: الأولى حرارة العقل، الثانية قوة النور، الثالثة سكون التواضع، الرابعة برودة الحكم، الخامسة ليونة الهيولى، فهذه الخامسة هي العقل وطبائعه الأربعة وهي في رسالة كشف الحقائق.

النوع الثالث خصائص نورانية وهي خمس: الأولى الحمد لمن أبدعني من نوره، الثانية وأيدني بروح قدسه، الثالثة وخصني بعلمه، الرابعة وفوض إليَّ أمره، الخامسة وأطلعني على مكنون سره، فهذه من كلام حمزة وهي في أوائل رسالة التحذير والتنبيه.

النوع الرابع منازل كلية وهي خمس: الأولى حد الجسمانيين، الثانية حد الجُرمانيين، الثالثة حد الروحانيين، الرابعة حد النفسانيين، الخامسة حد النورانيين فهذه المنازل الخمسة هي مجتمعة في

الإمام وهي مذكورة في السيرة المستقيمة.

وأما تلقي الديانة وأخذها فله عندهم كيفية مخصوصة وهي أنه إذا أراد أحد من الجهال أن يأخذ الديانة ويدخل في سلك الموحدين ينبغي له أن يستجلب رضى الموحدين بتقديم الوسائل التعطفية مدة لا تقل عن سنتين يلتمس منهم قبوله وإدخاله في جماعتهم وإعطاءه الديانة. فإذا قبلوه أدخلوه على الإمام فيوصيه بحفظ السر وعدم إشهاره ويأمره بتحرير العهد الواجب تحريره إذ لا يكون موحداً خالصاً بغير تحرير العهد على نفسه فإذا حرره وسامه إلى الإمام صار واحداً منهم والعهد الذي يجب تحريره هو المسطور تحت العنوان الآتي:

ميثاق ولي الزمان

توكلت على مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد المنزه عن الأزواج والعدد أَقَرَّ فلانٌ بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه واشهد به على روحه في صحة مِن عقله وبدنه وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات كلها على أصناف اختلافاتها وأنه لا يعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جَلَّ ذِكرُه والطاعة هي العبادة وأنه لا يشرك في عبادته أحداً مضى أو حضر أو ينتظر وأنه قد سلّم روحَه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ورضي بجميع أحكامه له وعليه غير معترض ولا منكر لشيءٍ من أفعاله ساءه هذا أم سرّه ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذي كتبَهُ على نفسه وأشهد به على روحه وأشار به إلى غيره وخالف شيئاً من أوامره كان بريئاً من البارئ المعبود وحُرم الإفادة من جميع الحدود واستحقَّ العقوبة من البارّ العلي جلّ ذِكره ومن أقرّ أن ليس له في السماء إله معبود ولا في الأرض إمام موجود إلا مولانا الحاكم جلَّ ذِكره كان من الموحدين الفائزين وكتبَ في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا من سني عبد مولانا جلّ ذِكره ومملوكه حمزة بن علي بن أحمد هادي المستجيبين المنتقم من المشركين والمرشدين بسيف مولانا جلَّ ذكره وشدة سلطانه وحده.

السجل المعلّق

من المخطوطات المضنون بها عند الدروز السجلّ الذي كتبه حمزة بن علي هادي المستجيبين وكان سبباً لثورة الأفكار في مصر حتى هرب منها ونزل سورية ونشر بها العقيدة الدرزية وهو أكبر القائلين بإلوهية الحاكم وهاك بعض فصول منوّعة تفيد مطالعتها في تمثيل حالة هذا القوم ننشرها بحرفها. وهذا السجل هو مقالات منوّعة في أغراض شتّى فمن مقالاته مقالة: «خبر اليهود والنصارى وسؤالهم لمولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين صلوات الله عليه عن شيءٍ من أمر دِينهم باعتراض اعترضوه فيه وإنكار أنكروه عليه والجواب على ذلك بما اختصهم من القول وأسكتهم وانصرفوا مقهورين والحمد لله رب العالمين بسم الله الرحمن الرحيم حدَّث من نثق به ونسكنُ إلى قوله مع إشهار الحديث في ذلك الوقت أنه حضر في موقف من مواقف الدهر وصاحب العصر مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين سلام الله عليه إذ وقفَ بين يديه بالقرافة في مقابر تعرف بقباب الطير نفرٌ فسلّموا عليه فوقَفَ عليهم حسب ما كان يقف على من سلّمَ عليه فذكروا أنهم من أهل الذمة وأن لهم حاجة وأنهم يهود ونصارى فقال عليه السلام قولوا حاجتكم فقالوا نسأل حاجتنا إذا أمّنتنا على نفوسنا فقال إن طلبة الحوائج لا تحتاج إلى أمان فقالوا هي حاجة صعبة وسؤال عظيم فقال عليه السلام اسألوا فيما عسى أن تسألوا ولو كان في المُلك.

قالوا: يا أمير المؤمنين ما هو شيءٌ يتعلق بأمر الدنيا وإنما هو شيءٌ يتعلق بأمر الدين وخطر عظيم فإن آمنتنا على أنفسنا ذكرناه وسألناك عنه وإن لم تأمنا سألناك العفو وانصرفنا آمنين فعدلُك وأمنُك قد ملأ الغرب والشرق وعطاؤك وجودُك قد غمرا جميع الخلق.

قال عليه السلام: اسألوا عما أردتم وأنتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان جدنا محمد وأماننا لا منكوث عليكم في ذلك ولا متأوَّل. قالوا: يا أمير المؤمنين إنا الذي نسألك عنه خطر عظيم وأمر جسيم وأنت صاحب السيف والمُلك ولا نشكّ في أمانك ولكننا نخشى من سفهاء الأمة. قال عليه السلام: قولوا وأنتم آمنون من جميع الناس والأمّة. قالوا: يا أمير المؤمنين أنت تعلم أن صاحب الشريعة الذي هو محمد بن عبد الله الرسول المبعوث إلى العرب الذي لِهجرتِه كذا وكذا سنة وذكروا عدد السنين التي لِهجرته إلى تلك السنة التي خاطبوه فيها أنه حين بُعث إلى العرب وجاهد سائر الأمم لم يسِمنا الدخول في شريعته إلا أنا اخترنا ذلك بلا إكراه وأداء الجزية ولم يكلّفنا إلا هذا وكذلك كل واحد من أئمة دينه وخلفاء مذهبه ومتفقهي شريعته لم يسِمنا ما سِمتنا أنت إياه من هدم بيعتنا وأديارنا وتمزيق كتبنا المنزلة على رسلنا عند ربنا فيها حكمة بالحلال والحرام والقصاص، حتى أنك أبحت التوراة والإنجيل يشد فيها الدلوك والصابون وتباع في الأسواق بسعر القراطيس الفارغة.

وقد أخبرنا صاحب الملة والشريعة عن ربّه فيما نزل عليه أن التوراة فيها حكم الله ثم ذكر أنه في غير موضع في الكتاب المنزل عليه تفخيم أمر رسلنا والأفاضل من أتباعهم مثلما هو موجود في كتبنا وأكثر القرآن المنزل عليه فيه ذكر موسى وعيسى ويوشع واسماعيل وإسحق ويعقوب ويوسف وزكريا ويحيى وهؤلاء كلهم أنبياؤنا وأئمة شرائعنا ومثلما ذكروا الفضلاء منا مثل بقايا موسى وحواري عيسى وما حكاه أيضاً في الكتاب المنزل عليه من تفضيل قسسنا ورهباننا بقوله أن فيهم قسساً ورهباناً وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول تفيض أعينهم بالدمع مما عرفوا من الحق ولو استقصينا كل ما جاء في الكتاب المنزل عليه من تفضيل رسلنا وتفخيم كتبنا لكان أكثر ما نزل عليه في هذا المعنى. ثم قد كان من خلفاء الملة وأئمة الشريعة من المحمودين آبائك والمذمومين أعدائهم وأعداءك مثل بني أمية وبني العباس ممن عتا في الأرض ملكها طولاً وعرض (؟) ومع اتساع ملوكهم وعظم سلطانهم وكان يُخطب لهم في كل بقعة بلغت إليها دعوة رسولهم وصاحب شريعتهم ولم يحدث علينا رسماً ولا نقضوا لنا شرطاً اقتداءً منهم بصاحب ملتنا وشريعتنا المذكورة على لسان نبيهم. فمن أين جاز لك أنت يا أمير المؤمنين أن تتعدى حكم صاحب الملة والشريعة وفعل الخلفاء والأئمة الذين ملكوا قبلك البلاد والأمة وليس أنت صاحب الشريعة بل أنت أحد أئمة صاحب الشريعة وأحد خلفائه والقائم في شريعته لتتممها وتشد أركانها وبنيانها وبذلك نطقت في كلامك في غير موضع من مواقفك التي خاطبت بها وأشهَرَ ذلك عنك أقرب الناس إليك من أوليائك وأنت تفعل معنا ما لم يفعله الناطق معنا ولا أحد من أئمته ولا خلفائه كما ذكرناه وهذه حاجتنا التي سألناها وأمرُنا الذي قصدناه وطلبنا الأمان عليه ونريد الجواب عنه فإن يكن حقاً وعدلاً آمنا به وصدّقنا وإن يكن متعلقاً بالملك والدولة والسلطان بقينا على أدياننا غير شاكّين في مذاهبنا وأزلنا الشبهة عن قلوب المستضعفين من أهل ملتنا وما جئناك إلا مستفهمين غير شاكّين في عدلك ورحمتك وإنصافك، وعلى هذا أخذنا أمانك وقد قلنا الذي عندنا وأخرجناه من أعناقنا كما تقتضيه أدياننا والأمر إليك فإن تقل لنا سمِعنا وأطعنا وأجبنا وإن أذنت لنا ولم تقل انصرفنا ونحن آمنون بأمانك الذي أمّنتنا. فقال عليه السلام: أما الأمان فهو باقٍ عليكم وأما سؤالكم فما سألتم إلا عما يجِب لمثلكم أن يسأل عن مثله وأما نحن فنجيبكم إن شاء الله ولكن امضوا وعودوا إليَّ ها هنا ليلة غد. وليأت كل واحد منكم يعني من اليهود والنصارى بأفقه من يقدِر عليه من أهل ملته في هذا البلد ليكون الجواب لهم والكلام معهم.

ولما كان في ليلة غد حضر القوم في المكان بَعينه وقفوا وسلموا وقالوا قد أتينا بمن طلبه أمير المؤمنين منا وقدّموا أحد عشر رجلاً ومن قبل سبعة فقال لهم أمير المؤمنين صلوات الله عليه: لهؤلاء اخترتم لهم وقدّمتم؟ قالوا بأجمعهم: نعم يا أمير المؤمنين قال للنفر: وأنتم رضيتم أن تكونوا متكلمين عن أهل ملتكم نائبين عنهم؟ قالوا: نعم قال: فهل تَعلمون في هذه البلدة مِن أهل ملتكم مَن هو أفقه منكم؟ قالوا: لا. قال عليه السلام: وأنتم تحفظون التوراة والإنجيل وأخبار الأنبياء؟ قالوا: نعم. قال عليه السلام: (أنتم) عارفون بمبعث صاحب الشريعة الذي أنا قائم بملته وذاب عن شريعته وسيرته وأخباره وما جرى بينه وبين رؤساء ملتكم ومتقدميكم من اليهود والنصارى من الجدل والمسائل والاحتجاجات ومن سلَّم لأمره منهم ولم يسلّم من مبعثه إلى حين وفاته؟ قالوا: لم نُحط بذلك كله بل أحطنا بأكثره مما يلزمنا حفظه وعلمه مما جرى بينه وبين علمائنا تصحيحاً لمذهبنا وشريعتنا وذلك عندنا محفوظ مدوّن مكتوب تتوارثه أحبارنا وأحبار عن الأولين من قَبلنا حتى وصل ذلك إلينا ويتصل بغيرنا كما وصل إلينا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

قال عليه السلام: إن أصحابكم سألوني البارحة عن سؤال بعد أن أخذوا أماني على نفوسهم ووعدتهم أن أجيبهم عن سؤالهم إذا أحضروا علماءهم وقد حضرتم واعترفوا لكم بالعلم والفضل وصدقتموهم أنتم على ذلك واعترفتم عندي به لمّا قلت لكم أنتم تعرفون في هذه البلدة من هو أعلم منكم من أهل ملتكم بأخبار صاحب شريعة الإسلام ونسبه وشيعته وعلمه وشريعته؟ قلتم: لا. وأنا أسألكم في آخر السؤال أجيبكم وأخبركم بما سألني عنه أصحابكم وأماني باق عليكم وعليهم، على شرطٍ وهو أني كلما سألتكم عن شيءٍ يقتضيه مذهبكم وشريعتكم ومذهب صاحب ملة الإسلام وشريعته فتجيبوني عنه بما هو مأثور في كتبكم المُنزلة على أنبيائكم ومدوّن في كتب رؤسائكم وعلمائكم وأحباركم، وما لم يكن عندكم ولا تعرفونه ولا تؤثرونه في كتاب مُنزل ولا قول حكيم مُرسل فردوه عليَّ وادفعوه بحججكم التي عسى أن تدفعوا بها سواي وما عرفتموه وفهمتوه فلا تنكروني إياه لقيام الحجة عليكم به وفيه قالوا: نعم. قال لهم إن صدقتم فأماني يعمّكم وإن كذبتم انفسخ أماني عنكم وعاقبتكم وكانت عقوبتكم جزاء لكذبكم أرضيتم؟ قالوا: نعم قال: أبلِغُكم أنه لما كان في كذا وكذا من هجرة الرسول صاحب شريعة الإسلام أتاه رؤساء شريعتكم وعلمائكم من الملتين اليهود والنصارى وهم فلان وفلان وفلان وفلان وسمّى لهم رجالاً من أحبارهم وأمسَك. قالوا نعم يا أمير المؤمنين وفلان وفلان وفلان وسمّوا له بقية أسماء الرجال حتى أتوا على آخرهم.

قال عليه السلام. قد صح عندي أنكم صدقتم لما تممتم أسماء الرجال الباقين الذين بدأت أنا بذكرهم، أفي ذلك عندكم شك تشكون فيه أو ريبة ترتابون بها؟ قالوا: لا قال لهم: لما استحضرهم ما قال لهم؟ قالوا: يقول أمير المؤمنين فمنه القول ونحن سامعون فما عرفناه أقررنا به وسلَّمنا فيه وما لم نعرفه ولم يكن مأثوراً عندنا ذكرنا لأمير المؤمنين. قال عليه السلام: قال لهم صاحب الملة والشريعة: ألم تكونوا منتظرين لزماني متوقعين لشخصي وترجون الفرج مع ظهوري فلما أن ظهرت فيكم وأعلنت دعوتي وشهرت أمر ربي كذبتموني وجحدتموني ونافقتم عليَّ فطائفة منكم قاتلوني وطائفة رحلوا من جواري حسداً لي وبُغضة حسبما تفعله الأمم الباغية في الأزمان المتقدمة إذ ظهر مثلها سنّة سنتها الظالمون أولهم إبليس اللعين مع آدم الكريم فهل كان ذلك منه إليهم؟ قالوا: نعم قال: فإذا علمتم أن ذلك قد كان منه فما كان جوابهم له عن ذلك بعد استماعهم كلامه؟ قالوا: قد قلنا أولى لأمير المؤمنين أن يقول ولنا أن نسمع ونحن محمولين على الشرط الأول الذي أشرطه أمير المؤمنين علينا، أما ما عرفناه أقررنا به وما لم نعرفه أنكرناه فنريح بذلك سلامة أدياننا بالتصديق بالحق وسلامة أنفسنا من القتل بالتزام الشرط.

قال لهم أمير المؤمنين عليه السلام: كان جوابهم أنهم قالوا: ما أنت الذي كنا منتظرين لزمانه متوقعين لشخصه ولا الذي نرجو الفرج من ظهوره قال لهم: ما دليلكم على صحة ذلك أني ما أنا هو؟ قالوا: ما هو مأثور عندنا وموجود في كتبنا وبشرت به أنبياؤنا لأممهم قال لهم: وما هو بيِّنوه قالوا: ثلاث خصال: أحدها ليس اسمه كاسمك وقد نطق بذلك لسانك في نبوتك وجهَرت به لأصحابك وجعلت ذلك فضيلة لك فمنه آخذناك لما قلت ما حكيتَه عن المسيح ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمَد يحلل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث ويضع عنكم ضركم والأغلال التي كانت عليكم فهو كما قلنا ما أنت المسمى إذ اسمك محمد والذي بشَّرت به باتفاق منا ومنك اسمه أحمَد، والثانية مدته قد بقي لها أربعمائة سنة من يوم مبعثك إلى حين ظهور هذا المنتظر قد خالفته أيضاً في الاسم والمدة، والثالثة المنتظر إنما يدعو إلى توحيد ربه بلا تعطيل ولا تشبيه ولا كلفة تلحق نفوسنا حسبما ذكرته في تنزيلك من تحليل الطيبات وتحريم الخبائث ووضعه عنا ضرنا والأغلال التي كانت علينا. فأي حجة بقيت لك علينا وليس اسمك اسم من يُنتظر بقولك ولا فعلك فعله ولا المدة مدته فقد خالفته كما قلنا في الاسم والمدة والفعل وإذا كنت إنما تدعو إلى شريعته فبقاؤنا في شريعتنا آثر وخير لنا.

ووصفة المنتظر عندنا رفع التكليفات وانقضاء الشرور ورفع المصائب والشكوك وأن لا يتجاوزه في عصره كافر ولا منافق وأنت أكثر أصحابك يظهرون النفاق عليك وإنما بغلبة سيفك عليهم سلموا لأمرك وإذا كان ذلك كذلك فلم تلومنا على قتالك وتناقلنا على طاعتك والدخول في شريعتك. ثم قال لهم أمير المؤمنين عليهم السلام: أكذا كان؟ قالوا: نعم كذلك كان وكل قولك حق وصدق. قال: فما كان جوابه لهم عن هذا الكلام قالوا: يقول أمير المؤمنين حسبما جرت به العادة ونسمع ونعترف بالجواب إذا علمناه وننكره إذا جهلناه. قال لهم عليه السلام: أما إذا عرفتم ذلك وعلمتوه فلا شك أنكم تعرفون صفة الحال كما جرت إنشاء الله. ثم قال أمير المؤمنين عليه السلام: كان جوابه لهم لا أقاتلكم على الدخول في ملتي ولتكذيبي والصدوف عن أمركم لأنكم أصحاب شرائع وكُتب ومتمسكون بأمرها ناطقون، وليس أقاتل من هذه صفته ولا أنا رافع الشرائع ولا ذلك كله إلي. بل كلما ملكت بلداً بسيفي ممن فيه عبدة الأوثان والتناذر فلي أن ألزمهم الدخول في ملتي أو أقتلهم، ومن كان في البلدة منكم عرضتُ عليه إما الدخول في ملتي واتباع أمري وشريعتي أو أداء الجزية فإذا كره الوطن الذي ملكته وبسيفي فتحته فمن وزن الجزية منهم وشريعتي أقررته في مكانه ومن انتقل عني تركته ومن قاتلني منهم على مثل ذلك قاتلته وانتظرت فيكم حكم ربي. قالوا: لك ذلك فما قلت إلا حقاً ولا نرى منك إلا صدقاً قال لهم: إذا استقر ذلك بيني وبينكم وقد تأولتم علي ورفعتم منزلتي وفضلي الذي قد أتاني من عند ربي وزعمتم أن الذي تنتظرونه له اسم تعرفونه وفِعل تعلمونه ومدة تنتظرونها وهي من مبعثها إلى حين ظهور هذا المنتظر بقي له أربعمائة سنّة فاكتبوا بيني وبينكم مواضعة تتضمن كل ذلك وذِكرُه وعلى أنكم تدفعون إليَّ الجزية طول تلك المدة التي ذكرتم أن المبعوث إليكم فيها يأتي غيري فإن كنت من جملة المخرصين فأنتم الكذّابين تكفون مؤنتي ويرجع إليكم المُلك إذ ظهر من تنظرونه. وإن لم يظهر ومدتي قائمة وشريعتي ماضية وحكمي لازماً ولم يأتكم في هذه المدة من تنتظرونه فلصاحب ملتي والقائم بدعوتي والإمام الذي يكون في ذلك العصر أن يدعوكم إلى ما دعوتكم إليه فإن أجبتموه سلمْتم وإن أبيتم عليه كما أبيتم عليَّ وصددتم عنه واستكبرتم فله أن يأخذكم بالشرط الذي شرطتموه على أنفسكم ويقابلكم فإن قاتلتموه قاتلكم ولا يقبل لكم عذراً ويستبيح ملتكم ويهدم لكم شريعتكم بهدمه لبيعكم ويعطل كتبكم ويكون ما بقي لكم عذر تحتجون به ولا محال تركنون إليه ولا إبليس تعولون عليه وهو المنصور عليكم يقطع شأفتكم وشأفة كل الظالمين فهذا نص المواضعة أهكذا هو؟ قالوا: نعم. قال أمير المؤمنين عليه السلام: والمواضعة لم تزل تنتقل من بعد صاحب الشريعة والملة من وصي صادق إلى إمام فاضل حتى وصلت إليَّ

فهي عندي فلم يكن عليه السلام أن ينقض شرطاً أسسه وحكماً بيّنهُ وهو معروف وقت أن نشأ في الجاهلية محمد الأمين فكيف ينقض ما أنعم به عليكم ولم يُجز لأحد من أئمة دينه وخلفاء شريعته أن ينقض ما أمر به من قبل انقضاء المدة إتباعاً وتسليماً لحكمه فلما وصل الأمر إليَّ وانقضت تلك السنون المذكورة في المواضعة في عصري وعند تمامها أمري أخذت منكم بحقه ودعوتكم إلى شرطكم وشرطه حسب ما تقتضيه الأمانة وحكم المعاهدة أكذلك بلغكم أنه صفة الحال قالوا: نعم كذلك كان. قال: فأي حجة بقيت لكم عليه وعليَّ بعدما أوضحناه؟ وأي أمر تعديت فيه بزعمكم عليكم إذا كنت بشرطكم أخذتُكم وما كنتم تنتظرونه أقمته عليكم؟ وقد أوسعتكم حلماً وعدلاً إذا بقيت نفوسكم على أجسامكم ونعمكم عليها أمها (؟) لا لتنتبهوا بعد الغفلة وتسلموا بعد المعاهدة، فأي حجة لكم بعدما وصفناه وأي حق معكم بعدما قلناه وأي عذر يقوم لكم بعدما شرحناه قولوا واسألوا تجابوا أو تنصفوا ولا يكون لكم قولاً ولا حجة فانصرفوا محجوجين كاذبين نادمين شاكين خائبين قالوا: ماذا تقولون قالوا بأجمعهم هذا والله كله حق وصدق لا نشك فيه ولا نرتاب به قد سمعنا لو فهمنا ولله الحجة البالغة رب العالمين وصلى الله على نبيه وآله الطاهرين. تم الكلام في هذا الفصل وحسبنا الله ونعم الوكيل والحمد لله وحده ونستعين به.

وجاء في الرسالة الموسومة ويد (؟) التوحيد لدعوة الحق: «توكلتُ على مولانا البار العلام العلي الأعلى حاكم الحكام من لا يدخل في الخواطر والأوهام جل ذكره عن وصف الواصفين وإدراك الأنام حروف بسم الله الرحمن الرحيم حدود عبد مولانا الإمام: كتابي إليكم معاشر الأخوان المستجيبين إلى دعوة مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد جلّ ذكره عن الصاحبة والولد العابدين له لا لغيره الناجين من شبكة إبليس اللعين والضد المهين وجواسيسه الملاعين وأنصاره الغاوين وحزبه الشياطين ليس لإبليس عليكم سلطان ولا لجنوده لديكم مكان ولا لزخرفة عندكم شأن، بل أنتم الملائكة المقرّبون الذين ملكوا أنفسهم عن أفعال المشركين وأنتم حملة عرش مولانا جل ذكره والعرش ها هنا علمه الحقيقي الذي هو صعب مستصعب لا يحمله إلا نبي مرسل أو ملك مقرب أو مؤمن امتحن المولى قلبه بالإيمان له وحده سبحانه تعالى عما يصفون.

أما بعد فإني أحمد إليكم مولانا الذي لا مولى لنا سواه وآمركم وإياي بالشكر لنعمه وآلائه حمْدَ من استوجب الزيادة في أولاه وأخراه وأوصيكم بما أيدني به مولانا جل ذكره وأمرني به من إسقاط ما لا يلزمكم اعتقاده وترك ما يضركم افتقاده من الأدوار الماضية الخامدة والشرائع الدارسة الجامدة وما منهم ناطق إلا وقد نسخ شريعة من كان قبله من المتقدمين ومحمد بن عبد الله الناطق

السادس لما ظهَر بالنطق نسخ الشرائع كلها وسدَّ الطرق وقال فمن لم يترك ما كان عليه قديماً من دين آبائه وأجداده قتل وسمي كافراً ومن ترك الشريعة التي بيده ولم يلتفت إليها وقع عليه اسم الإسلام وكان في سلمه غير ملام وضمن لهم محمد الجنة على الدوام. فبان للعاقل الشافي والمخلص الكافي أن الإشارة والمراد ها هنا في عبادة الموجود لا المعدم المفقود والإنسان ابن يومه وساعته وفي الوجود راحته وله عبادته وبه حياته وإليه إشارته، ومولانا الحاكم البار العلام قد نسخ شريعة محمد بالكمال ظاهراً للمؤمنين ذوي الأفضال وباطناً للموحدين أولي الألباب. وأما مَن نوره في قلبه زاهر وفي معاني أموره للخلق قاهر وغير منافق بالكفر شاهر لا يلتفت إلى اشتعال الناموس وعلوه وزخرف القول وسموه، ويعلم أنه استدراجاً للكافرين وتمييزاً للمؤمنين الموحدين كما قال وليميز الله الخبيث من الطيب وإن كان لا يخفى عن مولانا جل ذكره الخبيث من الطيب يعني المشرك من الموحِّد لكنه أراد أن يبين للموحدين من يرجع منهم على عقبيه ومولانا جلّ ذِكره عالم بما في الصدور وما هو كائن والدليل على ذلك زوال الشريعة على الاختصار في شيءٍ واحد إذ لم تحتمل هذه الرسالة طول الشرح.

وقد بيّنتُ لكم في الكتاب المعروف بالنقض الخفي نسخ السبع دعائم ظاهرها وباطنها وذلك بقوة مولانا جل ذكره وتأييده ولا حول ولا قوة إلا به وكيف وفي رفع الزكاة وإسقاطها مقنع المسائلين عن غيرها وهي مقرونة بالصلاة، وقد غزا عبد اللات بن عثمان المكنى بأبي بكر إلى بني حنيف ومعه جميع المهاجرين والأنصار فقتَلَ رجال بني حنيف ونهب أموالهم وسبى حريمهم. وقد اشترى علي ابن أبي طالب وهو أساس الناطق من جُملة السبي امرأة تعرف بالحنفية واسمها تحفة وهي أم ولده محمد فقيل له يا علي كيف تستحل نفسك أن تشتري امرأة مسلمة تشهد أن لا إله إلا الله وتشهد أن محمداً رسول الله وتصلي الخمس وتصوم شهر رمضان فقال علي ما ينفعها ولا لقومها الشهادتين ولا سائر أعمال الشريعتين إذا لم يؤدوا الزكاة وإن الزكاة هي الشريعة بكمالها فمن لم يؤدها وجب عليه القتل وأحل لنا ماله وأهله لقوله فويل للمشركين الذين لا يؤدون الزكاة فقد أخرجهم الله من الإسلام وجعلهم من المشركين. وأنتم معاشر الموحدين قد علمتم وسمعتم السجل الذي أمر مولانا جل ذكره بقراءته عليكم وأسقط عنكم الزكاة والأعشار والأخماس وسائر الصدقات إلى أبد الآبدين ولم يسقط عنكم محافظة بعضكم بعضا».

وقال في رسالة البلاغ والنهاية في التوحيد: «فنعوذ بمولانا من ذلك سبوح قدوس مبدع الإبداع وجامع الأشتات والأضياع الذي هو على السماوات عالٍ وفي الأرض متعال وعن قريب

يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيده ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين. والذي يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ويلبسون الغيار وهم كارهون ويكونون في الغيار والجالية على ثلاثة أصناف: فغيار النواصب علاّقتان من الرصاص في أذني كل واحد منهم وزنهما عشرون درهماً وطرف كمه الأيسر مصبوغ فاختياً وجاليته ديناران ونصف وهم يهود أمة محمد، ويكون غيار أهل التأويل الواقفين عند العدم علاّقتين من الحديد في أذني كل واحد منهم وزنهما ثلثون درهماً وطرف كمه الأيمن مصبوغ بالسواد وجاليته ثلاثة دنانير ونصف وهم المشركون نصارى أمة محمد، ويكون غيار المرتدين من توحيد مولانا جلّ ذكره علاّقتين من الزجاج الأسود في أذني كل واحد منهم وزنهما أربعون درهماً ويكون على رأسه طرطور من جلد ثعلب وصدر ثوبه مصبوغ رصاصياً أغبر وجاليته خمسة دنانير في كل سنة وهم المنافقون مجوس أمة محمد. وتؤخذ هذه الجالية من الشيوخ والشباب والنساء والصبيان والأطفال في المهد وتغيَّر عليهم العلائق في كل سنة فمن خالف منهم ضرب عنقه».

وقال في رسالة الغاية والنصيحة: «فلو ميزتم معاني الكلام وتدبرتموها لبان لكم نطق الرسول من نطق إبليس وفعل الإمام من فعل غطريس ولعرفتم السبت والخميس وتبرأتم من فرعون وهامان الرجيس ولتصور لكم ارتفاع مكان إدريس وعبدتم مولانا جل ذكره باري الحن والجن والبن والإنيس. والرسول هنا هو الإمام المفترض الطاعة وهو دون الإمام المعظَّم، وإبليس هو المشتبِه بالمولى سبحانه ويزعم بأنه جنس ويدعي عهد المسلمين والإمام الأعظم ذو معة وسمي ذو معة لأنه دعا توحيد الإمام جل ذكره بلا واسطة وغطريس هو نشتكين الدرزي الذي تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين وهو الضدّ الذي سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام ويدّعي منزلته ويكون له خوار وجولة بلا دولة ثم تنطفئ ناره، وكذلك الدَرزي كان من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجّبر وخرج من تحت الثوب والثوب هو الداعي والسترة التي أمره بها إمامه حمزة بن علي بن أحمد الهادي إلى توحيد مولانا جل ذكره سبحانه وتعالى وادّعى منزلته حسداً له وإعجاباً بروحه وقال قول إبليس. وكذلك الدرَزي سمّى روحه في الأول بسيف الإيمان فلما أنكرت عليه ذلك وبيّنتُ له أن هذا الاسم محال وكذِبٌ لأن الإيمان لا يحتاج إلى سيف بعينه بل المؤمنون محتاجون إلى قوة السيف وإعزازه فلم يرجع عن ذلك الاسم وزاد في عصيانه وأظهر فعل الضدية في شأنه وتسمى باسم الشرك، وقال أنا سيد الهاديين يعني أنا خير من إمامي البادي وغرّهُ ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم، وحسِبَ أنّ أمر التوحيد مثله يحتمل التدليس وأبى أن يسجد لمن نصّبه

المولى جل ذكره وقلّده واختاره وجعله خليفته في دينه وأمينه على سره وهادياً إلى توحيده وعبادته فتغطرس على الدين وأظهر سيف الناطق والأساس أجمعين طلباً للرياسة والاسم اللطيف بإظهار الشريعة في عالم البسيط والكثيف.

وفرعون البرذعي وهامان علي ابن الحبال لأن فرعون كان داعي وقته فلما أبطأ الناطق قال أنا ربكم الأعلى يعني إمامكم الأعظم. وهامان الذي فتح له باب المعصية وإدريس هو الذي رُفع مكاناً عالياً وهو ارتفاع درجته في العلوم حتى أصبح إماماً دون الإمام الأعظم الذي مص العلم من ذي معة وهو قائم الزمان هادي المستجيبين عبْد مولانا جلّ ذكره وصفيّه بلا واسطة جسمانيه، فإذا عرفتم هذا عبدتُم مولانا جلّ ذكره باري الحق وهم الدعاة والجن وهم المأذونون والبن وهم المكاسرة والأنس وهم المستجيبون ها هنا في هذا المعنى والسبت دليل على السابق وهو علي بن عبد الله اللواتي الداعي والخميس دليل على التالي وهو مبارك بن علي الداعي وأهل التأويل يزعمون بأن الكلمة هو السابق والسابق هو الكلمة ولا فرق بينهما ولا يعرفون فوقهما شيئاً إذ كانت الثلاثة حدود الذين هم ذومعة وذومعة والجناح غائبين عن عيون قلوبهم ينظرون إليهم وهم لا يبصرون.

معاشر المستجيبين لمولانا جل ذكره قد بلّغت لكم الهداية ودعوتكم إلى توحيد مولانا جل ذكره في سبعين عصراً، ما منها عصر إلا ويظهرني مولانا جل ذكره فيكم بصورة أخرى واسم آخر ولغة أخرى أعرفكم ولا تعرفوني ولا تعرفون نفوسكم. والآن قد استدارت الأدوار وكأنكم بإظهار توحيد مولانا جل ذكره ونور الأنوار وأظهر لكم ما كان مدفوناً تحت الجدار فلمولانا الحمد والشكر وحده فلا تنكروا معجزات مولانا جل ذكره وآياته ولا تلتفتوا إلى أمس فأمس مضى بما فيه وغداً فلا تعلَم أنك توافيه واليوم أنت فيه بما يقتضيه وكلما غاب عن العالم أسقطوه فلو كان للعالَمين عقول لميّزوا معجزاتي التي أيّدني بها مولانا جل ذكره يوم الجامع».

وقال في رسالة السيرة المستقيمة بشأن القرامطة ما يأتي: «وكان أهل الإحساء - إلى المدينة صرفة- يسافرون إليها بالبيع والشراء فدخل إليها رَجل من أهل الإحساء يقال له صرصر فكاسره بعض الدعاة وأخذ عليه العهد من وقته وساعته وأتى به إلى عند آدم وهو شطنيل فأطلقه داعياً بإحساءَ وأعمالها، فخرج الرَجل من وقته وساعته إلى الإحساء وأعمالها وأخذ العهد بها على خلق كثير وأوصاهم بتوحيد مولانا جلّ ذكره وعبادته والإقرار بشطنيل وإمامته والتبرئ من إبليس وصحبته. وقال لهم إذا دخلتم هجر فعبّسوا وجوهكم وقرمطوا آنافكم على أهلها فإن فيها رجلاً يقال

له حارث ابن طرماح الأصبهاني وله أصحاب كثيرة وكلهم قد خالفوا أمر مولانا البار العلاّم وجحدوا فضيلة الإمام فلا تخاطبوا أهلها بشيء من العلم إلا لمن يحضر معكم مجلس شطنيل الحكيم. فقبلوا من الداعي صرصر وفعلوا ما أمرهم به من العبسة والقرامطة فلقبوهم بالقرامطة إلى وقتنا هذا وصار ذلك اسماً في بلاد الفرس وأرض خراسان إذا عرفوا رجلاً بالتوحيد قالوا هذا قرمطي ويسمون مذهب الإسماعيلية القرامطة لهذا السبب.

وكان أبو طاهر وأبو سعيد وغيرهم من القرامطة دعاة لمولانا البارّ سبحانه يعبدونه ويوحدونه ويسجدون لهيبته وعظمته وينزّهونه عن جميع بريّته فلقّبهم المولى جلت قدرته بالسادة وعلِموا في الكشف ما لم يعمله أحد من الدعاة وقتلوا من المشركين ما لم يقدر عليه أحد من الدعاة. ولم يسهّل المولى سبحانه ظهور الكشف على أيديهم لِما علِمَ جلّت قدرتُه وعزَّت عظمتُه ومشيئته ما يكون من الخَلَف بعدهم من إضاعة التوحيد والضلالات وإتباع بني العباس بالشهوات ووقوعهم في الغي والغمرات، وقد آن وقت الكشف وأزف أوان السيف الخسف وقتل المنافقين وهلاكهم بالعنف. ولا بد من رجوع أهل الإحساء وهَجَر وديار الفرس إلى ما كانوا عليه من توحيد مولانا جل ذكره وعبادته ويسجدون له ولهيبته وعظمته وينزّهونه عن جميع بريته ويكونوا أنصار التوحيد كما كانت قديماً أسلافهم وأبثُّ فيهم دعاة التوحيد وأجمعُ شمل الأولياء والعبيد وأقهرُ بسيف مولانا جل ذكره كل جبار عنيد، حتى لا يبقى بالحرمين الشريفين مشرك بمولانا جل ذكره ولا كافر به ولا منافق عليه ويكون الدين واحدا بلا ضد ولا معاند وذلك بقدرة مولانا الحاكم الأحد الفرد الصمد المنزّه عن الصاحبة والولَد وشدّة سلطانه ولا حول ولا قوة إلا له وبه عليه توكلت وبه أستعين وإليه المصير وهو حسبي ونعم المعين النصير».

وقال في نفْس هذه الرسالة أيضاً في توحيد الحاكم وآياته: «فلمولانا الحمد والشكر على ظهور نور الأنوار وخروج ما كان مدفوناً تحت الجدار فقد أنعم علينا وعليكم بمباشرته في البشرية وظهوره لكم في الصورة المرئية كيما تدركون بعض ناسوته الأنسية، ولا أقول ذاته أو نفسه أو صورته أو معناه أو صفاته أو حجابه أو مقامه أو وجهه إلا ضرورة على قدر استطاعة المستجيبين وما يفهمه المستمعين (كذا) وتعيه عقولهم ويدخل في خواطرهم. ولو قلنا غير هذا لما فهموا الكلام ولا تمّ لهم النظام، وإلّا فمولانا جلّ ذِكره لا يدخل في الأوهام والخواطر ولا يمتزج بباطن ولا ظاهر بل منه بدأ كل شيء وإليه يعود كل شيء كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن سبحانه وتعالى

عن إحاطة الدهور به والأزمان ولا يقف أحدٌ من المخلوقين على أفعال مولانا جل ذكره ولا يدرك غاية سلطانه ولا يستطيع الوقوف على كنه عُشْر عُشْر معشار سيرته وبرهانه.

ولو تدبروا العالمين (كذا) ما يرون من آياته وبيان علاماته مشاهدة العيان لكان لهم كفاية عن طلب العدم بالخبر وعن كتبه التواريخ والسير وذلك ما شاهدون منه لا يجوز أن يكون من أفعال أحد من البشر ولا سمع به من التواريخ والسير. ولو جئتُ أذكر لكم عيان جميع ما أظهر مولانا جل ذكره من أبياته وبيان علاماته لما حواه قرطاس ولا كتبه قلم كما قال في القرآن ولو أن ما في الأرض من شجر أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله، والله في هذا الموضع ناسوت مولانا سبحانه لكني أذكُر لكم في هذه السيرة وجوهاً قليلة العدد كثيرة المنفعة لمن تفكَّر فيها ووحده وعبد مولانا سبحانه وعز عن حكومة الأوهام سلطانه.

فأوّلُ ما اختصر في القول ما فعله المولى سبحانه مع برجوان وابن عمار وهو يومئذ ظاهر ما يرونه العامة على قدر عقولهم ويقول صبي السن وملك المشارقة كافة مع برجوان وابن عمار ملك المغاربة كافة ما أمر مولانا سبحانه بقتلهم فقتلوا الكلاب ولم يخش من تشويش العساكر والاضطراب. وأما أمر ملوك الأرض فما يجرأ أحد منهم على مثل ذلك ثم أمر بقتل ملوك كتامة وجبابرتها بلا خوف من نسلهم وأصحابهم ويمشي أنصاف الليالي في أوساط ذراريهم وأولادهم بلا سيف ولا سكين.

وقد شاهدتموه في وقت أبي ركوة الوليد بن هشام الملعون وقد أضرم ناره وكانت قلوب العساكر تجزع في مضاجعهم مما رأوه من كسر الجيوش وقتل الرجال، وكان المولى جلت قدرته يخرج أنصاف الليالي إلى صحراء الجب ويلتقي به حسان بن عليان الكلبي في خمسمائة فارس ويقف معهم بلا سلاح ولا عدّة حتى يسأل كل واحد منهم عن حاجته. ثم أنه يدخل في ظاهر الأمر إلى صحراء الجب وليس معه غير الركابية والمؤذنين وكذلك في وقت نفاق مفرج بن ذغفل بن جراح وأخوته وأولاده وبدر بن ربيعة وجميع العرب كافة وكانوا أهل الحجاز مع سلطانهم حسين بن جعفر الحسيني الذي نافق بمكة ومجيئه إلى الرملة واجتماعه مع ابن جراح وأولاده وما بالحضرة أحد من العسكرية ولا من الرعية إلا وهو يعتقد في كل يوم وليلة بأن حسين بن جعفر الحسيني ويحيي مع مفرج بن دغفل وأولاده يكبسون القاهرة والمولى جل ذكره يركب كل يوم وليلة ويخرج من العتمة من القاهرة ويدخل صحراء الجب ناحية الجبل موضع يزعم الناس بأن مفرج بن

جراح يجيء من ذلك الموضع ولم يرجع الحسيني إلى مكة حتى وقعَت العداوة بينه وبين ابن جراح وأراد ابن جراح أن يقتله ثم هلك بعد ذلك مفرج بن دغفل بن جراح وملوك الأرض كافة قد عجزوا عن هذا».

وهكذا تجد هذا المخطوط كيف قلبته حاوياً أنواعاً مما تقدّم وختم بقصيدة اسمها شعر النفس للشيخ أبي إبراهيم إسمعيل بن محمد التميمي الداعي المكّنى بصفوة المستجيبين إلى دين مولانا إلى علم الإمام أرسلها إلى جبل السماق لتقرأ على كل موحِّد وموحّدة قال:

إلى غاية الغايات قصدي وبُغْيتي	إلى الحاكم العالي على كل حاكمِ
إلى الحاكم المنصور عوجوا ويمموا	فليس فتى التوحيد فيه بنادمِ
هو الحاكم الفرد الذي جلّ اسمُه	وليس له شبه يقاس بحاكمِ
حكيم عليم قادر مالك الورى	يؤانس بالاسم المشاع بحاكمِ
غدا السابق السامي إليه وتاله	مع الجِد والفتح الخيال الملاومِ
عبيداً لمولانا خضوعاً لأمره	وكل فتى في الدين عبد لآدمِ
هو الواحد العالي على كل علّة	وما غيره إلا كعبد وخادمِ
هو الحاكم المولى بناسوته يرى	ولاهوته يأتي بكل العظائمِ
إلى الحاكم المولى فهبوا واقبلوا	فتوحيدكم صدق على كل حازمِ
إذا الحاكم العالي تعالى بموكب	فوحّدَ بين العِلم بين العوالِمِ
تَسمّى إماماً والإمام فعبده	تيقَّظْ ولا تصغِ إلى كل نائمِ
وقد ظهر المولى فآسى عبيده	بأفعالهم أنساً بحكمة حاكمِ

ظهوراً بأفعال العبيد وشكلهم ويؤنسهم والخَلق شبه البهائمِ

إذا بثّنا التوحيد طاشت عقولهم وراموا انتهاشاً مثل نهش الأراقمِ

سيقطعهم عظم احتجاج مقالنا على عَظمهم قطعاً كقَطع الصوارمِ

هو الحق ما قلنا شواهده أتت تحز مقال القوم حز الغلاصمِ

تقوم رجال الحق عند قيامهم بقوة عزم في انتهاء العزائمِ

يفادون رغماً لا يجاب مقالهم حفاة سارى في أكف الضراعمِ

يناديهم الهادي هلموا إلى الذي جلتهم من التوحيد من كل عالمِ

هلموا إلى المعنى الخفي وحسبكم شواهد ما أبدي لكم في الدعائمِ

وقلتم بتأويل المعاني ديانة على غيره ما قد قيل من كل قائمِ

ظننتم بأن الطفل يبقى لصغره وأنسيتم حدَّ البلاغِ المكاتمِ

وأشركتم والشرك كنه لنطقكم وأمواج بحر الشرك بين التلاطمِ

سيطلق سيف الحق فيكم لجهلكم ويحصدكم كالزرع من غير راحمِ

وتحويكم أهل الإجابة والتقى وتوحيدهم يربو على كل غانمِ

ويظهر سيف للتميمي مشهراً على جمعكم والفعل من غير آثمِ

وما صفوة للمستجيبين تارك جهادكم من غير خوف ولائمِ

ونشفي غليلاً في الصدور مكمناً ونأتي على أنسابكم والتراجمِ

وتمشون جهراً بالغيار لخلفكم　　　　وتلقون كل الذل من غير راحمِ

سيكظم هذا الشعر كل منافق　　　　ويزداد كظماً فوق كظم الأكاظمِ

آفة الأخبار

مسألة تصحيح السند في الأخبار من المسائل المعوّل عليها كثيراً في الإسلام حتى عُدَّ ذلك من خصائصه وبه حُفظَت السُّنّة بحالها وطرحَت منها الزوائد ولم يبقَ مجال للوضاعين والقصّاصين على شدة احتيالهم في بثّ ما اخترعوه ووضعوه ولأجل هذا الغرض أُلّفت المصنفات الكثيرة في الطبقات ليُعرف كل امرئٍ بترجمته فلا يغترّ إنسان بقوله مهما بلغ من زخرفه: فمن طبقات للمفسرين وأخرى للمحدثين وأخرى للفقهاء وغيرها للمؤرخين وغيرها للنحويين والحكماء والأدباء والفلاسفة والأطباء لتظهر على الدهر صفات من انتسب لعِلم أو ضرب في المعارف بسهم.

ولذلك كان من السهل التمييز بين أقوال المؤلفين على عهد رواج بضاعة العلوم في هذه الديار أيام كانت ملكة النقد ترجع إلى قواعد مقررة وضوابط محررة فلا يغتر الخاصة بنقل نقلَه مؤلِّف هو في الحقيقة من العامة بمجرد ما يرونه مكتوباً على الورق منشوراً في سفر مجلَّد.

ولقد كان ولا يزال بعض من يعانون صناعة التأليف يسقطون الحين بعد الآخر في مسائل فيخلطون فيها على الأغلب ومنشأ ذلك على ما يعرف المحققون عدم تصحيح السند والنقل وأخذ القول على عواهنه بدون تمحيص حتى لم تكد تخلو كتابة المكثرين من المغامز يتبين منها عوارها ويتجلى ضعفها.

مثال ذلك اختلاف بعضهم في أمر الخلفاء وما كانوا عليه من المنازع والأخلاق فكان بعضهم يقدح في سيرتهم حتى يسقطوهم كل الإسقاط وبعضهم يرفعونهم حتى يبلغوا بهم مراتب الملائكة وكلا الأمرين إفراط وتفريط. فقد رأينا بعض الوضّاعين وأرباب المجون اتهموا بعض بني العباس كالرشيد والمأمون مثلاً بالتبذل والاسترسال في الخلاعة، ولم نرَ مؤرِّخاً واحداً من ثقات المؤرخين صحّح هذه الأخبار فكأن مدوّن تلك الهنات يحاول إلصاقها بخصمه لغرض سياسي أو أن ينقلها بعض أرباب المقالات والأهواء - وأكثرها نشأت أيضاً من نزعات سياسية - ويَقصد منها

غرضاً من الأغراض أو يغترّ بها الأبله وما أكثر البله في المؤلفين. ومن الحكايات المدخولة للأغراض المنوّه بها ما رواه بعض لم يصححوا النقل في السبب الذي حمل الرشيد على نكبة البرامكة من قصة العبّاسة اخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاه، وأنه لكَلفِه بمكانهما من معاقرته وإياهما الخمر إذن لهما في عقد النكاح دون الخلوة وأن العبّاسة تحيّلت عليه في التماس الخلوة لما شغفها من حُبّه فحمَلَت ووشي بذلك للرشيد فغضب ونكب البرامكة.

وقد رد ابن خلدون على هذه التهمة الشنعاء أحسن ردٍّ معقول فدفع هذه الفرية عن ابنة خليفة وأخت خليفة محفوفة بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول قريبة من عهد البداوة وسذاجة الدين، وما هذه التهمة إلا مما وضعه الوضّاعون يقصدون التوصل منه إلى النيل من أولئك الخلفاء بهذه الطريقة السافلة وإغراء الناس على إتيان المنكرات ليقول العامة إذا كان مثل الرشيد يعاقر الخمر ويُقدح في مروءته في مسألة تزويج أخته فأولى بنا أن لا نتشدد في قيود الدين والآداب ونحن يسعنا ما يسعُهم. وقد قال الطبري وهو من ثقات المؤرخين والمحدثين أن الرشيد كان يصلي في كل يوم مائة ركعة نافلة وكان يغزو عاماً ويحجّ عاماً. أما الشراب الذي يرمي بنو العباس بتناوله فكان عصير التمر وقد أفتى بحلّه الفقهاء.

وإنا إذا اعتمدنا في أخبارنا على مثل كِتاب أعلام الناس ونزهة المجالس وشمس المعارف وغيرها من كتب الموضوعات واعتقدنا صحة أقوال بعض أرباب الأهواء من المؤرخين لا يكاد يبقى لنا بقية يُعتدّ بها من الخلفاء والأئمة ما كانت الأمة تبقى إلى اليوم محافظة بعض الشيء على آدابها وأخلاقها. ومن ذلك ما وقع مؤخراً لصاحب مقالة تعليم النساء فنقَل ما قاله الأدباء وأكثرهم من المخالفين لبني العباس في مذهبهم الديني والسياسي في عَليّة حفيدة المنصور وبنت المهدي وأخت موسى الهادي وإبراهيم ابن المهدي والرشيد والعباسة وأسماء وعمّة الأمين والمأمون والمعتصم وإنها كانت تشبب بغلامين طلّ ورشا وإن الرشيد لما آنس منها ميلاً إلى طلّ وهبَها إيّاه وقبّل رأسها وقال لها لست أمنعك بعد اليوم من شيءٍ تريدينه!

ولئن رجّح الكاتب الروايةَ الثانية لما عُرف من أنفة الرشيد وغيرته ولكنه كان عليه طرح هذه الرواية المدخولة لأدنى نظرٍ قياساً على نظائرها مما روي عن أرباب الخلاعة من الماجنين من الشعراء والوضّاعين من أهل الأهواء ممن يريدون الاعتذار عن سيئاتهم باتهام العظماء بهذه التهم

الشنعاء ليكون الناس في الخزي والبذاء كأسنان لمشط في الاستواء ولطالما ودَّ صاحب الكبائر لو كان الناس كلهم شركاءهم فيما يقترفون.

وإنا إذا وضعنا هذه الرواية على محك الروية لتجلى لنا لأول نظرة بأنها لا تصدر عن عامة الناس في عصر الرشيد والمأمون وناهيك به من عصر بلغ الغاية في الآداب والعلم والصيانة فكيف يعقل صدور ذلك من خليفة وابنة خليفة وأخت خليفة ولو وجد عقلاء عصره ورجال دولته أقل نقد عليه لما سكتوا عنه ولو أغمضوا عيونهم لما خفي أمره على الطالبيين القائمين بالدعوة إلى أهل البيت وهل أحسن لهم ذريعة في إسقاط الرشيد والمأمون من نسبتهما إلى أمور لو ثبت أقلها لكانت تقصيهما عن منصب الخلافة ولو كان أهل الأرض ظهراءهما.

إن أخلاق السوقة تأبى لعمر الحق الرضى بما نقله أهل المجون عن الرشيد وسماحه لأخته بمعشوقها وقوله لها أنه لا يصدفها عن إتيان ما تريد إذا كان فيه هوى نفسها! وإن نسبة تلك الأشعار في النسيب والتشبيب إلى امرأة كعَلَيّة من فضيلة النساء لا يرضى به السوقة دع عنك الخلفاء بعد الذي علمناه من أن العرب كانوا يقتلون من بناتهم من تشبب وتفحش في غزلها فكيف بعد هذا نثق برواية القيرواني في عليّة وهو أموي والأصفهاني وهو علوي. ومعاداة العلويين والأمويين لبني العباس معلومة مشهورة وميل الأدباء والموسيقيين للأغراب لإدهاش الناس معروف موصوف ومتى كانت تؤُخذ حقيقة علمية من أديب أو فضيلة أخلاقية من شاعر.

وعندنا أن كل ما اتهم به الوضاعون وأهل الخلاعة بعضَ الخلفاء الأول من بني العباس إنما أتى من تكتُّم العباسيين في أسرار دولتهم ولأنهم أعطوا الأمة حرية أمنت فيها فلم ير بعض أردياء الفطرة أقرب إلى العبث بعقول العامة بنشر تلك الموضوعات والمجونيات بين العامة والخاصة، كما أشاعوا سوء القالة عن العباسة وعَلَيَة والناس أميل إلى الشر منهم إلى الخير وإلى كسر القيود أكثر من الاحتفاظ بها وإلى أقاصيص الهزل وأساطير اللهو أكثر من روايات الجد وتلقف الحقائق. وكل شيءٍ يحتاج إلى تمحيص وحاجتنا إليه في التآليف والمؤلفين أكثر حتى لا نتغرر بكل قول ولا نصحّح كل نقل.

غرائب القصاص

لعل بعض النفوس تتأذى بقراءة هذا الموضوع لأنه يدور على التفنن في إزهاق الأرواح على أنه لا بأس بشيء من القسوة يقوون بها قلوبهم للنظر في موضوع علمي تاريخي.

كان الإفرنج بعد الحروب الصليبية يستعملون من أساليب القتل كلَّ غريب عجيب وخصوصاً في عهد ديوان التفتيش الديني في البلاد اللاتينية التوتونية حتى إذا كانت سنة 1792 أخذت بعض البلاد ولاسيما فرنسا عن إيطاليا استعمال آلة سموها المقصلة تحز رأس المُجرم في أقل من ثانية ثم أخذوا يبطِلون هذه العادات ولمّا جاء دور الكهربائية أنشأت بعض بلاد الغرب ولاسيما الولايات المتحدة تعمد إلى إصعاق المجرمين بها ولكن تبيَّن مؤخراً أن المصعوق بإجراء مجرى كهربائي عليه لا يقتل في الحال بل أنه يقاسي أشد العذاب عقيب إصعاقه ولا تزهق روحه حقيقة إلا بعد أن تشرح جثته.

وقد قامت الدكتورة روبينوفيتش وحملت حملة منكرة على القتل بالكهرباء قالت: إن كان لا بد من استعمال هذه الطريقة الوحشية فلا أقل من أن يكون فيها شيء من روح الإنسانية بمضاعفة القوة الكهربائية خمسة أضعاف ما يجري الآن ليتم القتل في أقل من لحظة وقد جربت هذه الطريقة في الأرانب فوقع الاستحسان عليها وأخذوا يستعملونها ولكن في عقاب المجرمين لتسلم بلادهم من شرور الأشرار.

وبعد فما برح البشر منذ عرف تاريخهم يقتل كبيرهم صغيرهم ويأكل قويهم ضعيفهم ويعاقِب في التنازع على المحمدة والمجد والمال والدين والعروض بعضهم بعضاً وآخر عقوباتهم ونتيجة إرهاقاتهم الموت اخترعوا إلى الوصول إليه طرقاً ترتعد لسماع أخبارها اليوم الأعصابُ وتاريخ الشرقيين والغربيين على غرار واحد من هذا القبيل ترى كلما فتحت صفحاته دماءَ أبرياءٍ

تعج من جور الأقوياء على الضعفاء فتبلغ عنان السماء وتتمثل لعينيك الأمم في ذلك كأسنان المشط في الاستواء قلما يختلف شرق عن غرب أو أسود عن أبيض.

فمِن خنق إلى حرق إلى شنق إلى ضرب بالعصي والأكف ورمي بالنبال وهبر بالسيف ودسر بالرمح والحراب والقذائف والبارود والديناميت إلى سم وإجاعة وحز رؤوس وبقر بطون وسمل عيون واستلال لسان وصلم آذان وشتر شفاه وقضقضة أعضاء وجذم أكف وقطع أيد وأرجل وأكحل إلى غير ذلك مما يَرجع إلى معنى واحد ألا وهو الإرهاق في العقوبة وبلوغ المرء بأخيه ما يقال له الموت. فكما أن للموت عشرات المترادفات في العربية كذلك تجد في كل لغة ألفاظاً تدل على تلك المسميات التي تهدم الهيكل الإنساني وتطفئ سراج الحياة.

فقد نهى الرسول عن التعذيب والتمثيل ومشى بعض أصحابه على هديه زمناً ولكن كان بعض أهل الصدر الأول يرجعون إلى التوحش وإرضاء الشهوات الغضبية فلا يدّخرون وسعاً إذا ظفروا بعِداتهم في أن يصبّوا عليهم سوط العذاب فكان معاوية بن أبي سفيان أول من فتح هذا الطريق كما ابتدع بدعاً كثيرة أتى بها على غير مثال احتذاه ممن سلفه فقد ذكر الثقات أنه كان يقرّب ابن أثال الطبيب منه ويفتقده كثيراً لأنه كان خبيراً بتركيب الأدوية ومنها سموم قواتل حتى مات في أيامه كثير من أكابر الناس والأمراء المسلمين بالسمّ وممن قتل في عهد أتباعه عبد الله بن عمر بعثوا إليه من رماه بسهم مسموم في عقبه. والتاريخ طافح بما قام به من ضروب التنكيل والتمثيل وكذلك فعل بعض ملوك دولته من بعده.

ولقد قابل بنو العباس الأمويين ببعض ما عاملوا به غيرهم وعمل السفّاح بقول سديف في وصف بعض بني أمية لما ذهب مُلكُهم:

لا يغرّنكَ ما ترى من رجالِ — إن تحت الضلوع داءً دويّا

فضَعْ السيف وارفع السوطَ حتى — لا ترى فوق ظهرها أمويا

قال ابن الأثير ودخل شبل بن عبد الله مولى بني هاشم على عبد الله بن علي وعنده من بني أمية تسعين رجلاً على الطعام فأقبل عليه شبل فقال:

أصبح الملك ثابت الأساسِ — بالبهاليل من بني العباسِ

طلبوا وتر هاشم فشفوها	بعد ميل من الزمان وياسِ
لا تُقيلن عبد شمس عثاراً	واقطعنّ كلّ رقلة وغراسِ
ذلها أظهر التودد منها	وبها منكم كحزّ المواسي
ولقد غاظني وغاظ سوائي	قربهم من نمارق وكراسي
أنزلوها بحيث أنزلها	الله بدار الهوان والإتّعاس
واذكروا مصرع الحسين وزيد	وقتيلاً بجانب المهراسِ
والقتيل الذي بِحرّان أضحى	ثاوياً بين غربة وتناسي

فأمر بهم عبد الله فضربوا جميعاً بالعمد وبسط عليهم الأنطاع فأكل الطعام عليها وهو يسمع أنين بعضهم حتى ماتوا جميعاً.

وأمر عبد الله بن علي بنبش قبور بني أمية في الشام فنبش قبر معاوية بن أبي سفيان فلم يجدوا فيه إلا خيطاً مثل الهباء ونبش قبر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان فوجدوا فيه حطاماً كأنه الرماد ونبش قبر عبد الملك بن مروان فوجدوا جمجمته وكان لا يوجد في القبر إلا العضو بعد العضو غير هشام بن عبد الملك فإنه وُجد صحيحاً لم يبل منه إلا أرنبة أنفه فضربهُ بالسياط وصلبَه وأحرقه وذراه مع الريح وتتبّعَ بني أمية من أولاد الخلفاء وغيرهم فأخذهم ولم يفلت منهم إلا رضيع أو من هرب إلى الأندلس. وقتل سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس بالبصرة جماعة من بني أمية عليهم الثياب الموشية وأمر بهم فجُروا بأرجلهم وأُلقوا على الطريق فأكلهم الكلاب.

وفي مروج الذهب أن الهيثم بن عدي روى عن معمور بن هانئ الطائي قال: خرجت مع عبد الله بن علي وهو عمّ السفاح والمنصور فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلا خرمة أنفه فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ثم أحرقه فاستخرجنا سليمان ابن عبد الملك من أرض دابق فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه وأضلاعه ورأسه فأحرقناه وفعلنا ذلك بغيرهما من بني

أمية وكانت قبورهم بقنسرين ثم انتهينا إلى دمشق فأخرجْنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلا عظماً واحداً ووجدنا خيطاً أسود كأنما خُطّ بالرماد بالطول في لحده ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم. وكان سبب فعل عبد الله ببني أمية هذا الفعل أن زيد بن زين العابدين علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب سَمَت نفسه إلى طلب الخلافة فحاربه يوسف بن عمر الثقفي فانهزم أصحاب زيد وانصرف هذا مثخناً بالجراح ولما مات دفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره التراب والحشيش وأجروا الماء على ذلك فدُلَّ يوسف على موضع قبره فاستخرجه وبعث برأسه إلى هشام فكتب إليه هشام أن اصلبه عرياناً وبني تحت خشبته عمود ثم كتبَ هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وتذريته في الرياح وكان ذلك.

وهكذا تجد ضروباً من المنيّة في تاريخ هذا القسم الصغير من الأرض فقد قتَل أبو الجيش أحمد بن طولون أخاه المسمى بالأمين خنقاً بماء مغلي حتى مات. وقتل نصر بن أحمد صاحب خراسان أخاه زكريا بعَصْر خصاه. وقتلت أم خالد بن يزيد بن معاوية زوجها مروان بن الحكم أبو عبد الملك بأن أمرت خدَمَها أن يضعن المخاد على فمه حتى مات. وكم من رجل سُمَّ في كمثرى أو رمي الزئبق في أذنه أو فصِد بمبضع مسموم. قيل أن أحمد بن الموفق ابن أخي المعتمد بن المتوكل قَتَل عمَّه في حفرة ملأها من ريش ورماه فيها فمات بها. وقُتل الشهاب السهروردي جوعاً. وألقي رفيع الدين الجبلي من أعلى مغارة في بعلبك فتعلق في بعض جوانبه فبقي المبصرون ذلك يسمعون أنينه نحو ثلاثة أيام وعُذب أعوانه وكان قاضي قضاة دمشق.

ولما غضب الراضي على الوزير أبي علي بن مقلة سلّمه إلى الوزير أبي علي عبد الرحمن بن عيسى فضربَهُ بالمقارع وأخذ خطّه بألف ألف دينار فجرت عليه منه من المكاره والتعليق والضرب أمر عظيم وقطعَت يده اليمنى وكان يقول في سجنه يدٌ خدمت بها الخلافة ثلاث دفعات لثلاثة خلفاء وكتبتُ بها القرآن دفعتين تُقطع كما تقطع أيدي اللصوص ثم زيد في إخفائه وجُعل في مَحبس وقُطع لسانه.

ولما خرج المصعب بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان في العراق سنة 71 ورأى تحيز الجفرية لعبد الملك أرسل إليهم فنسبهم وسبّهم قال ابن جرير ثم ضربهم مائة مائة وحلق

رؤوسهم ولحاهم وهدم دورهم وصهرهم في الشمس ثلاثاً وحمَلَهم على طلاق نسائهم وجمّر أولادهم في البعوث وطاف بهم في أقطار البصرة وأحلفهم أن لا ينكحوا الحرائر.

ولما دخل مراكش مأمون الموحدين إدريس بن يعقوب أمر بتقليد شرفاتها بالرؤوس فعمّتها على اتساع الساحة. ولما استولى الغز على نيسابور أخذوا أبا سعد محي الدين النيسابوري ودسوا في فمه التراب حتى مات. وقبض عز الدولة بن بويه على وزيره ابن بقية وسمل عينيه ولما ملك عضد الدولة طلبه وألقاه تحت أرجل الفيلة فلما قُتل صلبه. وكان الوزير ابن الزيات قد اتخذ تنوراً من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسالّ في أيام وزارته وكان يعذّب فيه المصادَرين وأرباب الدواوين والمطلوبين بالأموال فكيفما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه فيجدون لذلك أشد الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة. وكان إذا قال له أحد منهم أيها الوزير ارحمني فيقول له: الرحمة خورٌ في الطبيعة. فلما اعتقله المتوكل أمر بإدخاله في التنور وقيّده بخمسة عشر رطلاً من الحديد فقال يا أمير المؤمنين: ارحمني فقال له: الرحمة خور في الطبيعة كما كان يقول للناس - قاله ابن خلكان.

ولما استولى أبو عبد الله الشيخ على فاس سنة 961 قتل الفقيهين أبا محمد الزقاق وأبا علي حرزوز ويحكى أنه لما مثل أبو محمد بين يديه قال له: اختر بأي شيء تموت فقال له الفقيه: اختر أنت لنفسك فإن المرء مقتول بما قَتَل به فقال لهم السلطان: اقطعوا رأسه بشاقور فكان من حكمة الله وعدله في خلقه أن قُتل هذا السلطان به أيضاً. قاله في الاستقصا.

وقال فيه: لما كان من السلطان أبي عبد الله الشيخ ما كان من غزوة تلمسان مرتين وكان يحدّث نفسه بمعاودة غزو تلك البلاد جرت المخابرة بينه وبين حكومة السلطان سليمان ولمّا لم يلتزم الأدب اتّفق رأي الوزراء على أن عيّنوا اثني عشر رجلاً من فتاك الترك وبذلوا لهم اثني عشر ألف دينار لاغتيال الشيخ فما زالوا حتى وصلوا إليه وتعلقوا بخدمته ثم اغتالوه وضربوا رأسه بشاقور ووضعوه في مخلاة فأوصلوا الرأس إلى الصدر الأعظم وأدخله على السلطان فأمر به أن يجعل في شبكة من نحاس ويعلَّق على باب القلعة فبقي هناك إلى أن شَفع في إنزاله ودفنَه ابنه عبد الملك المعتصم وأحمد المنصور.

ومما روى لسان الدين بن الخطيب من فظاظة محمد بن محمد بن يوسف ثالث الملوك من بني نصر أنه هجم لأول أمره على طائفة من مماليك أبيه كان سيء الرأي فيهم فسجنهم في مطبق

الري من حمرائه وأمسك مفاتيح قفله عنده وتوعد من يرمقهم بقُوت بالقتل فمكثوا أياماً وصارت أصواتهم تعلو بشكوى الجوع حتى خفتت ضَعفاً بعد أن اقتات آخرهم موتاً بلحم من سبقه وحملت الشفقة حارساً كان يرأس المطبق على أن طرح لهم خبزاً يسيراً تنقص أكله مع مباشرة بلواهم ونمي إليه ذلك فأمر بذبحه على حافة الجب فسال عليهم دمه. قال ابن الخطيب وقانا الله مصارع السوء وما زالت المقالة عنها شنيعة. والله أعلم بجريرتهم لديه.

وقتل يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقيين خالد بن عبد الله القسري على طريقة غريبة قيل أن وضع قدميه بين خشبتين وعصرهما حتى انقصفتا ثم رفع الخشبتين إلى ساقيه وعصرهما حتى انقصفتا ثم إلى وركيه ثم إلى صُلبه فلما انقصف مات. وقال المقري دخل السلطان أبو الحسن سجلماسة عنوة على أخيه السلطان أبي علي عمر سنة 734 وجاء به في الكبل لفاس ثم قتله بالفصد والخنق.

ولقد كان رؤساء الناس وولاة الأمر منهم هم الذين لا يبالون بإرهاق النفوس وإزهاق الأرواح وكثيراً ما يكون ذلك لغير سبب سوى الطيش والجهالة وكان بعضهم يلتذ بإراقة الدماء مثل المعتضد بالله العبادي أحد ملوك الأندلس الذي دانت له الملوك من جميع أقطارها وكان قد اتخذ خشباً في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول: في مثل هذا البستان فليُتنزّه. وهو من الملوك الذين هابهم القريب والبعيد خصوصاً بعد أن قتل ابنه وأكبر وُلْده المرشح لولاية عهده صبراً لأن ابنه كان يريد الوقيعة به.

قال لسان الدين وكان المعتضد بالله ابن عباد أبعد ثوار الأندلس صيتاً وأشدهم بأساً وأنجحهم أثراً جمع خزانة مملوءة برؤوس الملوك البائدين بسيفه وكانت وفاته سنة إحدى وستين وخمسمائة.

وفي رواية المقري أن بني الأحمر لما ظفروا بأعدائهم من ملوك الإفرنج في الأندلس سلخوا دون (بطرة) وحشوا جلده قطناً وعُلق على باب غرناطة وبقي معلقاً لسنوات. ذكر ابن سعيد أن التتار قتلوا المظفر قطز وخلعوا عظْم كتفه وجعلوه في أحد الأعلام على عادتهم في أكتاف الملوك. ولما قتل مروان بن محمد الأموي استخفى عبد الحميد الكاتب بالجزيرة فغُمز عليه فأُخذ ودفعه أبو العباس السفاح إلى عبد الجبار بن عبد الرحمن صاحب شرطته فكان يحمّي له طشتاً بالنار ويضعه على رأسه حتى مات وقيل أن ابن المقفع قتله عامل البصرة للمنصور بأن جعله في تنور.

ودخل أبو الحسن الملك العادل سيف الدين وزير الظافر العبيدي قبل وزارته بزمان على الموفق أبي الكرم بن معصوم التنيسي وكان مستوفي الديوان، فشكا إليه حاله من غرامة لزمته بسبب تفريطه في شيء من لوازم الولاية بالغربية بمصر فلما أطال عليه الكلام قال له أبو الكرم: والله أن كلامك ما يدخل في أذني فحقد عليه فلما ترقى إلى درجة الوزارة طلبه فخاف منه واستتر مرة فنادى عليه في البلد وهدَر دم من يخفيه فأخرجه الذي خبّأه عنده فخرج في زي امرأة بإزار وخُف فعُرف وأُخذ وحُمِل إلى العادل فأمر بإحضار لوح من خشب ومسمار طويل فألقي على جنبه وطُرح اللوح تحت أذنه ثم ضرب المسمار في الأذن الأخرى فصار كلما صرخ يقول له: دخل كلامي في أذنك بعد أم لا؟ ولم يزل كذلك حتى نفذ المسمار من الأذن التي على اللوح ثم عطف المسمار على اللوح ويقال أنه شنقه بعد ذلك.

وروى التاريخ من أخبار من تلقّوا نكباتهم بالصبر العجيب ومن أنباء شجعان الزمان ما لا يكاد يُصدّق إلا أنّ أهل الأباء منهم كانوا يؤثرون الموت في الزحف ويتفادون من الوقوع في أيدي عداتهم لئلا يمثّلوا بهم فقد جاء عبد الله بن الزبير إلى أمه أسماء ذات النطاقين لما خذله أصحابه في مكة فقال: ما ترين يا أماه فقد خذلني الناس. فقالت: لا يلعب بك صبيان بني أمية عش كريماً أو مت كريماً. فقال: أخشى أن يمثّل بي بعد الموت فقالت له: إن الشاة لا تألم بالسلخ بعد الذبح فقبّل بين عينيها وودّعها وخرج يقاتل إلى أن كان من أمره ما كان.

وقلب باسيل الثاني الملقب بقاتل بلغاريا بعد حرب 37 سنة مملكة بلغاريا ومقدونية سنة 1018 وأسر خمسة عشر ألف بلغاري وسمل عيونهم، وكان أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم النديم خصيصاً بالمتوكل ونديماً له غضب عليه المتوكل فأمر بقطع أذنه فقطعت من غضروفها من الخارج.

واستعمل القتل بوضع من يراد قتله تحت أرجل الفيلة كما أمر أحد بني بويه بأبي إسحق الصابي لما غضب عليه أن يجعل تحت أرجل الفيلة ولكنهم شفعوا به لديه. وكانوا يعلّقون من يريدون قتله أيضاً في ذنب الخيل ويجرونها كما فعل أزدشير بضيزن ابنة الساطرون إذ أمر بها فربطت قرون رأسها بذنب فرس ثم ركض الفرس حتى قتلها.

ومما ذكر في قانون الصين من أنواع القتل المعروف بلغتهم بالباشب وهو تقطيع الأعضاء إرباً غرباً وصفته أن يُشد الذي يراد به ذلك بين خشبتين قائمتين وتُربط يداه ورجلاه ووسطه ربطاً

محكماً ثم تجزأ أنامله وأصابعه أنملة أنملة وعقدة عقدة ثم تُفصل يداه من الرسغين ثم من المرفقين ثم من الكتفين ويُفعل برجليه مثل ذلك فإذا قُطّعت الأطراف جُدع أنفه وصُلمت أذناه وأُخرجت عيناه ثم بُرش لحمه وجلده بأمشاط من الحديد حتى يُفرّق بين عظمه ولحمه ويصير كالشاة التي جَرّد القصاب لحمها ويفعل ذلك به حياً وقد أبطل الإمبراطور هذا العقاب مؤخراً.

وبالجملة فإن أنواع القتل كثيرة وهذا أهمها فيما انتهى إلينا معرفته وذكر ياقوت في معجم الأدباء أن صولاً جد إبراهيم بن العباس الصولي شهد الحرب مع يزيد بن المهلب وأن يزيد وُجِد مقتولاً بلا طعنة ولا ضرب انسدت أذناه ومنخراه وامتلأ فمه بغبار العسكر فمات فلا يعرف مثله قتيل غبار. قلنا ومثله قتيل الدخان

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره   تنوعت الأسباب والموت واحدُ

الحافظة والحفّاظ

أي نعمة ينالها المرء أعظم من أن تعي ذاكرته كل ما تريد وعيه وتدخره إلى ساعة حاجة للانتفاع به. الحافظة من العوامل المؤثرة في ترقية الأفراد والجماعات وبدونها يصعب الوصول إلى إدراك الحقائق وتمحيصها، لأنا إذا لم نَستعن في كل مطلب من مطالب الحياة بتجارب من سبقونا ونحفظ المأثور عنهم لننسج على منواله كنا أشبه بمن يريد أن يبني له كلّ يوم بناءً وظلت العلوم والصناعات والآداب في طفولتها الأولى تجري على نظام مضطرب إذ يكون كل امرىء وما يختار.

والذاكرة والحافظة حاسة يحفظ بها الذهن على صورة دائمة أموراً مضت وتأثرات وقعت فهي بذلك كما قال مونتين الفيلسوف (1533 - 1592) وعاء العلم وصوان الحكمة. وقال لارشفوكلد الكاتب (1615 - 1680) جميع الناس يشكون من حافظتهم وما قط شكا أحد من عقله. وقال آخر: إن الذكاء بدون حافظة أشد بغربال لا يكاد يمسك ما تضعه فيه. وقال أحدهم: الحافظة واسطة من وسائط الكمال وبدونها لا يستطيع امرؤ أن يقلّد شيئاً وينسج على منواله. وقال كورنيل الشاعر: يجب لمن يتعمد الكذب أن يكون ذا ذاكرة جيدة. وهذا مثل قولهم إذا كنت كذوباً كُن ذَكوراً. وقال بيكته الأديب السويسري (1799 - 1875): لقد كان للحافظة شأن مهم جداً عند الناس في العصور الأولى أكثر مما صار لها في القرون اللاحقة. كانت الحافظة قبل اختراع الكتابة هي التي تتولى خاصة نقل التقاليد الوطنية والدينية وعامة القوانين والعادات والشعر ولذلك كانت هذه الحاسة التي قلما نحفل الآن بأمرها عند قدماء الآريين مشابهة للفكر نفسه. اختلفت مذاهب الفلاسفة فيما إذا كانت الحافظة حاسة قائمة بذاتها أو فيما إذا كان لكل حاسة فينا ذاكرة معينة ومعظم الحكماء وعلماء النفس على أن الحافظة حاسة مستقلة عن بقية حواس الإنسان ولا يكاد أحد يدرك كيف تعي الحافظة الأرقام والأعداد وتحفظ العبارات والمفردات وتُحكم اللغات واللهجات وتردد الألحان والأصوات. ويقول علماء النفس أن الشروط النفسية اللازمة لجودة الذهن متوقفة على جودة تركيب أنسجة الدماغ

وحسن تغذية هذه الأنسجة. والتعب والشيخوخة من العوامل المؤثرة في ضعف الحافظة لأنهما ملازمان لضعف تغذية هذه الأنسجة ولذلك قالوا درجة الحافظة لا تختلف بحسب الأشخاص بل تختلف في الشخص الواحد في أدوار مختلفة من حياته وإذا صرفنا النظر عن الآفات العضوية التي تضر بها فإنّ هناك أيضاً أحوالاً أقل منها تزيدها ضعفاً إلى ضعفها مثل اضطرابات المعدة وسوء الهضم والشقيقة فإن جميع هذه العوارض على الجسم تغّيرها تغييراً محسوساً.

ولتركيب الدماغ وحالته تأثير ظاهر في الحافظة فقد ذكر بلين Pline الطبيعي الروماني أن رجلاً نسي حتّى رسائله بعد أن أصيب بشجة في رأسه. وزعم البابا كليمان السادس أن حافظته قويَت قوة عجيبة عقب أن أصيب برضة شديدة في دماغه. وكيفما كانت الحال فللتمرين يد طولى في تخصيص الحافظة بشيء معين فالممثلون تقوى فيهم الملكة الحافظة الشفاهية وهي من اللوازم لهم في صناعتهم، ورجال الشرطة تقوى فيهم الحافظة في تذكّر صوَر الأشخاص وليس البشر كلهم سواء في الحفظ والاستظهار فمنهم من يحفظون الأشكال الهندسية وهم الذين خلقوا رياضيين بالفطرة ومنهم من يرزقون حافظة قوية في الأنغام كالموسيقيين. وغيرهم في ذلك من الناس من يذكرون الكلمات بسرعة غريبة ومن الأطفال مَن تقرأ لهم بصوت عال عدة صفحات فيستظهرونها في الحال ويتلونها على مسامعك لأول مرة. وتذَكّر الألفاظ خاصة يمتاز بها الأولاد في العادة أكثر من الكبار في السن ممن لا تكون قويت فيهم حاسة التفكر فيحفظون الكلمات التي يسمعونها على أيسر وجه بدون أن يفهموها والسبب في سهولة الحفظ عليهم فقدان قوة التفكر فيهم وعندما يبدأ التفكر في معظم الناس تضعف الحافظة فيهم وقد تزول من بعضهم. والحافظة الشفاهية إذا كانت هي وحدها في الإنسان لا تكون له سبيلاً إلى التفكر ومن فقد الأولى فلا يأسف لحاله لأنه يستطيع بقوة التفكر أن يأتي بالجيد من الأفكار ولكن الحافظة وحدها قد تكون من أكبر العوائق عن جودة التصور.

وبعد فإن للحافظة شأناً عظيماً في ترقية الفكر الإنساني وبدونها يكون كل شيء عقيماً لا ثمرة له لأنها واسطة لبقاء الأفكار التي صدرت وأحسن ذريعة للحصول على أفكار جديدة ولم يعرف القانون الذي تسير عليه كما أن جوهرها لم يدرك الباحثون حقيقته وغاية ما عُرف من أمرها أنها تقوى بالانتباه والتمرن كما تَقدّم وأن الكسل ابن الترف والكسل يجرح الحافظة إن لم نقل يقتلها.

ذكر التاريخ كثيرين من أرباب الحافظة النادرة فمنهم في القديم ميتريدانس الكبير ملك شمالي غربي آسيا الصغرى (123 - 63 ق. م) فقد كان يحكم على اثنين وعشرين أمة مختلفة ويخطب أمام كلٍ منها بلغتها ويدعو كلّ واحد من جنده باسمه. وذكروا مثل ذلك عن قورش ملك الفرس وتيموستقلس وسيبيون الآسياوي والإمبراطور أدريان ويقال أن مزية الحافظة هيّأت لاوتون الروماني تولي الملك. وتعلم تيموسنقلس اللغة الفارسية في سنة وكان ليبس اللغوي الأديب البلجيكي (1547 - 1606) يحفظ تاريخ تاسيت المؤرخ اللاتيني بألفاظه حرفاً بحرف وقد قال أنه يرضى أن يقف جلاد وبيده سيف على رأسه وهو يتلو هذا التاريخ فإذا أخلّ بحرف واحد يضرِب عنقه.

وكان لرينودي بون حافظة سعيدة يذكُر جميع الأبيات اللاتينية واليونانية التي قرأها في صباه ويتلو صفحات برمّتها من ديوان هوميروس وان كان مضى عليه أربعون سنة وهو لم ينظر فيه نظرة واحدة. وكان هوغ دونو الفقيه المشهور في القرن السادس عشر يستظهر القوانين المعروفة في عصره بالحرف الواحد. وحفظ يوسف سكاليجيه الأديب (1540 - 1609) الإلياذة والاوذيسية في أحد وعشرين يوماً. ومن ألطف ما يروى في باب الحافظة أن أحد الفلاحين في فرنسا جاء إلى باريز يقصد صاحباً قديماً له قد استلف منه خمسة فرنكات منذ خمس عشرة سَنة وطلب إليه أن ينقده ماله قِبله فتركه وعاد فدفع إليه ليرة واحدة وخمسة فرنكات وقال له: هذا يا صاح قد كنت نلت وأنا في المدرسة ليرة جائزة عن حافظتي فرأيتك أحدَّ مني ذاكرة وأنك أحق بهذه الجائزة مني.

ليس في الدنيا خيرٌ محض فقد اختُرعت الطباعة منذ نحو خمسمائة سنة فعمّ نفعها أهل الأرض كافة ولكن ما عتمت أن نتج عنها بعضُ شرّ إذ أصبح الناس يعتمدون على الكتب في جماع علومهم وآدابهم بعد أن كان جُلّ اعتمادهم على محفوظاتهم ومخطوطاتهم. والغالب أن الاعتماد على الحافظة والحفّاظ كان في الإسلام على أشدّه قبل تدوين الكُتب وتأليف الرسائل والمصنفات ولما بَلَغ بعض الأئمة تدوين الكتب أسفوا وعدّوه من دواعي تقهقر العلم وانقطاع سند الرواية وما زالت الحال ترتقي بعض الشيء في بعض الأعوام ثم يزهد في الحفظ حتى انتشرت الطباعة في بلادنا بانتشار الصناعات الفكرية فأمسى الناس يستندون إلى السطور بدل الصدور والقراطيس، والأسفار بدل الحفظ والاستظهار. فضعفت بهذا الضعف الحافظة وان قويت المفكرة وقلّت الرواية وان لم تقلّ الدراية.

انقطع سند الحفظ إلا في بعض ما لا يسع الأمة جهله من القرآن وعلومه فأخذ بعضهم يفتاتون على من عُرفوا قديماً بسعة محفوظهم ويزيفون ولكن بدون برهان ما رواه طائفة الراوين من أبناء الأذكياء الحافظين. ولو صح الاعتماد على إلقاء الكلام على عواهنه في هذا الباب إذاً لسقط التاريخ وارتفعت الثقة من كل خبر حتى من مجيء الرُسل وحروب الملوك ودثور الشعوب والمدن وما إليها. وما أشبه من يكذب بادئَ الرأي بلا دليل قاطع بمن يؤثر الهدم على البناء. وشتان بين المخرب والمعمر والمتلف والمخلف والمفسد والمصلح.

ما عُنيت امة بتدين دينها وحفظه ولغتها وضوابطها عناية المسلمين بدينهم ولغتهم فكان أمر حفظة الكِتاب العزيز ما اشتهر في كل مِصر وعصر ولا يزال في البلاد اثر من آثار تلك العناية. أما الأحاديث فقد عنوا بها قديماً وجمعوا أشتاتها وبيّنوا صالحها من موضوعها وضعيفها من قويّها مما يدركه كل من كان له إلمام بالمراجعة ونَظَر في كتب القوم.

لم يكن العلم في القرون الأولى للإسلام بالإرث ولا بالمظاهر ولا بالوساطات والشفاعات بل كان بالاستحقاق وكدّ القرائح يسير على قوانين بقيود وروابط ولذلك لم يكن ينال لقب حافظ من لم يحفظ أُلوفاً من الأحاديث بأسانيدها فقد كانوا يطلقون اسم المسند على من يروي الحديث بإسناده سواء كان عنده علم به أو ليس له إلا مجرد رواية ويطلقون اسم المحدِّث على من كان أرفع منه والعالم على من يَعلم المتن والإسناد جميعاً والفقيه على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد والحافظ على من يعرف الإسناد ولا يعرف المتن والراوي على من يعرف المتن ولا يعرف الإسناد. وكان السلف يطلقون المحدّث والحافظ بمعنى. والمحدّث من عرف الإسناد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحَفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب الستة ومسند أحمد بن حنبل وسنن البيهقي ومعجم الطبراني وضمّ إلى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثة هذا أقل درجاته فإذا سمع ما ذُكر وكُتب الطباق ودار على الشيوخ وتكلّم في العلل والوفيات والمسانيد كان في أول درجات المحدثين. وكان السلف يستمعون فيقرؤن فيرحلون فيفسرون ويحفظون فيعملون قال بعضهم:

إنّ الذي يروي ولكنه	يجهل ما يروي وما يَكتبُ
كصخرة تنبع أمواهها	تسقي الأراضي وهي لا تشربُ

سأل تقي الدين السبكي الحافظ جمال الدين المزي عن حدّ الحفظ الذي إذا انتهى إليه الرَجل جاز له أن يُطلق عليه الحافظ قال: يُرجع إلى أهل العرف فقلت وأين أهل العرف قليل جداً قال: اقل ما يكون الرجال اللذين يعرفهم ويعرف تراجمهم وأحوالهم وبلدانهم أكثر من اللذين لا يعرفهم ليكون الحكم للغالب فقلت له: هذا عزيز في هذا الزمان أدركتَ أنتَ أحداً كذلك؟ فقال: ما رأينا مثل الشيخ شرف الدين الدمياطي ثم قال: وابن دقيق العيد كان له في هذا مشاركة جيدة. قال فتح الدين بن سيد الناس وأما المحدّث في عصرنا فهو من اشتغل في الحديث رواية ودراية وجمع رواة واطّلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميّز في ذلك حتى عُرف فيه خطّه واشتهر فيه ضبطه فإن توسّع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيخ شيوخه طبقة بعد طبقة بحيث يكون ما يعرفه من علل طبقته أكثر مما يجهله منها فهذا هو الحافظ وأما ما يحكى عن بعض المتقدّمين من قولهم كنا لا نعد صاحب حديث من لم يكتب عشرين ألف حديث في الإملاء فذلك بحسب أزمنتهم.

وقال أبو زرعة الرازي: كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث قيل له وما يدريك قال: ذاكَرته فأخذت عليه الأبواب: احفظ مائة ألف حديث صحيح ومائتي ألف حديث غير صحيح. وقال الحاكم في المدخل: كان الواحد من الحفّاظ يحفظ خمسمائة ألف حديث سمعت أبا جعفر الرازي يقول سمعت أبا عبد الله بن وارة يقول كنت عند اسحق ابن إبراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق: سمعت أحمد بن حنبل يقول صحّ من الحديث سبعمائة ألف وكسرو هذا الفتى يعني ابا زرعة قد حفظ سبعمائة ألف حديث. قال البيهقي: أراد ما صح من الأحاديث وأقاويل الصحابة والتابعين وقال غيره: سئل أبو زرعة عن رَجل حلف بالطلاق أنّ أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث هل يحنث؟ قال لا. ثم قال: أحفظُ مائة ألف حديث كما يحفظ الإنسان سورة قل هو الله أحد وفي المذاكرة ثلثمائة ألف حديث وقال أبو بكر محمد بن عمر الرازي الحافظ: كان أبو زرعة يحفظ سبعمائة ألف حديث وكان يحفظ مائة وأربعين ألفاً في التفسير والقرآن. وكان اسحق بن راهوية يملي سبعين ألف حديث حفظاً وأسند ابن عدي عن ابن شبرمة عن الشعبي قال: ما كتبت سواداً في بيضاء إلى يومي هذا ولا حدّثني رَجل بحديث قط إلا حفظته فحدّثت بهذا الحديث اسحق بن راهوية فقال: تعجَب من هذا؟ قلت: نعم قال: ما كنت لأسمع شيئاً إلا حفظته وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث أو قال أكثر من سبعين حديث في كتبي. واسند عن أبي داود الخفاف قال: سمعت اسحق ابن راهوية يقول: كأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كتبي وثلاثين ألفاً أسردها. وأسند الخطيب عن محمد بن يحيى بن خالد قال: سمعت اسحق بن راهوية يقول: أعرف مكان مائة ألف حديث كأني أنظر إليها وأحفظ سبعين ألف حديث عن ظهر

قلبي وأحفظ أربعة آلاف حديث ضرورة وقال عبد الله أحمد بن حنبل قال أبي لداود بن عمرو الضبي وأنا أسمع: كان يحدثكم إسماعيل بن عباس هذه الأحاديث بحفظه قال: نعم ما رأيت معه كتاباً قط قال له: لقد كان حافظاً كم كان يَحفظ؟ قال شيئاً كثيراً قال: أكان يحفظ عشرة آلاف؟ قال عشرة آلاف وعشرة آلاف وعشرة آلاف فقد كان أبي هذا كان مثل وكيع. وقال يزيد بن هرون أحفظ خمسة وعشرين ألف حديث وقال الآجري: كان عبد الله بن معاذ العنبري يحفظ عشرة آلاف حديث.

قال السبكي لم تر عيناي أحفظ من أبي الحجاج المزي وأبي عبد الله الذهبي والوالد وغالب ظني أن المزّي يفوقهما في العلل والمتون والجرح والتعديل مع مشاركة كل منهم لصاحبه فيما يتميز به عليه المشاركة البالغة سمعت شيخنا الذهبي يقول: ما رأيت أحداً في هذا الشأن أحفظ من الأمام أبي الحجاج المزي وبلغني عنه أنه قال ما رأيت أحفظ من أربعة: ابن دقيق العيد والدمياطي وابن تيمية والمزّي فالأول أعرفهم بالعلل وفقه الحديث والثاني بالأنساب والثالث بالمتون والرابع بأسماء الرجال. وكان الدمياطي يقول: ما رأى شيخنا أحفظ من زكي الدين عبد العظيم وما رأى الزكي أحفظ من أبي الحسن علي بن المفضل ولا رأى ابن المفضل أحفظ من الحافظ عبد الغني ولا رأى عبد الغني أحفظ من أبي موسى المديني إلا أن يكون الحافظ أبا القاسم بن عساكر ولا رأى ابن عساكر والمديني أحفظ من أبي القاسم إسماعيل بن محمد التيمي ولا رأى إسماعيل أحفظ من أبي الفاضل محمد بن طاهر المقدسي ولا رأى ابن طاهر أحفظ من أبي نصر بن ماكولا ولا رأى ابن ماكولا أحفظ من أبي بكر الخطيب ولا رأى الخطيب أحفظ من أبي نعيم وأبو نعيم ما رأى أحفظ من الدارقطني وأبي عبد الله بن مندة ومعهما الحكم مكان ابن مندة يقول: ما رأيت أحفظ من أبي اسحق بن حمزة الأصبهاني وقال ابن حمزة: ما رأيت أحفظ من أبي جعفر أحمد بن يحي بن زهير القشيري وقال: ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي وأما الدارقطني فما رأى أحفظ من نفسه وأما الحاكم فما رأى أحفظ من الدارقطني بل وكان يقول الحاكم ما رأيت أحفظ من أبي علي النيسابوري ومن أبي بكر ابن الجعابي وما رأى الثلاثة أحفظ من أبي العباس بن عقدة ولا رأى أبو علي النيسابوري مثل النسائي ولا رأى النسائي مثل اسحق بن راهويه ولا أرى أبو زرعة احفظ من أبي بكر أبي شيبة وما رأى أبو علي النيسابوري مثل ابن خزيمة وما رأى ابن خزيمة مثل أبي عبد الله البخاري ولا رأى البخاري فيما ذكر مثل علي بن المديني ولا رأى أيضاً أبو زرعة والبخاري وأبو حاتم وأبو داود مثل أحمد بن حنبل ولا مثل يحيى بن معين وابن راهويه ولارأى أحمد ورفاقه مثل يحيى بن سعيد القطان ولا رأى هو مثل سفيان ومالك وشعبة ولا رأوا مثل أيوب السختياني نعم ولا رأى مالك مثل

الزهري ولا رأى الزهري مثل ابن المسيب ولا رأى ابن المسيب أحفظ من أبي هريرة ولا رأى أيوب مثل ابن سيرين ولا رأى مثل أبي هريرة نعم ولا رأى الثوري مثل منصور ولا رأى منصور مثل إبراهيم ولا رأى إبراهيم مثل علقمة ولا رأى علقمة كابن مسعود.

هذا كان مبلغ القوم في حفظ الحديث وروايته على كثرة المتشابه فيه وتوفر الأسانيد والرواة بحيث لو أراد أحد لهذا العهد أن يحفظ شيئاً مما كانوا يحفظونه لاختار استظهار اللغة الصينية واستسهلها أكثر وذلك لضعف الحافظة من هذا المعنى وانقطاع سند هذه العلوم الجليلة إلا قليلاً.

كان الحافظ أبو عامر محمد بن سعدون من أعيان حفاظ الإسلام قال ابن عساكر أنه أحفظ شيخ لقيَه وشيوخ ابن عساكر زهاءُ ألف ومائتي شيخ وكان الفقيه أعلم الدين القمني يحفظ ما يسمعه من مرة واحدة. وكان الشافعي من أحفظ أهل دهره قضى عشرين سنة في تعلم الأدب والتاريخ وقال ما أردت بهذا إلا الاستعانة على الفقه ويروى أنه نظر في كتاب لأبي حنيفة فما كان من الغد إلا أن كان راويا له مستظهراً إياه بجملته. وابن دريد صاحب المقصورة من علماء اللغة كان آية من آيات الله في اتساع صدره للرواية تقرأ عليه دواوين العرب فيسارع إلى إملائها من محفوظه.

وقيل أن أحمد بن حنبل إمام المحدثين كان يحفظ ألف ألف حديث. قال سعيد بن جبير من أعلام التابعين قرأت القرآن في ركعة البيت الحرام وقال اسمعيل بن عبد الملك كان سعيد بن جبير يؤُمّنا في شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود وليلة بقراءة زيد بن ثابت وليلة بقراءَة غيره هكذا أبداً ولا عجب وهو الذي قال فيه أحمد بن حنبل قتل الحجاج سعيد بن جبير وما على وجه الأرض أحد إلا هو مفتقر إلى علمه.

وكان علي الرازي يقول من فهم الكتاب (يعني الجامع الصغير لمحمد) فهو من أصحابنا ومن حفظه كان أحفظ أصحابنا وأن المتقدمين من مشايخنا كانوا لا يقلدون أحداً القضاءَ حتى يمتحنوه فإن حفظه قلّدوه القضاء وإلا أمروه بالحفظ. وذكر صاحب نفح الطيب أنه كان خارج قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص تكون الفتيا في الأحكام والشرائع له وكان لا يجعل القالص منهم على رأسه إلا من حفظ الموطأ وقيل من حفِظ عشرة آلاف حديث والمدوّنة.

كان بديع الزمان الهمذاني يحفظ خمسين بيتاً بسماع واحد ويؤديها من أولها إلى آخرها وينظر في كتاب نظراً خفيفاً ويحفظ أوراقاً ويؤديها من أولها إلى آخرها وينظر في الأربعة والخمسة

الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهذها عن ظهر قلبه هذّا ويسردها سرداً وهذا حاله في الكتب الواردة وغيرها. وكان أبو رياش أحمد بن إبراهيم من رواة الأدب يحفظ خمسة آلاف ورقة لغة وعشرين ألف بيت شعر إلا أن أبو محمد المافروخي بزَّ عليه لأنهما اجتمعا أول ما تشاهدا بالبصرة فتذاكرا أشعار الجاهلية وكان أبو محمد يذكر القصيدة فيأتي أبو رياش على عيونها فيقول أبو محمد إلا أن تهذها من أوّلها إلى آخرها فينشد معه ويتناشدان إلى آخرها ثم أتى أبو محمد بعدة قصائد لم يتمكن أبو رياش أن يأتي بها إلى آخرها وفعل ذلك في أكثر من مائة قصيدة - حدثني بذلك من حضر ذلك المجلس معهما - قاله ياقوت في معجم الأدباء.

وكان الحفظ في كل فن شائعاً بين أهل الأدب وطلاب العلم على اختلاف ضروبه عند العرب على نحو ما يتضح من تصفّح سير رجالهم ولو لم يكن استناد المؤلفين في الأغلب إلا على ما في لوح محفوظهم لما تيسر لهم أن يؤلف لهم أحدهم عشرات من المجلدات يعجز العالم اليوم عن نسخها بل عن تصفحها.

فقد كان العرب قبل البعثة يروون قصائد شعرائهم وأغاني حِداتهم كما يؤخذ من اجتماعاتهم في سوق عكاظ ومِربد البصرة ولم تكن بضاعتهم من ذلك كثيرة لأن أمراء الكلام لم ينبغوا إلا في الإسلام بظهور نور النبوة وفصاحة الكتاب العزيز. ولقد كان الراوية والنسابة ينشد عشرات بل مئات من القصائد كما يحفظ أحدنا لهذا العهد الأبيات القليلة غير متعلثم ولا متردد. خذ مثالاً لذلك حماد الرواية المتوفى سنة 155 فقد كان على قلة بضاعته من العربية يروي المئات من القصائد للجاهليين والمخضرمين كما يروي فاتحة الكتاب ويذكر أشعار العرب وأيامهم وأنسابهم ولغاتهم كأنه يروي قصة وكان ملوك بني أمية يرجعون إليه في هذا المعنى ويحِلونه منزلة عالية من الآجلة والإكرام روى الوليد ابن يزيد الأموي قال له يوماً وقد حضر مجلسه: بم استحققت هذا الاسم فقيل لك الراوية؟ فقال: بأني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ثم أروي لأكثر منهم ممن تعترف أنك لا تعرفه ولا سمعت به ثم لا ينشدني أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميّزت القديم من المحدَث فقال: ثم فكم مقدار ما تحفظ من الشعر قال: كثير ولكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام قال سأمتحنك في هذا ثم أمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ثم وَكّل به من استحلفه أن يصدقه عنه ويستوفى عليه فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم ونوادره كثيرة.

وكان الأصمعي المتوفى سنة 217 أو قبلها صاحب لغة ونحو وإماماً في أخبار العرب وملحهم وغرائبهم قال عمر بن شبة: سمعت الأصمعي يقول: أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة وقال اسحق الموصلي: لم أرَ الأصمعي يدّعي شيئاً من العلم فيكون أحداً أعلم به منه وحضر يوماً عند الفضل بن الربيع هو وأبو عبيدة معمر بن المثنى فقال له: كم كتابك في الخيل؟ فقال الأصمعي مجلد واحد فسأل أبا عبيدة عن كتابه فقال: خمسون مجلّدة فقال له: قم إلى هذا الفرس وأمسك عضواً عضواً منه وسَمّه فقال: لست بيطاراً وإنما هذا شيءٌ أخذته عن العرب فقال للأصمعي: قم وافعل أنت ذلك فقام الأصمعي وامسك ناصيته وشرع يذكر عضواً عضواً ويضع يديه عليه وأنشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغ منه. قال أبو حمدون الطيب بن إسماعيل: شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف جلد عن أبي عمرو بن العلاء خاصة ويكون ذلك نحو عشرة آلاف ورقة لأن تقدير الجلد عشر ورقات.

قال أبو نواس: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب منهم الخنساءُ وليلى فما ظنّك بالرجال. قلت ولذلك جاء شعر أبي نواس أحسن شعر المولّدين كما شهد له بذلك أصحاب الشأن في هذه الصناعة وفي مقدمتهم الجاحظ الذي فضّل شعره على شعر العرب العرباء قال اسمعيل بن نوبخت: ما رأيت قط أوسع علماً من أبي نواس ولا أحفظ منه مع قلّة كتبه ولقد فتشنا منزله بعد موته فما وجدنا له إلا قمطراً فيه جزاز مشتمل على غريب ونحو.

قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب دخل أبو عمرو اسحق بن مراد الشيباني البادية ومعه دستجيتان من حبر فما خرج حتى أفناهما بكتب سماعه عن العرب وكان أبو عمرو عالماً بأيام العرب جامعاً لأشعارها ويروي عن عمرو بن أبي عمر وقال: لما جمَع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة وكان كلما عمل منها قبيلة وأخرجها إلى الناس كتب مصحفاً بخطه ويحكى أنه أخذ عن المفضل الضبي ودواوين العرب وسمعها منه أبو حيان وابنه عمرو بن أبي عمرو وحكى أبو العباس قال كان مع أبي عمرو والشيباني من العلم والسماع أضعاف ما كان مع أبي عبيدة ولم يكن من أهل البصرة مثل أبي عبيدة في السماع والعلم قال سلمة: أملى الفراءُ كتبه كلها حفظاً لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة وكان مقدار الكتابين خمسين ورقة. ويقال أن الأصمعي كان يحفظ ثلث اللغة وكان الخليل يحفظ نصف اللغة وكان أبو فيد يحفظ الثلثين وكان أبو مالك يحفظ اللغة كلها وكان الغالب على أبي مالك حفظ الغريب والنوادر. وكان ابن الأعرابي أحفظ الناس للّغات والأيام والأنساب وقال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب: قال لي ابن الأعرابي:

أمليت قبل أن تجيئني يا أحمد حِمل جَمل وقال ثعلب: انتهى علم اللغة والحفظ إلى ابن الأعرابي وقال ثعلب: سمعت ابن الأعرابي يقول في كلمة رواها الأصمعي سمعت من ألف إعرابي خلاف ما قاله الأصمعي.

وكان قتادة عالماً نحريراً وأجمع الناس في أشعار العرب وأنسابهم وقال أبو عبيدة: ما كنا نفقد في كل يوم راكباً من ناحية بني أمية ينيخ على باب قتادة فيسأله عن خبر أو نسب أو شعر وكان من أنسب الناس. وكان ابن الكلبي النسابة واسع الرواية من أعلم الناس بالنسب وكان من الحفّاظ المشاهير قال: حفظتُ ما لم يحفظه أحد ونسيتُ ما لم ينسه أحد. كان لي عمٌّ يعاتبني على حفظ القرآن فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن فحفظته في ثلاثة أيام وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً وتوفي سنة 204.

وكان أبو عبيدة معمر بن المثنى مِن أعلم الناس بأيام العرب وأخبارهم وأشعارهم قال الجاحظ: لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه ومع أن كان يلحن ويخطيء: إذا قرأ القرآن وإذا أنشد بيتاً لا يقيم وزنه وإذا تحدث أو قرأ لحّن اعتماداً منه لذلك فقد صنّف قرابة مائة مصنف وكان يرى رأي الخوارج ولذلك كثر الطاعنون في نسبه ومشربه ومذهبه وتوفي سنة 209.

كان أبو المحاسن الرُّوياني المتوفى سنة 502 من رؤوس الأفاضل في أيامه يقول: لو احترقت كتب الشافعي لأمليتها من خاطري. وقال أبو بكر النحوي: لما قدم الحسن بن سهل العراق قال: أُحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب فأحضر أبا عبيدة والأصمعي ونصر ابن علي الجهضمي وحضرت معهم وأفضنا مرة في ذكر الحفّاظ فذكرنا الزهري وقتادة ومررنا فالتفت أبو عبيدة فقال: ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة ههنا من يقول ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود فيه ولا دخَل قلبه شيءٌ فخرج عنه فالتفت الأصمعي وقال: إنما يريدني بهذا القول أيها الأمير والأمر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليك قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع - وكان نظر قبل أن يلتفت إليهم في رقاع بين يديه للناس في حاجاتهم فوقع عليها فكانت خمسين رقعة - وأنا أعيد ما فيها وما وقع به الأمير رقعة رقعة قال فأمر وأحضرت الرقاع قال: الأصمعي سأل صاحب الرقعة الأولى كذا واسمه كذا فوقع له بكذا والرقعة الثانية والثالثة حتى مر في نيف وأربعين رقعة فالتفت إليه نصر بن علي فقال: أيها الرجل ابقِ على نفسك من العين فكفَّ الأصمعي.

ومالي وتعداد الأسماء على هذا النحو فكتب القوم طافحة بها وإنما يكفي منها التمثيل والقليل يغني. ولقائل أن هذا القدر من الحفظ كان بعضه شائعاً في القرنين الأولين والقرون الثلاثة وقد بالغ فيه الرواة حتى اتصل بنا على هذه الصورة وما حجتي في نقض هذا إلا وقوع أمثاله في كتب أهل القرون المتأخرة مما تواطأ الثقات على نقله وتحرزوا في إثباته. ولقد كان الغرب في هذه المزية كالشرق إذ قد حذا المغاربة في حضارتهم وعلومهم حذو المشارقة. فقد كان ابن عبدون أحد فحول شعراء الأندلس وكتّابها متكثراً من الحفظ. قال الوزير أبو بكر بن زهر فبينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رَجل شيخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاءَ الناسخ بالكراريس التي كتبها فقلتُ له: أين الأصل الذي كتبت عنه لأقابل معك به قال: ما أتيت به معي فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل رَجل بذّ الهيئة عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان وقال لي: يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان فقلت له: هو نائم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف حملتني على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل ثم سكت عني ساعة وقال: ما هذا الكتاب الذي بيديكم فقلت له: ما سؤالك عنه فقال: أحب أن أعرف اسمه فإني كنت أعرف أسماء الكتب. فقلت هو كتاب الأغاني فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه قلت: بلغ موضع كذا وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قالبه فقال: وما لكاتبك لا يكتب قلت: طبعت منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق فقال: لم أجيء به معي فقال: يا بني خذ كراريسك وعارض قلت: بماذا وأين الأصل قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي قال: فتبسمت من قوله فلما رأى تبسّمي قال يا بني أَمسك عليّ قال: فأمسكت عليه وجعل يقرأ فو الله إن أخطأ واواً ولا فاءً قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له في وسط السفر وآخره فرأيت حفظه في ذلك كله سواءً فاشتد عجبي وقمت مسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له الرجل فقام كما هو من فوره وكان ملتفاً برداءٍ ليس عليه قميص وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه ويقول: يا مولاي اعذرني فو الله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة وجعل يسبني والرجل يحفض عليه ويقول: ما عرفني وأبي يقول: هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب. ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلاً ثم خرج الرَجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدابته التي يركبها فأسرجت وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبداً فلما انفصل قلت لأبي: مَن هذا الرجل الذي عظمته هذا العظيم قال لي: اسكُت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الآداب هذا أبو محمد عبد المجيد بن عبدون أيسر محفوظاته كتاب الأغاني - رواها المراكشي.

وروى أيضاً قصة تشبهها قال: أنه لزم أبا جعفر الحميري آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس المتوفى سنة 610 نحواً من سنتين فما رأيت أروى لشعر قديم ولا حديث ولا أذكَر بحكاية تتعلق بأدب أو مثَل سائر أو بيت أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه أدرك جلة من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب وأعانه على ذلك طول عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم. قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرئت عليّ أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له: لقد كتبتها من أصل صحيح وتحرزت في نقلها فقال لي: ما يمكن أن يكون في الدنيا أصح من الأصل الذي كُتبت منه فقلت له: أين وجدته قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا وكنا في المسجد في زاوية فقلت له: أين هو فقال لي: عن يمينك فعلمت أنه يريد الشيخ فقلت: ما على يميني إلا الأستاذ فقال لي: هو أصلي وبإملائه كتبتُ كان يملي عليَّ مِن حِفظه فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال: فيمَ أنتما؟ فأخبره ولده بالخبر فلما رأى تعجبي قال: بعيداً أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركت أقواماً لا يعدّون من حفِظَ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرونه مجتهداً.

ومَن نظرَ فيما أُثر عن الأندلسيين وحدهم من هذا القبيل يكتب أوراقاً كثيرة وكنت قرأت في الاستقصا أنّ مِن جملة من غرق مع السلطان أبي الحسن لما قصد المغرب في البحر بأسطوله الغريق وكان مؤلَّفاً من نحو ستمائة قطعة مع مَن غرق من الفقهاء والعلماء والكتاب والإشراف أبو عبد الله محمد بن الصباغ المكناسي الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث يا أبا عمير ما فعل النغير أربعمائة فائدة.

وقيل أن صدر الدين بن الوكيل ويعرف عند المصريين بابن المرجل من أئمة الشافعية حفظ المفصل في مائة يوم ويوم والمقامات الحريرية في خمسين يوماً وديوان المتنبي على ما قيل في جمعة واحدة.

وذكر المقريزي عن حكايات أهل الأندلس في الحفظ أن الأديب الأوحد حافظ اشبيلية بل الأندلس في عصره أبا المتوكل الهيثم بن أحمد بن أبي غالب كان أعجوبة دهره في الرواية والأشعار والأخبار قال ابن سعيد: أخبرني من أثق به أنه حضر معه ليلة عند أحد رؤساءِ اشبيلية فجرى ذكر حفظه وكان ذلك في أول الليل فقال لهم: إن شئتم تخبروني أجبتكم فقالوا له: بسم الله إنا نريد أن نحدّث عن تحقيق فقال اختاروا أي قافية شئتم لا أخرج عنها حتى تعجبوا فاختاروا القاف

فابتدأ من أول الليل إلى أن طلع الفجر وهو ينشد وزن (أرق على أرق ومثلي يأرق) وسُمّاره قد نام بعض وضج بعض وهو ما فارق قافية القاف وقال أبو عمران بن سعيد: دخلت عليه يوماً بدار الإشراف باشبيلية وحوله أدباءٌ ينظرون في كّتب منها ديوان ذي الرمة فمد الهيثم يده إلى الديوان المذكورة فمنعه منه أحد الأدباء فقال: يا أبا عمران أواجب أن يمنعه مني وما يحفظ منه بيتاً وأنا أحفظه فأكذبته الجماعة فقال اسمعوني. وأمسكوه فابتدأ من أوله حتى قارب نصفه فأقسمنا عليه أن يكفّ وشهدنا له بالحفظ وكان آية في سرعة البديهة مشهوراً بذلك قال أبو الحسن ابن سعيد: عهدي به في اشبيلية يملي على أحد الطلبة شعراً وعلى ثانٍ موشحة وعلى ثالث زجلاً كل ذلك ارتجالاً.

قال ابن خلكان: كان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني يحفظ من الشعر والأغاني والأخبار والآثار والأحاديث المسندة والنسب ما لم أرَ قط من يحفظ مثله ويحفظ دون ذلك من علوم آخر منها اللغة والنحو والخرافات والسير والمغازي ومن آلة المنادمة شيئاً كثيراً مثل علم الجوارح والبيطرة ونتف من الطب والنجوم والأشربة وغير ذلك. وذكر صاحب الصبح المنبي أن العَلَم الفرد في قوة الحافظة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما. ولقد شرط الملك المعظم عيسى لكل من يحفظ المفصل للزمخشري مائة دينار وخِلعة فحفظه لهذا السبب جماعة.

قال أبو عمر الطلمنكي دخلت مرسية فتشبث بي أهلها يسمعون عليَّ الغريب المصنّف فقلت انظروا من يقرأ لكم وأمسكت أنا كتابي فأتوني برجل أعمى يعرف بابن سيده (وهو صاحب المخصص في اللغة الذي طبع مؤخراً) فقرأه عليَّ من أوله إلى آخره فعجبت من حفظه. ولقد لازم ثعلب ابن الإعرابي فما رآه نظر في كتاب. وأخبار الأصمعي في الحفظ والرواية أشهر من أن تُذكر وكذلك خلف الأحمر والكلبي وعبيد ودعبل. وكان أبو تمام لا يلحق في محفوظاته وقيل أن كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة للعرب غير القصائد والمقاطيع. قال أبو الحسن محمد بن علي العنوي كان المتنبي يلازم الوراقين فأخبرني وزّان كان يجلس إليه: قال ما رأيت أحفظ من هذا الفتى بن عبدان السقا (المتنبي) قلت له: كيف؟ قال اليوم كان عندي وقد أحضرَ رَجلٌ كتاباً من كتب الأصمعي يكون نحواً من ثلاثين ورقة لبيعه فأخذه فنظر فيه طويلاً فقال له الرجل أريد بيعه وقد قطعتني عن ذلك فإن كنت تريد حفظه فهذا يكون إن شاء الله تعال بعد شهر قال. فقال له ابن عبدان: فإن كنت قد حفظته في هذه المدة فمالي عليك قال: أهب لك الكتاب قال: فأخذته من يده فأقبل يهذّه عليَّ إلى آخره ثم استلمه فجعله في كمه وقام فتعلق به صاحبه طالباً بماله فقال: ما إلى ذلك سبيل

وقد وهبته لي قال: فمنعناه منه وقلنا: أنت شرطت على نفسك هذا للغلام فتركه عليه. والأمثلة كثيرة في هذا الباب والله أعلم.

المجودون من المصنّفين

التآليف في الأمم كالأشخاص منها العاطل والجيد والأجود. والعاطل يُقضى عليه لا يبقى لأنه ساقط بطبعه، والجيد قد يدوم لفائدة قليلة فيه، أما الأجود فباق بقاء الأيام وكلما ذُكر اسم صاحبه حلا في الأفواه وتطلعت نحوه العيون. كان المجوّدون من المؤلفين في القرون الأولى للإسلام أكثر من المجودين في القرون الأخيرة لأن العلوم كانت أرقى عند العرب، ومائدة العلم لا يجرأ على الأخذ منها طفيليّ، لأن الأمة تميّز والنقد أشد والحرية أوسع.

فإنّا إذا قلبنا صفحات التاريخ، نجِد في كل عصر العشرين والثلاثين من الرجال المبرزين، وهؤلاء يجب أن يشاد بذكرهم كل حين لأن تآليفهم وحدها إذا بقيت للأمة تتناقلها الجيل بعد الجيل تكفيها في قيام أمرها إلا قليلا مما يحدث مع كرور الأيام. فالعرب مثلا إذا اقتصروا على تأليف المجودين من المصنفين في علوم اللسان والدين فلا يستغنون عن أخذ سائر العلوم عن أحدث الأمم حضارة.

وها نحن أولاء نلمّ في هذه العجالة بأسماء بعض من اشتهروا من المجودين من علماء العرب على اختلاف العصور منذ بدأ التدوين عندهم. فمنهم أبو بكر بن مجاهد العارف بالقراآت وعلوم القرآن وهو آخر من انتهت إليه الرئاسة بمدينة السلام توفي سنة 324، ومنهم الخليل بن أحمد 170 وهو أول من استخرج العروض وغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس، ومنهم صاحبه سيبويه قال ابن النديم: وعمِلَ كتابه الذي لم يسبقه إلى مثله أحد قبله ولم يلحق به بعده. قرأت بخط أبي العباس ثعلب: اجتمع على صنعة كتاب سيبويه اثنان وأربعون إنسانا منهم سيبويه والأصول والمسائل للخليل، ومنهم أبو عبيدة (210) والأصمعي (210) وأبو حاتم السجستاني (255) والمبرد (279) والزجاج (310)، ومنهم ابن دريد (321) وأبو سعيد السيرافي (368) وأبو الحسن الرماني وأبو علي الفارسي (370) والكسائي (197) والفراء (207) والمفضل الضبي وابن

الأعرابي (331)، وأبو عبيد القاسم بن سلام وابن السكيت (246)، وابن قتيبة قال صاحب الفهرست أنه كثير التصنيف والتأليف وكتبه مرغوب فيها وقال ابن خلكان أن كتبه كلها جيدة، وابو حنيفة الدينوري وابن خالويه (370) وابن جني (392)، وابن إسحاق صاحب السيرة قال ابن النديم وكان يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم في كتبه أهل العلم الأول (150) وهشام الكلبي قال إسحاق الموصلي: كنت إذا رأيت ثلاثةً يرون ثلاثةً يذوبون: علويه إذا رأى مخارقا وأبا نواس إذ رأى أبا العتاهية والزهري إذا رأى هشاما (206)، والواقدي وهو الذي خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كُتباً كل قمطر منها حِمل رجلين وكان له غلامان مملوكان يكتبان الليل والنهار وقبل ذلك بيع له كتب بألفي دينار (207)، والمدائني (225)، والبلاذري صاحب كتاب البلدان وأحد النقلة من الفارسي، وأبو الفرج الأصفهاني (360) وعبد الله بن المقفع قال ابن النديم: الكتب المجمَع على جودتها عهد أزدشير كليلة ودمنة رسالة عمارة بن حمزة الماهانية اليتيمة لابن المقفع رسالة الحسن لأحمد بن يوسف الكاتب، وسهل بن هرون وكان أبو عثمان الجاحظ يفضله ويصف براعته وفصاحته. قدامه بن جعفر والمرزباني (378) والصابي، والصاحب بن عباد، وأبو زيد البلخي كان فاضلا في العلوم القديمة والحديثة تلاقي تصنيفاته وتأليفاته طريقة الفلاسفة إلا أنه بأهل الأدب أشبه، وإسحق الموصلي وبشار بن برد وأبو نواس وابن الرومي والبحتري ومالك بن أنس والشافعي وأبو حنيفة وابن حنبل وأبو يوسف والمزني وداود بن علي وأبو عبد الله البخاري وابن جرير الطبري ويحيى النحوي ويعقوب ابن إسحق الكندي وأبو نصر الفارابي ومتى بن يونس ويحيى بن عدي وابن زرعه وبنو موسى بن شاكر وثابت بن قرة وإبراهيم بن سنان وعمر بن الفرخان، ومحمد بن موسى الخوارزمي قال ابن النديم: وكان منقطعاً إلى خزانة الحكمة للمأمون وهو من أصحاب علوم الهيئة وكان الناس قبل الرصد وبعده يعولون على زيجيه الأول والثاني ويعرفان بالسند هند، وبنو الصباح محمد وإبراهيم والحسن قال في الفهرست: والجميع من حذاق المنجمين بعلوم الهيئة والأحكام، والبتاني صاحب الزيج وحنين بن إسحق العبادي والعباد نصارى الحيرة وقسطا بن لوقا البعلبكي ويوحنا بن ماسويه وإسحق بن حنين وأبو بكر الرازي وجابر بن حيان.

وابن وحشية وابن السيد البطليوسي: قال ابن خلكان وهو مجيد في كل ما صنفه وكمال الدين بن يونس (639) قال ابن خلكان: تبحّر في جميع الفنون وجمَعَ من العلوم ما لم يجمعه أحد وتفرّد بعلم الرياضة وكان أهل الذمة يقرؤن عليه التوراة والإنجيل وشرح لهم هذين الكتابين شرحا يعترفون أنهم لا يجدون من يوضحهما لهم مثله وكان في كل فن من الفنون كأنه لا يعرف سواه

لقوّته فيه، وأحمد بن الطيب السرخسي قال ابن أبي أصيبعة: كان متفنناً في علوم كثيرة من علوم القدماء والعرب حسَن المعرفة جيّد القريحة بليغ اللسان مليح التصنيف والتأليف (286)، وثابت بن قرة قال ابن أبي أصيبعة: لم يكن في زمانه من يماثله في صناعة الطب ولا في غيره من جميع أجزاء الفلسفة وله تصانيف مشهورة بالجودة. وكذلك جاء جماعة كثيرة من ذريته ومنهم أبو سعيد ابنه سنان وأبو الحسن ثابت بن سنان وأبو علي بن زرعة وعلي بن العباس المجوسي مصنف كتاب الملكي في الطب وأبو الفرج بن الطيب وأبو الحسن بن بطلان وابن الشبل البغدادي وابن رضوان وسعيد بن هبة الله وابن جزلة وأمين الدولة بن التلميذ والبديع الاصطرلابي وأبو الخير الحسن بن سوار وأبو الفرج بن هند والرئيس ابن سينا، وأبو الريحان البيروني قال ابن العبري أنه مبحر في فنون الحكمة اليونانية والهندية وتخصص بأنواع الرياضيات وصنف فيها الكتب الجليلة ومصنفاته كثيرة متقنة محكمة غاية الإحكام.وأبو الفرج بن الطيب قال القفطي أنه أحيا من علوم الحكمة والمنطق ما دثر وأبان منها ما خفي، وقد تلمذ له جماعة سادوا وأفادوا منهم المختار بن الحسن بن عبدون المعروف بابن بطلان. قال ابن بطلان إن شيخنا أبو الفرج بن الطيب بقي عشرين سنة في تفسير ما بعد الطبيعة ومرض من الفكر فيه مرضة كان تلفّظ نفسِه فيها وهذا يدلك على شدة حرصه واجتهاده وطلب العلم لعينه.

وفخر الدين الرازي وابن جلجل، والغافقي الأندلسي قال ابن أبي أصيبعة: وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه، وأمية بن الصلت وابن باجة وأبو العلاء بن زهر وابن رشد وابن الرومية وابن الهيثم، والمبشر بن فاتك وله تصانيف جليلة في المنطق وغيره من أجزاء الحكمة وهي مشهورة في ما بين الحكماء، والخطيب التبريزي والقطب الشيرازي والإمام القزويني والجوهري وابن سيده وابن الحاجب ونصير الدين الطوسي والغزالي وابن دقيق العيد والزمخشري وسيف الدين الآمدي والبيضاوي والماوردي وابن حزم وابن البيطار ومحي الدين بن عربي وابن مجلي الموصلي وابن فلوس المارديني وابن مسكويه والمسعودي وابن خلدون وابن الأثير وأبو الفدا وابن فضل الله وأفضل الدين الخونجي. قال أبو الفرج بن العبري وفي هذا الزمان أي في النصف الأول من القرن السابع كانت جماعة من تلامذة الإمام فخر الدين الرازي سادات فضلاء أصحاب تصانيف جليلة في المنطق والحكمة كزين الدين الكشي وقطب الدين المصري بخراسان، وأفضل الدين الخونجي بمصر، وشمس الدين الخسروشاهي بدمشق، وأثير الدين الأبهري بالروم، وتاج الدين الأرموي وسراج الدين الأرموي بقونية، وعبد المنعم الجلياني،

وابن الصلاح، وموفق الدين بن المطران، وشرف الدين بن الرحبي، وعبد اللطيف البغدادي، والصاحب أمين الدولة السامري، وابن حيان البستي، وابن عبد ربه، وبديع الهمداني، والحسن بن رشيق القيرواني قال ياقوت كان شاعراً أديباً نحوياً لغوياً حاذقاً عروضياً كثير التصنيف حسن التأليف وكان بينه وبين ابن شرف الأديب مناقضات ومحاقدات وصنّف في الرد عليه عدة تصانيف، وأبو هلال العسكري، وابن جني. ذكَرَ الضبي في بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس أن أبا علي القالي صاحب الأمالي المشهورة لما هاجر من بغداد إلى قرطبة في سنة 330 كان الأمير أبو العاصي الحكم بن عبد الرحمن من أحب ملوك الأندلس للعلم وأكثرهم اشتغالاً به وحرصاً عليه فتلقاه بالجميل وحظي عنده وقربه وبالغ في إكرامه ويقال أنه هو قد كتب إليه ورغبه في الوفود عليه واستوطن قرطبة ونشر علمه بها وكان الحكم المستنصر قبل ولايته الأمور وبعد أن صارت إليه يبعثه على التأليف وينشطه بواسع العطاء ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام.

وذكر أيضاً في ترجمة حسان بن ملك بن أبي عبدة الوزير أحد أئمة اللغة والآداب ومن أهل بيت جلالة ووزارة نقلاً عن ابن حزم أنه عمل على مثال كتاب أبي السري سهل بن أبي غالب الذي ألّف في أيام الرشيد كتاباً سمّاه بكتاب ربيعة وعقيل. قال أبومحمد ابن حزم وهو من أصلح ما ألّف في هذا المعنى وفيه من أشعاره ثلثمائة بيت وكان سبب تأليفه إياه أنه دخل على المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر وبين يديه كتاب أبي السري يعجب به فخرج من عنده وعمل هذا الكتاب وفرغ منه تأليفاً ونسخاً وتصويراً وجابه في مثل ذلك اليوم من الجمعة الأخرى وأراه إياه فسرَّ به ووصله عليه. وروي أيضاً في ترجمة صاعد بن الحسن الربعي وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار أنه كان سريع الجواب حسن الشعر طيب المعاشرة فكه المجالسة ممتعاً فأكرمه المنصور (أبو عامر الأندلسي في المئة الرابعة) وزاد في الإحسان إليه والإفضال عليه، وكان مع ذلك محسناً للسؤال حاذقاً في استخراج الأموال طبناً بلطائف الشكر. دخل على المنصور أبو عامر يوماً في مجلس أنس وقد كان تقدّم فاتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي وصلت إليه فيها صلاته ولبسه تحت ثيابه. فلما خلا المجلس ووجد فرصة لما أراد تجرد وبقي في القميص المتخذ من الخرائط. فقال له ما هذا؟ فقال له هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً وبكى وأتبع ذلك من الشكر ما استوفاه. فأعجب ذلك المنصور وقال له لك عندي مزيد، وكان قد حظي عنده بما ألّف له من الكتب. وكذلك علي بن الحسين الأصبهاني، الشريف المرتضى، القاضي الجرجاني، علي بن عبيدة الريحاني، أبو حيان التوحيدي صاحب المقابسات، ابن الجوزي، ابن قيم الجوزية، ابن تيمية، ابن العميد، ابن القفطي

القلقشندي، والنويري، وإبراهيم بن الحصري صاحب زهر الآداب قال ياقوت وله تآليف جيدة في مِلَح الشِعر والخَبَر، أبو علي الفارسي، أبو حنيفة الدينوري، أبو العلاء المعري وابن النديم والجاحظ والحريري، ابن الصائغ، أبو بكر بن زهر القاضي، أبو الفرج المعافي قال ابن خلكان كان فقيهاً أديباً شاعراً عالماً بكل فن وله عدة تصانيف ممتعة في الأدب وغيره وكتاب الجليس الأنيس تصنيفه أيضاً (390)، واصل بن عطاء، ياقوت الحموي، يحيى بن أكثم، ابن السكيت، ابن عبد البر، وابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة، وابن الأنباري، عبد القاهر الجرجاني، أبو إسحق الأسفراييني قال ابن خلكان أخذ عنه العلم والأصول عامة شيوخ نيسابور وأقر له بالعلم أهل العراق وخراسان وله التصانيف الجليلة (418)، أبو إسحق الشيرازي قال ابن خلكان أنه صنف التصانيف المباركة المفيدة (496)، أبو حامد الأسفراييني (406) وابن زيدون والصلاح الصفدي، أبو الفضل الميداني صاحب كتاب الأمثال (518)، القاضي الفاضل الثعالبي صاحب اليتيمة، القاضي عياض قال ابن خلكان صنّف التصانيف المفيدة قال وبالجملة فكل تواليفه بديعة، القاضي الباقلاني، أبو الحسين البصري له التصانيف النائقة في أصول الفقه وانتفع الناس بكتبه، الحاكم النيسابوري قال ابن خلكان إمام أهل الحديث في عصره والمؤلف فيه الكتب التي لم يسبقه إلى مثلها (405) وابن دريد صاحب الجمهرة، وأبو بكر الأنباري (328)، أبو عبد الله المرزباني صاحب التصانيف المشهورة (378)، المسبحي صاحب التاريخ المشهور وغيره من المصنفات (420)، لسان الدين بن الخطيب أبو العباس القرطبي انتفع الناس بكتبه وأجاد فيها، عيسى بن دينار الأندلسي صاحب كتاب الهداية الذي يقول فيه ابن حزم أنه أرفع كتب جمعت في معناها على مذهب مالك وابن القاسم وأجمعها للمعاني الفقهية، مالك بن علي الفهري صاحب القصي، أبو عبد الرحمن بقي بن مخلد صاحب التفسير الذي قال فيه ابن حزم أنه الكتاب الذي أقطع قطعاً لا استثني فيه أنه لم يؤلَّف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره وإن تآليفه قواعد الإسلام لا نظير لها، ومن الأندلسيين أيضاً القاضي منذر بن سعيد وأبو محمد قاسم بن أصبغ ومحمد بن عبد الملك بن أيمن ويوسف بن عبد البر وأبو الوليد الفرضي وابن سعيد المؤرخ والقاضي محمد بن لبابة والقاسم بن محمد المعروف بصاحب الوثائق وإسماعيل بن القاسم وابن القوطية وابن التياني وأحمد بن فرج وأبو الحسن الكاتب وأحمد بن محمد بن موسى الرازي وحسين بن عاصم وإسحق بن سلمة الليثي، وأبو مروان بن حيان صاحب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس نحو عشرة أسفار قال ابن حزم هو أجل كتاب أُلِّف في هذا المعنى وله كتاب المتين في التاريخ وهو في ستين مجلدة، ومحمد بن عاصم.

قال ابن حزم «وأما الطب فكُتب الوزير يحيى بن إسحق وهي كتب حسان رفيعة وكتب محمد بن الحسن المذحجي المعروف بابن الكتاني وهي كُتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي ولئن قلنا أنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدُقَنّ، وفي الفلسفة كتب سعيد بن فتحون السرقسطي المعروف بالحمار وأبي عبد الله محمد بن الحسن المذحجي وفي الأزياج مسلمة وابن السمح وأحمد بن نصر ومحمد بن عطية الغرناطي الحميدي والباجي وابن بشكوال وابن بسام صاحب الذخيرة وأبو القاسم صاعد بن أحمد الطيطلي وعريب بن سعيد القرطبي وأبو محمد عبد الله بن إبراهيم الحجاري صاحب كتاب المسهب في فضائل المغرب لم يصنف في الأندلس مثل كتابه، وأبو عبد الله بن أبي الخصال الشقوري صاحب سراج الأدب وأبو عبيد البكري صاحب كتاب اللآلي وابن السيد البطليوسي وابن عصفور الإشبيلي النحوي وابن الطراوة والسهيلي وابن خروف، وأبو عبيد البكري الأونبي صاحب كتابي معجم ما استعجم والمسالك والممالك وأبو علي الشلوبين وابن طفيل صاحب رسالة حي بن يقظان المقدّم في علم الفلسفة، وأبو عمر الداني وابن جبير صاحب الرحلة، وأبو علي القالي صاحب الأمالي قال الضبي وكانت كتبه على غاية التقيد والضبط والإتقان وقد ألّفَ في علمه الذي اختص به اللغة والأدب تواليف مشهورة تدل على سعة روايته وكثرة إشرافه. وقالوا لئن كان كتاب أبي العباس المبرد أي الكامل أكثر نحواً وخبراً فإن كتاب أبي علي «النوادر» أكثر لغةً وشعراً، ومن كتبه في اللغة البارع كاد يحتوي على لغة العرب وكتابه في المقصور والممدود والمهموز لم يؤلف في بابه مثله توفي أبو علي سنة 356 هـ.

الشعوبية

يقوى تفاخر أهل كل عنصر بعنصرهم وأهل كل جنس بجنسهم كلما كانوا أقرب إلى الهمجية والعصبية الجاهلية. جاء الإسلام فكان من أعظم إصلاحه إسقاط دعوى الجنسيات والقضاء على التفاخر بالآباء والأجداد، فساوى بين العربي والفارسي والأحمر والأصفر والأبيض والأسود وكانت قاعدته العامة لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

والظاهر أن دعوى الشعوبية أي عدم الاعتداد بالعرب وتفضيل العجم عليهم دخلت بدخول أجيال كثيرة من الفُرس والترك والنبط في خدمة الدولة الإسلامية فنشأت منها العداوات بين العرب أهل الدولة وبين العجم كما كانت تنشأ في هذه البلاد بين تركي وعربي كلما اشتد الأول في إرهاق الثاني.

سألْنا أستاذنا الشيخ طاهر الجزائري عن الشعوبية فكتب إلينا ما يأتي:

«أما الزمن الذي ظهرت فيه الشعوبية فلا يحضرني فيه شيء. والوقوف على أوائل الأشياء من أصعب المسائل وأدقها إلا أن الذي ظهر لي أن ذلك حدث بُعيد عصر الخلفاء الراشدين لوجود الداعي إلى ذلك وهو التفاخر بالجنس الذي هو من عادات الجاهلية التي أتى الدين بإبطالها. ومَن نظرَ لمنزلة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي في أوائل الأمة زال عنه الشك في هذه المسألة ولا يدخل في هذا الأمر بحث المؤرخ عن خصائص الأجناس مما يقصد به الوقوف على الحقائق فإن هذا نوع آخر، إلا أنّ مَن بحثَ عن أحوال الأمم ووفى النظر حقه تبين له أنّ العرب في الجملة لا تساميهم أمة البتة.

وأظن أنه لا بد أن تؤلف بعد حين كُتب في خصائص الأمم وكُتب في خصائص البلاد كما أُلّفت كتب في خصائص اللغات وتجعل من الفنون التي يعنى بها وتميز عن غيرها ولا نذكر بطريق

العرض إلا أن فن خصائص الأمم تتيسر المشاغبة فيه والمغالطة أكثر من غيره، إلا أن كل فن وضعَت مقدماته ونُقحت مسائله يبدو بسرعة عوار المغالِط فيه. هذا وكما حدث بعد عصر الخلفاء أمر المفاضلة بين العرب والعجم، حدث أمر المفاضلة بين العدنانية والقحطانية وهما الفريقان اللذان يجمعهما اسم العرب ونشأ بسبب ذلك من الفتن ما يعرفه المولع بالأخبار ولم يزل أثر ذلك باقياً في بعض الجهات إلى ما قبيل عصرنا، وقد رأيت في بعض البلاد أناساً يقولون إلى الآن نحن قيسية وآخرين يقولون نحن يمانية».

هذا ما قاله أستاذنا وفيه من كشف الغامض ما لم نظفر به في كتاب. والشعوبي بالضم محتقِر أمر العرب. قال ابن منظور وقد غلبت الشعوب بلفظ الجمع على جيل العجم حتى قيل لمحتقِر أمر العرب شعوبي. أضافوا إلى الجمع لغلبته على الجيل الواحد كقولهم أنصاري وهم الشعوبية وهم فرقة لا تفضل العرب على العجم ولا ترى لهم فضلاً على غيرهم وأما الذي في حديث مسروق أن رجلاً من الشعوب أسلم فكانت تؤخذ منه الجزية فأمر عمر أن لا تؤخذ منه قال ابن الأثير الشعوب ههنا العجم ووجهه أن الشعب ما تشعب من قبائل العرب أو العجم فخص بأحدهما ويجوز أن يكون جمع الشعوبي كقولهم اليهود والمجوس في جمع اليهودي والمجوسي.

قال شارح المفصل في شرح قول الزمخشري: «الله أحمُد على أن جعلني من علماء العربية وجبلني على الغضب للعرب وللعصبية وأبى لي أن أنفرد عن صميم أنصارهم وأمتاز وأنضوي إلى لفيف الشعوبية وأنحاز» والشعوبية مصدر الشعوبي بضم الشين وهو الذي يصغّر شأن العرب ولا يرى لهم على العجم فضلاً إذ الفضل بالتقوى وهو منسوب إلى قوله تعالى: «وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم» وقال ابن الحاجب في شرح المفضل أيضاً: «والشعوبية بضم الشين قوم متعصبون على العرب مفضلون عليهم العجم وإن كان الشعوب جيل العجم إلا أنه غلبت النسبة إليه لهذا القبيل، ويقال أن منهم معمر بن المثنى وله كتاب في مثالب العرب وقد أنشد بعض الشعوبية للصاحب بن عباد يمدحه:

غنينا بالطبول عن الطلول — وعن عنس عذافرة ذمولِ

فلست بتارك إيوان كسرى — لتوضح أو لحومل فالدَخولِ

وضبّ بالفلا ساع وذئب — بها يعوي وليث وسط غيلِ

إذا نحروا فذلك يوم عيد وإن ذبحوا ففي عرس جليلِ

يسلّان السيوف لرأس ضب هراشاً بالغداة وبالأصيلِ

بأية رتبة قدمتموها على ذي الأصل والشرف الأصيلِ

أما لو لم يكن للفُرس إلا نجّار صاحب العدل الجليلِ

لكان لهم بذلك خير عز وجيلهم بذلك خير جيلِ

فقال له الصاحب قدك ثم قال لبديع الزمان أجبه فأجابه مرتجلاً:

أراك على شفا خطر مهولِ بما أودعت رأسك من فضولِ

طلبت على مكارمنا دليلاً متى احتاج النهار إلى دليلِ

ألسنا الضاربين جزىً عليكم فإنّ الجزى أقعد بالذليلِ

متى قرَع المنابر فارسي متى عرف الأغر من الحجولِ

متى علقت وأنت بها زعيم أكف الفُرْس أعراف الخيولِ

فخرتَ بملء ماضغتيك فخراً على قحطان والبيت الأصيلِ

فخرت بأن مأكولاً ولبساً وذلك فخر ربّات الحجولِ

تفاخرهن في خد أسيل وضرع من مفارقة رسيلِ

فقال الصاحب للشعوبي: كيف ترى؟ فقال: لو سمعت ما صدقت ثم قال له: جائزتك جوازك إن وجدتك بعدها في مملكتي ضربت عنقك.

وفد النعمان بن المنذر على كسرى فوجد عنده وفود الروم والهند والصين فذكروا من ملوكهم وبلادهم فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم لا يستثني فارساً ولا غيرهم. فقال كسرى وأخذته عزة المُلك: يا نعمان لقد فكرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم فرأيت الروم كذا ووصف من حالهم وجعل يثني عليهم، ورأيت الهند التي لها كذا وكذا، ثم قال مثل ذلك في الترك والخزر والصين متى ذكَر قبيلة أثنى عليها ووصف ما يفتخرون به، ثم قال: ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير وجعل يصف شأنهم وهو يحقّرهم ويصغّرهم. فقال النعمان: أصلح الله المَلك وجعل يثني عليه ثم قال: إلا أن عندي جواباً في كل ما نطق به الملك في غير رد عليه ولا تكذيب له، فإن آمنني من غضبه نطقت به. قال كسرى: فأنت آمن. فقال النعمان: أما أمتك أيها الملك فليست تنازع في الفضل لموضعها الذي هي به في عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك وأما الأمم التي ذكرت فأي أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها قال كسرى: بماذا؟ قال النعمان بعزها ومنعتها وحسن وجوهها ودينها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجنود لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيولهم مهادهم الأرض وسقفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور.

وأما حسن وجوهها وألوانها فقد تعرف فضلهم في ذلك على غيرهم من الهند المتحرقة والصين المحنتمة والترك المشوهة والروم المقشوة، وأما أحسابها وأنسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من أولها وآخرها حتى أن أحدهم يسأل عما وراء أبيه دنياً فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمي آباءه أباً أباً حفظوا بذلك أحسابهم وضبطوا أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب إلى غير نسبه ولا يدعى إلى غير أبيه، وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلاً الذي يكون عنده البكرة أو الناب عليها بلاغة في حمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذي يكتفي بالفلذة ويجتزي بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج له من دنياه كلها فيما يُكسبه حسن الأحدوثة وطيب الثناء.

وأما حكمة ألسنتها فإن الله أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالإشارة وضرب الأمثال وإبلاغهم في الصفات ما ليس لشيءٍ من ألسنة الأجناس، ثم

خيلهم أفضل الخيول ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة والحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التي لا يبعد عن مثلها سَفر ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون بها حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهراً حرماً وبلداً حراماً وبيتاً محجوباً ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك دمه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى، وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويوميء الإيماء فهي اللب وعُقد لا يحلّها إلا خروج نفسه وإن أحدهم ليرفع عدداً من الأرض فيكون رهناً بدَينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته، وإن أحدهم ليبلغه أن رجلاً استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب فلا يرضى حتى تفنى تلك القبيلة التي أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره وأنها ليلجأ إليهم المجرم المحروب من غير معرفة ولا قرابة لتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله. وأما قولك أيها الملك أنهم يئدون أولادهم من الحاجة فإنما يفعله من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج، وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا آنسَت من نفسها ضعفاً وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائرهم فيلقون إليهم أمورهم وينقادون إليهم بأزمّتهم.

فأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطء والعسف فعجب كسرى مما أجابه النعمان به وقال: إنك لأهل لموضعك من الرياسة في إقليمك ولما هو أفضل ثم كساه مِن كِسوته وسرّحه إلى موضعه من الحيرة فلما قدم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقيص العرب وتهجين أمرهم بعث إلى أكثم بن صيفي وحاجب بن زرارة وجماعة من رؤوس العرب سمّاهم، فلما قدموا عليه في الخورنق قال لهم: قد عرفتم حال هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منهم وقد سمعت من كسرى مقالة أتخوف أن يكون لها غدر واقتص عليهم مقالة كسرى وما رد عليه فقالوا: وفّقك الله أيها الملك ما أحسن ما رددت عليه وأبلغ ما حججته به فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت قال النعمان: إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وبما يتخوف من ناحيتكم وليس شيءٌ أحب إلي مما سدّد الله به أمركم وأصلح به شأنكم والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطقوا بكتابي هذا إلى باب كسرى فإذا دخلتم عليه نطق كل واحد منكم بما حضَره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته به نفسه

ووصاهم بوصايا فذهبوا إليه وقد ساق القصة صاحب العقد وأوردها أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوي في كتاب ألف باء.

ومن حجة الشعوبية على العرب أن قالت إنا ذهبنا إلى العدل والتسوية وأن الناس كلهم من طينة واحدة وسلالة رجل واحد، واحتججنا بقول النبي عليه الصلاة والسلام: المؤمنين أخوة لتتكافأ دماؤهم ويسعى أدناهم وهم يد على من سواهم. وقوله في حجة الوداع وهي خطبته التي ودّع فيها أمّته وخَتم نبوّته: «أيها الناس إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء كلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربي على عجمي فضلٌ إلا بالتقوى». وهذا القول من النبي عليه الصلاة والسلام موافق لقول الله تعالى (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) فأبيتم إلا فخراً وقلتم لا تساوينا العجم وإن تقدّمَتنا إلى الإسلام ثم صلّت حتى تصير كالحَنيّ وصامت حتى تصير كالأوتار ونحن نسامحكم ونجيبكم إلى الفخر بالآباء الذي نهاكم عنه نبيكم إذ أبيتم إلا خلافه، وإنما نجيبكم إلى ذلك لاتّباع حديثه وما أمر به فنرد عليكم حجتكم في المفاخرة ونقول: أخبرونا إن قالت لكم العجم هل تعدّون الفخر كله أن يكون ملكاً أو نبوة؟ فإن زعمتم أنه ملك قالت لكم: وإن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة وهل ينبغي لأحد أن يكون له مثل ملك سليمان الذي سُخّرت له الأنس والجن والطير والريح وإنما هو رجل منا أم هل كان لأحد مثل مُلك الإسكندر الذي ملك الأرض كلها وبلغ مطلع الشمس ومغربها وبنى ردماً من حديد ساوى به بين الصدفين وسجن وراءه خلقاً من الناس تربي على خلق الأرض كلها كثرة لقول الله عز وجل (حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون) فليس شيء أدلّ على كثرة عددهم من هذا، أو ليس لأحد من ولد آدم مثل آثاره في الأرض ولو لم يكن له إلا منارة الإسكندرية التي أسسها في قعر البحر وجعل في رأسها مرآة يظهر البحر كله في زجاجتها. وكيف ومنا ملوك الهند الذين كتب أحدهم إلى عمر بن عبد العزيز: مِن ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك والذي تحته بنت ألف ملك والذي في مربطه ألف فيل والذي له نهران ينبتان العود والفوة والجوز والكافور والذي يوجد ريحه على اثني عشر ميلاً إلى ملك العرب الذي لا يشرك بالله شيئاً. أما بعد فإني أردت أن تبعث إليّ رجلاً يعلمني الإسلام ويوفقني على حدوده والسلام. وإن زعمتم أنه لا يكون الفخر إلا بنبوة فإنّ منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ما خلا أربعة هوداً وصالحاً واسماعيل ومحمداً، ومنا المصطفون من العالمين آدم ونوح وهما العنصران اللذان تفرع منهما البشر فنحن الأصل وأنتم الفرع وإنما أنتم غصن من أغصاننا فقولوا بعد هذا ما شئتم وادّعوا.

ولم تزل للأمم كلها من الأعاجم في كل شق من الأرض ملوك تجمعها ومدائن تضمها وأحكام تدين بها وفلسفة تنتجها وبدائع تفتقها في الأدوات والصناعات مثل صنعة الديباج وهي أبدع صنعة ولعب الشطرنج وهي أشرف لعبة ورمانة القبان التي يوزن بها رطل واحد ومائة رطل ومثل فلسفة الروم في ذات الخلق والقانون والإسطرلاب الذي يُعدل به النجوم ويُدرك به علم الأبعاد ودوران الأفلاك وعلم الكسوف لم يكن للعرب مَلك يجمع سوادها ويضم قواصيها ويقمع ظالمها وينهى سفيهها، ولا كان لها قط نتيجة في صناعة ولا أثر في فلسفة إلا ما كان من الشعر وقد شاركتها فيه العجم وذلك إن للروم أشعاراً عجيبة قائمة الوزن والعروض فما الذي تفخر به العرب على العجم فإنما هي كالذئاب العادية والوحوش النافرة يأكل بعضها بعضاً ويغير بعضها على بعضٍ، فرجالها موثوقون في حلق الأسر ونساؤها سبايا مردفات على حقائب الإبل فإذا أدركهن الصريخ استنُقذن بالعَشي. قال بجير يعيّر العرب باختلافها في النسب واستلحاقها للأدعياء:

زعمتم بأن الهند أولاد خندف   وبينكم قربى وبين البرابرِ

وديلم من نسل ابن ضبة ناسل   وبرجان من أولاد عمر وبن عامرِ

فقد صار كل الناس أولاد واحد   وصاروا سواء في أصول العناصرِ

بنو الأصفر الأملاك أكرم منكم   وأولى بقربانا ملوك الأكاسرِ

أتطمع في صهري دعياً مجاهراً   ولم تر ستراً من دعي مجاهرِ

وتشتم لؤماً رهطه وقبيله   وتمدح جهلاً طاهراً وابن طاهرِ

وقال الحسن بن هانئ على مذهب الشعوبية:

وجاورت قوماً ليس بيني وبينهم   أواصر إلا دعوة وبطونُ

إذا ما دعا باسمي العريف أجبته   إلى دعوة مما عليَّ يهونُ

لا زد عمان بن المهلب نزوة   إذا افتخر الأقوام ثم تلينُ

وبكر يرى أن النبوة أنزلت — على مسمع في البطن وهو جنينُ

وقالت تميم لا نرى أنا واحداً — كأحنفنا حتى الممات يكونُ

فلا لمت قيساً بعدها في قتيبة — إذا افتخروا أنَ الفخار فنونُ

قال ابن قتيبة في كتاب تفضيل العرب: «وأما أهل التسوية فإن منهم قوماً أخذوا ظاهر بعض الكتاب والحديث فقضوا به ولم يفتشوا عن معناه فذهبوا إلى قوله عز وجل: إن أكرمكم عند الله أتقاكم. وقوله: إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم. وإلى قول النبي عليه الصلاة والسلام في خطبته في حجة الوداع: أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء ليس لعربي على عجمي فخر إلا بالتقوى كلكم لآدم وآدم من تراب. وقوله المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»، وإنما المعنى في هذا أن الناس كلهم من المؤمنين سواءٌ في طريق الأحكام والمنزلة عند الله عز وجل والدار الآخرة لو كان الناس كلهم سواء في أمور الدنيا ليس لأحد فضل إلا بأمر الآخرة لم يكن في الدنيا شريف ولا مشروف ولا فاضل ولا مفضول، فما معنى قوله: إذا أتاكم كريم قومٍ فأكرموه وقوله: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم وقوله في قيس بن عاصم: هذا سيد الوبر. وكانت العرب تقول لا يزال الناس بخير ما تباينوا فإذا تساووا هلكوا. تقول لا يزالون بخير ما كان فيهم أشراف وأخيار فإذا حملوا كلهم جملة واحدة هلكوا أو إذا ذمت العرب قوماً قالوا: سواسية كأسنان الحمار وكيف يستوي الناس في فضائلهم والرجل الواحد لا تستوي في نفسه أعضاؤه ولا تتكافأ مفاصله ولكن لبعضها الفضل على بعض وللرأس الفضل على جميع البدن بالعقل والحواس الخمس وقالوا القلب أمير الجسد ومن الأعضاء خادمةٌ ومنها مخدومةٌ.

قال ابن قتيبة: ومن أعظم ما ادعت الشعوبية فخرهم على العرب بآدم عليه السلام وبقول النبي عليه الصلاة والسلام لا تفضلوني عليه فإنما أنا حسنةٌ من حسناته ثم فخرُهم بالأنبياء أجمعين وأنهم من العجم غير أربعة هود وصالح واسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام واحتجّوا بقول الله عز وجل إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم ثم فخَروا بإسحق بن إبراهيم وإنه لِسارة وإنّ إسماعيل لأمة تسمى هاجر قال شاعرهم:

في بلدة لم تصل عُكْلٌ بها طُنُباً ولا خباء ولا عَكَ وهمدانُ

ولا لجرمٍ ولا نهدٍ بها وطن ولكنها لبني الأحرار أوطانُ

أرض تبنّى بها كسرى مساكنه فما بها من بني اللخناء إنسانُ

فبنو الأحرار عندهم العجم وبنو اللخناء عندهم العرب لأنهم من ولد هاجر وهي أَمة وقد غلطوا في هذا التأويل وليس كل أمة يقال لها اللخناء من الإماء الممتهنة في رعي الإبل وسقيها وجمع الحطب، وإنما أُخذ من اللخن وهو نتن الريح يقال لخن السقاء إذا تغير ريحه، فأما مثل هاجر التي طهرها الله من كل دنس وارتضاها للخليل فراشاً وللطيبين إسماعيل ومحمد أُمّاً وجعلهما سلالة فهل يجوز لملحد فضلاً عن مسلم أن يسميها اللخناء؟.

قال بعض من يرى رأي الشعوبية فيما يردّ به على ابن قتيبة في تباين الناس وتفاضلهم والسيد منهم والمسود إننا نحن لا ننكر تباين الناس ولا تفاضلم ولا السيد منهم والمسود والشريف والمشروف، ولكننا نزعم أن تفاضل الناس فيما بينهم ليس بآبائهم ولا بأحسابهم ولكنه بأفعالهم وأخلاقهم وشرف أنفسهم وبُعد هممهم، ألا ترى أنه من كان دنيء الهمة ساقط المروءة لم يشرّف وإن كان من بني هاشم في ذؤابتها ومن أمية في أرومتها ومن قيس في أشرف بطن منها. إنما الكريم من كرمت أفعاله والشريف من شرفت همته وهو معنى حديث النبي عليه الصلاة والسلام: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه وقوله في قيس بن عاصم: هذا سيد أهل الوبر إنما قال فيه لسؤدده في قومه بالذب عن حريمهم وبذله رفده لهم. ألا ترى أن عامر بن الطفيل كان في أشرف بطن في قيس يقول:

وإني وإن كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور في كل مركبِ

فما سودتني عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أبِ

ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي من رماها بمنكبِ

وقال آخر:

أنا وإن كرمت أوائلنا لسنا على الأحساب نتّكلُ

نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وقال قس بن ساعدة لأقضينّ بين العرب بقضية لم يقض بها أحد قبلي ولا يردها أحد بعدي أيما رجل رمى رجلاً بملامة دونها كرم فلا لوم وأيما رجل ادعى كرماً دونه لؤم فلا كرم له. ومثله قول عائشة أم المؤمنين: كل كرم دونه لؤم فاللؤم أولى به وكل لؤم دونه كرم فالكرم أولى به. تعني بقولها أن أولى الأشياء بالإنسان طبائع نفسه وخصالها فإذا كرمت فلا يضره لؤم أوليته وإن لؤمت فلا ينفعه كرم أوليته.

وقال الشاعر:

نفس عصام سودت عصاما   وعلّمته الكر والإقداما...

وجعلته ملكاً هُماما

وقال آخر:

ما لي عقلي وهمتي حسبي   ما أنا مولى ولا أنا عربي

إن انتمى منتمٍ إلى أحد   فإنني منتم إلى أدبي

روى أبو العيناء الهاشمي عن الفخذمي عن شبيب بن شبة قال: كنا وقوفاً بالمربد موضع بالبصرة وكان المربد مألف الأشراف إذ أقبل ابن المقفع فبشَشنا به وبدأناه بالسلام فرد علينا السلام ثم قال: لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل وسورها المديد ونسيمها العجيب فعوّدتم أبدانكم تمهيد الأرض وأرحتم دوابكم من جهد الثقل فإن الذي تطلبونه لم تفلتوه ومهما قضى الله لكم من شيءٍ تنالوه. فقبِلنا وملنا فلما استقر بنا المكان قال لنا: أي الأمم أعقل؟ فنظر بعضنا إلى بعض فقلنا: لعله أراد أصله من فارس فقلنا: فارس فقال: ليسوا بذلك إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ووجدوا عظيماً من الملك وغلبوا على كثير من الحق ولبث فيهم عقد الأمر فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم قلنا: فالروم قال: أصحاب صنعة قلنا: فالصين قال: أصحاب طرفة قلنا فالهند قال: أصحاب فلسفة قلنا السودان قال: شر خلق الله قلنا: الخزر قال: بقر سائمة قلنا: فقل قال: العرب قال: فضحكنا قال: أما أني ما أردت موافقتكم ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من

المعرفة أن العرب حكَمت على غير مثال مثل لها ولا آثار أثرت، أصحاب إبل وغنم وسكان شعر وأدم يجود أحدهم بقوته ويتفضل بمجهوده ويشارك في ميسوره ومعسوره ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ويفعله فيصير حجة ويحسن ما شاء فيحسن ويقبح ما شاء فيقبح أدبتهم أنفسهم ورفعتهم هممهم وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم فلم يزل حياء الله فيهم وحياؤهم في أنفسهم حتى رفع لهم الفخر وبلغ بهم أشرف الذكر وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر على الخير فيهم ولهم فقال سبحانه أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين فمن وضع حقهم خسر ومن أنكر فضلهم خصم ودفع الحق باللسان أكبت للجنان.

أما عناية الإسلام بإسقاط الجنسية فتراه ماثلاً من حسن معاملتهم للموالي فقد ولى رسول الله جيش مؤتة زيداً مولاه وقال إن قُتل فأميركم جعفر وأمر رسول الله أسامة بن زيد فبلغه أن قوماً قد طعنوا في إمارته وكان أمّره على جيش فيه جلة المهاجرين والأنصار، فقال عليه السلام: إن طعنتم في إمارته لقد طعنتم في إمارة أبيه قبله ولقد كان أهلاً وإن أسامة لها لأهل. وقالت عائشة لو كان زيد حياً ما استخلف رسول الله غيره وقال عبد الله بن عمر لأبيه: لم فضّلت أسامة عليّ وأنا وهو سيان فقال: كان أبوه أحب إلى رسول الله من أبيك وكان أحب إلى رسول الله منك. أوصى رسول الله بعض أزواجه لتميط عن أسامة أذى من مخاط أو لعاب فكأنها تكرهته فتولى منه ذلك رسول الله بيده وقال له يوماً ولم يكن أسامة من أجمل الناس: لو كنت جارية لنحلناك وحليناك حتى يرغب الرجال فيك. وفي بعض الحديث أنه قال أسامة من أحب الناس إليَّ. وكان أدى إلى بني قريظة مكاتبه سلمان فكان سلمان مولى رسول الله فقال علي بن أبي طالب: سلمان منا أهل البيت. ويروى أن المهدي نُظر إليه ويد عمارة بن حمزة في يده فقال له رَجل: من هذا يا أمير المؤمنين فقال: أخي وابن عمي عمارة بن حمزة فلما ولى الرجل ذكر ذلك المهدي كالممازح لعمارة فقال له عمارة انتظرت أنه يقول: ومولاي فانفض والله يدك من يدي فتبسم أمير المؤمنين المهدي ولم يكن الإكرام للموالي في جفاة العرب.

زعم الليثي أنه كانت بين جعفر بن سليمان وبين مسمع بن كردين منازعة وبين يدي مسمع مولى له بهاء ورواء ولُسن فوجّه جعفر إلى مسمع له لينازعه ومجلس مسمع حافل، فقال إن أنصفني والله جعفر أنصفته وإن حضر حضرت معه وإن عَنَد عن الحق عندت عنه وإن وجه إليَّ مولى مثل هذا وأومأ إلى مولى جعفر فقال مولى مثل هذا عاضاً لما يكره وجّهت إليه وأومأ إلى مولاه فعجب أهل المجلس من وضعه مولاه ذلك الموضع الذي تباهي بمثله العرب وقد قيل الرجل لأبيه والمولى

من مواليه. وفي بعض الأحاديث أن المُعتَق من فضل طينة المعتِق. ويروى أن سلمان أخذ من بين يدي رسول الله تمرة من تمر الصدقة فوضعها في فيه فانتزعها منه رسول الله فقال: يا أبا عبد الله إنما يحل لك من هذا ما يحل لنا. ويروى أن رجلاً من موالي بني مازن يقال له عبد الله بن سليمان وكان من جلة الرجال نازع عمرو بن هداب المازني وهو في ذلك الوقت سيد بني تميم قاطبة فظهر عليه المولى حتى أذن له في هدم داره فأدخل الفعلة دار عمرو فلما قلع من سطحه سافاً كف عنه ثم قل يا عمرو قد أريتك القدرة وسأريك العفو وقد كان في قريش من فيه جفوة ونبوة.

كان نافع بن جبير أحد بني نوفل بن عبد مناف إذا مرّ عليه الجنازة سأل عنها فإن قيل قرشي قال واقوماه وإن قيل عربي قال وامادّتاه وإن قيل مولى أو عجمي قال اللهم هم عبادك تأخذ منهم من شئت وتدع من شئت. ويروى أن ناسكاً من بني الهجيم بن عمرو بن تميم كان يقول في قصصه اللهم اغفر للعرب خاصة وللموالي عامة فأما العجم فهم عبيدك والأمر إليك.

ومثل ذلك ما كان بعضهم يقولونه لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة حمار أو كلب أو مولى، وكانوا لا يكنونهم بالكنى ولا يدعونهم إلا بالأسماء والألقاب ولا يمشون في الصف معهم ولا يتقدمونهم في الموكب وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم وإن أطعموا المولى لسنه وفضله وعمله أجلسوه في طريق الخبار لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب ولا يدَعونهم يصلّون على الجنائز إذا حضر أحد من العرب وإن كان الذي يحضر عزيزاً وكان الخاطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها وإنما يخطبها إلى مواليها فإن رضي زوج وإلا ردّ فإن زوج الأب والأخ بغير رأي مواليه فسخ النكاح وإن كان قد دخل بها كان سفاحاً غير نكاح.

وذكر عمرو بن بحر الجاحظ في كتاب الموالي والعرب أن الحجّاج لما خرج عليه ابن الأشعث وعبد الله بن الجارود ولقي ما لقي من قراء أهل العراق وكان أكثر من قاتله وخلعه وخرج عليه الفقهاء والمقاتلة والموالي من أهل البصرة، فلما عَلِم أنهم الجمهور الأكبر والسواد الأعظم أحب أن يسقط ديوانهم ويفرق جماعتهم حتى لا يتألفوا ولا يتعاقدوا فأقبل على الموالي وقال أنتم علوج وعجم وقراؤكم أولى بكم ففرقهم وفضّ جمعهم كيف أحب وصيَّرهم كيف شاء ونقَش على يد كل رجل منهم اسم البلدة التي وجّهه إليها وكان الذي تولى ذلك منهم رَجل من بني سعد بن عجل بن لجين يقال له حراش وقال شاعرهم:

وأنت من نقش العجلي راحته   وفرَّ شيخُك حتى عاد الحكم

يريد الحكم بن أيوب التميمي عامل الحجاج على البصرة.

ولقد أورد ابن بسام في الذخيرة في ترجمة الأديب أبي جعفر أحمد الدودين البلنسي رسالة ابن غرسية يخاطب بها أبا جعفر بن الجزار في فضل الشعوبية وذم العرب ابتدأها بقوله:

يا ابن الأعارب ما علينا باس   لم نَحكِ إلا ما حكاه الناس

وقال فيها في وصف العجم:

هم ملكوا شرق البلاد وغربها   وهم منحوكم بعد ذلك سؤددا

وقال:

ولم أشتُم لك حسَبا ولكن   حدوتُ بحيث يُسمع الحداءُ

من الرسالة: «حلمَ وعلمَ ذوو الآراء الفلسفية الأرضية والعلوم المنطقية الرياضية حملة الأسترلوميقا والجومطريقا والعلمة بالأرتماطيقا والأنولوطيقا والقومة بالموسيقى والطوبقيا والنهضة بعلوم الشرائع والطبائع والنفرة في علوم الأديان والأبدان ما شئت من تحقيق وترفيق حبسوا أنفسهم على العلوم الدينية والبدنية لا على وصف الناقة العدنية فعلمهم ليس بالسفاف كفعل نائلة وإساف أصغر بشأنكم إذ بزق خمر باع الكعبة أبو غسانكم وإذا أبو رغالكم قاد فيل الحبشة إلى حرم الله لاستئصالكم».

والرسالة كلها على هذا النسق استغرقت مع الردود عليها سبع عشرة ورقة من الذخيرة ولولا غلبة التحريف الكثير عليها لأوردناها برمتها وقد ردّ عليها كثيرون من أدباء الأندلس في عصر كاتبها ومن جملتهم المخاطب بها أبو جعفر وردودهم كلها إلى السفاهة والبذاءة أقرب وكتابة ابن غرسية أمتن وحججه أوضح.

وكنا نود أن نشبع الكلام على الشعوبية أكثر مما أشبعناه واكتفينا الآن بما لدينا من النقول الصحيحة ولعل أحد مؤازرينا يكتب في هذا الموضوع ليجلوه أكثر مما جلوناه وفوق كل ذي علم عليم.

التمييز في الألبسة

ليس أغرب من هذا الشرق ترى فيه الاختلاف في الأفكار كما تراه في الأديان بل تراه في اختلاف الهواء والماء. وقد وُفّق الغرب إلى توحيد ألبسة أهله في القرون الأخيرة أما الشرق فلم يزل في تخالفه في ذلك على نحو ما كان عليه في القرون الوسطى قرون الظلم والهمجية.

اختلاف المشارقة في ألبستهم قديم فقد كان للقضاة وللأجناد وللعلماء والعامة ألبسة خاصة بهم، بل كان اللباس تابعاً للأقاليم فابن الحجاز يلبس ما لا يلبسه ابن الشام وهكذا تجد لو طفت الأقاليم ودرست المدنيات.

وكان لأهل الذمة في الإسلام لباس خاص بهم وهو من التحكمات السياسية التي دعا إليها العرب لا الدين وليس في الدين ما يدل على تمييز المسلمين بلباس خاص، فقد اشترط الخليفة الثاني في كتاب الجزية الذي كتبه لأهل الذمة أن يؤخذوا بلبس الغيار وهو علامة لهم كالزنار ونحوه. ولما تبسط الفاتحون في مناحي السلطان كان من جملة واجبات المحتسب كما في كتاب نهاية الرتبة في الحسبة أن يأخذ الذميين بلبسه فإن كان يهودياً عمل على كتفه خيطاً أحمر أو أصفر وإن كان نصرانياً عمل في وسطه زناراً أو علق في حلقه صليباً وإن كانت امرأة لبست خُفّين أحدهما أبيض والآخر أسود، وإذا عبر الذمي إلى الحمّام ينبغي أن يكون في حلقه صليب أو طوق من حديد أو نحاس أو رصاص ليُختبر عن غيره.

وفي كتاب الخراج لأبي يوسف أن لا يُترك أحد منهم يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته ويؤخذوا بأن يجعلوا في أوساطهم الزنارات مثل الخيط الغليظ يعقده في وسطه كل واحد منهم، وبأن تكون قلانسهم مضربة. قيل أن عمر بن الخطاب امر عماله أن يأخذوا أهل الذمة بهذا الزي أي أن تكون قلانسهم طوالاً مضربة وروي عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامل له: فلا يلبس نصراني قباء ولا ثوب خز ولا عصب وقد ذُكر لي أن كثيراً من قِبَلك من

النصارى قد راجعوا لبس العمائم وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والوفر وتركوا التقصيص ولعمري لئن كان يصنع ذلك فيما قبلك إنّ ذلك بك لضعف وعجز ومصانعة.

وفيما اطلعنا عليه من الكتاب إشارات طفيفة لاختلاف أزياء الذميين في العصور الإسلامية وما هذا الاختلاف في الحقيقة ناتج إلا من التحكم غالباً. قال ابن الأثير في حوادث سنة 235 أن المتوكل أمر أهل الذمة بلبس الطيالسة العسلية وشد الزنانير وركوب السروج بالركب الخشب وعَمَل كرتين في مؤخر السروج وعَمل رقعتين على لباس مماليكهم مخالفين لون الثوب كل واحد منهما قدر أربع أصابع ولون كل واحدة منهما غير لون الأخرى، ومن خرج من نسائهم تلبس إزاراً عسلياً، ومنعهم من لبس المناطق وأمر بهدم بيعهم المحدثة وبأخذ العشر من منازلهم وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب،ونهى أن يستعان بهم في أعمال السلطان ولا يعلّمهم مُسلم وأن يظهِروا في شعانينهم صليباً وأن يستعملوا في الطريق وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض وكتب في ذلك إلى الآفاق.

وقال الذهبي في حوادث 398 وفيها هدم الحاكم كنيسة القيامة بالقدس وكانت فيها أموال وجواهر ما لا يوصف وألزم النصارى بتعليق صلبان على صدورهم واليهود بتعليق مثل رأس العجل على صدورهم وكان الصليب رطلاً بالدمشقي من خشب ومثال رأس العجل كالمدقة وزنها رطل ونصف، وأن يشدوا الأجراس في رقابهم عند دخول الحمامات. قال وألزم الحاكم صاحب المغرب والحجاز ومصر والشام أهل الذمة بالصلبان في أعناقهم وألبس اليهود العمائم السود نكاية واهنة لبني العباس. قال ابن خلكان وفي سنة اثنتين وأربعمائة أمر الحاكم النصارى واليهود إلا الخيابرة بلبس العمائم السود وأن تحمل النصارى في أعناقهم الصلبان ما يكون طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطال، وأن تحمل اليهود في أعناقهم قرامي الخشب على وزن صلبان النصارى وأن يكون في أعناق النصارى إذا دخلوا الحمام الصلبان وفي أعناق اليهود الجلاجل ليتميزوا عن المسلمين.

قلنا وكان في الحاكم لوثة وجنّة يأمر اليوم بأمر فينهي عنه في الغد.

وذكر الذهبي في حوادث سنة سبعمائة أن النصارى واليهود ألبست بمصر والشام العمائم الزرق والصفر واستمر ذلك. وسنة 734 أُلزمت النصارى ببغداد بالغيار ثم نقضت كنائسهم ودياراتهم وأسلم منهم ومِن أعيانهم خلق كثير منهم سديد الدولة وكان ركناً لليهود.

وروى لسان الدين بن الخطيب أن اسمعيل بن فرج الخزرجي من ملوك الأندلس اشتهر في إقامة الحدود وإراقة المسكرات وحظر تجلي القينات للرجال في الولائم وقَصَر طربهن على أجناسهن من الناس وأخذ لليهود الذمة بالتزام سمة تميزهم وإشارة تشهرهم وليوفى حقهم من المعاملة التي أمر بها الشرع في الخطاب. والطرق وهو شواش (جمع شاشية) أصفر. وذكر صاحب المعجب في سيرة أبي يوسف يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن أنه أمر في آخر أيامه أن يتميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قريب من أقدامهم وبدلاً من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزيّ في جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه عبد الله إلى أن غيّره أبو عبد الله بعد أن توسلوا إليه بكل وسيلة واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبد الله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي إلى وقتنا هذا وهو سنة 621 وإنما حمل أبا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به شكه في إسلامهم، وكان يقول: «لو صح عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم ولو صح عندي كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين، ولكني متردد في أمرهم ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة. إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون في المساجد ويقرون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكنه صدورهم وتحويه بيوتهم».

وقال ابن أبي أصيبعة: حدثني الشيخ موفق الدين البوري الكاتب النصراني قال لما فتح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب الكرك، أتى إلى دمشق الحكيم موفق الدين يعقوب بن سقلاب النصراني وهو شاب على رأسه كوفية وتخفية صغيرة وهو لابس جوخة ملوطة زرقاء زي أطباء الفرنج، وقصد الحكيم موفق الدين بن المطران وصار يخدمه ويتردد إليه لعله ينفعه فقال له هذا الزي الذي أنت عليه ما يمشي لك به حال في الطب في هذه الدولة بين المسلمين وإنما المصلحة أن تغير زيك وتلبس عادة الأطباء في بلادنا ثم أخرج له جبة واسعة عنابية وبقياراً مكحلاً وأمره أن يلبسهما.

قال ياقوت في معجم الأدباء في ترجمة أسعد بن المهذب ما يأتي: كان المهذب أبوه المعروف بالخطير مرتباً على ديوان الإقطاعات وهو على دين النصرانية فلما علم أسد الدين شيركوه في بدء أمره بمصر أنه نصراني وأنه يتصرف في (عمله) بلا غيار نهاه وأمره بغيار

النصارى ورفع الذؤابة وشد الزنار وصرَفه عن الديوان فبادر هو وأولاده فأسلموا على يده فأقرّه على ديوانه مدة ثم صرَفه عنه فقال فيه ابن الذروي:

لم يُسلم الشيخ الخطي ... ر لرغبةٍ في دين أحمد

بل ظَنَّ أن محاله ... يُبقي له الديوان سرمد

والآن قد صرفوه عن ... ه فدِينُه فالعود أحمد

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغبار وإن يعمموا بغير عذبة قال عمارة اليمني:

يا أسد الدين ومن عدله ... يحفظ فينا سنة المصطفى

كفى غياراً شد أوساطنا ... فما الذي يوجب كشف القفا

هذا ما كان عليه الاختلاف في الأزياء بين أهل الوطن الواحد وأكثره كما ترى ناشيء من ملوك وفقهاء متعصبين تعصباً ظاهراً مثل المتوكل والحاكم بأمر الله ولم يسمع بأن رجال الجد في الإسلام مثل الرشيد والمأمون وصلاح الدين ونور الدين تحكموا هذه التحكمات والله أعلم.

الجغرافيا والعرب

لم يترك العرب أيام حضارتهم فرعاً من فروع العلوم النافعة في قيام مجتمعهم إلا وتوفر أفراد منهم عليه. وعلم الجغرافيا هو أحد تلك العلوم ولم يكن لهم به عهد في الجاهلية كالشعر والرواية والأدب والخُطب، وإذا ذكروا بعض أسماء البلدان المجاورة لهم فإنما يذكرونها بالعرَض لا تشعر بمعرفة ولا تنمّ عن اشتغال.

وكان أول الكُتب التي نقلوها إلى لسانهم كتاب بطليموس اليوناني في الجغرافيا ومِن أوّل الأعمال الجغرافية العلمية التي تمت على يد علمائهم هو أن المأمون أمر محمد بن موسى بن شاكر وأخويه أحمد والحسن بتحقيق طول خط نصف البار لمعرفة محيط الكرة الأرضية، فقاسوا أحد خطوط الطول في سهل سنجار ثم أعادوا المقياس ثانياً في وطآت الكوفة فثبتت لديهم كروية الأرض وعرفوا محيطها.

قال ابن خلكان في ترجمة بني شاكر: وكانت لهم همم عالية في تحصيل العلوم القديمة وكُتب الأوائل وأتعبوا أنفسهم في شأنها وأنفذوا إلى بلاد الروم من أخرجها لهم وأحضروا النقَلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة بالبذل السَني فأظهروا عجائب الحكمة، وكان الغالب عليهم من العلوم الهندسة والحيل والحركات والموسيقى والنجوم وهو الأقل، ولهم في الحيَل كتاب عجيب نادر يشتمل على كل غريبة ولقد وقفت عليه فوجدته من أحسن الكتب وأمتعها وهو مجلد واحد. ومما اختصوا به في ملّة الإسلام وأخرجوه من القوة إلى الفعل وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه ولكنه لم يُنقل أنّ أحداً من أهل هذه الملة تصدى له وفعله إلا هم وهو أن المأمون كان مغرىً بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دَور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ بحيث لو وضع طرف حبْل على أي نقطة كانت من الأرض وأدرنا الحبْل على كُرة الأرض حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من

الأرض والتقى طرفا الحبْل فإذا مسخنا ذلك الحبْل كان طوله أربعة وعشرين ألف ميل، فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه فقالوا: نعم هذا قطعيّ وقال: أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا. فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي فقيلَ لهم صحراء سنجار في غاية الاستواء وكذلك وطآت الكوفة فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار وجاؤوا إلى الصحراء المذكورة فوقفوا في موضع منها فأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات. وضربوا في ذلك الموضع وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على استواء الأرض من غير انحراف إلى اليمين واليسار حسب الإمكان، فلما فرغ الحبْل نصبوا في الأرض وتداً آخر وربطوا فيه حبلاً طويلاً ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفِعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا منه ارتفاع القطب المذكور فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحِبال فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل فعلموا أن كل درجة من درج الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان، ثم عادوا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول وشدّوا فيه حبلاً وتوجهوا إلى جهة الجنوب ومشوا على الاستقامة وعملوا كما عملوا في جهة الشمال مَن نصْب الأوتاد وشدّ الحِبال حتى فرغت الحِبال التي استعملوها في جهة الشمال ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعه الأول درجة فصَحّ حسابهم وحقّقوا ما قصدوه من ذلك.

وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر لهم حقية ذلك، ومن المعلوم أن عدد درج الفلك ثلثمائة وستون درجة لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً وكل برج ثلاثون دَرجة لتكون الجملة ثلثمائة وستين درجة، فضربوا عدد درج الفلك في ستة وستين ميلاً أي التي هي حصة كل دَرجة فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ وهذا محقَّق لا شك فيه، فلما عاد بنو موسى إلى المأمون وأخبروه بما صنعوا وكان موافقاً لما رآه في الكتب القديمة من استخراج الأوائل طلَبَ تحقيق ذلك في موضع آخر فسيّرهم إلى أرض الكوفة وفعلوا كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلِمَ المأمون صحة ما حرّره القدماء في ذلك.

هذا ما قاله صاحب وفيات الأعيان بنصّه وليس العمل لإثبات كروية الأرض هو العِلم الوحيد الذي قام به المأمون. فقد قال المسعودي صاحب مروج الذهب في كتابه التنبيه والإشراف وهو مما ألّفه بفسطاط مصر سنة 345 للهجرة: ورأيت هذه الأقاليم مصوّرة في غير كتاب بأنواع

الأصباغ، وأحسن ما رأيت من ذلك في كتاب جغرافيا مارينوس وتفسير جغرافيا قطع الأرض وفي الصورة المأمونية التي عُملت للمأمون اجتمع على صنعتها عدّة من حكماء أهل عصره صَوّر فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهي أحسن مما تقدمها من جغرافيا بطليموس وجغرافيا مارينوس وغيرهما.

قال السنيور جويدي الإيطالي: وليس حكماء العرب هم الذين عُنوا دون غيرهم من الأمة العربية برسم صورة الأرض بل أن أمراءهم كذلك ومنهم أمير المؤمنين المأمون الخليفة العباسي فإنه أُغرم برسم الأرض وبذل قصارى جهده في إبرازها، فجمع من بالعراق مِن حكماء دولته زهاءَ سبعين حكيماً على ما قيل، فاجتمعوا على تكوينها وإحكامها حتى فضلت بذلك ما تقدمها من الصور. ولقد عرف المسلمون أن من جملة أسباب الفتح معرفة طرق البلدان والأمصار، فقد ذكر المؤرخون أنه قام الملاحون المدعوون بالمغرورين في القرن الأول للهجرة وأقلعوا من لشبونة عاصمة البرتغال اليوم بغية الوصول إلى ما وراء كولمبس، وفي البعثات التي سيّرها الخلفاء إلى القاصية كبعثة الواثق العباسي لاكتشاف سواحل الخزر وبعثة المقتدر بالله عام 309 إلى البلغار للدعوة الإسلامية فيها وأخذ أحد أعضاء البعثة أحمد بن فضلان معلومات مفيدة عن تلك البلاد، وفي الحملة التي وصلت إلى بكين بعد فتح كاشغر سنة ست وتسعين للهجرة لدعوة الصين إلى الإسلام. في كل ذلك أكبر دليل على تقدير العرب عِلم رسم الأرض أو الجغرافيا أو علم تقويم البلدان.

ولقد كان علماء الحديث من أشد الناس عناية بالجغرافيا لتمييز النسب إلى البلدان والفَرق بين الرجال ومساقط رؤوسهم وهذا هو السبب الذي دعا أرباب المعاجم أن يذكروا أسماء الأمصار والقرى. ومَن راجع باب العشر والخرّاج في مطولات الفقه علِمَ ما بين الفقه والجغرافيا من التعلق.

كتب أحد الخلفاء إلى حكيم من حكماء عصره حين فتح الله البلاد على العرب من العراق والشام ومصر وغيرها يقول: إنا أناس عرب وقد فتح الله علينا البلاد ونريد أن نتبوأ الأرض ونسكن البلاد والأمصار فصِفْ لي المدن وأهويتها ومساكنها وما تؤثره الترب والأهوية في سكانها فكتب إليه ذلك الحكيم بجغرافيتها الطبيعية. وكتب عمر ابن عبد العزيز إلى أحد عُمّاله أن يصف له جزيرة الأندلس لأنه علِمَ أن المسلمين نزلوا فيها في بلاد يحيط بهم الإفرنج من أكثر الجهات ولا بقاء لهم في تلك البلاد.

ولما اجتمع ابن خلدون بتيمورلنك سنة 802 هـ في دمشق سأله هذا عن بلده والمغرب الأقصى فذكَرَ له ابن خلدون ما حضره وطلب منه أن يؤلِّف له مختصراً وجيزاً يصف له بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وأنهارها وقراها وأمصارها فكتب له في غربته اثنتي عشرة كُرّاساً في وصف المغرب.

وأجمَعُ تعريف للجغرافيا يُستدلّ منه على موقعها من نفوس العرب واتصالها بعدة علوم لهم ما قاله ياقوت في مقدمة معجم البلدان: ومن ذا الذي يستغني من أولي البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها والناس في الافتقار إلى علمها سواسية وسرّ دورانها على الألسن في المحافل علانية، لأنّ من هذه الأماكن ما هي مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم للصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ومشاهد للأولياء الصالحين ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين وقد فتحت هذه الأماكن صلحاً وعنوة وأماناً وقوةً، ولكلٍّ من ذلك حُكمٌ في الشريعة في قسمة الفيء وأخْذ الجزية وتناول الخراج واجتناء المقاطعات والمصالحات وإنالة التسويفات والإقطاعات لا يسع الفقهاءَ جهلُها ولا تُعذر الأئمة والأمراء إذا فاتهم في طريق العلم حزنها وسهلها لأنها من لوازم فتيا الدين وضوابط قواعد الإسلام والمسلمين. فأمّا أهل السِير والأخبار والحديث والتواريخ والآثار فحاجتهم إلى معرفتها أمَسُّ من حاجة الرياض إلى القَطار غبّ أخلاف الأنواء والمشفي إلى العافية بعد يأسٍ من الشفاء لأنه مُعتمَدُ عِلمهم الذي قلَّ أن تخلو منه صفحة بل وجهة بل سطر مِن كُتبهم، وأما أهل الحكمة والتفهيم والتطبب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم إلى معرفته عمن قدّمنا: فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها والمنجِّم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها إذ كانوا لا يحكمون على البلاد إلا بطوالعها ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها، ومن كمال المتطبب أن يتطلع إلى معرفة مزاجها وهوائها وصحة أو سقم منبتها ومائها فصارت حاجتهم إلى ضبطها ضرورية وكشفهم عن حقائقها فلسفية. ولذلك صنف كثير من القدماء كتباً سموها جغرافيا ومعناها صورة الأرض وألف آخرون كتباً في أمزجة البلدان وهوائها نحو جالينوس وقبله أبقراط وغيرهما. وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم إليها لأنها من ضوابط اللغوي ولوازمه وشواهد النحوي ودعائمه ومُعتمَد الشاعر في تحلية جيد شعره بذكرها وتزيين عقود لآلي نظمه بشذرها، فإن الشعر لا يروق ونفْس السامع لا تشوق حتى يُذكَر حاجر وزرود والدهناء وهبود ويتحنن إلى رمال رضوى فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه وما اشتقاقه ونزهته وقفره وحزنه وسهولته، فإنه إن زعم أنه وادٍ وكان جبلاً أو جبل وكان صحراءَ أو صحراءُ

وكان نهراً أو نهر وكان قريةً أو قرية وكان شِعباً أو شِعب وكان حزَناً أو حزَن وكان روضةً أو روضة وكان صفصفاً أو صفصف وكان مستنقعاً أو مستنقع وكان جلداً أو جلد وكان سبخةً أو سبخة وكان حَرّةً أو حرّة وكان سهلاً أو سهل وكان وعراً أو يجعله شرقياً وكان غريباً أو جنوبياً وكان شمالياً سفلَ قَدْرُه ونزر كثره وآض ضَحِكةً ويرى أنه ضحكة وجُعِل هزأةً ويرى أنه هزأة واستخف وزنه واسترذل واستقل فضله واستُجهِل.

وبعد فقد نبغ في علماء العرب بفن الجغرافيا أناس لم يزالوا يُذكرون كما يُذكر الأفراد: فمن قدمائهم أبو موسى الخوارزمي وعبد الله بن خرداذبة وابن واضح اليعقوبي وابن الفقيه الهمذاني وعمر بن رستة وقدامة بن جعفر والجيهاني وعلي بن فضلان وأبو دلف مشعر وأبو زيد البلخي وأبو إسحق الاصطخري وشمس الدين المقدسي وعلي بن الحسين المسعودي وأبو الريحان البيروني وأبو عبيد البكري وأبو سعيد الأصمعي وأبو عبد الصيرافي والزمخشري ومحمد بن أحمد الهمذاني ومحمد بن أبي بكر الزهري والشريف الإدريسي وابن فضل الله العمري ومحمد المازني ومحمد بن علي الموصلي وأبو عبد الله بن شداد وأبو محمد العبدوي وأبو عبد الله ياقوت الحموي وزكريا بن محمد القزويني وابن سعيد المغربي وشمس الدين الأنصاري الدمشقي والملك أبو الفداء صاحب حماة وابن بطوطة وابن الوردي، وابن إياس وهذا كان آخرهم ممن يعتد بأقوالهم فقد جاء في القرن العاشر للهجرة وبعد ذلك انقطع سند العلوم الجغرافية من المسلمين بزهدهم في كل علم ولغلبة الجهل. وإن صادف أن جاء من اشتغل بالجغرافيا بعد ذلك العهد فيكون ناقلاً عن مصنفات أولئك الأعلام أو مختصراً لبعضها شأن العرب في القرون الثلاثة الأخيرة في جميع ما كتبوا فقد فقدت منهم ملكة التأليف والاختراع وصاروا نقَلة عاديين والله أعلم.

مدن العرب

يظن بعض الجاهلين أو المتجاهلين لحسنات المدنية الإسلامية أن العرب إبان عزهم لم يأتوا شيئاً يذكر في أعمال العمران وأن قصاراهم أن تلقفوا بعض المدن الفارسية واليونانية وتمتعوا بها قرون ثم نقلوها إلى من بعدهم من أمم المدنية الحديثة في الغرب. يقول بعضهم أنهم كانوا في فنّ البناء دون الرومان وأن قصورهم الباقية لا تشهد بتفنن عجيب في الهندسة، على أن الباقي من آثارهم إلى اليوم في الأندلس ومصر والشام والعراق وفارس والهند شاهدٌ أبد الدهر بإبطال دعوى المدّعين وما يحيك في صدورهم من الأهواء.

ولقد رأينا بعضهم يتوكأُون في الحط من أقدار العرب في العمران على الفصل الذي عقده ابن خلدون في مقدمته في إن العرب إذا تغلّبوا على الأوطان أسرع إليها الخراب الذي قال في آخره: «وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليقة كيف تقوض عمرانه وأقفر سكانُه وبُدِّلت الأرض فيه غير الأرض، فاليمن قرارهم خراب إلا قليلاً من الأمصار وعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس أجمع، والشام لهذا العهد كذلك، وأفريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها، وعادت بسائطه خراباً كلها، بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومي كله عمراناً تشهد به آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناءِ وشواهد القرى والمدر».

هذا ما يحتجّون به ولو علموا أن مقصد ابن خلدون بالعرب هنا البدو أو البادية أو العربان الرحّل كما نسميهم لِعهدنا لارتفع كل إشكال. وإلا فإن المدن التي مدنها العرب أيام عزهم والأمصار التي مصروها والقرى التي عمروها لا تدخل تحت حصر في كل قطر دخلوه ولو أياماً مما يتيسر لغيرهم من الأمم كالترك مثلاً الذين حكموا الأقطار الواسعة العامرة بطبيعتها ستمائة سنة ولا تكاد

تعرف مدينة لهم أسسوها ولا مواتاً أخصبوه ولا ماءً أسالوه وشُغلهم الشاغل حروبٌ وغزوات، هكذا مضوا أيام القوة وهكذا الحال زمن الضعف.

ومن قرأ كتب وصف البلاد يتجلّى له مقدار عناية العرب ببناءِ مدنهم. خذ لك على سبيل المثال ما رواه الأقدمون في كيفية بناء سامراء أو سُرَّ من رأى إحدى المدن العباسية التي أنشئت على دجلة على مسافة ثلاثين فرسخاً من بغداد فقد قالوا أن السفاح أراد أن يبني سامراء فبنى مدينة الأنبار بحذائها، وأراد المنصور بعد أن أسّسَ بغداد بناءها فابتدأ بالبناء في البردان ثم بدا له وبنى بغداد وأراد الرشيد بناءها فبنى بحذائها قصراً وهو بإزاء أثَرٍ عظيم قديم كان للأكاسرة. ثم بناها المعتصم ونزلها في سنة 221 وكان الرشيد قد حفر نهراً عندها سماه القاطول وأتى الجند وبنى عنده قصراً. ثم بنى المعتصم أيضاً هناك قصراً ووهبَهُ لمولاه أشناس، فلما ضاقت بغداد عن عساكره وأراد استحداث مدينة كان هذا الموضع على خاطره فجاءه وبنى عنده سر من رأى بنى داراً وأمر عسكره بمثل ذلك فعمّر الناسُ حول قصره حتى صارت أعظم بلاد الله. وبنى بها مسجداً جامعاً في طرف الأسواق وأنزل أشناس بمن ضم إليه من القواد كرخ سامراء وهو كرخ فيروز، وأقام ابنه الواثق بسامراء حتى مات بها ثم ولي المتوكل فأقام بالهاروني وبنى به أبنية كثيرة وأقطع الناس في ظهر سر من رأى في الحيز الذي كان احتجره المعتصم، واتّسع الناس بذلك، وبنى مسجداً جامعاً فأعظم النفقة عليه وأمر برفع منارة لتعلو أصوات المؤَذّنين فيها وحتى ينظر إليها من فراسخ فجمعَ الناس فيه وتركوا المسجد الأول، واشتقّ من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامراء، واشتق نهرا آخر وقدّرَه الدخول إلى الحيز فمات قبل أن يتمَّم، وحاول المنتصر تتميمه فلقِصَر أيامه لم يتمَّم ثم اختلف الأمر بعده فبطُل، وكان المتوكل قد أنفق عليه سبعمائة ألف دينار.

ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل، فمن ذلك: القصر المعروف بالعرس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم، والقصر المختار خمسة آلاف ألف درهم، والوحيد ألفي ألف درهم، والجعفري المحدث عشرة آلاف ألف درهم، والغريب عشرة آلاف ألف درهم، والشيدان عشرة آلاف ألف درهم، والبرج عشرة آلاف ألف درهم، والصبح خمسة آلاف ألف درهم، والمليح خمسة آلاف ألف درهم، وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم، والتل علوه وسفله خمسة آلاف ألف درهم، والجوسق في ميدان الصخر خمسمائة ألف درهم، والمسجد الجامع خمسة عشر ألف ألف درهم، وبركوان للمعتز عشرين ألف ألف درهم، والقلائد خمسين ألف دينار،

وجعل فيها أبنية بمائة ألف دينار، والغرد في دجلة ألف ألف درهم، والقصر بالمتوكلية وهو الذي يقال له الماحوزة خمسين ألف ألف درهم والبهو خمسة وعشرين ألف ألف درهم واللؤلؤة خمسة آلاف ألف درهم فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم.

وكان المعتصم والواثق والمتوكل إذا بنى أحدهم قصراً أو غيره أمَرَ الشعراء أن يعملوا فيه شعرا فمن ذلك قول علي بن الجهم في الجعفري الذي للمتوكل:

ما زلت أسمع أن الملو	ك تبني على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجل	ل يُقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإما	م رأَينا الخلافة في دارها
بدائع لم ترها فارس	ولا الروم في طول أعمارها
وللروم ما شيّد الأولون	وللفرس آثارهم أحرارها
وكنا نحس لها نخوة	فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتجّ المسلمين	على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيون	إذا ما تجلت لإبصارها
وقبة مُلك كأنّ النجو	م تضيء إليها بأسرارها
نظمن الفسافس نَظمَ الحليّ	لعون النساء وأبكارها
ولو أن سليمان أدت له	شياطينه بعد أحبارها
لأيقن أنّ بني هاشم	تقدمها فضل أخطارها

وقال الحسين بن الضحاك:

سر من رآ أسرّ من بغدادِ	فالْهُ عن بعض ذكرها المعتادِ
حبذا مسرح لها ليس يخلو	أبداً من طريدة وطرادِ
ورياض كأنما نشر الزه	ر عليها محبر الأبراد
واذكُر المشرف المطل من الت	لّ على الصادرين والورّادِ
وإذا روح الرعاء فلا تن	س رواعي فراقد الأولادِ

وله فيها وبفضلها على بغداد:

على سر من را والمصيف تحية	مجللة من مغرم بهواهما
ألا هل لمشتاق ببغداد رجعة	تقرب من ظليلهما وذراهما
محلان لقى الله خير عباده	عزيمةَ رُشدٍ فيهما فاصطفاهما
وقولا لبغداد إذا ما تنس	مت على أهل بغداد جعلتُ فداهما
أفي كل يوم شفت عيني بالقذى	حرورك حتى رابني ناظراهما

قال ياقوت: «ولم تزل كل يوم سرّ من رأى في صلاح وزيادة وعمارة منذ أيام المعتصم والواثق إلى آخر أيام المنتصر ابن المتوكل، فلما ولي المستعين وقويت شوكة الأتراك واستبدوا بالملك والتولية والعزل وانفسدت دولة بني العباس لم تزل سر من رأى في تناقص للاختلاف الواقع في الدولة بسبب العصبية التي كانت بيد أمراء الأتراك إلى أن كان آخر من انتقل إلى بغداد من الخلفاء وأقام بها وترك سر من رأى بالكلية المعتضد بالله أمير المؤمنين كما ذكرناه في التاج وخربت حتى لم يبق منها إلا موضع المشهد الذي تزعم الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرا وسائر ذلك الخراب يباب يستوحش الناظر إليها بعد أن لم

يكن في الأرض كلها أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع ملكاً منها فسبحان من لا يزول ولا يحول.

وذكر الحسن بن أحمد المهلبي في كتابه المسمى بالعزيزي قال: «وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد مادّ عليه من جانبيه دُور كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم إلا الأبواب والسقوف، فأما حيطانها فكالجدد، فما زلنا نسير إلى ما بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة فيها وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها، ثم سرنا بعد الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناءِ إلى نحو الظهر ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ.

وكان ابن المعتز مجتازاً بسامرا متأسفاً عليها وله كلام منثور ومنظوم في وصفها ولما استدبر أمرها جعلت تنقض وتحمل أنقاضها إلى بغداد ويعمر بها فقال ابن المعتز:

قد أقفرت سر من رأى	وما لشيءٍ دوامُ
فالنقضُ يُحمل منها	كأنها آجامُ
ماتت كما مات فيلٌ	تُسلُّ منه العظامُ

وكُتب على وجه حائط من حيطان سامراء الخراب:

حُكْم الضيوف بهذا الربع أنفذ من	حكم الخلائف آبائي على الأممِ
فكل ما فيه مبذول لطارقه	ولا ذمام به إلا على الحرمِ

وكتب عبد الله بن المعتز إلى بعض أخوانه يصف سر من رأى ويذكر خرابها ويذمّ بغداد وأهلها ويفضل سامراء: «كتبتُ إليك من بلدة قد أنهضَ الدهر سكانها وأقعدَ جدرانها، فشاهِدُ اليأس فيها ينطق وحبل الرجاء فيها يقصُر، فكأن عمرانها يطوى وكأن خرابها ينشر، وقد وُكِلت إلى الهجر نواحيها واستحث باقيها إلى فانيها، وقد تمزقت بأهلها الديار فما يجب فيها حق جوار فالظاعن فيها ممحو الأثر، والمقيم فيها على طرف سفر، نهاره أرجاف، وسروره أحلام ليس له زاد فيرحل ولا مرعى فيرتع، فحالُها تصف للعيون الشكوى، وتشير إلى ذم الدنيا، بعدما كانت بالمرأى القريب جنة

الأرض وقرار المُلك، تفيض بالجند أقطارها عليهم أردية السيوف وغلائل الحديد، كأن رماحهم قرون الوعول، ودروعهم زبد السيول، من خيل تأكل الأرض بحوافرها، وتمدّ بالنقع سائرها، وقد نشرت في وجوههم غرراً كأنها صحائف البرق وأمسكها تحجيل كأسورة اللجين ونوطت عذراً كالشنوف في جيش يتلقف الأعداء أوائله ولم ينهض أواخره، وقد صُبَّ عليه وقار الصبر، وهبَّت له روائح النصر، يصرفه مَلكٌ يملأ العين جمالاً، والقلوب جلالاً، لا تخفّ مخيلته، ولا تنقض مريرته، ولا يخطئ بسهم الرأي غرض الصواب، ولا يقطع بمطايا اللهو سفر الشباب، قابضاً بيد السياسة على أقطار مُلك لا ينتشر حبله، ولا يتشظى عصاه، ولا تطفى جمرته، في سِن شباب لم يجن مأثماً، وشيب لم يراهق هرماً، قد فرش مهاد عدْله، وخفض جناح رحمته، راجماً بالعواقب الظنون، لا يطيش عن قلب فاضل الحزم بعد العزم، ساعياً على الحق يعمل به، عارفاً بالله يقصد إليه، مقراً للحلم ويبذله، قادراً على العقاب ويعدل فيه، إذ الناس في دهر غافل قد اطمأنت بهم سيرة لينة الحواشي خشنة المرام تطير بها أجنحة السرور، ويهب فيها نسيم الحبور، فالأطراف على مسرة، والنظر إلى مبرة، قبل أن تخب مطايا الغيَر، وتسفر وجوه الحذر، ومازال الدهر ملياً بالنوائب، طارقاً بالعجائب، يؤمَن يومه، ويغدر غدره، على أنها وإنْ جفَت معشوقة السكنى، وحبيبة المثوى، كوكبها يقظان، وجوُّها عريان، وحصاها جوهر، ونسيمها معطّر، وترابها مسك أذفر، ويومها غداة، وليلها سحر، وطعامها هنيءٌ، وشرابها مريءٌ، وتاجرها مالك، وفقيرها فاتك، لا كبغدادكم الوسخة السماء، الومدة الهواء، جوها نار، وأرضها خبار، وماؤها حميم، وترابها سرجين، وحيطانها نزور، وتشرينها تموز، فكم من شمسها من محترق وفي ظلها من عرق، ضيقة الدار، قاسية الجوار، ساطعة الدخان، قليلة الضيفان، أهلها ذئاب، وكلامهم سباب، وسائلهم محروم، ومالهم مكتوم، لا يجوز إنفاقه، ولا يَحلّ خناقه، حشوشهم مسابل، وطُرُقُهم مزابل، وحيطانهم أخصاص، وبيوتهم أقفاص، ولكل مكروه أجل، وللبقاع دول، والدهر يسير بالمقيم، ويمزج البؤس بالنعيم، وبعد اللجاجة انتهاءٌ والهم إلى فرجة، ولكل سائلة قرار وبالله أستعين وهو محمود على كل حال.

غدت سر من را في العفاء فيالها	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزلِ
وأصبح أهلوها شبيهاً بحالها	لما نسجتهم من جنوب وشمألِ
إذا ما امرؤٌ منهم شكا سوء حاله	يقولون لا تهلك أسىً وتجمَّلِ

ويطول بنا المقال إذا أردنا استقصاء أسماء المدن العربية كلها من شواطئ بحر الظلمات في الغرب إلى شواطئ المحيط الهندي في الشرق قال البلخي: «ومن يحصي بناة المدن وواضعي القرى ومن يعلم مبادئ إنشائها إلا الله عز وجل، وهبنا أُخبرنا بمدن فارس على نحو ما نجد في كتبهم والمدن التي أُحدثت في الإسلام لقرب العهدة وجدة التاريخ، فمن لنا بمدن مصر والهند والروم والترك؟ وليس كل مدينة أو قرية مبنية منسوبة إلى بانيها لأنه قد تسمى المدينة باسم الباني أو باسم لها قبل حدوثها أو باسم ماء أو شجر أو شيءٍ ما.وقد يجوز أن يجتمع قوم ما بموضع من المواضع فيصير ذلك مدينة فهذا يبين لك أن كل مدينة لا يوجب بانياً لها قاصداً إليها إلى أن قال: والكوفة مصرَها سعد بن أبي وقاص وكان بها رَمْلٌ فسميت به ويقال لها الكوفان، والبصرة مصرها عتبة بن غزوان وسماها بحجارة بيض كانت في موضعها، وواسط بناها الحجّاج ويقال لذلك واسط القصب، ويقال بل توسّعت الكوفة والبصرة وبغداد سُميت باسم موضع كان قبلها ويقال لها الزوراء، ويقال (باغ) اسم صنم وسمتها الخلفاء مدينة السلام وأول من بناها أبو جعفر المنصور بنى بها قصر الخلد بناها في الجانب الغربي من دجلة وجعل حواليها قطائع لِحَشمه ومواليه وأتباعه كقطيعة الربيع والحربية وغيرها، ثم عمرت وتزايدت فلما ملكها المهدي جعل معسكره في الجانب الشرقي فسمي عسكر المهدي وتزايدت بالناس والبناء.

قال البلخي: فاعلم أن المدن تبنى على ثلاثة أشياء على الماء والكلأ والحطب فإذا فُقدت واحدة من هذه الثلاثة لم تبق. قال بعض الجغرافيين: مصرت البصرة على يد عتبة بن غزوان سنة أربع عشرة وعظم أمرها حتى سميت قبة الإسلام ولها نخيل متصلة من عبداس إلى عبدان نيف وخمسون فرسخاً. ثم بُنيت بعد ذلك واسط بناها الحجاج بن يوسف سنة ثمان وسبعين وهي جانبان بينهما جسر على دجلة طوله ستمائة وثمانون ذراعاً وفي الجانبين جامعان. ولما استخلف الله من بني العباس السفاح بنى مدينة قريبة من الكوفة وسماها الهاشمية ثم رحل عنها إلى الأنبار فعمرها وسكنها ولم يزل بها إلى أن مات. فلما ملك أخوه المنصور بنى على دجلة بغداد ويقال أن اسمها بك دار معناها دار العدل بالتركية كأنهم قالوا الحاكم العادل، وسميت مدينة السلام لأنها يسلَّم فيها على الخلفاء ولأنها على نهر دجلة نهر السلام وفي تسميتها بغداد وبغذاد وبغداذ وكان ابتداء بنائها في سنة خمس وأربعين ومائة وتم بناؤها في سنة تسع وأربعين ثم ضاقت بالجند والرعية فبنى المهدي ولد المنصور مدينة تجاهها سماها الرصافة سنة إحدى وخمسين.

وإليك الآن شذرة قليلة مما عثرنا عليه بالعرض من مدن العرب وأمصارهم فمنها شيراز وهي مدينة إسلامية بناها محمد بن أبي القاسم الثقفي على أثر بناء قديم، ومدينة قم كوّرها الرشيد وجعل لها اثنين وعشرين رستاقاً بنيت زمن الحجاج سنة ثلاث وثمانين، وكان مكانها تسع قرى فجمعت وصارت محالاً وكان اسم إحدى القرى كميدان فأسقطوا بعض الحروف للإيجاز والاختصار وأبدلوا الكاف قافاً.

والمنصورية في الهند مدينة بُنيت في صدر الإسلام وتُسمّى بالهندية تاميران كان موضعها غيضة يحيط بها خليج من نهر مهران. والحلة في العراق بناها سيد الدولة صدقة بن دبيس سنة خمس وأربعين وأربع مائة وتسمى الكوفة الصغرى لكثرة ما فيها من التشيع. وأردوبل وتسمى أردبيل في بلاد أذربيجان ومصرت أيام الرشيد وإنما سميت باسم أردبيل بن أرمينيا ومراغة بناها محمد بن مروان بن الحكم وكانت قبل مراغة لدوابه فسميت بذلك. ومرند بناها الأفشين على أثر بناءٍ قديم، ومزيد بناها مراد بن الضحاك ومن بلاد أرمينية مدينة شكور وكانت مدينة قديمة أخربتها الصناوردية ثم جُدّدت سنة أربعين ومائتين وسمّوها المتوكلية. ومن مدن الجزيرة مدينة أذرمة بناها الحسن بن عمر بن الخطاب التغلبي. وبنى المنصور إلى جانب مدينة الرقة قصبة ديار مضر مدينة سماها الرافقة سنة خمس وسبعين فخربت الأولى وبقي الاسمان واقعين على مدينة واحدة. ومن مدن حضرموت في اليمن مدينة الشحر ولم تكن بمدينة وكان الناس ينزلون منها في أخصاص فبنى الملك المظفر صاحب اليمن مدينة به حصينة بعد سنة سبعين وتسعمائة. وكذلك بلاد المهرة ومصرها ظفار بناها أحمد بن محمد وسماها الأحمدية في سنة عشرين وستمائة.

وجدد قتيبة بن مسلم سمرقند وأحاط بها سوراً دوره سبعون ألف ذراع وذلك سبعة عشر ميلاً ونصف ميل هو بالفرسخ نحو ستة فراسخ، ومدن بخارى كأرمينية وبيكند والطواويس بناها قتيبة بن مسلم أيضاً. ومن مدن خراسان الجبلية ذوات الكور العريضة والأعمال الفسيحة سرخس وبورجان وسامان وبيورد مدينة وزوزن وكومن بناها عبد الله بن طاهر. كما مدينة شهرستان من أعمال خراسان وبنى في إقليم مازندران ودهسيان ثغراً على طرف مغارة كما بنى يزيد بن المهلب سنة ثمانٍ وتسعين مدينة بكر آباد في ذاك الصقع نفسه.

وبنى عمرو بن العاص الفسطاط (مصر)، وبنى أحمد بن طولون القطايع، ولما ملك العبيديون مصر بنى جوهر مولى المعز مدينة فوق القطايع وسماها القاهرة. وفي أفريقية مدينة

المهدية بناها المهدي العبيدي سنة ست وثلاثمائة، ومدينة بونة بنيت بعد الخمسين وأربعمائة، ومدينة بجادته وهي مدينة حسنة البناء طيبة الفناء بناها الناصر بن علناس أحمد بني حماد سنة سبع وخمسين وأربع مائة. ومدينة وهران بنيت سنة تسعين ومائتين. ورباط الفتح في سلا من أعمال طنجة بناها عبد المؤمن، وصرح الفرَج بناه المنصور من بني عبد المؤمن. والسوس الأقصى يقال أن أول من عمره وأجرى فيه الأنهار عبد الرحمن بن مروان بن الحكم وفيه مدن كثيرة وقصبتها تامدلت مدينة سهلية جبلية مسورة من بناءِ عبد الله بن إدريس. ومن بلاد السوس مدينة إيغلي بانيها عبد الله بن إدريس أيضاً ومراكش بناها يوسف بن تاشفين الصنهاجي سنة 490، ويلي مدينة مراكش فاس وهي مدينتان: إحداهما عُدوة الأندلس بنيت سنة 292 والأخرى عُدوة القرويين بنيت سنة ثلاث وتسعين ومائة. وسوق حمزة بناها حمزة بن سليمان العلوي، وأشير بناها زيري، والمسيلة بناها محمد بن عبيد الله المهدي المنعوت بالقائم وسماها المحمودية وقلعة بني حماد بن زيري، والقيروان اختطها عقبة بن نافع، ومدينة بطليموس بالأندلس بناها عبد الرحمن بن مروان، ومدينة نطيلة بنيت أيام الحكم بن هشام والهارونية من أعمال الفاكية بناها هارون الرشيد.

وسلمية بالشام على سيف البرية بناها عبد الله بن صالح وعلي بن عبد الله بن عباس، وطرابلس المستجدة بعد طرابلس الشام بجيش المسلمين في مملكة الملك المنصور وسيف الدين قلاوون الصالحي بنيت في سفح ذيل من أذيال جبل لبنان بكورة من أكوار طرابلس، بُعدها عن طرابلس القديمة الخربة نحو من خمسة أميال على شاطئ نهر يجري إلى البحر وهي المدينة المعروفة اليوم البعيدة عن الميناء المعروفة بمدينة طرابلس الشام. والممصر لمدينة الطرسوس معاوية بن أبي سفيان في أيام عثمان بن عفان حين غزا قبرص، ومدينة عكا بناها عبد الملك بن مروان، ومرعش من بناء خالد بن الوليد وجددها مروان ابن الحكم ثم المنصور بعده وسميت الثغور لأن المتطوعين من أهل الحوزة كانوا يرابطون فيها ويغزون مدن الروم. وأذنة (أطنة) بناها الرشيد على نهر سيحان.

وطرسوس بنيت في أيام هارون الرشيد، والمصيصة بناها المنصور وعسكر مكرم نزلها مكرم بن مطرف اللخمي فصارت مدينة ونسبت إليه.

ومدينة الأقلام بأفريقية مدينة أحدثها آل إدريس، وسيله مدينة أحدثها علي ابن الأندلسي أحد خدم القائم وهي المرية من الأندلس محدثة، ومدينة الزهراء بناها عبد الرحمن بن محمد خط فيها

الأسواق كما قال ابن حوقل وابتنى الحمامات والخانات والقصور والمنتزهات واجتلب إلى ذلك بناء العامة وأمر منادية بالنداء إلى من أراد أن يبني داراً ويتخذ مسكناً بجوار السلطان فله أربعمائة درهم فتسارع الناس إلى العمارة فتكاثفت وتزايدوا فيها فكادت أن تتصل الأبنية بين قرطبة والزهراء.

هذا ما التقطناه في هذه العجالة ولعل بعض الباحثين يتوسعون في هذا الموضوع في رسالة على حدة يَذكرون فيها جميع ما أقامه العرب من الأمصار والقرى وأعمال العمران كالطرق والجسور والأنهار والترع وغير ذلك مما يفيد في تصور المدينة العربية ويدعو الأخلاف إلى التطريس على آثار الأسلاف.

مآكل العرب

الأطعمة في الأمم تابعة لحضارتها تكون بسيطة في الأمة البدوية ومركبة منوعة في الأمة الحضرية كما هي إلى السذاجة في الريف والتنوع في المدن. ولما كانت البداوة أصلاً والحضارة فرعاً وكانت القرى هي المعوّل عليها في حياة المدن كان الناس يُطعَمون في أيام خشونتهم ورفاهيتهم مما تنبت لهم الأرض من بقل وثمر وتنتج من مواشيهم من ألبان ولحوم وتقذف أجواؤهم وسهولهم وأجبلهم وبحيراتهم وأنهارهم وبحارهم من طيور وأسماك وصيود ولا يكادون يعدون ذلك بحال.

فأطعمة العرب في جاهليتها على النزر القليل الذي انتهى إلينا من أخبارها قبل الإسلام كانت إلى السذاجة والفطرة خصوصاً في البلاد التي هي إلى الإجداب أقرب منها إلى الإخصاب لقلة أمطارها وعصيان تربتها على الاستنبات. ونعني بالعرب هنا سكان جزيرة العرب من تهامة والحجاز ونجد والعروض واليمن وكلها قاحلة إلا بعض بلاد اليمن التي سميت الخضراء لكثرة أشجارها وثمارها وزروعها وفي بعض كورها ما هو كبلاد الشام باعتدال أهويته وزكاء تربته. قال الأصمعي جزيرة العرب أربعة أقسام اليمن ونجد والحجاز والغور وهي تهامة، فمن جزيرة العرب الحجاز وما جمعه وتهامة واليمن وسبأ والأحقاف واليمامة والشجر وهجَر وعمان والطائف ونجران والحجر وديار ثمود والبئر المعطلة والقصر المشيد وإرم ذات العماد وأصحاب الأخدود وديار كندة وجبال طيء وما بين ذلك.

ومتى أطلقنا العرب هنا فإنا نريد بهم سكان الحجاز ونجد وتهامة وهم صميم العرب العاربة ومن بلادهم انبعثت النبوة وفي الحجاز قريش أشرف القبائل ومن قريش بني هاشم أكثر من كانوا يطعِمون الطعام ويقرون الضعيف وكنا نود أن يتناول بحثنا أهل كل قبيلة وأهل كل كورة من كور العرب ولكن ليس في الكتب التي بين أيدينا ما يدعونا إلى التوسع في القول.

وغاية ما اتصل بنا علمه أن الإسلام وإن أصلح من نفوس العرب فإن طبيعة بلادها لم تتغير منذ قرون ولذلك كان بعض العرب يأكل اليربوع والضب والجراد والأرنب ويعدّها نعمة وبسطة في العيش حتى قال مديني لأعرابي: أي شيء تدَعون وأي شيء تأكلون. قال: نأكل ما دَبّ ودرَج إلا أمّ حبين فقال المديني: لتهنَ أمُّ حبين العافية. ولذلك كنت ترى العرب ولا تزال تراهم إذا أصابتهم سنة مجاعة وعالة على جيرانهم من سكان الشام والحيرة واليمن وقد عيّرهم بذلك ملك الفرس لما جاؤوه فاتحين يوم القادسية وذكر لهم كيف كان يوسع عليهم عندما كانوا ينزلون بلاده منتجعين مستطعمين.

وقول المديني أن العرب يأكلون ما دبّ ودرَج لا يؤخذ منه أنهم كلهم لأن منهم من كانوا يتقززون من أكثر الدويبات والصيد قال الجاحظ: ومن الطعام المذموم الخزيرة التي تُعاب بأكلها مجاشع بن دارم وكَنَحو السخينة التي تعاب بها قريش والسخينة كانت من طعام قريش وتهجى الأنصار وعبد القيس وعذرة وكل من كان يقرب النخل بأكل التمر وتهجى أسد بأكل الكلاب وبأكل لحوم الناس والعرب إذا وجدت رجلاً من القبيلة قد أتى قبيحاً ألزمت ذلك القبيلة كلها كما تمدح القبيلة بفِعلٍ جميل وإن لم يكن ذلك إلا بواحد منهم فتهجو قريشاً بالسخينة وعبد القيس بالتمر وذلك عامّ في الحَيَّين جميعاً وهما من صالح الأغذية والأقوات كما تهجو بأكل الكلاب والناس وإن كان ذلك إنما كان رجلاً واحداً فلعلك إذا أردت التحصيل تجده معذوراً وتهجى أسد وهذيل والعنبر وباهلة بأكل لحوم الناس. وقال قد يصيب القوم في باديتهم ومواضعهم من الجهد ما لم يُسمع به في أمّة من الأمم ولا في ناحية من النواحي وإن أحدهم ليجوع حتى يشد على بطنه الحجارة وحتى يعتصم بشدة معاقد الإزار وينزع عمامته من رأسه فيشد بها بطنه وإنما عمامته تاجه والإعرابي يجد في رأسه من البرد إذا كان حاسراً ما لا يجده أحد لطول ملازمته العمامة ولكثرة طيّها وتضاعف أثنائها ولربما اعتمّ بعمامتين ولربما كانت قلنسوة خدرية.

ومهما يكن فإن العقل يحكم بأن عرب الشام كغسان كانوا لمجاورتهم للروم يأخذون عنهم «كل شيء طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية» أكثر من عرب الحجاز وإنه كان لعرب الحيرة من المطاعم ما ليس لأهل نجد لقرب بلاد الأولى من بلاد الأكاسرة وأخذهم عنهم «رفاغة العيش والناعم من الطعام» ومطاعم العرب في جملتها لا تتعدى اللحوم والالبان والبر والتمر. والإبل عندهم أفضل من عامة الذبائح إذا ضاف أحداً رجلاً من أهل السعة ولم ينحر له عدَّ ذلك إهانة.

نزل عمرو بن معدي كرب برجل من بني المغيرة وهم أكثر قريش طعاماً فأتاه بما حضر وقد كان فيما أتاه به فضل فقال لعمر بن الخطاب وهم أخواله: لئام بني المغيرة يا أمير المؤمنين قال: وكيف؟. قال نزلت بهم فما قروني غير قريين وكعب ثور قال عمر: «إن ذلك لشبعة». وكم قد رأينا من الأعراب نزل برب صرمة فأتاه بلبن وتمر وحيس وخبز وسمن سلاء فبات ليلته ثم أصبح يهجوه كيف لم ينحر له وهو لا يعرف بعيراً من ذوده أو من صرمته ولو نحر هذا البائس لكل كلب مرّ به بعيراً من مخافة لسانه لما دار الأسبوع إلا وهو يتعرض للسابلة يتكفف الناس ويسألهم العلق.

وإذا اعتبرت أسماء الأطعمة عندهم تجدها دائرة على تلك المواد الأولية ومتى رأيت تكرر المعنى الواحد بألفاظ كثيرة فمنشأ ذلك والله أعلم تعدد لغات قبائل العرب لأن ما عرفَته قبيلة باسم تعرفه أخرى بآخر. فمن أطعمتهم (الوشيقة) وهو لحم يغلى إغلاءة ثم يرفع و(الصفيف) مثله ويقال هو القديد قال ابن السكيت: إذا شُرّح اللحم وقُدّد طوالاً فهو القديد فإذا شُرّح عراضاً فهو الصفيف والوشيق يجمعهما إذا جفا (والتثمير) أن يقطّع صغاراً ثم يجفّف و(الوزيم) المجفف و(العفير) لحم يجفف على الرمل في الشمس و(الجبجبة) كرش البعير يُغسل بالماء والملح ثم يُشرّح أعلاه ثم ينفخونها ويحشونها بالشجير أو بعر الإبل اليابس ثم تُعلّق حتى تضربها الريح وتُجفّف ثم يأخذون اللحم فيقددونه ويجعلونه على حبال حتى يذبل ذبله ويذهب ماؤه وكذلك يفعلون بالشحم ثم يطبخون لحمها بشحمها جميعاً ثم يفرغونه في القصاع حتى يبرد ويُصفون الإهالة على حدة فإذا برد كثبوا اللحم والشحم في الجبجبة وصبوا عليه الودك ثم برّدوه حتى يجمد ويصير كالحَجر ثم يُلقى في جوالق (أكياس) ويُستر من الحر أن يفسد فيأكلون منه جامداً ومن شاء أذاب منه على القرص.

و(الأءرة) لحم يُطبخ في كرش و(الهلام) طعام يُتخذ من لحم عجلة بجلدها. و(الشبارق) الألوان من اللحم المطبوخة فارسي معرب. و(الخضيعة) طعام يُتّخذ بالشام و(القلية) مرقة تُتّخذ من أكباد الجزور ولحومها. و(الحنيذ) الشواء الذي لم يبالغ في نضجه وقد حنذت أحنذ حنذاً قال ابن السكيت: الحنيذ أن يؤخذ اللحم فيقطع أعضاء ويُنصب له صفيح الحجارة فيقابَل يكون ارتفاعه ذراعاً وعرضه أكثر من ذراعين في مثلهما ويُجعل له بابان ثم يوقَد في الصفائح بالحطب فإذا حَميَت واشتد حرها وذهب كل دخان فيها ولهب أُدخل فيه اللحم وأغلق البابان بصفيحتين قد كانت قدرتا للبابين ثم ضربتا بالطين وفرث الشاة وأدفئت شديداً بالتراب فيُترك في النار ساعة ثم يخرج كأنه البسر قد تبرأ العظم من اللحم من شدة نضجه. و(الحند) أيضاً أن يأخذ الرَجل الشاة فيقطعها ثم يجعلها في كرشها ويلقي مع كل قطعة من الكرش رضفة وربما جعل في الكرش قدحاً من لبن

حامض أو ماء ليكون أسلم للكرش من أن تنقد ثم يخلها بخلال وقد حفر لها بؤرة أحماها بها فيلقي الكرش في البؤرة ويغطيها ساعة ثم يخرجها وقد أخذت من النضج حاجتها. و(شواء ملعوس) إذا أُكل بالسمن وهو العلس و(الصلائق) اللحم المشوي المنضج وقيل الرقاق من الخبز وفي حديث عمر رضي الله عنه: لو شئت أمرت بصلائق وصناب.

قال ابن سيده في باب ما يعالج من الطعام ويخلط نقلاً عن أبي علي أن أكثر هذا الباب على فعيلة أما بناؤهم على هذا البناء فلأنه في معنى مفعول ألا ترى أن البسيسة في معنى مبسوسة وكلها مطبوخ ملتوت أو ملبون أو متمور أو مسمون أو معسول والجنس الغالب العام له قولنا مخلوط ودخلت الهاء للمبالغة. وذلك مثل (الضبيبة) وهي سمن ورُبٌّ يُجعل للصبي في العكة يطعَمه يقال ضببوا لصبيكم. (والربيكة) شيء يطبخ من بر وتمر وقد ربكته أربكه ربكاً ومنه المثل غرثان فأربكوا له. قال ابن السكيت الربيكة تكر بعجن بسمن وأقط فيؤكل وربما صب عليه الماء فشُرب شرباً. و(البسيسة) كل شيء خلطته بغيره مثل السويق بالأقط ثم تبلّه بالسمن أو الرُبّ ويقول ابن السكيت أن البسيسة الدقيق أو السويق يلت بالسمن أو الزبد ثم يؤكل ولا يطبخ وهو أشد من اللت بللاً والأقط يُدق ويُطحن ثم يلبك بالسمن المختلط بالرُبّ و(البكيلة) السويق والتمر يؤكلان في إناء واحد وقد بلّا باللَبن وقد بكل الدقيق بالسويق خلطه. و(الغثيمة والغبيثة) طعام يُطبخ ويُجعل فيه جراد و(الفريقة) شيء يعمل من البر ويُخلط فيه أشياء للنفساء و(الفئرة والفؤارة) حلّبة وتَمْر يُطبخ للمريض أو النفساء و(الرغيدة) اللبن الحليب يغلى ثم يذرّ عليه الدقيق حتى يختلط فيُلعق لعقاً و(الحريرة) الحساء من الدسم الدقيق و(السريطاء) حساء شبيه بالحريرة أو نحوها و(الأصية) طعام كالحساء يُصنع بالتمر وقد يقال له الرغيغة و(العكيس) الدقيق يُصب عليه الماء ثم يُشرب و(الوجيئة) التمر يُدق حتى يَخرج نواه ثم يُبلّ بلبَن أو سَمْن حتى يتدِن ويلزم بعضه بعضاً فيؤكل والوجيئة أيضاً جراد يُدقّ ثم يُلتّ بسمْن أو بزيت فيؤكَل و(الخزيرة أو الخزير) الحساء من الدسم أو الدقيق والخزيرة مرقة تُصَفّى بُلالة النخالة ثم تُطبخ تسمّيهِ الفُرسُ سيوساب والخزيرة أن تُنصب القدر بلحم يُقطّع صغاراً على ماء كثير فإذا نضج ذُرَّ عليه الدقيق فإن لم يكن فيها لحم فهي عصيدة ولا تكون الخزيرة إلا وفيها لحم و(العصيدة) السمن يُطبخ بالتمر و(الرهيدة) برٌ يدق وُيصبّ عليه الماء و(الوديكة) دقيق يساط بشحم شبه الخزيرة و(اللهيدة) الرخوة من العصائد ليست بحساء يُحسى ولا غليظة فتُلقم و(الخطيفة) الدقيق يُذرّعلى اللبن ثم يطبَخ فيلعقه الناس لعقاً و(اللفيتة) العصيدة المغلّظة من لفتُّ الشيء ألفته لفتاً إذا لويته و(النحيرة) ماء وطحين يطبخ وقيل هو لبن حليب يجعل

عليه سمن و(الحسيلة) حشف النخل إذا لم يكن حلا بسره فييبسونه فإذا ضرب أنفتَّ عن نواه ويدفّونه باللبن ويمردون له تمراً حتى يحلّيه فيأكلونه لقيماً وربما ودِن بالماء و(النهيدة) أن يغلى لباب الهبيد وهو حب الحنظل فإذا بلغ أناه من النضج والكثافة ذرت عليه قميحة من دقيق ثم تحُلّ و(الفهيرة) مخض يبقى فيه الرّضف فإذا ذُرَّ عليه الدقيق وسيطَ به ثم أُكِل و(السخينة) التي ارتفعت عن الحساء وثقلت عن أن تحسى وهي دون العصيدة و(النفيتة والحريقة) أن يذر الدقيق على ماء أو لبن حليب حتى ينفتّ وتتجبس من نفتها وهي أغلظ من السخينة يتوسع فيها صاحب العيال إذا غلبه الدهر و(الخضيمة) حنطة تؤخذ فتنقّى وتطيّب ثم تُجعل في القدر ويصبّ عليها الماء فتُطبخ حتى تنضج و(الوهية) جراد يُطبخ ثم يُجفّف ثم يُدقّ فيُقمّح أو يُبكّل ويُخلط بدسم و(الصحيرة) من المحض إذا أسخن يقال اصحروا لنا لبناً وربما جُعل فيه دقيق وربما جُعل فيه سمن إذا سخن فيه الحليب خاصة حتى يحترق فهو صحيرة وقد صحرته أصحره صحراً و(الغميم) اللبن يُسخّن حتى يغلظ و(القطيبة) لبن المعزى والضأن و(الأخينخة) دقيق يُصبّ عليه ماء بر بزيت أو سمن ويُشرب ولا يكون إلا رقيقاً و(الوظيئة) تَمْرٌ يُخرج نواه ويُعجن بلبن و(العجة) دقيق يُعجن بسمْن ثم يشوى و(الوليفة) طعام يُتخذ من دقيق وسمن ولبن و(اللوقة) زبد ورطب و(الألوقة) كل ما لين من الطعام وفي الحديث لا آكل إلا ما لوَّق لي. و(الرهية) برّ يُطحن بين حجرين ويُصب عليه لبن و(الحيس) تمر وأقط وسمن و(الغذيرة) دقيق يُحلب عليه لبن ويحمّى بالرضف و(المجيع) التمر واللبن و(الصعقل) التمر اليابس يُنقع في اللبن الحليب و(القشيمة والقميشة) هبيد يُحلب عليه لبن و(الوضيعة) حنطة تُدقّ ثم يُصبّ عليها سمْن فتؤكل و(القفيخة) طعام من تمر وإهالة و(البغيث) الطعام المخلوط بالشعير و(الشقدة والقشدة) حشيشة كثيرة الإهالة واللبن يُطبخ مع دقيق وأشياء تؤكل و(الدليك) طعام يُتّخذ من الزبد واللبن شبه اللبن.

إذا أخذ الحليب فأنقع فيه تمر برنيّ فهو (كديراء) و(الرض) التمر يدق فينقّى عجمه ويلقى في المحض و(الوغيرة) اللبن محضاً يُسخّن حتى ينضج وربما جُعل فيه السَمْن. وفي لغة الكلبيين الإيغار أن تسخن الحجارة ثم تلقى في الماء لتسخنه وفي اللبن أيضاً لينعقد ويطيب و(الحليجة) عصارة نحي أو لبن أُنقِع فيه تَمر و(غنية) هي السمن على المحض و(الدبوس) خلاص التمر يلقى في مسلا السمن فيذوب فيه وهو مَطيبة للسمن و(الرضيف) اللبن يُصب على الرضف وهي حجارة تحمّى فيوغر بها اللبن. و(الحميمة) المحض يسخّن وقد حممته وأحممته. مشّ الشيء يمشه مشاً إذا دافه في ماءٍ حتى يذوب. و(العجال والعجول) تَمْرٌ يُعجن بسويق و(العمص) ضرب من الطعام تقول

عمصت العامص وأمصت الآمص وهي كلمة تجري على ألسنة العامة وليست فصيحة يعنون الخاميز وربما قالوا العاميص و(العويثة) قرص يعالَج من البقلة الحمقاء بزيت و(العلهز) وبر مخلوط بدماء الحلم كان يؤكل في الجدب و(المجدوح) دم يخلط بغيره كان يؤكل في الجاهلية وأصله من الجدح والتجديح وهو الخوض بالمجدح وهي خشبة في رأسها خشبتان معترضتان و(الخردق) طعام يُعمل شبيه الحساء والخزيرة و(الوزين) حَبّ الحنظل المطحون يُبله باللبن فيؤكل و(الفرني) واحدته فرنية وهي خبزة مسلكة مصغنة تسوى ثم تروى سمناً ولبناً وسكراً قال ابن سيده وأهل الشام يتخذون الخبزة الفرنية على صنعة كير الزجاجين يخبزون فيه الفرنية ويسمون ذلك المخبز فرناً و(الطعام مبروت) مصنوع بالمبرت وهو السكر الطبرزد و(البهط) فارسي وهو الأرُزّ يُطبخ باللبن والسمن خاصة واستعملته العرب تقول بهطة طيبة و(سويق مقنود ومقند) مخلوط بالقند والقنديد وهو عصير قصب السكر و(البريقة) وجمعها برائق وهي التباريق وهي شيء قليل من الدسم ولم يسفسفوه أي لم يوسعوه دسماً. و(المشنق) العجين الذي يُقطّع ويُعمل بالزيت واسم كل قطعة منه فرزدقة وجمعه فرزدق (وعامة أهل الشام يقولون الآن جردقة وجرادق) و(الفرفور والفرافر والفرافل) سويق يُتّخذ من ثمر الينبوت و(الحلواء) من الطعام ما عولج بحلاوة يمد ويقصر ومنها الفالوذ والفالوذق وهو فارسي معرب زعم الفارسي أن معناه حافظ للدماغ بالفارسية وهو الفالوذج والطائفة منه فالوذجة وهو الصفرق. و(القبيطي) الناطف و(اللمص) كالفوذ معرَّب ولا حلاوة له يأكله الصبيان بالبصرة بالدبس و(الكامخ) من الأدم منهم من خصصه بالمخللات التي تستعمل لتشهي الطعام و(الصير والصحناءة) ضربان من الكامخ وفي القاموس والصحناء والصحناة ويمدان ويكسران أدام يُتّخذ من السمك الصغار مُشَهٍّ مصلح للمعدة قال في التاج الصحناة فارسية تسميها العرب الصير وقال ابن الأثير الصير والصحناة فارسيتان و(الصير) السميكات المملوحة تعمل منها الصحناة ومن أطعمتهم (الدرامك) وهي الحواري أي الدقيق الخالص قال زياد بن فياض:

فأطعِمها شحماً ولحماً ودرمكاً ولم يثننا عنه النسيم الحنادسُ

ومن مآكلهم (المضيرة) مريقة تطبخ باللبن المضير أي الحامض وهي مثل اللبنية المعروفة في بلاد الشام عقَدَ لها البديع مقامة ولعنها أبو الفتح الإسكندري عندما دعاه وأصحابه بعضُ تجّار البصرة فرفعوها عن الخوان مجاراة له: «فارتفعت لها الأفواه وتلمّظت لها الشفاه واتّقدت لها الأكباد ومضى في أثرها الفؤاد» و(السكباج) معرّبة كما في التاج عن سركة باجة وهو لحم يُطبخ بِخَلّ مثل

(السكرجات) وهي التوابل والسكرجة قصاع يؤكل فيها صغار وليست بعربية وهي كبرى وصغرى وفي حديث أنس: لا آكل في سكرجة ومعناه أن العرب كانت تستعملها في الكوامخ وأشباهها من الجوارش على الموائد حول الأطعمة للتشهي والهضم فأخبر أن النبي (ص) لم يأكل على هذه الصفة. ومنها (الفانيد) قال في التاج ضرب من الحلواء معرب بانيد و(الهلياثا) وردت في كلام الجاحظ فقال: إذا أطعَمتَهم اليوم البرني أطعمتهم غداً السكر وبعد غد الهلياثا. والغالب أن الهلياثا طعام ثمين عندهم. و(الطفيشل) كسميذع نوع من المرق و(الهريسة والفجلية والكرنبية) ألوان ولعل أسماء البقول المطبوخة تسمى بالاسم الذي صنعت منه مثل الباقلاء والقرع والفول والملفوف والسلق وغيرها مما كان معروفاً للعرب وينبت في بعض بلادهم.

سئل بعضهم عن حظوظ البلدان في الطعام وما قسم لكل قوم منه فقال ذهَبَت الروم بالجشم والحشو وذهبت فارس بالبارد والحلو وقال عمر لفارس الشبارقُ والحموضُ فقال دوسر المديني: لها الهرائس والقلايا ولأهل البدو اللباء والسلاء والجراد والكمأة والخبزة في الرائب والتمر بالزبد وقال الشاعر:

ألا ليت خبزاً قد تسربل رائبا   وخيلاً من البرنـيّ فرسانها الزبدُ

ولهم البرمة والخلاصة والحيس والوطيئة. وقد علم بهذا أن الحلويات عند العرب ما يعملونه بالدقيق والتمر ويدخل أكثرها الدبس أو العسل أو السُكّر وهذا كان نادراً في الجملة عندهم لأنه يأتيهم من فارس كما دل عليه اسمه عندهم إذ أخذوا عن جيرانهم الاسم ونقلوا المسمّى. ويحكى أن عبد الله بن جدعان أحد اشراف قريش ذهب مرة إلى كسرى فأطعمه الفالوذج فاستطابه وسأل كيف يصنع فقيل له أنه لباب البر يلبك بالعسل فابتاع غلاماً يصنعه له ورجع إلى مكة وصنع الفالوذج ودعا إليها أصحابه وممن أكلها أمية بن أبي الصلت فقال يمدحه:

لكل قبيلة رأس وهادي   وأنت الرأي تقدم كل هادي

له داع بمكة مشمعل   وآخر فوق دارته ينادي

إلى رُدُح من الشيزى ملاءٍ   لباب البر يلبك بالشهادِ

قال الجاحظ ومن اشرف ما عرفوه من الطعام ولم يطعم الناس أحد منهم ذلك الطعام إلا عبد الله بن جدعان وهو الفالوذق.

هكذا كانت الأطعمة في الجاهلية وأما في الإسلام فكان فيها في أخبار أهل الصدر الأول وخصوصاً في أخبار أبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز من الزهد والتقشف ما يَعجب منه كل من عرف أنهم فتحت لهم كنوز الأرض فعفوا عنها. ولما اشتدت حاجة عمر بن الخطاب أراد بعض الصحابة ومنهم عثمان وعلي وطلحة والزبير أن يزيدوه في رزقه فعزموا أن يأتوا حفصة ويسألوها ويستكتموها فدخلوا عليها وأمروها أن تخبر بالخبر عن نفر ولا تسمي له أحداً إلا أن يَقبل وخرجوا من عندها فلقيت عمر في ذلك فعرفت الغضب في وجهه وقال: من هؤلاء؟ قالت: لا سبيل إلى علمهم حتى أعلم رأيك. فقال: لو علمت من هم لسوّءت وجوههم أنت بيني وبينهم. أنشدك الله ما أفضل ما اقتنى رسول الله؟ قالت ثوبين ممشقين كان يلبسهما للوفد ويخطب فيهما للجمع قال: فأي الطعام ناله عندكِ أرفع؟ فقالت: خبزنا خبزة شعير نصيبنا عليها وهي حارة أسفل عكة لنا فجعلناها هشة دسمة فأكل منها وتطعم منها استطابة لها قال: فأي مبسط كان يبسطه عندك كان أوطأ؟ قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فإذا كان الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال: يا حفصة فأبلغيهم عني أن رسول الله قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية وإني قدّرت فوالله لأضعن الفضول مواضعها ولأتبلغن بالترجية وإنما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول وقد تزود زاداً فبلغ ثم اتبعه الآخر فسلك طريقه فأفضى إليه ثم أتبعه الثالث فإن لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وكان معهما وإن سلك غير طريقهما لم يجامعهما.

ولقد كان عمر بن الخطاب يشدد على عماله حتى لا يسترسلوا في التنعم بالأطايب فتقسى قلوبهم ويكونوا قدوة في الترف للرعية قال الربيع بن زيادة الحارثي: كنت عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً قال: فلما قدمنا أتيت يرفأ فقلت يا يرفأ مسترشد وابن سبيل أي الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله؟ فأومأ إليّ بالخشونة فاتّخذتُ خفين مطارقين ولثت عمامتي على رأسي فدخلت على عمر فصففنا بين يديه فصعد فينا وصوّب فلم تأخذ عينه أحداً غيري فدعاني فقال من أنت؟ قلت: الربيع بن زياد الحارثي قال: ما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين. قال: كم تُرزق؟ قلت: ألفاً. قال كثير فما تصنع به؟ قلت: أتقوّت منه شيئاً وأعود على أقارب لي فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين قال: فلا بأس ارجع إلى موضعك. فرجعت إلى موضعي في الصف فصعد فينا

وصوّب فلم تقع عينه إلا عليّ فدعاني فقال: كم سنّك قالت: خمس وأربعون سنة قال: الآن حين استحكمت ثم دعا بالطعام واصحابي حديث أمرهم بلين العيش وقد تجوعت له فأتى بخبز وأكسار بعير فجعل أصحابي يعافون ذلك وجعلت آكل فأجيد فجعلت أنظر إليه يلحظني من بينهم ثم سبقت مني كلمة تمنيت أني سخت في الأرض فقلت: يا أمير المؤمنين إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى طعام ألين من هذا فزجرني ثم قال: كيف قلت فقال: أقول يا أمير المؤمنين أن تنظر إلى قوتك من الطحين فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم ويطبخ لك اللحم كذلك فتؤتى بالخبز ليناً واللحم غريضاً فسكن من غربه وقال: أههنا غرت قلت نعم: فقال يا ربيع أنا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب ولكني رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم فقال: أذْهبتُم طيباتكم في حياتكم الدنيا، ثم أمر أبا موسى بإقراري وأن يُستبدل بأصحابي.

نعم لو أراد عمر أن يملأ داره من هذه الطيبات التي عدها وهي أتقن شيء في نظره وأغلاه لما تَعذّر عليه بعد أن فتح المسلمون فارس والشام في عهده ولكن نفسه العظيمة أبت إلا التقشف ومثله بعض عماله حتى أن أبا عبيدة لما هزم الفرس في كسكر من أعمالهم جمعَ الغنائم فرأى من الأطعمة شيئاً عظيماً فبعث بمن يليه من العرب فاقتسموا خزائنها وجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخمسه لعُمر وكتبوا أن الله أطعمنا مطاعم كانت الأكاسرة يحمونها وأحببنا أن تروها ولتذكروا إنعام الله وأفضاله. ثم أن بعض الفرس حملوا إلى أبي عبيد بآنية فيها أنواع أطعمة فارس والألوان والأخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقرى لك فقال: أأكرمتم الجند وقريتوهم مثله؟ قالوا: لم يتيسر ونحن فاعلون قالوا فرده وقال: لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيدة إن صحب قوماً من بلاده أهرقوا دماءهم دونه فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم إلا مثل ما يأكل أوساطهم. قال زياد بن حنظلة في فتح عمر بن الخطاب لإيلياء من أبيات:

وألقت إليه الشام أفلاذ بطنها   وعيشاً خصيباً ما تعد مآكله

وبذلك عرفتَ أن معظم الأطعمة الشهية فارسية أو رومية استعملها العرب في البلاد التي نزلوها ومنها ما عرّبوه ومنها ما أبقوه على حاله ولكل بلد خصائصه في مآكله ومن تعمّدَ استقصاءها يضطر بعد البحث الشديد إلى وضع مصنَّفٍ فيها يكون من أنفع الدروس الصحية والاجتماعية لا محالة. ومن المجالس الغريبة المجلس الذي عقده المستكفي بالله ليتذاكر مع ندمائه أنواع الأطعمة وما قال الناس في ذلك منظوماً وقد أورد المسعودي في مروج الذهب هذه القصائد

ومنها قصيدة لابن المعتز يصف سلة سكارج كوامخ وأخرى لكشاجم في صفة سلة نوادر وثالثة لابن الرومي في صفة وسط ورابع لإسحاق الموصلي في صفة سنبوسج وأخرى لكشاجم في وصف هليون وغيرها للحافظ الدمشقي في وصف إدريسة وغيرها في وصف المضيرة ولغيره قصيدة في جوزابة.

ومن القصائد التي ورد فيها ذكر بعض الأطعمة الدمشقية حوالي القرن الرابع للهجرة قصيدة أبي القاسم الحسين بن الحسين بن واسانه بن محمد المعروف بالواساني الذي كان في زمانه كما قال الثعالبي في اليتيمة كابن الرومي في أوانه وصف ما جرى عليه في الدعوة التي عملها في قرية جمرايا من أعمال دمشق وقد أخذها صاحب اليتيمة برمتها: فقال أنه أحسنَ فيها غاية الإحسان وأبان فيها عن مغزاه أحسن بيان وتصرّفَ فيها وأطال وأمكنه القول فقال وإذا تخلّص الشاعر عن الإطالة والوصف هذا التخلص وسلم مما يؤديه إلى التكلف والتلصص فهو الذي لا يُدركُ غوره ولا يُخاض بحره.

الصنائع الإسلامية

نشرَت مجلة العالم الإسلامي الفرنسوية فصلاً مهمّاً للمسيو كليمان هوار من علماء المشرقيات في الأدوار التي تقلّبَت على الصنائع الإسلامية قال: أصدرَ كل من المسيو سالادين والمسيو ميجون مختصراً في الصنائع الإسلامية وقع في مجلدين ضخمين أحدهما في الهندسة الإسلامية والآخر في فن التصوير والنقش. ولقد لَفت أنظار الناس معرضُ الصنائع الإسلامية الذي أقيم في قسم مرسان سنة 1903 والمعرض الذي وافق وقته زمن انعقاد مؤتمر المستشرقين الدولي في الجزائر سنة 1905 لأعلاق الصنائع الإسلامية التي كانت حتى الآن مزهوداً فيها، اللهم إلا عند بعض الغلاة في جَمعها ممن حصلوا على مجاميع بديعة منها. ففي البحث في هذا الموضوع تتجلى لنا القرون الوسطى في الشرق وتحيا أمامنا على مِثل ما كانت عليه. وما من أحد يصدّق اليوم بأن العاديات القديمة تستحق إعجاب أرباب الصنائع والمولعين في اقتنائها فقط، بل أن ارتقاء فن الآثار ارتقاءً خارقاً للعادة بفضل الاكتشافات المدهشة في السنين الأخيرة والبحث في آثار القرون الوسطى اليونانية والغربية قد وجّه أنظار المتعلمين. فمن الواجب من ثم أن يُجعل حظ عظيم من البحث للقرون الوسطى الإسلامية لأنها من أجمل الأدوار التي يتأتى للإنسانية أن تفاخر بها وكانت مراكز الحضارة التي أنشأتها قديماً تلك المدنية في آسيا حلقة ضرورية لنا تربط أوروبا بالشرق بل تقرّب بين القرون الحديثة والقرون القديمة وتصل عمران البحر المتوسط بتمدن آسيا العليا.

إن درس المصانع المصورة اليوم هو من المتممات الضرورية للتاريخ كما كانت الجغرافية ولا تزال كذلك، فدرسها نافع للنظر في الآثار القديمة التي عرفناها منذ القدم كما هو ألزم للوقوف على حال القرون الوسطى التي شرع بالبحث فيها منذ حين ولا سيما في ما له علاقة بالشرق مما هو موضوع الأبحاث الأخيرة وقبل أن يُبدأ بها لم يكد يعرف عنها شيء. وقد جعل المؤلفان النبيهان المشار إليهما من التصوير الشمسي أكبر مساعد لهما في كتابهما الوجيز فجاء الأول من نوعه وكان من هذين المجلدين مجموعة تصاوير إذا فتحهما المرء تتمثل لعينيه مصانع الشرق وشؤونه عياناً إن

لم يكن رآها من قبل ويتذكرها بأعيانها إذا كان أتيح له أنْ متّع نظره فيها ذات يوم. سهلت أسباب التنقل وأصبحت قريبة المنال فغدت الأستانة والقاهرة والهند غير بعيدة المزار كما كانت. وربما غدت كذلك طهران وأصفهان عما قريب ولذلك جاء الزمن الذي تعرض فيه على الجمهور في صورة كتاب مجموع الأطراف زبدة ما يعرف عن ارتقاء الصنائع وترتيب المصانع الإسلامية.

لم يتأت والإسلام في مبدأ ظهوره وشعشعته الأولى محصور في حدود شبه جزيرة العرب ولم ينتشر بعد في البلاد المجاورة أن ينشَأ شيء من الصنائع في تلك الأصقاع المقفرة التي تطوفها العرب الرحّالة على قلة مدنها وبلدانها ويقضي فيها التجار عيشة بسيطة خالية عن أبهة الحضارة. وكان المعبد العظيم في الحجاز عبارة عن مكعب من الصخر خالٍ من الزينة وقد بقي زمناً طويلاً بدون سقف ثم غطّيَ بسقف من الخشب على يد عامل من القبط نجا من سفينة يونانية غرقت فألقته الأقدار في بلاد العرب وجذبته مكة إليها لأحوال غير معلومة. وكانت القوافل عند عودتها من سورية وقد سرحت الطرف في المصانع العظيمة فيها على العهد الإمبراطوري تقص أحاديث عجيبة مما رأت فأشربت نفوس الشعب تلك القصص، وكان منها أن أنشؤوا في صحاري شمالي بلاد اليمن جنات النعيم وهي إرم ذات العماد الغريبة وقد بُنيت في غالب الظن على مثال دمشق وتدمر وبعلبك وكانت العرب الرحالة ترى أن القبور التي نحتها في الصخر في مدائن صالح جماعة من المستعمرين الآراميين في صميم بلاد العرب أنها بيوت الثموديين وذكرها محمد (ص) بأن الغضب الإلهي نالها لأنها أنكرت أن ناقة صالح مقدسة. وكانت المصانع التي خلفتها الشعوب القديمة البائدة تنسب إلى عاد ممن بادوا فلم يبقوا من الآثار غير ما خلّفوه من أعمالهم التي حيّرت عقول البدو.

أما الآن فليتمثّل القارئ الفاتحين العرب يجولون في أكناف سورية ومصر وفارس وافريقية الشمالية وإسبانيا وكلها بلاد متحضرة مملوءة ببدائع الصنائع وأعمال الهندسة. ولَكَم كان العربي الرحالة يندهش عندما كان يقع نظره على بيوت ذات ثلاث طبقات في مكة ويثرب فتترآى له أنها قلاع وهو لا عهد له من قبل إلا بخيمته السوداء أو الدكناء المصنوعة من وبر العنز. وبعد أن كان المسجد البسيط الذي يسع النبي وأصحابه وهو عبارة عن كوخ خال من الزخرف مبني باللِبن وجذوع النخل ليس فيه ساف من الحصا على التراب المرصوص، ظهر للحال بأنه غير كافٍ لاستيعاب جمهور من دانوا بالإسلام وغير لائق بأن يكون بيت الواحد الأحد. وزد على ذلك فإن

الفاتحين من المسلمين كانوا يشاهدون الكنائس الجميلة التي أنشأها المتقون من النصارى ويقابلون بين التأنق فيها وبين شقائهم في سكنى البادية.

اكتفى الخلفاء الأُول بأن سكنوا بيوتهم التي يأوون إليها كما فعل أباطرة رومية الأول لأن المسجد كان لهم ميداناً ومحكمة وندوة. ولما صار الأمر إلى معاوية طمحت بهم نفوسهم إلى اتخاذ القصور يعمدون إليها ليستروا فيها غفلتهم وبذخهم وزهوهم.

فبالهندسة بدأ نمو الصنائع التي دعا إليها الفتح الإسلامي وما كان للعرب صنائع خاصة بل استخدموا باديء بدء من المهندسين وأرباب الصنائع من وجدوهم في البلاد التي افتتحوها فكان أسلوب البناء الإسلامية في الأمر سورياً في سورية وقبطياً في مصر وبيزنطياً في آسيا الصغرى ورومانياً بربرياً في أفريقية ورومانياً أيبرياً في إسبانيا وبارتياً وساسانياً في فارس وبين النهرين.

رأينا صوراً من الهندسة الآسياوية تنقل إلى البلاد المغلوبة على أمرها عند ما كان الشرق أولاً ميداناً للفاتحين. وأنك لتشاهد في أقدم المصانع المنقوشة المزينة في المغرب والمسجد الأعظم في قرطبة ومسجد سيدي عقبة في القيروان مسحة من الزينة الشرقية نقلها إليها صناع صحبوا الفاتحين أو نسجت على مثال صور الأقمشة والزرابي المطرزة والبسط المجلوبة من الشرق.

ومن مميزات الهندسة الإسلامية القبة ذات الشكل البيضوي وهي منقولة بلا مراءٍ عن أصل جاء من بين النهرين أي آشوري بابلي. وقد بقي منها نموذج سالم من الصورة البارزة في قيونجق زمن الدولة الساسانية كما هو المشاهَد في صور أقواس المدائن وساروستان وفيروزآباد فتبين بهذا أن ماضي الهندسة الإسلامية كان عظيماً والتمدن الإسلامي جدّد استعمالها. وإنا لنجد منارات جوامع سامراء وابن طولون في القاهرة أبراجاً ذات أدراج على شكل حلزوني وبعيد أن لا نعترف فيما رأيناه بأنها بقايا من معابد رصد الأفلاك الكلدانية التي نجد برج بابل مثالاً مشهوراً منها.

رأت العرب في سورية ومصر الصناعة البيزنطية ودرسوها، وما هي إلا تشويه آسياوي للصناعة الرومية الرومانية أهمّ آثارها جامع أيا صوفيا في الأستانة. وبقيت الصناعة اليونانية آخذة في التبدل بعد فتوحات الاسكندر وظلت كذلك على أن خطر للملك قسطنطين أن ينقل عاصمة المملكة إلى ضفاف البوسفور ولا يخفى ما حدث من السرعة في تمازج العنصر اليوناني بالعناصر اللاتينية واللغة اللاتينية. فالتقاليد العسكرية والقضائية والإدارية فقط بقيت زمناً قصيراً بحالها أما

الصلات المتصلة التي كانت لمملكة الروم بيزنطة مع المملكة الفارسية فقد كان منها أن بدلت الصنائع بتأثيرات آسياوية وتقدمت فيها تقدماً هائلاً حتى أن الألبسة وتزيين الأبنية الداخلي وقصور الأباطرة وأدوات تنعمهم وبذخهم كلها لم يكن فيها شيء يشير إلى أنه روماني.

سلِمت عهدة مصانع ومعاهد من أوائل الهندسة الإسلامية وأعجبها المسجد الأقصى في القدس وإن شئت فقل قبة الصخرة إذا أردت أن تسميها باسمها الحقيقي. وليس هذا المسجد في الواقع جامعاً لأن هذا النوع من الأبنية معروف بما يماثله مثل مسجد عمرو بن العاص في القاهرة الذي أنشأ سنة 642م وهو عبارة عن حائط له عدة محاريب لضبط سمت القبلة التي توجَّه إليها الوجوه للصلاة. وكانت القبلة إلى القدس أولاً فأصبحت منذ ألف وثلاثمائة وخمس وعشرين عاماً إلى مكة ثم هناك صفوف من الأعمدة ومكان مربع مكشوف وفي وسطه صهريج ماء للوضوء. وعلى العكس من قبة الصخرة كما يستفاد من اسمها على ما هو المعروف فإنها تشغل فسحة المعبد. وهذا الشكل وطني جعل على رسم كنيسة العذراء في إنطاكية في شكل بيت مدور ذي قباب وعدّه المسعودي المؤرّخ من أعاجيب الدنيا. ويوجد من هذا الشكل أيضاً في أواسط سورية وحوران وآسيا الصغرى وقد أنشئ هذا البناء على عهد الخليفة عبد الملك بن مروان الأموي سنة 648 ولما رمّم بعضه الوليد سنة 707 جعل من خارجه الفسيفساء صنعها له صُنّاع يونان بعث بهم إليه إمبراطور القسطنطينية. وعلى عهد السلطان سليمان القانوني استُعيض عن أحجار الفسيفساء بكاشاني محلى بالمينا. فالقبة والحالة هذه هي صوان أو وعاء مقدس للصخرة والمسجد الحقيقي هو الذي يشرف على حوائط المكان في الجنوب ويدعى بالمسجد الأقصى وقد أشير إليه في القرآن والمراد به معبد سليمان.

بُنيت المساجد في المغرب على مثال جامع عمرو، فجامع الزيتونة في تونس المؤسَّس سنة 732 مؤلَّف من أفنية موازية لحائط المحراب وفناء (صحن) أوسط كبير وصفوف من العُمَد مؤلفة من مواد قديمة أو بيزنطية جاءت من قرطاجنة الرومانية وأنشئ المسجد الأعظم في قرطبة سنة 785 على ذاك المثال ولكن زينته تختلف عن غيره من المساجد اختلافاً كلياً فإن القطع العديدة التي بقيت من آثار الغوط الغربيين واستخدمت في البناء تدلنا على أن المصانع المسيحية في إسبانيا قبل القرن الثامن كان لها أثر كبير في الهندسة العربية الأصلية.

والبحث في الهندسة الفارسية نافع على وجه خاص وذلك لأنها حفظت لنا تقاليد قديمة لها علاقة بالهندسة فأحسنت الانتفاع بها ورَقَّتها وأكملتها. فإن بناء القباب كانت الطريقة التي اختيرت

من بين أساليب البناء لقلة الخشب الذي يصلح للبناء في معظم أقطار تلك البلاد.

وبلغ من حذق الفرس الغريب أنهم يتمثلون لعينيك إذا نظرت إلى أبنيتهم كأنهم يلعبون بالمصاعب لعباً. ولم تبلغ أمة من الأمم مبلغهم في إيجاد طرق متنوعة غريبة في القباب على أشكال غير متناسقة إلا فرنسا فإنها قلدتهم في القرون الوسطى. وإلى الفرس يرجع الفضل في اختراع المقرنصات وهي من الصنائع الغريبة ذات النقوش التي تستر البناء البارز المشبك. وأكثر ما فاقت به فارس تفننها في تزيين الأبنية بالكاشاني (القيشاني وهو نقش رائع إلا أنه سريع العطب تبتهج العيون به ما دام الملاط (المونة) الذي يلصقه بالبناء الأصلي على حاله متماسكاً فإذا قلع لقلة العناية به وسقط وتناثر من آفات أصابته ودفن في الأرض نبت العيون عنه واستوحشت من النظر إليه.

وصناعة الكاشاني قديمة جداً في البلاد الإيرانية فقد زيَّن ملوك الأخمانيين قصورهم بنقوشها البديعة التي جُعل بعضها في قاعات متحف اللوفر المظلمة ولا يزال يأسف على الهواء المضيء والشمس المشرقة في سهول فارس. وبدأ استعمال الكاشاني في فارس بعد ظهور الإسلام فيها فجُعل القرميد أولاً محلّى بالمينا في أطراف الأحجار مفصولاً من داخله بآجر أو بملاط من الجير والرخام، ثم استعملوا نوعاً من البناء ملوناً مؤلفاً من قطع صغيرة مجزءاً موضوعاً بعضه بجانب بعض. كما فعلوا في أبنية الرخام أو الخشب في إيطاليا توصُّلاً إلى تزيينها بصفائح من الكاشاني على سطوح متسعة وقد شوهدت منذ القديم عندهم بنايات بارزة داخلها أزرق كالفيروز وأبيض كالعاج ويكثر انعكاس الأشعة التي تلمع فيها كلمعان السيوف كما تشهد في «إمام زاده يحيى» وفي ورامين وهو من القرن الثالث عشر. وأبنية أصفهان التي أُنشئت على عهد الشاه عباس الأول أجمل مثال من هذه النقوش العجيبة وتتمة ارتقاء طويل في الصناعة. ويتيسر تتبّعُ أدوار هذه الصناعة إذا بُحث في مصانع السلجوقيين في قونية التي أنشئت في القرن الثالث عشر وفي البنايتين اللتين أنشئتا على الطراز الفارسي في مدينة بورصة وفي المسجد الأخضر وقبر محمد الأول اللذين أسسا في القرن الخامس عشر.

بنيت جميع المساجد التي أنشأها سلاطين بني عثمان على مثال كنيسة أياصوفيا. وقد كثر البناء على هذا الشكل في جميع المساجد التي أُسست في المملكة العثمانية بعد القرن السادس عشر فالصورة الأصلية من هذا البناء هي إذاً بيزنطية ولكن الأسلوب الفارسي يظهر في بعض أنواع الزينة كالأبواب والكوى المقرنصة مثلاً. ومسجد بايزيد أقدم أسلوب من هذا النوع عمَّره المهندس

خير الدين. ومسجد محمد الثاني الغازي أنشأه خريستو دولو محل كنيسة الحواريين وخرِب كله في زلزال سنة 1763 ثم أعيد بناؤه على عهد السلطان مصطفى الثالث إلا أنه لم يرجع إلى ما كان عليه من أسلوب البناء.

وأقدم المصانع الإسلامية في الهند مسجدا دهلي وأجمير اللذان أنشئا في القرن الثالث عشر. وهما من المصانع التي قامت على أسلوب (جينا Djaina) كما أثبَتَ ذلك الرحالة فرغوسن والرسمُ العام منه هندي ثم أثَّرت فيه الأساليب الإيرانية والغربية وظهرَت فيه النقوش المشجّرة وهي تذكّر بقصر ماشيتا وهو ساساني أو ببعض محالٍ من أيا صوفيا.

وقد كان أول سلطان لبيجابور (كذا) ابن السلطان العثماني مراد الثاني الذي ارتقى من رتبة ضابط في الحرس إلى عرش الملك فأنشأ له دولة وبنى حفيد حفيده عادل شاه أجمل مصانع تلك المدينة. وطَرز بنائها مأخوذ من أسلوب غربي حتى لقد ذهب الرحالة فرغوسن عندما ذكر أصل هذه الدولة وكيفية نشأتها إلى أنها اختارت من الصنّاع فرساً وأتراكاً. ودخل التمدن الإيراني والصناعة الفارسية إلى الهند على عهد فتح بابر (ظاهر الدين محمد من أحفاد تيمورلنك) وتأسيس مملكة المغول العظمى. وعلى عهد السلطان أكبر انتشر الأسلوب الهندي في البناء فظهر بمظهر بديع مع المحافظة على أشكاله الغربية وعرف كيف يمزج في المصانع التي لها صورة خاصة الظرف والبهجة عن الفرس ويضمها إلى متانة الأسلوب الجيني والأفغاني. فقد قال مؤرخ فنون البناء الهندية (فرغوسن) أنهم كانوا يبنون كالجبابرة وينقشون كالصياغ. ولا يفوتنا النظر هنا بأن استعمال الكاشاني على طريقة عامة لم يبق له أثر في تلك البلاد بل أخذت الهند تبني بالحجارة والرخام وهو أدلّ على البراعة في الصناعة وأمتن وأفخم. وأما النقش الفارسي على جماله فقليل البقاء ويا للأسف أشبه بزينة مسرح التمثيل تزول إذا صفّر لها من عُهدت إليه إدارة حركة التمثيل ليجعل غيرها مكانها. ولا يُعلم لأي أمة يُنسب مهندس بناء تاج محل في آكرا (الهند) ولكن المعلوم أن السلطان محمد الرابع بعث إلى شاه جنان مهندساً يبني له في أحمد آباد قبّة نور محل ولا ينبغي العجب إذا رأينا من بعد هذا العصر الأشكال الفارسية مطبّقة على البناء من الرخام في حجم كبير. ويقال أيضاً أن رجلاً فرنسوياً من بوردو اسمه أوستين أو أوغوستين الذي لُقّب نادر العصر قد عُهد إليه النظر في أعمال ترصيع الحجارة الكريمة التي ازدان بها تاج محل من داخله وخارجه. ولذلك كان الحق مع المسيو سلادين في قوله بأنه يظهر بأن يدَ مهندس أوروبي قد رسَمَت الصورَ الواضحة ورسومَ جانب البناء الكثيرة التدقيق في هذا المصنع ولعل هناك أثراً من التأثير الغربي.

أما في الصين فإن هندسة الجوامع صينية محضة ولم تقتبس شيئاً عن البلاد التي يتكلم أهلها بالعربية ولا عن فارس ولا الهند.

لم يكن للنقش إذا قيس بالهندسة شأن ظاهر. ولا يسعنا هنا أن نبحث في استعماله للتزويق فإنّ ما لدينا منه قليل لا يُعتد به وقد ازدانت حوائط قصر عمرا بالنقوش ولكنها بيزنطية وكان ملوك الفاطميين يزوّقون قصورهم في القاهرة بصوَر ذات أرواح كما قال المقريزي. وجلب اليازوري وزير المستنصر بالله إلى مصر ابن العزيز والقصير وهما نقاشان مشهوران الأول من البصرة والثاني من العراق فكانا يمثّلان بما ينقشان نساءً يرقصن ومشاهد مأخوذة من التواريخ المنقولة عن التوراة على نحو ما أوردها القرآن ولكن لم يبق شيء مما نقشاه. وما على من أراد أن يتمثل كيف كان النقش عند العرب إلا أن ينظر إلى نقش المخطوطات ولا سيما الصور المصغّرة التي تستعمل فيها رسوم الأشخاص والحيوانات دليلاً. ويرتقي عهد أقدم المخطوطات العربية من هذا النوع إلى صلاح الدين وبعبارة ثانية إلى الدولة الأيوبية وهي من أصل بيزنطي على ما يتجلى منها كل التجلي. ومن أهم الأمثلة في هذا الباب كتاب مقامات الحريري المخطوط وهو مما ملكه شفر (العالم الفرنسوي) وأُلحق بمجامع خزانة كتب الأمة بباريز كتب كاتبه اسمه في آخر ورقة منه واسمه يحيى بن محمود بن يحيى بن أبي الحسن نشأ في واسط من بلاد ما بين النهرين.

ومما حواه صفحة تمثل جيشاً للعباسيين يحملون العلم الأسود ويضربون بأبواق ضخمة فارسية كما رُسمت أيضاً مشاهد من غير هذا الشكل وتجد فيها كلها أثراً ظاهراً من تأثيرات الرسم البيزنطي وذلك للتوسع في صنعها الذي يشبه رسوم الحيطان على الكنائس الكبرى.

إن ما كتب في مصر من المصاحف هو من الصنائع البديعة فتراها محلّاة بالعناوين المزوّقة والنقوش المدوّرة الموضوعة في الحواشي من أجمل ما تخط يد وهي من زمن المماليك. ولا يعرف المرء بما يُعجب في صناعة مزج الذهب بالألوان بدقة الرسم ولطفه أو بالذوق العظيم الذي أوجد ألوفاً من التراكيب المزينة الهندسية. وقد انتشر الرسم المصغّر في فارس أكثر من غيرها فظهرت الكتب المزينة بالرسوم بظهور دولة المغول التي أسسها هولاكو حفيد جنكيز خان. وربما كان هذا النقش قد ظهر بتأثير الصنائع الصينية (لأنه كانت للساسانيين كتب مزينة بصوّر لم يذكُر عنها كتاب مجمل التواريخ غير أخبار ركيكة)، أما الاكتشافات الحديثة في خوقند التي لم يطّلع عليها المؤلفان المشار إليهم (ظهر مصنف المسيو ستين حديثاً) فقد أوردت لنا أمثلة من الصناعة البوذية والفارسية

معاً ويجب أن يُبحث فيها عن الأصل الذي أَخذت منه فارس طريقتها في النقش وعلى هذا فتكون تركستان الصينية هي الطريق التي دخل منها إلى إيران تأثير آسيا الشرقية.

ومهما يكن من مَنشَئِها فمن المحتمل أنّ فارس نقلت طريقة التصوير المصغر عن مملكة إيلخان. وبذلك ساغ لنا أن نجعل الرسم ثلاث طرق أو ثلاثة مذاهب وهي المغولي والتيموري والصفوي ومن الجنس الأول الصورة المصغرة الوحيدة التي رُسمت في تاريخ جهان خوشاي لعلاء الدين الجويني (المحفوظة في مكتبة الأمة بباريز) وهي تمثل المؤلف يقدم نسخة من كتابه إلى آراغون. وقد تجلى تأثير الصين كل التجلي بعد عهد تيمور بحيث أن النَفس لتحدّث المرء إذا نَظَر إلى رسوم ذاك الدور فيما إذا كان هناك أناس من أرباب الصنائع من الفرس تخرجوا على أيدي أناس من الصينيين أو أن هؤلاء النقاشين هم صينيون في الأصل جيء بهم إلى فارس فرسموا ما رسموا.

بين العصر الماضي وهذا العصر بون بعيد لأنه دور التوسع الصناعي الموافق للعهد الذي كانت فيه بلاد فارس وتركستان غاصة ببدائع المصانع. ولقد غصّت بخارى وخيوه وطاشقند بالصناع الذين ازدانت بمصنوعاتهم دور الكتب في أوروبا، ثم أنّ عصر الصفوية السعيد قد أزهرت فيه صناعة بديعة غريبة تعلَّمَ أربابها في سمرقند وبخارة ولما انتقلت إلى الهند مع سلاطين المغول همايون وأكبر وجهانكير وأورنك زيب أنشأت فيها بدائع في الرسم والنقش بأسلوب يتنافس الناس في أوروبا في الحصول عليه. وما هذه الرسوم إلا مستندات ثمينة لا تقدر بقيمة سواء كان من حيث التاريخ أو للوقوف على الأحوال الاجتماعية في الهند في القرن السابع والثامن عشر. والصناعة الصفوية لينة سهلة تتجلى فيها العواطف الرقيقة ذات بهجة فاتنة. واشتهرت النقوش التي كتبت بقلم رصاص بوضوح التقاطيع وثبات الشكل والصورة.

وانتقل النقش على عهد الشاه عباس الأول الذي كان يحب الأبهة وهو على شيء من الأفكار العالية والمدارك الواسعة من الكتب المخطوطة إلى حوائط القصور في أصفهان وما زال من هذه النقوش بقايا في قصر علي قبو وقصر الأربعين عموداً. وقد كان السائح الروماني بيترو دلافال استصحب معه نقّاشاً في رحلته إلى بلاط فارس فمن الممكن أن يكون الشاه أخذ رأي النقّاش وباحثه في الرسوم الكبرى التي اعتاد الطليان رسمها على الجدران فنبّهَ فكرَه إلى أن يزوّق قصوره على

مثالهم. ولكن هذا من القياس الفرضي وكان على بيترو وقد أطال رحلته بوصف ما عمل ورأى أن لا يقصر في ذكر ذلك. على أن كثيراً من النقوش الفارسية تُشعر بتأثيرات النقش الإيطالي.

وكثيراً ما تكون جلود الكتب غاية في الجمال ومن الخسارة أن مؤلفي كتاب الوجيز المشار إليهما لم يَدخلا في تفصيل ذلك. ولقد شاهدتُ في الأستانة بعض المولعين بالآثار يأخذون الجلود القديمة كافة ليجعلوها في المتاحف مثالاً من أمثلة الحذق في الصنائع. والجلود المصمغة عند الفرس غاية في الجمال ويتألف من بعضها جداول حقيقية.

إذا أُطلق لفظ النقش عند المسلمين فلا ينبغي أن يفهم منه أنه يراد به تمثيل صورة ذات روح بل قد تكون تلك الصور نقوشاً يُراد بها أمْر آخر. ومما يُعجب له أنه يوجد في هذا الكتاب الوجيز إشارة ضعيفة لصورة فارس يمسك رمحه بيده نُقش على القبة في مسجد ببغداد. ولم يزد المسيو ميجون بأن هذا الفارس يشير إلى الناحية التي يجيء منها الهواء، فكان هذا التمثال ضرباً من دوارة على الهواء صنعت من الحديد المصفح وجعلت في الهواء تمثل فارساً والرمح بيده وقد ذكروا أسطورة بشأنها. فكان العامة يعتقدون أن هذا الفارس يدل بقوة تعويذة معه على الناحية التي تنشأ فيها ثورة من مملكة الخلفاء العباسيين.

وليس النقش عند المسلمين إلا خادماً خاضعاً للهندسة على نحو ما كانت الفلسفة من علم الكلام في القرون الوسطى، والأسود التي رآها ابن بطوطة قد صنعت من الرخام المستخرج في أفروجيا أو فرجيا في آسيا الوسطى حيث يكثر فيها. وبلغ من احترام السلاجقة للنقش أن كانوا ينزلونه في الحوائط. وليس للتمثال من الخشب التي صنعها صناع من المسلمين بأمور الطولونيين علاقة بالصنائع الإسلامية بل هي فرع متأخر من فروع الصناعة الوطنية. وقد بدأت في مصر صناعة النقش للزينة باستعمال الكلس والرخام غير المسحوق بالآلة بل بيد صُنع الأيدي وأقدم ما وجد من ضروبها شكلٌ مهندَسٌ ممزوج بعروق خيالية ظريفة. أما الحجَر للزينة فقلما يوجد إلا في المساجد التي يرد عهدها إلى القرن الرابع عشر وعلى العكس في إسبانيا فإنا نرى هذه الصناعة مزهرة فيها منذ أوائل الخلافة الأموية.

وقد بقي لنا شاهد واحد منها وهو مغسل الوضوء المصنوع من الرخام ولا يزال محفوظاً إلى الآن في متحف الآثار في مدريد وجرن الرخام وحوض الأسُود في قصر الحمراء معروفان موصوفان. إلا أنّ تزيين المصانع ما كان إلا من الجبس موضوعاً في القوالب وضعاً محكماً مما

يبدو في هيئة بديعة تفوق أجمل نموذجات الهندسة. وإن قصر الحمراء على جَماله لم يُعمل إلا من معجون الجبس.

لا يأخذنا العجب إذا رأينا السلجوقيين في آسيا الوسطى قد أبقوا لنا صوَراً تُمثّل الصورة الإنسانية. ولئن كان المهندسون في زمنهم سوريين أو روميين فإن الأفكار السائدة في بلاط قونية منشأها إيراني وزادت انتشاراً بما كان لشمس الدين التبريزي وجلال الدين الرومي الصوفيين العظيمين من النفوذ وكان الأول صاحب السر والثاني مؤسس طريقة الدراويش المولوية. وكان سلاطين السلجوقيين مهوَّسين أشد التهوس بكل ما هو من أصل فارسي حتى أنهم كانوا يدعون أبناءهم بأسماء استخرجوها من قصص الأبطال في الملاحم. وظلت الصناعة التي انتشرت بهذا التأثير محصورة في آسيا الصغرى ولم تنتشر في سائر البلاد الإسلامية.

أخذت العرب صناعة الفسيفساء عن البيزنطيين فاستجلَب من الأستانة الخليفة عبد الرحمن إلى قرطبة صُناعاً من الروم ليزيّن مسجدها. وخابر الوليد ملك القسطنطينية ليبعث له بالعملة والمواد اللازمة لتزويق المسجد الأموي في دمشق وهي كنيسة القديس يوحنا الدمشقي القديمة. تغير هذا المسجد ولم يُبق منه حريق 1893 ما كان سلم من آثاره. وفي سنة 418 هـ (1027م) جرى إصلاح فسيفساء قبّة الصخرة كما قرأتُ ذلك في الصورة الشمسية من الصفحة الثالثة والثمانين من الجزء الثاني (الرسم)73 وقد كُسِي داخل المصانع الإسلامية في القاهرة بأنواع من الزينة صنعت من الرخام على أبهج صورة وأزهاها.

إن ما يرى في مصر من الخشب المنقوش لا يتأتى إلا أن يكون مجلوباً من سوريا أو من آسيا الصغرى. ومعلوم أن في مصر صناعة خاصة بها لا يرى لها أثر في غيرها من الأقطار ألا وهي صناعة المشربيات وهي أقفاص نوافذ على طنف بارزة بحيث تكون للنوافذ التي تطلّ على الشوارع أقفاص لئلا يُتطلع إلى ما وراءها متطلع ولو بدون قصد. من أجل هذا يستعمل القوم (شعريات) من أقفاص خشب رقيق. وفي مصر يستعمل خشب غليظ خُرط بالمخرطة وجُعل على صورة يُتفنن فيها كل التفنن. وفي المتحف العربي في القاهرة حشوات منقوشة غاية في الجمال ومن جملتها ثلاثة محاريب توفّرَ المسيو رافيس على البحث فيها وهي من عهد الفاطميين وقد كانت الحشوات في القرن الثالث عشر أصغر مما هي الآن وخطوطها أدق وأشكالها أكثر تنويعاً وصورها التزويقية مُطلقة. وصوِّرَتْ على أبواب البيمارستان القلاووني صوَر ذات أرواح. والفرق ظاهر بين

طريقة هذه المصانع في الصُنع والحشوات التي جُعلت على القبور الفارغة في ذاك العهد والصورة العامة مربعة في هذه وذات خط مستدير في أبواب البيمارستان. ويتجلى الفرق للأنظار بالمقابلة بين النقوش الصغيرة التي وردت في صفحة 100 و101 الموضوعة إحداها بجانب الأخرى فإن الحشوات صنعة عربية مصرية أما الأبواب فصنعة فارسية. ومن هنا أتت الصور ذات الأرواح. وظاهر أنه كان في ذاك العهد في القاهرة طريقة فارسية في النقوش جاءت زيادة على ما كان فيها من الصناعة الوطنية وليس ذلك من ارتقاء الصناعة المحلية كما لاحظ ذلك المسيو ميجون. وارى أنه لم يَبن رأيه على صورة باتة كافية وإن شئت فقل على صورة ظاهرة. المنبر في المسجد من المواد التي لا يستغنى عنها فمنه ما يُبنى بالحجر مثل منبر مسجد برقوق في الصحراء بالقرب من القاهرة ومن العادة أن يُعمل المنبر من الخشب. وقد عُرِفَت من المنابر نموذجات بديعة كمنبر مسجد ابن طولون الذي أمر ببنائه أحد سلاطين المماليك السلطان لاجين ولا تزال حشواته العمودية محفوظة في لندرا ومثل منبر قاتيباي ومسجد علاء الدين الأول قاي قوباد في قونية وجامع الزيتونة في تونس وغيرها. وهناك شيء آخر خاص بمساجد مصر وأعني به الكرسي أو الخزانة المسدسة الزوايا والأضلاع كانوا يضعون عليها المصاحف للتلاوة فإذا فرغوا خبؤوها في داخلها وكانت حشواتها مزينة بتطعيم (تنزيل) من العاج ومن خشب ملون.

ويوضع المصحف في المساجد العثمانية مفتوحاً أو مطبوقاً على دعامة تطبق على شكل تسمى رحلاية. وقد فات المسيو ميجون أن يذكر هذا المتاع الذي يعمل من خشب الجوز المتين ويطعّم بأشكال من عرق اللؤلؤ والعاج (صنع الأستانة) على نمط الأخونة الواطئة التي يقال لها اسكملة.

وفي إسبانيا أجمل إنموذجات من النقش على العاج أخذها المسلمون عن الغوط الغربيين ولم يستطع أحد أن يوفق بين معامل هذه الصناعة ومراكز إخراجها بل ثبت من فحص هذه المصنوعات التي لا تزال محفوظة بكمية وافرة أنها صناعة محكمة تدل على فرط مهارة فنية تقلبت عليها الأحوال بأهوالها ومنها الشرقي ومنها البيزنطي. واللوحان البديعان من العاج اللذان لم يبرحا محفوظين في مجموعة كاران في متحف بارجللو في فلورنسة هما من أصل يختلف أحدهما عن الآخر ولا نعلم من أمرهما شيئاً يُذكر. بيد أن النسور والأسود المرسومة على اللوحين هي من أصل آشوري وقد رُسمت عليها رسماً دلّ على مهارة تحملنا على المقارنة بينها وبين نحاس الموصل وشواطئ دجلة حيث بقية التقاليد الصناعية القديمة محفوظة بحالها خلال القرون الوسطى.

أما الصياغة فقديمة العهد رأى الشاعر الرحّالة الفارسي ناصر خسرو في مدينة صور ثريات من الذهب والفضة وفي القدس أبواباً مغطاة بألواح من النحاس بديعة الصنع وفي القاهرة عرش المستنصر الفاطمي معمولاً من الذهب والفضة الخالصة وقد نُقشت عليه كتابات وصُورت صور صيد وقنص. وإن سفط العاج في كنيسة بايو (فرنسا) الملبَّسة بالفضة المنقورة (المخرمة) وأسفاط كنيسة كوار (سويسرا) وسان سيرفي (فرنسا) ومايسترخت (هولاندة) وسان مارك في البندقية لتمثّل لأنظارنا ما كانت عليه صناعة الصياغة من البهاء في القرن الثاني عشر. وإلى ذلك العهد يرتقي صنع النحاس الجميل الملبَّس الذي حُفظ إلى اليوم ولكن مما لا شك فيه أن ازدهار هذه الصناعة أقدم من ذلك وأن ما نعثر عليه من ذاك التاريخ من الأعلاق النفيسة ليس إلا زبدة قرون طويلة وأبحاث متصلة. ولقد تساءل بعضهم عن السبب الرئيسي في انتشار صناعة النحاس المحفور ببلاد ما بين النهرين ولاسيما الموصل. ويوشك أن يكون ذلك من مجاورة معادن أرغني والخابور بالقرب من مناجم الخابور جبل مغارات الذي يُستخرج منه النحاس الخام ويذوب ثم ينقل إلى جميع بلاد آسيا قديماً.

وتبين من عرض هذه المصانع بعضها في جانب الآخر أن التزويق المحفور في صور بارزة هو أقدم طرق النقش على المصنوعات النحاسية. أما تنزيل الذهب والفضة فلم يحدث إلا مؤخراً. وقد تغلبت صور البشر والحيوانات في الموصل مما يدل على أن الصناعة فارسية الأصل حفظ فيها الساسانيون تقاليدهم الصناعية التي يُردّ عهدها كما قال لونكبريه إلى عهد الصور البارزة الأشورية.

وقد ساق البحث المسيو ماكس فان برشم فحلّ الكتابات التي كتبت على أجمل هذه المصنوعات وقسّمها قسمين رئيسيين أو مجموعتين أساسيّتين إحداهما شرقية انتشرت في خراسان كما انتشرت في الموصل والثانية غربية أي سورية مصرية وهي عبارة عن نحاس صُنع في زمن الأيوبيين في أوائل القرن الثالث عشر. وكان من غارات المغول أن قطعت زمناً قصيراً سلسلة هذه الأعمال وجاء المماليك في القرنين التاليين فرقّوا هذه الصناعة بأعمال اتصل بنا عِلمُها وهي كثيرة. وما صُنّاع الشام ومصر إلا تلاميذ صُنّاع الموصل وبهم تخرجوا.

وإذا بحثنا في القلز (النحاس الأحمر) نذهل من رؤية المصانع وجمالها مثل صورة العنقاء في بيز التي جلبت من مصر على عهد الصليبيين وصورة الأيل من صنع الفاطميين الموجود في

متحف الأمة في ميونيخ والجواد المحفوظ في متحف قرطبة والطسوت المعمولة على شكل الأوز والمباخر على شكل الببغاء المحفوظة في متحف اللوفر. وما أعجب مصابيح المساجد المصنوعة من القلز والحديد كالتي لا تزال محفوظة في المتحف الأثري في مدريد وقد جيء بها من غرناطة ومثل الموجودة في دارة الآثار العربية بالقاهرة المأخوذة من جامع السلطان حسن وكثير أمثالها.

أما الأسلحة فلم يجر حتى الآن تنظيم تاريخها ولم يذكُر هذا المختصر الذي نحن بصدده سوى إشارات موجزة بشأنها. ويُرجى أن يطلعنا المسيو موزر ذات يوم على ما وقف عليه وجمعه من الإيضاحات بشأن صنع الفولاذ فتكون أعماله مساعدة لنا على تنظيم المعلومات المُبهمة التي حصلنا عليها حتى الآن. ولطالما تكلم الناس عن فولاذ دمشق لغرابة سقايته. ولما أرسل السلطان بيبرس من سلاطين المماليك هدايا سياسية على باراق سلطان المغول في تركستان بعث إليه بأسلحة دمشقية. ولما استولى تيمورلنك على دمشق أخذ معه إلى سمرقند صنّاع الفولاذ الدمشقي. وقد كان في القاهرة في شارع النحاسين الحالي بين القصرين سوق للسلاح رائجة كثيراً إلا أننا لا نعلم شيئاً عن أصل الأسلحة التي كانت تباع فيها. وليس ثمة ما يدل على أنه كان في مصر معامل لصنع نصال الفولاذ وربما كانت تصنع فيها مقابض السيوف وأغمادها ويصلحونها على النحو الذي اختاروه وهذا عمل غير عمل نصال الفولاذ ويجب أن يميز عند تنسيق هذه الآثار في المستقبل بين معامل صنع النصال ومعامل تركيبها. ولم يتعرض لذلك كتاب الوجيز ولا يستطيع أن يتكلم الآن إلا على المعامل المتأخرة. ومع هذا فقد توصل المسيو بوتين بعد البحث في المقابلة بين النصال إلى أن المعمول منها في دمشق هو مزيج من الحديد والفولاذ وأنه في الأغلب من سَكْب بلاد الفرس وإذا كانت النصال في الهند ذات لمعة بذوبانها فهي منقوشة بالطَرق. وقبل الفتح العربي كانت طليطلة في إسبانيا مشهورة بسقي نصالها. وفتح عبد الرحمن الثاني معملاً لها (822 - 852) ولم يبق ولا حسام إسباني مغربي من قبل القرن الخامس عشر وما بقي منها مما يُردّ صنعه إلى ذاك العهد جيء به من غرناطة وتاريخ الأسلحة في بلاد فارس والمملكة العثمانية غريب والمعلومات عنه أغرب. وكنا نود أن تكون أغزر مما وصلنا ولكن تاريخ الأسلحة كما قلت سابقاً لم يوضع بعد.

يعرف من يسيحون في الشرق اسم الخنجر والقامة ومع هذا لا تجد لها ذكراً بين الأسلحة العثمانية والفارسية. ولم يقولوا كلمة عن الزمان والمكان الذي استعيض فيه عن السيف القديم المستقيم بنَصل معوجّ. وإن أسنة الرماح والبنادق والطبنجات وقطع الخيل (كوباناتها) على خطارتها عند الساسانيين والمصورين بالخطوط اللطيفة من الفرس مما بقي كثير من أمثالها في طي

الخفاء قد كان يرجى أن نعرف عنها شيئاً يركن إليه لخطارتها وفائدتها للتاريخ. على أنه قد أطيل البحث في صنع الأواني الخزفية وهي صناعة جديرة بأن يفاخر بها. أصلها من فارس وإن لم يذكُر ذلك المسيو ميجون ذكراً تاماً. وتدلّ مصانع الأخمانيين في سوس على ذلك دلالة صريحة وربما كانت هذه المصانع موروثة لهم عن الصنائع الآشورية.

وتمتاز مساجد ورامين وأصفهان بما جُعل على جدرانها من الطلاء الذي يعكس أشعة ذهبية ولكنها عبارة عن قشرة رقيقة من النحاس. ولقد جُلبت المربعات الموضوعة للزينة من مساجد سيدي عقبة في القيروان من مدينة بغداد (وهي المدينة التي أنشأها العباسيون بتأثيرات فارسية وكان الفرس الذين أتى بهم أبو مسلم هم سبب رفعتها) جلبها إلى أفريقيا مؤسسة دولة الأغالبة سنة 894 وصنَعت معاملُ مدينة الرقة على الفرات بضعَ قطع سُلّمت إلى هذا العهد وكثيراً من بقايا الخزف. وقد ألّف المسيو فاليس عدة كتب للتوسع في البحث عن الأواني المجلوة في فارس وأصلها من الري التي كانت تعرف قديماً باسم راجيس. وإذ كثُر البحث في هذا الموضوع ساغ لنا أن نبيّن تاريخ حدوث هذه الصناعة فقد ذكر أحد الباحثين في هذا الشأن واسمه المسيو أوتوفون فالك في كتابه صناعة الكاشاني القديم أن ألواح الزجاج الملونة البراقة التي بقيت من القرن الثالث عشر في إيران هي دهان على سطح مستو وإن المصفحات التي كتبت عليها كتابات بارزة لم تظهر إلا في القرن الرابع عشر. ودامت صناعة التلميع خلال القرون الثلاثة التالية وبلغت درجة من التفنن غريبة. وإنّ طبخ بعض القطع برفع الحرارة فيها إلى درجة عالية قد جعلها كالصيني على ما يتجلى ذلك فيها. وقد بدت على عهد المغول تأثيرات الصناعة الصينية فانتشرت صور التنين وأبي الهول وغصن الخوخ وهو مزهر وكل ذلك من أصل صيني. دلّنا ما عُثر عليه في مصر في سهل الفسطاط أو مصر العتيقة على ما كانت عليه صناعة الخزف على عهد الفاطميين. وأصل نقوشها على الأقل فارسية وإن كان صنعُها يختلف على أن المواد الأولية هي من مصر نفسها. وقد أثبت الرحالة ناصر خسرو أمراً غريباً من الأواني الخزفية ذات الألوان المتغيرة التي شاهدها في القاهرة وهذه الألوان هي من صفات الكاشاني الذي يلمع كحد النصال. وعليه فيفهم من ذلك أن نظر هذا السائح الفارسي لم يقع في بلاده على ما يماثلها وأنّ ما وجد منها في الري لا يرتقي عهده في الحقيقة إلا إلى أواخر القرن الثاني عشر. على أن ناصر خسرو رحل في الحادي عشر. وتوجد في هذا النوع صناعة شامية مصرية.

وفي داخل مساجد السلجوقيين في قونية وكلّها من القرن الثلاث عشر صور متأنق في صنعها من المربعات على الكاشاني. وكان محمد بن عثمان المعلم الذي كسا الحوائط بهذا النوع من الفسيفساء (أي الخزف المطلي والكاشاني المقطع) في مدرسة صرت - شالو في مدينة طوس في خراسان وهي المدينة التي أصبحت مدينة المشهد وبقي من ذاك العهد هذا الضرب من الزينة في بورصة والأستانة من البلاد العثمانية.

بدئ بالبحث في الكاشاني الإسباني المغربي منذ عهد طويل وفي سنة 1844 أظهره ريو كرو أمين متحف السيفر للمرة الأولى. أما اليوم فقد ثبت تاريخه أحسن ثبوت. والظاهر أن هذه الصناعة جاءت من بغداد. وربما كان ذلك عن طريق القيروان، وتُعدّ أواني قصر الحمراء من بدائع صناعة مالقة. ويظهر أنها نشأت في القرن الرابع عشر وهو العهد الذي زار ابن بطوطة في هذه المدينة المعامل التي كانت تصنع فيها الأواني الخزفية الجميلة أو الصيني المذهب. والزينة بتصوير الوعول تدل على بقاء شكل قديم لا يتأتى صدوره إلا من الشرق.

أما صناعة الأقداح المزينة بالمينا فلا يليق إغفال الكلام عليها لخطرها. وقد كانت هذه النموذجات من الأقداح في أوائل الفتوحات العربية تستعمل للعيار على صورة أقراص المعجون الكبير كُتبت عليها التواريخ ودرسها المسيو كازانوفا للوقوف على حقيقتها. ثم أنك تجد أكواباً ملونة بضروب الألوان كقوس قزح لطول بقائها في الأرض. وربما اختلطت أحياناً بالأكواب القديمة والأكواب التي نُقشت عليها صوَر مطبوعة يَرغب فيها أرباب الفن رغبةً خاصة مثل الكأس الصغيرة المرسوم عليها أسُود ووعول وقد اقتناها مؤخراً متحفُ اللوفر. وتشير الأقداح المزينة بالمينا ولاسيما مصابيح المساجد المصنوعة من الزجاج التي ربما كانت مأخوذة عن مملكة الروم البيزنطية إلى مهارة صناعها الغريبة على حين تدلّ مادة الزجاج المملوءة بالفقاقيع والعيوب على أنها ما كانت بجودتها ابداً من الطراز الأول. ومن هذه المصابيح مجموعة فيها ستون قطعة في متحف الآثار العربية في القاهرة وهي أتم مجموعة وجدَت.

ومن المحتمل أن هذا الزجاج لم يُصنع في مصر حيث اختُرع الزجاج على قول سياح الروم. وتكلم مؤلفو العرب على زجاج صور وذكر الرحالة بنيامين دي توديل أيضاً شيئاً عنها وقال أنه صادف أيضاً عشرة معامل للزجاج في إنطاكية كما قال يعقوب دي فيتري أنه رأى منها في عكا. وقد نُقلت هذه الصناعة من صور إلى دمشق وفيها رأى الرحالة بوجيبومي سنة 1346 معامل

الزجاج تشتغل على طول المسجد الأموي وقد أخذ تيمورلنك صنّاع الزجاج إلى سمرقند كما فعل بصنّاع الفولاذ. وأثبت كتّاب العرب والفرس أنه كان في حلب والعراق معامل للزجاج أيضاً.

يتبين من الأقمشة العربية أنها كنت بديء بدء مصنوعة على طراز ساساني أو قبطي أو رومي ويستفاد من حفريات (أنصنا) أن الأقمشة الرومية والقبطية صارت كلها شيئاً واحداً بعد وكان التأثير الساساني فيها مستحكماً فإن صوَر الحروب والصيود وصور الفرسان الذين يَعدون مسرعين ويرمون الأيائل والظباء بالنشّاب هي من الكتابات الفارسية. وقد امتلأت ذخائر كنائسنا بقطع من الأقمشة بقيت زماناً لم تعرف البلد التي صنعت فيه وما هي في الحقيقة إلا من صنع الشرق في القرون الوسطى. ثم اشتهرت فارس بعد حين بالأطلس والمخمل (القطيفة) المقطّع وقد رُسمت عليه صور أشخاص وسط الأزاهير المتكاثفة واشتهرت مدينة كاشان بصنع الاستبرق والحبر.

ولما فتح السلطان سليمان طوريس أخذ نُسّاج الحرير إلى البلاد العثمانية وأنشؤا فيها معامل صنعت هذه الأقمشة الحريرية والمخمل المكتّب واشتهرت باسم حرير بورصة. وانتقلت هذه المصنوعات من آسيا الصغرى إلى البندقية وفلورنسة وجين وفرنسا ولم يعودوا يرسمون عليها صور أشخاص واقتُصر في تزيين الأقمشة على الأزهار جعلوها بلا معنى وضعي كما في قطع الأواني الخزفية ويستفيد مما قاله عماري (العالم الإيطالي) أنه كان في صقلية قبل الفتح النورماندي فندق فُرِش بالوشي وكان ملاصقاً لقصر الأمراء الذين كانوا يحكمون على الجزيرة باسم الفاطميين. ودعت حملات روجر الثاني على بلاد اليونان إلى أن يجلب معه إلى باليرمو صناعَ الحرير واسم مانيانري الذي يطلق بالإفرنسية على معامل الحرير جاءنا في الأصل من مدينة مان إحدى مدن جنوبي بلاد المورة اليونانية.

ولما غلب هرقل خسرو الثاني عثرَ الجيش الروماني في قصر يزدجرد (داسكارات الملك) على طنافس مطرزة بالإبرة ووقع في أيدي العرب عندما فتحوا المدائن بسط منسوجة بالذهب والفضة ومرصعة بالأحجار الكريمة. ويعتقدون أن البِسط ذات الوبر الكبير من أصل فارسي ومن فارس يجب أن تطلب إلا أنه لم يبق شيء من تلك العصور المتوغلة في القِدم. ولأجل تنسيق تاريخ البسط رأوا أن يرتبوها بحسب أشكالها والتواريخ التي اهتُدي إليها من صوَر أساليب التصوير الفلامندي والهولاندي والإيطالي. واخترع هذه الطريقة البديعة المسيو لسينج سنة 1877 وكانت أوروبا إذ ذاك غاصّة بالبسط التي تجلبها البندقية وبروج فافتتن المصورون بلطافة ألوانها وجودة

نقشها وبادروا إلى إدخالها في نقوشهم ورسومهم. ويظهر أن البِساط القديم المزيَّن بالصور على أسلوب بديع الذي دخل مؤخراً في ملك متحف الإمبراطور فريدريك في برلين واهتم به كل من المسيو كاراباسيك والمسيو ريجل كان أصله من قونية من مخلَّفات سلاطين السلجوقيين الذي حكموا فيها فهو مما صُنع في القرن الثالث عشر. أما البسط العجمية المرسوم عليها صوَر الطيور فإنها من بدائع ما حاكه كبار صُنع الأيدي. وكذلك الحال في البسط المنقوشة بالأزهار الكبيرة ومصابيح المساجد والأواني فإنها تؤلّف طبقة بديعة أيضاً وعلى العكس في البسط المزينة بصورة مهندسة فإنها من مصنوعات آسيا الصغرى وما زالت إلى اليوم كل من مدينتي «جورودس» و«عشاق» من مراكزها العظيمة.

وبعد فهل من الممكن أن نشير إلى ما أثّرته الصناعة الإسلامية في صنائع الغرب؟. نعم إذا أريد بذلك جمعُ الصنائع الماضية صبرة واحدة وتوحيدها كلها معاً على نحو ما كانت على عهد الفتح العربي وكما يحدث أبداً عندما تنشأ ممالك كبيرة متسعة. وإذ بدّل هذا الفتح وجه الشرق كان الداعي إلى اختلاط آسيا العليا بالغرب في عدة أماكن. وإنك لتجد النقوش المسماة (هوم) بلا داعٍ وقد رُسمت عليها الشجرة المقدسة أو حياة الآشوريين على نحو ما اقتبسها الساسانيون سواء كانت وحدها أو جُعل على جانبيها حيوانات قائمة أو رابضة وكذلك الطريقة القديمة في صراع الحيوانات.

ولقد كانت سفن العرب تتقدم إلى البحر الأتلانتيكي منذ عهد الأسرة الكارولنجية فحمَلَت نقود الأمويين بواسطة الصلات التجارية إلى روسيا وبولونيا والدانمرك والسويد ووجدَت أنسجة مكتوب عليها كتابات كوفية محرفة في أطر أبواب الكنائس في نوتردام في «بوي انفالي» وفي كنيسة فوت شيهان الفرنسويتين وعلى كثير من المصانع وفي بعض المحال كما عثر على مثل ذلك في أبراج كاتدرائية شارتر ونقل المصورون بعض الصور الشرقية بالحرف.

يرى المسيو ميجون أن يدرس صنّاعنا تلك الصنائع لأنها بقوة جمال أشكالها ودقة وضعها وصنعها المعقول ولمعان ألوانها ليس لها ما يشبهها بكثرة الصور واللطف السامي. وقد جرب بعضهم تقييد تلك الصنائع فأفلحوا في اقتباسها على نحو ما فعلوا في قباب زاوية قصر المعرض العام سنة 1889 فوضعوا فوق الحديد الذي يحول بين الأقسام واتخذوه حيطاناً مصفحات من الكاشاني ذي النقوش الفارسية فكانت بذلك أول تجربة نجحت في هذا السبيل.

كان بذخ ملوك المسلمين من الدواعي للصنّاع أن يرقّوا الأساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن أجدادهم شفاهاً فجددوها وتفنّنوا فيها فارتقَت مع عدة أشكال قديمة بعضها من أصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من أخلاف الدولة الأخمانية ولا سيما (في الأمور الصناعية) أو آشوري أو بابلي. ارتقت عدة فروع من الصنائع الإسلامية المنوعة الأساليب وهي ليست من أصل بيزنطي ولا فارسي فيفضّل بعضهم التزيين المهندَس أو النقوش التي تُجعل على هيئة النباتات والأوراق وهو النمط الوحيد الذي بقي في الحقيقة حيث تأصّل مذهب أهل السنة. ويمزج بعضهم فيه صور حيوانات ذات روح وهذه ينبغي نسبتها في أكثر الأحوال إلى تأثير فارس. ومن درَس الصنائع القابلة للتشكل والتحوّل كالهندسة والصنائع اليدوية تتمثل لعينيه القرون الوسطى في الشرق بما أتى به من تمدنه الخاص وما هو إلا مثال المجتمع الذي أوجده القرآن في صورة ظاهرة مؤثرة. فإذا أضيفت إلى ذلك أقوال المؤرخين والجغرافيين لا تلبث أن تطّلع على هذا النظام الاجتماعي الذي يختلف من عدة وجوه عن نظامنا وكان ثقلاً على أوروبا كما كان صلة بين العصور القديمة والعصور الحالية.

الخطابة عند العرب

(1) توطئة

دلّتنا الحربُ الحاضرة على كثير مما ينقصنا من العلوم والصناعات الشائعة عند الأمم الغربية وكانت فاشية في القديم عند أجدادنا. ومن ذلك صناعة الخطابة وهي من أجلّ العوامل في تربية النفوس أيام الحرب والسلم أو في بث دعوة أو سفارة بين متخاصمين أو متحابين وإقناع يوم الحفل، واستمالة الأفكار إلى رأي أو حزب في المجالس والمؤتمرات والمجامع والجوامع، لا تستغني عنها أمة دستورية يحكمها مجلس نوابها إذ أنّ التنفير من مسألة والتذكير بأخرى لا يتم إلا بقوة البيان وسلاطة اللسان وفصاحة الحجة وظهور المحجة. والسبب في قصورنا عن هذه الغاية طول عهدنا بالحكومة الاستبدادية المطلقة حتى إذا انقلبت إلى حكومة شورية أحسسنا بنقص في عامة مكونات الأمم، وكان خطباؤنا المصاقع يعدّون على الأصابع في جميع أدوار مجلسنا النيابي والمبرز منهم من كُتب له أن كان أستاذا في مدرسة أو مدرّساً في جامع، ففتقت ألسنُ أهل هذه الطبقة وقليل ما هي على أيسر وجه لأنها كانت على جانب من الفضل، ومعرفة بأصول المجالس، أما أكثر النواب فكانوا بمعزل عما ينبغي لهم من أدوات الفهم والكلام والحرية، فضاحة فضحتنا بقلة المتكلمين والمفكرين منا، مع أن الخطابة مما أوجبته علينا الشريعة الإسلامية، كما ظهر أمرُنا، وتبيّنَ عجزنا، واستبان إفلاسنا في مسائل العلم والتأليف.

فقد كان بعضهم يوهمون أن طبائع الحكومة المطلقة وهي قائمة بكمّ الألسن وحجز الأقلام هي التي تحول دونهم وما يشتهون من انبعاث عملهم، ونشر أبحاثهم ودروسهم، وظهور أثر فضلهم وأدبهم وتحقيقهم، وربما غالى بعضهم فقال اختراعهم واكتشافهم، وأنهم لا يتوقعون إلا دور انطلاق حتى يظهروا ما كنّته صدورهم من العلوم والفنون. وها نحن نعيش في ظل الحكومة الدستورية منذ

ثماني سنين ولم نشهد أثراً لغير من عُرفوا من قبل بالفهم والعلم، وجلّ ما اتصل بنا أنه نشرت مباحثات ومناقشات قلما تفيد أمة تريد النهوض من طريق العلم والعمل.

نحن موقنون أن التبريز في الخطابة صعب ولكن بالتعلم والمعاناة يصل المرء إلى درجة حسنة في الجملة، وفي العادة أن يكون النوابغ قلائل في كل فنّ، فإذا عُدَّ في الأمة عشرة منهم في كل شأن ومطلب تُعدّ غنية بعلمها وعقلها. ولانحطاط الخطابة الدينية في هذا العهد تأفف كثير من حضور الجمع حتى لا يسمعوا خطباً لاكتها الألسن منذ قرون وليس فيها شيء من النفع. ولقلة المجيدين بل المتوسطين في هذه الصناعة غدا الناس يُسمون خطيباً كل من يرفع عقيرته ولو كان جاهلاً عامياً بل أمياً غبياً. وعلى العكس رأينا في بعض البلاد خطباء بعض المساجد مجودين في الجملة يقولون ما له معنى في الوعظ والإرشاد قد حببوا غشيان المساجد لمن كانوا لا يعرفونها وبتأثير الإخلاص والإجادة والكلام بحسب طبائع القوم، وحاضِر العصر كثر العاملون بأحكام الدين القائمون بتكاليفه.

وبلغت حالة الانحطاط في ضعف البيان وفسولة الرأي والحجة بأكثر خطباء الجوامع ومنهم الأميون الذين لا يكادون يقرأون الكتاب أن أصبحت نصف خطبهم زهداً في الدنيا على غير طريقة السلف المشروعة، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ثم هم يدعون بأدعية مردودة في الشرع شأنهم في بيان فضائل الشهور والأيام والبلدان والجوامع، حتى خطب بعضهم وكان حشوياً جلجلوتياً في أعظم جامع في هذه البلاد عند إرادة الحث على تجديد بنائه فقال إن الصلاة فيه تعادل ثلاثين ألف صلاة وأورد لذلك أحاديث لا تعرفها إلا عقول الوضّاعين والقصاصين. ولطالما خطبوا أن من صام يوم كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر إلى غير ذلك من البدع والفضول التي لم تأت بها شريعة الرسول وقد أنكرها أئمة الفقه والعلم من المتقدمين والمتأخرين ولاسيما شيخ الإسلام ابن تيمية وابن قيم الجوزية المتوفى سنة (751) وابن الحاج المتوفى سنة 737. ولو كان الخطباء على جانب من فهم أسرار الشريعة، ومعرفة طرق البلاغة،وما يصلح الناس، ما عالجوا من الموضوعات ما يرجع بالناس القهقرى، هذا في الخطب الدينية، أما في الخطب المدنية فهي أيضاً تُصرف على ذاك النحو نصفها تجميدات ومقدمات، واعتذارات وسخافات، واستطرادات منوّعات، ولو محّصت لما بقي منها إلا التافه اليسير من المعاني. أمّا تأثيراتها في الأفكار فضعيف جداً ولعل هذا النقص البيّن يتلافاه أساتذة المدارس الابتدائية والوسطى والعليا بتمرين طلبتهم أبداً على الإلقاء وممارسة الكلم الفحل يوم الحفل وفي

النوازل والأمور العامة، فينشأ من هذا الجيل فئات تسد هذا النقص المحسوس المشاهد في طبقة رؤساء الدين ورؤساء الدنيا، ويمرّنَ الجميع على كتابة ما يريدون الخوض فيه وعلى استظهاره أو إلقائه على نحو ما سارت الأمم الحديثة والأمم القديمة الراقية، فينبغ فيها خطباء ووعّاظ ومرشدون، داووا جهالة شعوبهم بأساليب القول الجزل والمنطق الخلاب والبرهان الساطع. وها نحن نحفظ لطلاب هذا الفن الطريق الذي سلكته العرب في تقوية ملكة البيان، معتمدين في النقل على أئمة هذا الشأن، مشيرين إلى تاريخ الخطابة والمجوّدين فيها من أهل هذا اللسان قبل الإسلام وبعده، موردين من الشواهد ما يصح تحديه والنسج على أسلوبه، وذلك بقدر ما يتسع صدر المصادر التي نقتبس منها. ولعل غيرنا ينهض إلى التوسع أكثر من توسعنا في هذا الموضوع الواسع الأطراف تلقيحاً للعقول وإهابة بها إلى ما يصلحها ويزكيها بالبلاغة فنقول:

(2) حدّ الخطابة وأقسامها

نقل ابن رشد: «الخطابة صناعة تتكلف الإقناع الممكن في كل مقولة من المقولات وغايتها إقناع الجمهور فيما يحق عليهم أن يصدقوا به من الأمور السياسية والوظائف الشرعية. وقال أبو البقاء: الخطابة هي الكلام النفسي الموجه به نحو الغير للإفهام. قالوا وليس للخطابة موضوع خاص تبحث عنه بمعزل عن غيره ولذلك كان على الخطيب أن يلمّ بكل صنف من المعارف، فوجب عليه لبلوغ هذه الأمنية أن يتبحر في العلم ويتفنن في ضروب الفهم، حتى كان شيشرون خطيب الرومان يوجب على الخطيب معرفة الفنون الأدبية والرياضيات والرسم والتصوير والنقش والموسيقى وغير ذلك. ومعنى إقناع الجمهور إرضاء السامعين بالبرهان بحيث تكون البلاغة ملكة في الخطيب، وهناك يقتضي له من العلم الواسع ونفاد البصيرة وحضور الذهن وقوة التأثير وطلاقة اللسان ولطيف البيان ما يستميل به الجمهور إليه في موضوع، ويصرف أذهانهم عن أمر ويوجه أنظارهم إلى آخر، ويحرّضهم ويقنعهم، ولذلك أدخل الحكماء الخطابة والشعر في أقسام المنطق كما نُقل عن أرسطو، لأن المقصود منه أن يوصل إلى التصديق، وأصولها عندهم ثلاثة: الأول إيجاد المعاني الحقيقية بالإقناع من الأدلة والآداب، والثاني تنسيق المعاني أي سرد أجزائها على نظام واحد ليحكم تركيب الخطة وارتباط أقسامها بحيث تكون أبين غرضاً وأحسن في النفوس وقعاً، والثالث التغيير الذي يُراعى فيه حال السامع لتصاغ له المعاني في ألفاظ تنتشي بها نفسه وتمتزج بأجزاء فهمه.

ويُمكن إرجاع الخطابة إلى قسمين: الخطابة المدنية والخطابة الدينية، فالمدنية يتصرف تحتها كل ما فيه إصلاح المدينة، والخطابة الدينية كل ما يرجع إلى تطهير النفوس ليكون لأهلها مدنية فاضلة في الدنيا وسعادة شاملة في الأخرى. الخطابة نوع من منثور الكلام يأخذ من النثر تصوير الحقائق وإبلاغها النفوس من دون إتعاب ذهن ولا تكلف في الأداء، ومن النظم سلاسته وتأثيره في النفس، وقد كانت العرب في جاهليتها تقدّم الشاعر على الخطيب بفرط حاجتها إلى الشعر الذي يقيد مآثرها ويفخم شأنها ويهوّل على عدوها ومن غزاها ويهيب من فرسانها ويخوف من كثرة عددها ويهابها شاعر غيرها. قال أبو عمرو بن العلاء: «فلما كثر الشعراء واتخذوا الشعر مكسبة وتسرعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر. وكان لكل قبيلة شاعر كما كان لكل واحدة خطيب. الخطب والوصايا متقاربة، يُقصد بالأولى قومُ لا على سبيل التعيين والتخصيص فتكون في المشاهد والمجامع والأيام والمواسم والتفاخر والتشاجر أمام العظماء والملوك والأمراء والوفود وفي الصلح وإشهار الحرب وفي الخطوب والنوازل، أما الوصايا فتكون لقوم بعينهم في زمن مخصوص على شيء منصوص، وربما كانت من شخص لأهل بيته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض أو أجل أو هجرة في الأرض.

(3) الخطابة والأنبياء

ذكروا أن العرب عُنيت بالخطب في جاهليتها أكثر من عنايتها بها في الإسلام، ولم يظهر لنا سرّ هذا لأنّا رأينا هدي النبيين والمرسلين على خلاف ذلك. رأينا الرسول صلوات الله عليه لم يتعلّم الشعر وما ينبغي له، وكان سيد الخطباء بلا مراء وكلامه خطَب وحِكم، وبسيرته الشريفة اقتدى كبار الصحابة والتابعين والخلفاء والملوك والمرشدين والعلماء العاملين. ولكن كثُر الشعر أكثر من الخطب لأن الشعر أقرب إلى تقييد المآثر والتأثير، ولأنه يحتمل من الخيال والمحال مالا يحتمله الخطاب بحال من الأحوال. قال صاحب (الريحان والريعان): إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنشور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون، إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم في مشافهته الملوك أو الحالات أو الإصلاح بين العشائر أو خطبة النكاح، فإذا انقضى المقام حفظه مَن حفظه ونسيه من نسيَه، بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد. قال ولولا أن خطبة قس بن

ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام وهو إن النبي هو الذي رواها عنه فأطار ذِكرها ما تميزت عمّا سواها.

قال القلقشندي بعد إيراد ما تقدم: «وليس ما أشار إليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به بل لسهولة الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم وخاصّهم وعامّهم، بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصاقع، فلذلك عزّ حفظها وقلّ عنهم نقلها، وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ورؤسائهم ممن فاز بقدَح الفضل، وسبق إلى ذرى المجد، ويخصّون ذلك بالمواقف الكرام والمشاهد العظام والمجالس الكريمة والمجامع الحفيلة، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويثني عليه ثم يذكر ما سنح له من مطابق قصده وموافِقِ طلبه من وعظ يُذكر أو فخر أو إصلاح أو نكاح أو غير ذلك مما يقتضيه المقام.

نعم إن الخطابة صناعة الرسل عليهم السلام لأنهم يدعون إلى الله ويكلّفون بإرشاد الخلق، وهذا يقتضي البلاغة والبيان المتناهي. لذلك قال موسى: {قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي}، وذلك لأنه كان به لعثة فخشي أن يعدّها قومه عيباً ويلووا بوجوههم عن دعوته. أما شعيب عليه السلام فقد سماه نبينا عليه الصلاة والسلام خطيب الأنبياء لما ورد في الكتاب العزيز من أسلوبه البديع في البيان وتلطفه في إبلاغ دعوته إلى أهل مدين الذين غلبت عليهم الشقوة. قال تعالى: «وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من اله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يومٍ محيط ويا قوم اوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ» إلى ان قال: {يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} {وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} {وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ}.

ولشرف الخطابة وتأثيرها في تطهير النفوس أوجبها الشارعُ وسنّها للمسلمين في مساجدهم كل جمعة وعيد وفي الحج أي في عرَفة، وأوجب على الحضور التزام الأدب مع الخطيب بل علّمهم حسن الإصغاء وفي الحديث: إذا قلت لصاحبك والإمام يخطب يوم الجمعة انصِتْ فقد لغوت. ولم

يعين الشارع للخطب الدينية أو خطب الجوامع والمواسم موضوعاً خاصاً بل جعلها مطلقة يتناول الخطيب الكلام من المناسبات الزمنية ويورد للحضور من هدي الشارع ما يهذّب به أرواحهم ويهيب بهم إلى بارئهم ويغرس فيهم مكارم الأخلاق ويطبعهم بطابع الفضائل ويحذّرهم البغي والظلم ويستل بلطيف أسلوبه سخائمهم وأحقادهم ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويزين لهم العمل الصالح ويربأ بهم عن مهلكات الشهوات.

(4) البلاغة للعرب

وفي البيان والتبين كلام طويل على الخطابة وأقوال الشعوبية أي غير العرب فيها وقد رد الجاحظ عليهم بقوله:

«قالوا والخطابة شيء في جميع الأمم وبكل الأجيال إليه أعظم الحاجة حتى أن الزنج مع الغثارة ومع فرط الغباوة ومع كلال الحد وغلط الحس وفساد المزاج لتطيل الخطب وتفوق في ذلك جميع العجم وإن كانت معانيها أجفى وأغلظ وألفاظها أخطأ وأجهل، وقد عِلِمنا أن أخطب الناس الفرس، وأخطب ألفرس أهل فارس وأعذبهم كلاماً وأسهلهم مخرجاً وأحسنهم ولاء وأشدهم فيه تحنكاً أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدرية وباللغة الفهلوية أهل قصبة الأهواز فأما نغمة الهزبذة ونغمة الموبذان فلصاحب تفسير الزمزمة.

قال الجاحظ: «وجملة القول أنا لا نعرف الخطب إلا للعرب والفرس وأما الهند فإنما لهم معان مدونة وكُتب مخلّدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة وآداب على وجه الدهر سائرة مذكورة. ولليونانيين فلسفة وصناعة منطق وكان صاحب المنطق نفسه بكيء اللسان غير موصوف بالبيان، مع عِلمه بتمييز الكلام وتفصيله ومعانيه وبخصائصه، وهم يزعمون أن جالينوس كان انطق الناس ولم يذكروه بالخطابة ولا بهذا الجنس من البلاغة. وفي الفرس خطباء إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم فإنما هو عن طول فكرة وعن اجتهاد وخلوة وعن مشاورة ومعاونة وعن طول التفكر ودراسة الكتب وحكاية الثاني عِلم الأول وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعَت ثمار تلك الفِكر عند أخرهم. وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه الهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همّه إلى الكلام وإلى رجز يوم الخصام أو حين أن يمتح على رأس بئر أويحدو ببعير، أو

عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع أو في حرب، فما هو إلا أن يصرف همّه إلى جملة المذاهب وإلى العمود الذي إليه يقصد فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنهال عليه الألفاظ انثيالاً، ثم لا يقيده على نفسه ولا يدرسه أحداً من ولْدِه. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر أو أكثر، وهم عليه أقدر وأمهر، وكل واحد في نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم أوجز، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد ولا تحفظ ولا طلب، وإن شيئاً الذي في أيدينا جزء منه بالمقدار الذي لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعدد التراب وهو الذي يحيط بما كان والعالم بما سيكون.

«ونحن أبقاك الله إذا أدّعينا للعرب أصناف البلاغة من القصيد والإرجاز ومن المنثور والأسجاع ومن المزدوج وما لا يزدوج، فمَعَنا العِلم على أن ذلك لهم شاهد صادق من الديباجة الكريمة والرونق العجيب والسبك والنمط الذي لا يستطيع أشعر الناس اليوم ولا أرفعهم في البيان أن يقول في مثل ذلك إلا في اليسير والنبذ القليل، ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة وقديمة غير مولدة إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيدة الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لايستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرسائل ويصنع مثل تلك السير. وأخرى أنك متى أخذت بيد الشعوبيّ فأدخلته بلاد الأعراب الخلّص ومعدن الفصاحة التامة ووقفته على شاعر مغلق أو خطيب مصقع علِمَ أن الذي قلت هو الحق وأبصر الشاهد عياناً فهذا فرق ما بيننا وبينهم فتفهّمْ عني فهمك الله ما أنا قائل».

هذه حجة الجاحظ في العرب أن أفصح الأمم وقال أيضاً: «إنّ جميع خطب العرب من أهل المدر والبر والبدو والحضر على حزبين، منها الطوال ومنها القصار. ولكل ذلك مكان يليق به وموضوع يحسن به ومن الطوال ما يكون مستوياً في الجودة ومشاكلاً في استواء الصنعة ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنتف الجياد وليس فيها بعد ذلك شيء يستحق الحفظ، وإنما حفظَها التخليد في بطون الصحف. قال ومتى شاكل أبقاك الله ذلك اللفظ معناه وأعرب عن فحواه وكان لتلك الحال وفقاً ولذلك القد لفقاً وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قميناً بحسن الموقع وبانتفاع المستمِع، وأجدر أن يأمن جانبه من تناول الطاعنين ويحمي عرضه من اعتراض العيّابين، ولا تزال القلوب به معمورة والصدور مأهولة ومن كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه متخيراً في جنسه وكان

سليماً من الفضول بريئاً من التعقيد حُبّب إلى النفوس واتصل بالأذهان والتحم بالعقول ودهشت إليه الأسماع وارتاحت له القلوب وخفّ على ألسن الرواة وشاع في الآفاق ذكره وعظم في الناس خطره وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ورياضة للمتعلم الريض. فإن أراد صاحب الكلام صلاح شأن العامة ومصلحة حال الخاصة وكان ممن يعمّ ولا يخصّ وينصح ولا يغش وكان مشغوفاً بأهل الجماعة شنقاً لأهل الاختلاف والفرقة جُمعت له الحظوظ من أقطارها وسبقت إليه القلوب بأزمّتها وجُمعت النفوس المختلفة الأهواء على محبته وجُبلت على تصويب إرادته، ومن أعاره الله من معرفته نصيباً وأفرغ عليه من محبته ذنوباً حنت إليه المعاني وسلس له نظام اللفظ وكان قد أغنى المستمع من كدّ التكلف وأراح قارئ الكتاب من علاج التفهم. ولم أجد في خطب السلف الطيب والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ولا معاني مدخولة ولا طبعاً ردياً ولا قولاً مستكرهاً، وأكثر ما نجد في خُطَب المولّدين البلديين المتكلفين ومن أهل الصنعة المتأدبين سواءٌ كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب أو كان من نتاج التخير والتفكر.

(5) مكانة الخطابة وعيوب الخطباء

تقدّمَ لك قانون البلاغة الذي وضعه عمرو بن بحر الجاحظ وتدارُسُه يغني طالب الخطابة عن كتاب ورُبَّ مقالة خير من سفر. ولقد عرفت العرب مع ما كانت عليه من الغريزة الفائقة في البيان صعوبة الخطابة وأنها لا يوفَّق إليها إلا أفراد، ولذلك كانت تكرم الخطيب أكثر من إكرام الشاعر وقد ضربت المثل بالخطيب في قولها (الخطب مشوار كثير العثار) والمشوار هو المكان الذي تعرض فيه الدواب وقالوا «عقل المرء فوق لسانه» وكانت تتعاير بالفهاهة وقلة الإجادة في البيان وتقول نعوذ بالله من الإهمال ومن كلال الغرب في المقال ومن خطيب دائم السعال قال بشر بن معمر في مثل ذلك:

ومن الكبائر مقول متعتع ... جمّ التنحنح متعب ميهود

وقال شاعرهم يعيب بعض خطبائهم:

مليء ببهر والثغات وسعلة ... ومسحة عثنون وفتل الأصابع

وضرَبوا المثل بالبلاغة بسحبان وائل فقالوا: فلان أخطَب من سحبان كما ضربوا المثل بالعي في الكلام بباقل فقالوا: فلان أعيى من باقل. وقد جمع الجاحظ في البيان والتبيين كثيراً من أخبار البلاغة والحصر والخطباء والبلغاء والإيمياء ومما قال:

«وليس حفظك الله مضرة سلاطة اللسان عند المنازعة وسقطات الخطل يوم إطالة الخطبة بأعظم مما يحدث عن العي من اختلال الحجة وعن الحصر من فوق درك الحاجة، والناس لا يعيّرون الخرس، ولا يلومون من استولى على بيانه العجز، وهم يذمّون الحصر ويؤنبون العي، فإن تكلفا مع ذلك مقامات الخطباء، وتعاطيا مناظرة البلغاء، تضاعف عليهما الذم، وترادف عليهما التأنيب، ومماتنة (مماطلة) العي الحصر البليغ المصقع في سبيل مماتنة المنقطع المفحم للشاعر المفلق وأحدهما ألوم من صاحبه، والألسنة إليه أسرع. وليس للمجلاج المتردد في كلامه، والتمتام من تسبق كلمته إلى حنكه الأعلى والتمتمة «رد الكلام إلى التاء والميم»، والألسغ الذي يحول لسانه من السين إلى الثاء أو من الراء إلى الغين، والفأفاء مردد الفاء، وذو الحبسة الذي لا يسمع قوله، والحكلة الذي لا يسمع صوته، والرتة «العجمة» وذو اللقف عيٌّ بطيء الكلام إذا تكلم ملأ لسانه فمه، والعجلة في سبيل الحصر في خطبته، والعيّ في مناضلته خصومه، كما أن سبيل المفحم عند الشعراء والبكيء عند الخطباء خلاف سبيل المسهب الثرثار والخطل المكثار.

ثم أعلم أبقاك الله أنّ صاحب التشديق «تكلف البلاغة»، والتقعير«التكلم بأقصى الفم»، والتقعيب «تقصير الكلام» من الخطباء والبلغاء مع سماجة التكلف، وشنعة التزيد، أعذر مِن عيّ يتكلف الخطابة، ومِن حصر يتعرض لأهل الاعتياد والدربة ومدار اللئمة ومستقر المذمة حيث رأيت بلاغة يخالطها التكلف، وبياناً يمازجه التزيد. إلا أن تعاطي الحصر المنقوض مقام الدرب التام أقبح من تعاطي البليغ الخطيب، ومن تشادق الأعرابي القحّ، وانتحال المعروف ببعض الغزارة في المعاني والألفاظ، وفي التحبير والارتجال أنه البحر الذي لا ينزح، والغمر لا يسير أيسر من انتحال الحصر المنخوب «الجبان» أنه في مسلاخ «صفة» التام الموقّر والجامع المحكك وإن كان رسول الله قد قال: إيّاي والتشادق. وقال: أبغضكم إلي الثرثارون المتفيهقون وقال: من بدا جفا، وعاب الغدادين والمتزيدين في جهارة الصوت وانتحال سعة الأشداق، ورحبٍ الفلاحم وهدل الشفاه «إرسالها إلى أسفل» وأعلمنا أن ذلك في أهل الوبر أكثر وفي أهل المدر أقل فإذا عاب المدري بأكثر مما عاب به الوبري فما ظنك بالمولد القروي والمتكلف البلدي.

فالحصر المتكلف والعي المتزيد ألوم من البليغ المتكلف لأكثر مما عنده وهو أعذر لأن الشبهة الداخلة عليه أقوى، فمَن أسوأ حالاً أبقاك الله ممن يكون ألوم من المتشادقين ومن الثرثارين المتفيهقين ومن ذكره النبي نَصّاً وجعل النهي عن مذهبه معسراً وذكر مقته له وبغضه إياه.

قال: «ولما علم واصل بن عطاء أنه ألثغ فاحش اللثغ وإنّ مخرج ذلك منه شنيع إذ كان داعية مقالة ورئيس نحلة وأنه يريد الاحتجاج على أرباب النحل وزعماء الملل، وأنه لابد له من مقارعة الأبطال من الخُطب الطوال، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة وإلى تمام الآلة وأحكام الصنعة وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق وتكميل الحروف وإقامة الوزن، وإنّ حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة وإن ذلك من أكبر ما تستمال به القلوب وتنثني إليه الأعناق وتزين به المعاني، وعلِم واصل أنه ليس معه ما ينوب عن البيان التام واللسان المتمكن والقوة المتصرفة كنحو ما أعطى الله نبيه موسى صلوات الله عليه من التوفيق والتسديد مع لباس التقوى وطابع النبوة ومع المحبة والاتساع في المعرفة ومع هدى النبيين وسمت المرسلين وما يغشيهم الله به من القبول والمهابة ولذلك قال بعض شعراء النبي:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخَبَرِ

ومع ما أعطى الله موسى عليه السلام من الحجة البالغة، والعلامات الظاهرة والبرهانات الواضحة، إلى أن حلَّ تلك العقدة، ورَفَع تلك الحبسة، وأسقط تلك المحنة ومن أجل الحاجة إلى حسن البيان، وإعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة، رام أبو حذيفة إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتى لسره والراحة من هجنته، حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما تأمل، حتى صار لغرابته مثلاً ولظرافته معلماً. ولولا استضافة هذا الجنس وظهور هذه الحال ولما استجرنا الإقرار به والتأكيد له ولست أعني خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة لأن ذلك يحتمل الصنعة، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ومفاوضة الإخوان، واللثغة في الراء تكون بالغين والذال والياء والعين أقلها قبحاً وأوجدها في كبار الناس وبلغائهم وأشرافهم وعلمائهم.

(6) الخطابة ملكة كسبية وفطرية

الخطابة كالكتابة وقرض الشِّعر ملكة فطرية وملكة كَسبية، إذا صاحبت فيها الكسبية الفطرية جاء من الخطيب كلُّ قولٍ عجيب، وقد كان دموستينوس وهو أخطَب خطيبٍ عند اليونان. كما أنّ شيشرون أخطب خطيبٍ عند الرومان -خطب في الجمهور أول مرةٍ ولم يحسن الإلقاء لأنه كان ألثغ مثل واصل بن عطاء شيخ المعتزلة وكان ضعيف الصّوت، فحاول إصلاح ذلك وتمكّن منه بوضع حصاةٍ في فمه وإنشاد آياتٍ وهو يركض على شاطئ البحر ويرتقي الرّوابي والآكام.

قال الجاحظ: «أخبرني محمد بن عباد بن كاسب كاتب زهير مولى بجيلة وكان شاعراً راويةً وطلاّبة علمٍ علاّمة قال: سمعت أبا داوودٍ ابن جرير يقول وقد جرى شيءٌ من ذكر الخطب وتحبير الكلام واقتضابه وصعوبة ذلك المقام وأهواله فقال: تلخيص المعاني رفق، والاستعانة بالغريب عجز، والتشادق من غير أهل البادية بغض، والنظر في عيون الناس غيٌّ، ومس اللحية هلك، والخروج مما بني عليه أول الكلام إسهاب، وقال: وسمعته يقول: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الدربة، وجناحاها رواية الكلام، وحليها الإعراب، وبهاؤها تخيّر اللفظ، والمحبة مقرونةٌ بقلّة الإستكراه.

وذكر محمد بن علي بن عبد الله بن عبّاس بلاغة بعض أهله فقال: إني لأكره أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار علمه كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله، قال أبو عثمان الجاحظ: هذا الكلام شريفٌ نافعٌ، فاحفظوا لفظه وتدبّروا معناه، ثمّ اعلموا أنّ المعنى الحقير الفاسد، والدنيء السّاقط، يعشش في القلوب، ثم يبيض ثم يفرخ فإذا ضرب بجرانه، ومكن بعروقه، استفحل الفساد وبَزَل، وتمكّن الجهل وقرح، فعند ذلك يقوى داؤه، ويمتنع دواؤه، ولأنّ اللفظ الهجين الرديء، والمستكره الغبي، أعلق باللسان، وآلف للمسمع، وأشدّ التحاماً بالقلب، من اللفظ النّبيه الشّريف، والمعنى الرفيع الكريم، ولو جالست الجهّال والنوكى، والسخفاء والحمقى شهراً فقط لم تنقذ من أوضار كلامهم، وخيال معانيهم، بمجالسة أهل البيان والعقل دهراً، ولأنّ الفساد أسرع إلى النّاس، وأشدّ التحاماً بالطبع واللسان، بالتّعلّم والتّكلّم، وبطول الاختلاف إلى العلماء ومدارسة كتب الحكمة، يجود لفظه، ويحسن أدبه، وهو لا يحتاج في الجهل إلى أكثر من ترك التّعلّم، وفي فساد البيان إلى أكثر من ترك التخيّر».

قال معاوية بن أبي سفيان لصحار بن عياش العبدي ما هذه البلاغة التي فيكم قال: شيءٌ تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا فقال له رجلٌ من عرض القوم يا أمير المؤمنين هؤلاء بالبسر

والرطب أبصر منهم بالخطب، فقال صحار: أجل والله لنعلم انّ الريح لتنقحه، وأن البرد ليعقده، وأنّ القمر ليصبغه، وأنّ الحرَّ لينضجه.

قال أبو عثمان: «قال صاحب البلاغة والخطابة، وأهل البيان وحبّ التبيين، إنما عاب النبيّ صلى الله تعالى عليه وسلّم المتشادقين والثرثارين والذي يتخلل بلسانه، كما تتخلل الباقرة بلسانها، والأعرابي المتشادق، هو الذي يصنع بفكّيه وشدقيه ما لا يستجيزه أهل الأدب من خطباء أهل المدر، فمن تكلّف ذلك منهم فهو أعيب والذمّ له ألزم. وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدّة أمثالٍ سائرة، ولم يكن الناس جميعاً يتمثّلون بها إلا لما فيها من المرافق والإنتفاع، ومدار العلم على الشّهد والمثل، وإنما حثّوا على الصمت لأنّ العامّة إلى معرفة خطأ القول أسرعُ منهم إلى معرفة خطأ الصمت. ومعنى الصامت في صمته، أخفى من معنى القائل في قوله، وإلا فالسكوت عن قول الحقّ، في معنى النطق بالباطل. ولعمري أنّ النّاس إلى الكلام لأسرع، لأنّ في أصل التركيب أنّ الحاجة إلى القول والعمل أكثر من الحاجة إلى ترك العمل، والسكوت عن جميع القول، وليس الصّمت كلّه أفضل من الكلام كلّه، ولا الكلام كلّه أفضل من السكوت كلّه، بل قد علّمنا أن عامّة الكلام، أفضل من عامّة السكوت، وقد قال الله عزّ وجلّ: (سمّاعون للكذب أكّالون للسّحت) فجعل سمعه وكذبه سواءً، وقال الشاعر:

بني عديّ ألا ينهى سفيهكم　　　أنّ السّفيه إذا لم ينهَ مأمورُ

وقال آخر:

فإن أنا لم آمر ولم أنهَ عنكما　　　ضحكت له حتى يلج ويستشري

وكيف يكون الصمت أنفع، والإيثار له أفضل ونفعه لا يكاد يجاوز رأس صاحبه، ونفع الكلام يعمّ ويخصُّ، والرواة لم يرووا سكوت الصامتين، كما روت كلام الناطقين، وبالكلام أرسل الله أنبيائه لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصّمت يفسد البيان. وقال ابو بكر بن عبد الله المرني: طول الصّمت حبسةٌ كما قال عمر: ترك الحركة عقلة. وإذا ترك الإنسان القول ماتت خواطره وتبدّلت نفسه، وفسد حسّه، وكانوا يروّون صبيانهم الأرجاز، ويعلّمونهم المناقلات، ويأمرونهم برفع الصوت، وتحقيق الإعراب، لأنّ ذلك يفتق اللهاة، ويفتح الجرح (الصوت)، واللسان إذا أكثرت تحريكه رقّ ولان، وإذا أقللت تقليبه

وأطلت إسكاته جسا وغلظ»، وقال عباية الجعفي: «لولا الدربة وسوء العادة، لأمرت فتياننا أن يماري بعضهم بعضاً، وأية جارحةٍ مَنَعتَها الحركة ولم تمرنها على الأعمال، أصابها من التعقّد على حسب ذلك المنع».

(7) نصائح لمن يتطال للخطابة

مرّ بشر بن المعتمر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكوني الخطيب وهو يعلّم فتيانهم الخطابة فوقف بشر فظنّ إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النظارة فقال بشر: «اضربوا عمّا قال صفحاً، واطووا عنه كشحاً»، ثم دفع إليهم صحيفةً من تحبيره وتنميقه وكان أول ذلك الكلام: «خذ من نفسك ساعة نشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها إياك، فإنّ قليل تلك الساعة أكرم جوهراً وأشرف حسباً، وأحسن في الإسماع، وأحلى في الصّدر، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل عين، وعزّةٌ من لفظٍ شريفٍ ومعنىً بديع، واعلم أنّ ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكدّ والمطاولة والمجاهدة، وبالتّكلّف والمعاودة، ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولاً قصداً، وخفيفاً على اللسان سهلاً، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه، وإياك والتوعر فإنّ التوعر يسلّمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك، ومن أراع معنىً كريماً فليلتمس له لفظاً كريماً، فإنّ حقّ المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجّنهما وعما تعود من أجله إلى أن يكون أسوأ حالاً منك قبل أن تلتمس إظهارهما، وترتهن نفسك بملابسهما وقضاء حقّهما، وكن في ثلاث منازل، فإنّ أولى الثلاث أن يكون لفظك رشيقاً عذباً، وفخماً سهلاً، ويكون معناك ظاهراً مكشوفاً وقريباً معروفاً، أما عن الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وأما عن العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرّف بأن يكون من معاني الخاصّة، وكذلك ليس يتصنّع بأن يكون من معاني العامّة، وإنما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكلّ مقامٍ من المقال، وكذلك اللفظ العامي والخاصّي فإن أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك، وبلاغة قلمك، ولطف مداخلك وإقدارك على نفسك، على أن تفهم العامّة معاني الخاصة، تكسوها الألفاظ الواسطة التي لا تلطف عن الدهماء، ولا تجفو عن الأكفّاء، فأنت البليغ التام.

قال بِشر: فلمّا قرئت على إبراهيم قال لي: أنا أحوج إلى هذا من هؤلاء الفتيان. قال أبو عثمان: أما أنا فلم أرَ قوماً قطّ أمثل طريقةً في البلاغة من الكتّاب فإنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشيّاً ولا ساقطاً سوقيّاً وإذا سمعتموني أذكر العوام، فإنّي لست أعني الفلاحين والحشوة، والصّنّاع والباعة، ولست أعني الأكراد في الجبال، وسكان الجزائر في البحار، ولست أعني من الأمم مثل البرد والطّيلسان، ومثل موقان وجيلان، ومثل الزنج وأمثال الزّنج، وإنما الأمم المذكورون من جميع النصّ أربع: العرب وفارس والهند والروم، والباقون همجٌ وأشباه الهمج. وأما العوام من أهل ملّتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التي عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم لم يبلغوا منزلة الخاصّة منا، على أنّ الخاصّة تتفاضل في الطبقات أيضاً.

ثم رجع بنا القول إلى بقية كلام بشر بن المعتمر إلى ما ذكر من الأقسام قال بشر: فإن كانت المنزلة الأولى لا تواتيك ولا تعتريك ولا تسنح لك عدّ أول نظرك وفي أول تكلفك، وتجد اللفظة التي لم تقع موقعها، ولم تصل إلى قرارها وإلى حقّها من أماكنها المقسومة لها، والقافية لم تحل في مركزها، وفي نصابها ولم تتصل بشكلها، وكانت قلقة في مكانها نافرة عن موضعها فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها. فإنك إذا لم تتعاطَ قريض الشّعر الموزون ولم تتكلّف اختبار الكلام المنثور، لم يعبك بتْرَكَ ذلك أحدٌ، وإن أنت تكلّفتها ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لسانك، بصيراً بما عليك أو ما لك، عابك من أنت أقلُّ عيباً منه ورآى من هو دونك أنه فوقك.

فإن ابتليت بأن تتكلّف القوم وتتعاطى الصنعة، ولم تسمح لك الطّباع في أول وهلةٍ، وتعصى عليك بعد إجابة الفكرة، فلا تعجل ولا تضجر، ودعه بياض يومك أو سواد ليلك، وعوده عند نشاطك وفراغ بالك بأنك لا تعدم الإجابة والموافاة إن كانت هناك طبيعة، أو جريت من الصناعة على عرق، فإنّ تمنع ذلك عليك بعد ذلك من غير حادثً شغل عرَض، ومن غير طول إهمال. والمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصّناعة إلى أشهر الصناعات إليك وأخفّها عليك، فإن لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسبٌ والشيء لا يحسن إلا إلى ما يشاكله، وإن كانت المشاكلة قد تكون في طبقات لأنّ النفوس لا تجود بمكنونها مع الرغبة ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود به مع المحبة والشهوة.

(8) ما يجب على الخطيب وما لا يجب

قالوا: وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين اقدار المستمعين وبين اقدار الحالات فيجعل لكل طبقةٍ من ذلك كلاماً ولكل حالةٍ من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات، فإن كان الخطيب متكلّماً تجنّب ألفاظ المتكلّمين كما انه إن عبّر عن شيءٍ من صناعة الكلام واصفاً أومجيباً أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المتكلّمين إذا كانوا لتلك العبارات أفهم وإلى تلك الألفاظ أميل وإليها أحسن وبها أشغف، ولأنّ كبار المتكلّمين ورؤساء النّظّارين كانوا فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء، وهم تخيّروا تلك الألفاظ لتلك المعاني وهم اشتقّوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسمٌ فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوةً لكل تابع.

قالوا: وقبيحٌ بالخطيب أن يقوم بخطبة العيد أو يوم السماطين أو على المنبر أو في سدّة دار الخلافة أو في يوم جمعٍ وحفل إما في إصلاحٍ بين العشائر واحتماء دماء القبائل واستلال تلك الضعائن والسّخائم فيقول كما قال بعض من خطب على منبرٍ ضخم الشّأن رفيع المكان: ثمّ إنّ الله عزّ وجلّ بعد أن أنشأ الخلق وسوّاهم ومكّن لهم لاشاهم فتلاشوا ولو أنّ المتكلّم افتقر إلى أن يلفظ بالتّلاشي لكان ينبغي أن يؤخذ فوق يده، وخطب آخرٌ في وسط دار الخلافة فقال في خطبته: وأخرجه الله من باب الليسية فأدخله في باب الأيسية.

قال: وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميّاً ساقطاً سوقيّاً فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشيّاً إلا أن يكون المتكلم بدويّاً أعرابيّاً وكلام الناس في طبقاتٍ كما أنّ الناس أنفسهم في طبقات فمن الكلام الجزل والسّخيف والمليح والحسن والقبيح والسميج والخفيف والثّقيل وكله عربيٌّ وبكلٍّ قد تكلّموا وبكلٍّ قد تمادحوا وتعايبوا.

فإن زعم زاعمٌ أنه لم يكن في كلامهم تفاضلٌ ولا بينهم في ذلك تفاوتٌ فلِمَ ذكروا العيّ والكيّ والحصر والمفحم والخطل والمسهل والمتشدّق والتّفيهق والمهماز والثرثار والمكسار والهمّاز، ولم ذكروا الهجر والهذر والهذيان والتخليط وقالوا رجل تلقاعة (كثير الكلام) وتلهاعة (متشدّق) وفلانٌ يتلهيع في خطبته وقالوا فلانٌ يخطىء في جوابه ويحلّ في كلامه ويناقض في خبره ولو أنّ هذه الأمور قد كانت تكون في بعضهم دون بعض لما سمّي ذلك البعض والبعض الآخر بهذه الأسماء.

وأنا أقول أنه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذّ في الإسماع ولا أشدّ اتّصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء العلماء البلغاء.

يروى أن مطرف بن عبد الله كان يقول: لاتطعم طعامك من لا يشتهيه. ويقول: لا تقبل بحديثك على من لا يقبل عليك بوجهه. وقال عبد الله بن مسعود: حدّث الناس ما حدّجوك بأسماعهم ولحظوك بأبصارهم فإذا رأيت منهم فترةً فأمسك قال: وجعل ابن السمّاك يوماً يتكلّم وجارية له حيث تسمع كلامه فلمّا انصرف إليها قال لها كيف سمعت كلامي قالت: ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده فقال: أردده حتّى يفهمه من لم يفهمه قالت: الى أن يفهمه من لم يفهمه يكون قد ملّه من فهمه. قال عبّاد بن عوام عن شعبة عن قتادة قال: مكتوبٌ في التّوراة لا يعاد الحديث مرّتين. وسفيان بن عيينة عن الزّهري قال: إعادة الحديث أشدّ من نقل الصخر. وقال بعض الحكماء: من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤنة الاستماع منك وجملة القول في التّرداد نفسه أنه ليس فيه حد يحصره من العوام والخواص.

قال تمامة بن أشرس: كان جعفر بن يحيى أنطق الناس قد جمع الهدوء والتّسهل والجزالة والخلاوة وإفهاماً يغنيه من الإعادة ولو كان في الأرض ناطقٌ يستغني بمنطقه عن الإشارة لاستغنى جعفر عن الإشارة كما استغنى عن الإعادة وقال مرّة: ما رأيت أحداً كان لا يتجسس ولايتوقف ولا يتلجلج ولا يتنحنح ولا يرتقب لفظاً كان قد استدعاه من بعد ولا يلتمس التّخلص إلى معنى قد تعصى عليه طلبه أشد اقتداراً ولا أقل تكلّفاً من جعفر بن يحيى. وقال تمامة: قلت لجعفر بن يحيى ما البيان: قال أن يكون الاسم يحيط بمعناك ويجلي عن مغزاك وتخرجه من الشّركة وتستعين عليه بالفكرة والذي لابدّ منه أن يكون سليماً من التّكلف بعيداً من الصنعة بريئاً من التّعقيد غنيّاً عن التّأويل.

قال أبوعثمان: أعيبُ عندهم من دقّة الصّوت وضعف مخرجه وضعف قوته أن يعترض الخطيب البهر والارتعاش والرّعدة والعرق قال أبو الحسن قال سفيان بن عيينة: تكلّم صعصعة عند معاوية فعرق فقال معاوية: بهرك القول فقال صعصعة: إنّ الجياد نضّاحةٌ بالماء. والفرس إذا كان سريع العرق وكان هشّاً كثير العَرق كان ذلك عيباً وكذلك هو في الكثرة وإذا أبطأ ذلك وكان قليلاً قيل قد كبا وهو فرسٌ كابٍ وذلك عيب أيضاً.

(9) نصائح لطالب الإجادة في خطبه

رأيت بما مضى بعض العيوب التي يجب على الخطيب أن يربأ بنفسه عنّا مما ذكره أبو عثمان الجاحظ وهاك الآن قطعةً أخرى له قال: «قال بعض الرّبّانيين من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التّشادق والتعمق ويبغض الإغراق في القول والكلف والإجتلاب ويعرف أكثر أدواء الكلام ودواؤه وما يعتري المتكلّم من الفتنة بحسن ما يقول ويعرض للسامع من الافتتان بما يسمع والذي يورث الاقتدار من التّهكّم والتسلّط والذي يمكّن الحاذق المطبوع من التّمويه للمعاني والخلاّبة وحسن المنطق. قال في بعض مواعظه: أنذركُم حسن الألفاظ وحلاوة مخارج الكلام فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ومنحه المتكلم قولاً مقنعاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملأ والمعاني إذا كُسيت الألفاظَ الكريمة وأُلبِست الأوصاف الرفيعة تحولت في العيون عن مقادير صورها وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زيّنت وعلى حسب ما زُخرفت، فقد صارت الألفاظ في معنى المعارض وصارت المعاني في معنى الجواري والقلب ضعيفٌ وسلطان الهوى قويٌّ ومدخل خدع الشيطان خفيٌّ فاذكر هذا الباب ولا تنسه وتأمّله ولا تفرّط فيه، فإنّ عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه لم يقل للأحنف بعد أن احتبسه حولاً مجرَّماً (تامَّاً) ليستكثر منه وليبالغ في تصفح حاله، والتّنفيرعن شأنه إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد كان خوَّفنا من كلّ منافق عليم وقد خفت أن تكون منهم إلا لما كان راعه من حسن منطقه ومال إليه لمّا رآى من رفقه وقلّة تكلّفه. قال الجاحظ: فالقصد من ذلك أن تجتنب السّوقيّ والوحشيّ ولا تجعل همّك في تهذيب الألفاظ وشغلك في التّخلّص إلى غرائب المعاني وفي الإختصار بلاغٌ وفي التوسّط مجانبة للوعورة وخروجٌ من سبيل من لا يحاسب نفسه. وقال أحد العلماء وجرى شيءٌ من ذكر الخطب وتمييز الكلام: تلخيص المعاني رفقٌ والاستعانة بالغريب عجز والتّشادق في غير أهل البادية نقص والنّظر في عيون النّاس عيٌّ ومس اللحية هلكٌ والخروج مما بني عليه الكلام إسهاب. وكان يقول: رأس الخطابة الطّبع وعمودها الدّربة وحليّها الإعراب وبهاؤها تحبير اللفظ والمحبّة مقرونة بقلّة الاستكراه وأنشد في خطبة إياد:

يومون باللفظ الخفيّ وتارةً وحي الملاحظ خيفة الرقباء

وقد ردّ الجاحظ على من زعم أنّ البلاغة أن يكون السّامع يفهم معنى القائل وجعل الفصاحة واللكنة والخطأ والصواب والإغلاق والإبانة والملحون والمعرّب كلّه سواءً وكلّه بياناً قال: وكيف

يكون ذلك كلّه بياناً ولولا طول مخالطة السّمع للعجم سماعه لمفاسد من الكلام لما عرفه ونحن لم نفهم عنه إلا للنّقص الذي فينا وأهل هذه اللغة وأرباب هذا البيان لايستدلّون على معاني هؤلاء بكلامهم كما لا يعرفون ركاكة الرّوميّ والصقلبيّ وإن كان هذا الاسم إنما يستحقونه بأنّا نفهم عنهم كثيراً من حوائجهم فنحن قد نفهم بحمحمة الفرس كثيراً من حاجاته ونفهم بضغاء السّنّور كثيراً من إرادته وكذلك الكلب والحمار والصبيّ الرضيع.

قال: وكانوا يمدحون شدّة العارضة وقوّة اللسنة وظهور الحجّة وثبات الجهاد وكثرة الرّيق والعلوّ على الخصم ويهجون بخلاف ذلك. ثمّ قال: وهم وإن كانوا يحبّون البيان والطلاقة والتحبير والبلاغة والتخلّص والرشاقة فإنهم كانوا يكرهون السلاطة والهذر والتّكلّف والإسهاب والإكثار لما في ذلك من التزيّد والمباهاة واتّباع الهوى والمنافسة في العلوّ والقدر وكانوا يكرهون الفضول في البلاغة لأنّ ذلك يدعو إلى السلاطة والسلاطة تدعو إلى البذاء وكلّ مراءٍ في الأرض فإنّما هو من نتاج الفضول، ومن حصّل كلامه وميّزه وحاسب نفسه وخاف الإثم والذمّ أشفق من الغرارة وسوء العادة وخاف ثمرة العجب وهجنة القبح وما في حبّ السمعة من الفتنة وما في الرّياء من مجانبة الإخلاص.

قال: وكانوا يأمرون بالتبيّن والتثبّت وبالتحرّز من زلل الكلام ومن زلل الرأي ومن الرأي الدبّري، والرأي الدبّري هو الذي يعرض منه الصواب بعد مضي الرأي الأول وفوت استدراكه وكانوا يأمرون بالتحلّم والتعلّم وبالتقدّم في ذلك أشدّ التقدم. قال: أوصيك أن لا تدع التماس البيان والتبيين إن ظننت أنّ لك فيهما طبيعةً وأنهما يناسبانك بعض المناسبة ويشاكلانك في بعض المشاكلة ولا تهمل طبيعتك فيستولي الإهمال على قوة القريحة ويستبدّ بها سوء العادة، وإن كنت ذا بيانٍ وأحسست من نفسك بالنّفوذ في الخطابة والبلاغة وبقوة المنّة يوم الحفل فلا تقصّر في التماس أعلاها سورةً وأرفعها في البيان منزلةً ولا يقطعنّك تهيّب الجلاء وتخويف الجبناء ولا تصرفنّك الروايات المعدولة عن وجوهها والأحاديث المتناولة على أقبح مخارجها. فإن أردت أن تتكلّف هذه الصّناعة وتنسب إلى هذا الأدب فقرضت قصيدةً أو حبرت خطبةً أو ألّفت رسالةً فإياك أن تدعوك ثقتك بنفسك ويدعوك عجبك بثمرة عقلك إلى أن تنتحله وتدّعيه ولكن اعرضْه على العلماء في عرض رسائل أو إشعارٍ أو خطبٍ فإن رأيت الأسماع تصغي له والعيون تحدّج إليه ورأيت من يطلبه ويستحسنه فانتحله فإن كان ذلك في ابتداء أمرك وفي أول تكلّفك فلم ترَ طالباً ولا مستحسناً فلعله أن يكون ما دام ريّضاً قضيباً أن يحلَّ عندهم محلّ المتروك. فإن عاودت أمثال ذلك مراراً فوجدت الأسماع عنه

منصرفة والقلوب لاهية فخذ في غير هذه الصناعة واجعل رائدك الذي يكذّبك حرصهم عليه أو زهدهم فيه. قال: وقد يكون الرجل له طبيعة في الحساب وليس له طبيعة في الكلام ويكون له طبيعة في التجارة وليس له طبيعة في الفلاحة ويكون له طبيعة في الحداء أو في التعبيرات في القراءة بالألحان وليس له طبيعة في الغناء، وإن كانت هذه الأنواع كلّها ترجع إلى تأليف اللحون ويكون له طبيعة في الناي وليس له طبيعة في السرناي ويكون له طبيعةٌ في القصبتين المضمومتين ويكون له طبع في صناعة اللحون ولا يكون له طبع في غيرها، ويكون له طبع في تأليف الرسائل والطب والأسجاع ولا يكون له طبع في قرض بيت شعر ومثل هذا كثيرٌ جدّاً.

وقال: ليس في الأرض كلام هو أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذّ في الأسماع ولا أشدّ اتصالاً بالعقول السّليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء والعلماء البلغاء، وقد أصاب القوم في عامّة ما وصفوا إلا أنّي أزعم أنّ سخيف الألفاظ مشاكلٌ لسخيف المعاني وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ومن الألفاظ الشريفة الكريمة من المعاني كما أنّ النّادرة الباردة جدّاً قد تكون أطيب من النّادرة الحارّة جدّاً وإنما الكرب الذي يختم على القلوب ويأخذ بالأنفاس النادرة الفاترة التي لا هي حارّة ولا هي باردة وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط، وإنما الشّأن في الحارّ جداً والبارد جداً وكان محبر بن عباد بن كاسب يقول: والله لفلانٌ أثقل من مغنً وَسَط وأبغض من ظريفٍ وسطٍ. قلنا: وهذا يشبه ما قاله لابروبير في كتابه الأخلاق: من الأشياء ما لا يطاق فيه التوسط: الشعر والموسيقى والتصوير والخطاب العامّ. قال إسحاق بن حسّان بن فوهة: لم يفسّر البلاغة تفسير ابن المقفّع أحدٌ حين سئل ما البلاغة قال: البلاغة اسمٌ جامعٌ لمعانٍ تجري في أمور كثيرة منها ما يكون في السكوت ومنها ما يكون في الاستماع ومنها ما يكون في الإشارة ومنها ما يكون في الحديث ومنها ما يكون في الاحتجاج ومنها ما يكون جواباً ومنها ما يكون ابتداءً ومنها ما يكون شعراً ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ومنها ما يكون رسائل. فعامةً ما يكون من هذه الأبواب الوحي فيها والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة فأما الخطب بين السماطين وفي إصلاح ذات البين فالإكثار في غير خطل والإطالة في غير إملال وليكن في صدر كلامك دليلٌ على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيته كأنّه يقول: فرقٌ بين صدر خطبة النكاح وبين صدر خطبة العيد وخطبة الصّلح وخطبة المذاهب حتى يكون لكل فنٍّ من ذلك صدرٌ يدل على عجزه فإنه لا خير في كلامٍ لا يدلّ على معناك ولا يشير إلى مغزاك وإلى العمود الذي إليه قصدت والغرض

الذي إليه نزعت قال فقيل له فإن ملَّ المستمع الإطالة التي ذكرت أنها حقّ ذلك الموقف قال: إذا أعطيت لكل مقامٍ حقّه وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام وأرضيت من يعرف حقوق الكلام فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو فإنه لا يرضيهما شيءٌ وأما الجاهل فلست منه وليس منك ورضا جميع الناس شيءٌ لا ينال.

(10) خطباء الجاهلية والإسلام

قال الجاحظ: كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم أن نذكر أسماء الجاهلية على مراتبهم. وأسماء أهل الإسلام على منازلهم ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء ونقسّم أمورهم باباً باباً على حدته ونقدم من قدَّمه الله عز وجل ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم في النسب وفضَّله في الحسب ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم في الجملة.

في الخطباء من يكون شاعراً ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتج بليغاً مفوهاً بيّناً وربما كان خطيباً فقط وشاعراً فقط وبيّن اللسان فقط ومن الشعراء الخطباء الأنبياء الحكماء قس بن ساعدة الأيادي والخطباء كثير والشعراء أكثر منهم. ومن يجمع الخطابة والشعر قليل ومنهم عمرو بن الأهتم المنقري وهو المكحل. ومن الخطباء الشعراء البعيث المجاشّعي واسمه خدّاش بن بشر بن لبد، ومن الخطباء الطّرماح بن حكيم الطائي وكنيته أبو نفر، ومنهم عمران بن حطّان وكنيته أبو شهاب رئيس القعدة من الصفرية وصاحب فتياهم ومقرعهم عند اختلافهم ومنهم دغفل بن حنظلة النسابة الخطيب العلاّمة، ومنهم القعقاع بن شور، ومنهم نصر بن سيار أحد بني ليث بن بكر صاحب خراسان، ومنهم زيد بن جندب الأيادي وعجلان بن سحبان الباهلي وهو سحبان وائل وخطيب العرب.

ومن الشعراء العلماء أعشى همدان ومن الشعراء الخطباء عمران بن عصام العرني ومن خطباء الأمصار وشعرائهم والمولدين منهم بشار الأعمى وهو بشار بن برد وكنيته أبو معاذ. ومن الخطباء الشعراء ومن يؤلّف الكلام الجليل ويصنع المناقلات الحسان ويؤلّف الشعر والقصائد الشريفة مع بيان عجيب ورواية كثيرة وحسن دل وإشارة عيسى بن دأب أحد بني ليث بن بكر وكنيته أبو الوليد. ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطبة والشعر الجيّد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن كلثوم بن عمر والعتابي وكنيته أبو عمرو. وممن جمع الشعر والخطب والرسائل

الطوال والقصار والكتب الكبار المجلدة والسير الحسان المولدة والأخبار المدونة سهل بن هرون بن راهييوني الكاتب صاحب كتاب ثعلة وعفرة في معارضة كليلة ودمنة وكتاب الأخوان وكتاب المسائل وكتاب المخزومي والهذلية وغير ذلك من الكتب ومن الخطباء الشعراء علي بن إبراهيم بن جبلة بن مخرمة ولا أعلمه يكنى إلا أبا الحسن.

ذكر الجاحظ ثمامة بن أشرس فقال: ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه وكان لفظه في وزن إشارته. ومعناه في طبقة لفظه ولم يكن لفظه إلى سمعِك بأسرع من معناه إلى قلبك. قال بعض الكتاب: معاني ثمامة الظاهرة في ألفاظه الواضحة في مخارج كلامه. كما وصف الخريمي شعر نفسه في مديح أبي دلف حيث يقول:

له كلم فيك معقولة إزاء القلوب كَرَكْبٍ وقوفِ

كان الفضل بن عيسى الرقاشي من أخطب الناس وكان متكلماً وكان قاضياً مجيداً وكان يجلس إليه عمرو بن عبيد وهشام بن حسام وأبان بن أبي عباس وكثير من الفقهاء وهو رئيس الفضيلة وإليه ينسبون. وكان يزيد بن أبان عم الفضل بن عيسى بن أبان الرقاشي من أصحاب أنَس والحسن كان يتكلم في مجلس الحسن وكان زاهداً عائداً وعالماً فاضلاً وكان خطيباً وكان قاضياً مجيداً. قال أبو عبيدة: وكان أبوهم خطيباً وكذلك جدُّهم. وكانوا خطباء الأكاسرة فلما سبوا وولد لهم الأولاد في بلاد الإسلام وفي جزيرة العرب نزعهم ذلك العرق فقاموا في أهل هذه اللُغة كمقامهم في أهل تلك اللُغة وفيهم شعر وخطب وما زالوا كذلك حتى أصهر الغرباء إليهم ففسد ذلك العِرق ودخله الخور. ومن الخطباء زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. وكان شاعراً بيناً وخطيباً لسناً، ومن أهل الدهاء والنكراء، ومن أهل اللسن واللقن والجواب العجيب والكلام الصحيح والأمثال السائرة والمخارج العجيبة هند بنت الحسن وهي الزرقاء، وجمعة بنت حابس.

ومن الخطباء خالد بن سلمة المخزومي من قريش، وأبو ماضر وسالم وقد تكلم عند الخلفاء. ومن خطباء بني أسيد الحكم بن زيد بن عمّير وقد رَأَس. ومن أهل اللسن منهم البيان الحجاج بن عمّير بن زيد.

ومن الخطباء سعيد بن العاصي بن سعيد العاصي بن أمية. قيل لسعيد بن المسيب من أبلغ الناس: قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له: ليس من هذا نسألك قال: معاوية وابنه وسعيد وابنه وما كان ابن الزبير بدونهم ولكن لم يكن لكلامه طلاوة مقبولة. فمن العجب أن ابن الزبير ملأ دفاتر العلماء كلاماً وهم لا يحفظون لسعيد بن العاصي وابنه العاصي من الكلام إلا ما له بال.

ومن الخطباء عمرو بن سعيد وهو الأشدق وسعيد بن عمرو بن سعيد وكان ناسباً خطيباً وأعظم الناس كبراً وهو خطيب ابن خطيب ابن خطيب. ومن الخطباء سهيل بن عمرو الأعلم أحد بني حسل بن معيص. ومن الخطباء عبد الله بن عروة ابن الزبير قالوا وكان صفوان يشبه به وما علمت أنه كان في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شبيبة الذي يحفظ الناس ويدور على ألسنتهم من كلامهما وما علمنا أن أحداً ولد لهما حرفاً واحداً.

ومن النسابين العلماء عتبة بن عمرو بن عبد الرحمن الحارث بن هشام وكان من ذوي الرأي والدهاء وكان ذا منزلة من الحجاج بن يوسف وعمرو بن الرحمن خامس خمسة في الشرف وكان هو الساعي بين الأزد وتميم في الصلح. ومن بني الحرقوس شعبة بن القلعم. وكان ذا لسان وجواب عارضة وكان وصافاً فصيحا وبنوه عبد الله وعمرو وخالد كلهم كانوا في هذه الصنعة غير أن خالداً كان قد جمع بين بلاغة اللسان والعلم والحلاوة والظروف وكان الحجاج لا يصبر عنه.

ومن بني أسيد بن عمرو بن تميم أبو بكر بن الحكم كان ناسبة راوية شاعراً وكان أحلى الناس لساناً وأحسنهم منطقاً وأكثرهم تصرفاً، ومنهم معلل بن خالد أحد بني أنمار بن الهجيم وكان نسّابة علامة راوية صدوقاً مقلداً ومنهم من بني العنبر ثم من بني عمرو بن جندب أبو الخنساء عباد بن كسيب وكان شاعراً علاّمة وراوية نسّابة وكانت له حرمة بابي جعفر المنصور ومنهم عمرو بن خولة كان ناسباً خطيباً وراوية فصيحاً من ولد سعيد بن العاصي والذي أتى سعيد بن المسيب ليعلمه النسب، ومن خزاعة بن مازن أبو عمرو بن العلاء وأخوه أبو سفيان، ومنهم أبو نوفل بن أبي عقرب كان نائباً خطيباً فصيحاً وهو رجل من كنانة أحد بني عريج ومن بني كنانة ثم من بني ليث ثم من بني الشداخ يزيد بن بكر بن دلب وكان يزيد عالماً ناسباً وراوية شاعراً. وولد يزيد بن يحيى وعيسى وهو الذي يعرف في العامة بابن داب وكان من أحسن الناس حديثاً وبياناً وكان شاعراً راوية وصاحب رسائل وخطب وكان يجيدها جداً.

وكان أبو الأسود الديلي وأسمه ظالم بن عمر بن جندل ابن سفيان خطيباً عالماً وكان قد جمع شدة العقل وصواب الرأي وجودة اللسان وقول الشعر والظرف، ومنهم زياد بن ظبيان التميمي العاشي وكذلك ابنه عبيد الله كان أفتك الناس وأخطب الناس. ومنهم صعصعة بن صوحان من خطباء الخوارج وعبيد الله بن زياد ويضرب به المثل. وكان عثمان بن عروة أخطب الناس وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً، وفصيحاً جامعاً، وجيه الرأي كثير الأدب، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء.

ومن خطباء قريش خالد بن مسلمة المخزومي وهو ذو الشفة ومن خطباء العرب عطارد بن حاجب بن زرارة وهو كان الخطيب عند النبي. ومن الخطباء عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود وكان مع ذلك راوية ناسباً شاعراً. وكان الجارود بن أبي سبرة ويكنى أبا نوفل من أبين الناس وأحسنهم حديثاً وكان راوية علامة شاعراً ومن الخطباء الذين لا يضاهون ولا يجارون عبد الله بن عباس ذكره حسان بن ثابت فقال:

إذا قال لم يترك مقالاً لقائل	بملتقطات لا ترى بينها فضلاً
كفى وشفى ما في النفوس ولم يدع	لذي أربة في القول جدّاً ولا هزلا
سموت إلى العليا بغير مشقة	فنلت ذراها لا دنيا ولا وغلّا

ومن خطباء بني هاشم أيضاً داود بن علي وكان يكنى أبا سليمان. وكان أنطق الناس وأجودهم ارتجالاً واقتضاباً للقول. ويقال أنه لم يتقدم في تحبير خطبة قط وله كلام كثير معروف محفوظ. ومنهم عبد الله بن الحسن. ومن خطباء بني هاشم ثم من ولد جعفر بن سليمان سليمان بن جعفر والي مكة قال المكي: سمعت مشايخنا من أهل مكة يقولون انه لم يرد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام إلا وسليمان أبين منه قاعداً وأخطب منه قائماً. وكان داود بن جعفر إذا خطب استحفر (مضى مسرعاً) فلم يرده شيء وكان في لسانه شبيه بالرثة. وكان أيوب فوق داود في الكلام والبيان ولم يكن له مقامات داود في الخطب. وكان إسماعيل بن جعفر من أدق الناس لساناً، وأحسنهم بياناً. ومن خطباء بني هاشم جعفر بن الحسين بن علي وكان أحد من ينازع زيداً في الوصية فكان الناس يجتمعون ليسمعوا مجاوبتهما فقط وجماعة من ولد العباس في عصر واحد لم يكن لهم نظراء في

أصالة الرأي، وفي الكمال والجلالة وفي العلم بقريش والدولة، وبرجال الدعوة، مع البيان العجيب، والغور البعيد، والنفوس الشريفة، والأقدار الرفيعة، وكانوا فوق الخطباء، وفوق أصحاب الأخبار، وكانوا يجلّون عن هذه الأسماء، إلا أن يصف الواصف بعضهم ببعض ذلك. منهم عبد الملك بن صالح وعبد الله بن صالح والعباس بن محمد واسحق بن عيسى واسحق بن سليمان وأيوب بن جعفر هؤلاء كانوا أعلم بقريش وبالدولة وبرجال الدعوة من المعروفين برواية الأخبار. وكان عبد الله بن علي وداود بن علي يُعدلان بأمة من الأمم. ومن مواليهم إبراهيم ونصر ابنا السندي فأما نصر فكان صاحب أخبار وأحاديث وكان لا يُعد، ووهو الذي ردّ أكثر رواية ابن الكلبي والهيثم. وأما إبراهيم فأنه كان رجلاً لا نظير له وكان خطيباً، وكان ناسباً، وكان فقيهاً، وكان نحوياً عروضياً، وحافظاً للحديث راوية للشعر شاعراً، وكان فخم الألفاظ، شريف المعاني.

ومن خطباء تميم جحدب وكان خطيباً راوية ومن ولد المنذر عبد الله بن شبرمة بن طفيل بن المنذر وكان فقيهاً عالماً قاضياً، وكان راوية شاعراً، وكان خطيباً ناسباً، وكان حاضر الجواب مفوهاً، وكان لاجتماع هذه الخصال فيه يشبه بعامر الشعبي وكان يكنى أبا شبرمة. ومن الخطباء المشهورين في العوامّ والمقدمين في الخواص خالد بن صفوان الأهتمي. ومن خطباء بني ضبة حنظلة بن ضرار وقد أدرك الإسلام وطال عمره حتى أدرك وقعة الجمل ومن خطباء بني ضبة وعلمائهم مشجور ابن فيلان ابن خرشة وكان مقدماً في المنطق.

ومن خطباء الخوارج قطري بن الفجاءة وله خطبة طويلة مشهورة وكلام كثير محفوظ. ومن خطباء الخوارج ابن صديقة وهو القاسم بن عبد الرحمن بن صديقة وكان صفَرياً خطيباً ناسباً ويشوبه ببعض الظرف والهزل ومن علماء الخوارج شبيل بن غرزة الصنبعي صاحب الغريب وكان راوية خطيباً وشاعراً ناسباً. ومن الخطباء المذكورين روح ابن زنباع والحجاج بن يوسف. ومن خطباء الخوارج وعلمائهم عمران بن حطان ومن علمائهم حبيب بن خدرة الهلالي. ومنهم المقعطل قاضي عسكر الأزارقة أيام قطري. ومنهم عبيدة بن هلال اليشكري ومنهم الضحاك بن قيس ومنهم نصر بن فلحان.

ومن الخطباء معبد بن طوق العنبري، ومن خطباء عبد القيس مصقلة بن رقبة ابن مصقلة وكرب بن رقبة، ومن الخطباء قيس بن خارجة، وكان أبو عمار الطائي خطيب مذحج كلها، ومن الخطباء أيوب القرية، ومن خطباء غطفان في الجاهلية خويلد بن عمر والعشراء بن جابر بن عقيل

بن هلال بن سمي بن مازن بن فزارة وخويلد خطيب بيوم الفجار. ومن الخطباء الوضاح بن خشيمة ومن أصحاب الأخبار والنسب والخطب والحكام عند أصحاب النفورات بنو الكواء. ومن الخطباء القدماء كعب بن لؤي وكان يخطب العرب عامة ويحض كنانة خاصة على البِر فلما مات أكبروا موته فلم تزل كنانة تؤرخ بموت كعب بن لؤي إلى عام الفيل.

ومن الخطباء الأبيناء العلماء الذين جروا من الخطبة على إعراق قديمة شبيب بن شبيبة قال أبو الحسن: كان أبو بكر خطيباً. وكان عمر خطيباً. وكان عثمان خطيباً. وكان علي خطيباً. وكان من الخطباء معاوية ويزيد وعبد الملك ومعاوية بن يزيد ومروان وسليمان بن الوليد ووليد بن يزيد والوليد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز. ومن خطباء بني هاشم زيد بن علي وعبد الله بن حسن وعبد الله بن معاوية خطباء لا يجارون. ومن خطباء النساك والعباد الحسن بن أبي الحسن البصري. ومطرف بن عبد الله الحرشي، ومورق العجلي، وبكر بن عبد الله المزني، ومحمد بن واسع الأزدي، ويزيد بن أبان الرقاشي، ومالك بن دينار السامي. وليس الأمر كما قال في هؤلاء القاص المجيد والواعظ البليغ وذو المنطق الوجيز. فأما الخطب فإنا لا نعلم أحداً يتقدم الحسن البصري فيها وهؤلاء وإن لم يسموا خطباء فإن الخطيب لم يشق غبارهم. ومن الخطباء من بني عبد الله بن غطفان أبو البلا وكان راوية ناسباً. ومنهم هاشم بن عبد الأعلى الفزاري. ومن الخطباء حفص بن معاوية الغلابي. ومن بني هلال بن عامر زرعة بن ضمرة وكان ابنه النعمان بن زرعة بن ضمرة من أخطب الناس. ومن الخطباء عاصم بن عبد الله بن يزيد الهلالي. ومن خطباء بني تميم عمرو ابن الأهتم وكان يدعى المكحل لجماله لم يكن في بادية العرب في زمانه أخطب منه ومن بني منقر عبد الله بن الأهتم وكان خطيباً ذا مقامات ووفادات. ومنهم صفوان بن عبد الله بن الأهتم وكان خطيباً رئيساً وابنه خالد بن صفوان. ومنهم عبد الله بن الأهتم وقد ولي خراسان ووفد على الخلفاء وخطب عند الملوك ومن ولده شبيب بن عبد الله بن الأهتم وعبد الله بن عبد الله ابن الأهتم وخاقان بن الأهتم. ومن خطبائهم محمد الأحول بن خاقان وكان أخطب بني تميم. ومن خطبائهم معمر بن خاقان. ومن خطبائهم مؤمل بن خاقان ومن خطبائهم خاقان بني صريم ابن الحارث الخرج بن الصدى. ومن خطباء بني تميم ثم من مقاعس عمارة بن أبي سليمان. ومن ولد مالك بن سعيد عبد الله والعباس ابنا رؤبة. وكان العباس علامة عالماً ناسباً راوية وكان عبد الله أرجز الناس أفصحهم وكان يكنى أبا الشعثاء وهو العجاج. ومن خطباء هذيل أبو المليح الهزلي أسامة بن عمير. ومنهم أبو بكر الهزلي كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً وعالماً بالأخبار والآثار.

ومن خطباء عمان مرة بن فهم التليد. ومن العتيك بشر بن المغيرة بن أبي صغرة ومن خطباء اليمن ثم من حِمْير الصباح بن ثقي الحميري كان أخطب العرب. ومنهم ثم من الأنصار قيس بن الشماس. منهم ثابت بن قيس بن الشماس خطيب النبي. ومنهم روح بن زنباع. ومن خطبائهم الأَسود بن الكذاب كعب العنسي. وكان طليحة خطيباً وشاعراً وشجاعاً وكاهناً وناسباً. ومن خطباء الأنصار سعد بن الربيع. ومن القدماء في الحكمة والخطابة والرياسة عبيد بن شربة الجرهمي وأسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل وأفيعى نجران وذرب بن حوط وعليم بن مناب وعمرو بن ربيعة وهو الحي بن حارثة بن عمرو مزيقيا، وجذيمة بن مالك الأبرش. ومن القدماء ممن كان يذكر بالقدر والرياسة والبيان والخطابة والحكمة والدهاء والنكراء لقمان بن عاد لقيم بن لقمان ومجاشع بن دارم وسليط بن كعب بن يربوع سموه بذلك لسلاطة لسانه ولؤي بن غالب وقس بن ساعدة وقصي بن كلاب. ومن الخطباء البلغاء والحكام الرؤساء أكثم بن صيغي وربيعة بن حذر وهرم بن قطبة وعامر بن الظرف ولبيد بن ربيعة.

ومن النساك والزهاد من أهل البيان عامر بن عبد قيس وصلة بن أشيم وعثمان ابن أدهم وصفوان بن محرز والأسود بن كلثوم والربيع بن خيثم وعمرو بن عتبة بن فرقد وهرم بن حيان ومورق العجلي وبكر بن عبد الله بن الشخير الحرشي ومالك بن دينار وحبيب أبو محمد ويزيد الرقشي وصالح المزي وأبو حازم الأعرج وزياد مولى عيّاش بن أبي ربيعة وعبد الواحد بن زيد وحيان أبو الأسود ودهثم أبو العلا.

ومن النساء رابعة القيسية ومعاذة العدوية امرأة صلة بن أشيم وأم الدرداء ومن نساء الخوارج البلحاء وغزالة وقطام وحمادة وكحيلة ومن نساء الغالية ليلى الناعطية والصدوق وهند. وأبو الوليد الحكم الكندي ومحمد بن محمد الحمراني وكلاب وكليب وهاشم الأوقص وأبو هاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل والخطفي وهو جد جرير بن عطية بن الخطفي وهو حذيفة بن بدر بن سلمة.

ومن القصّاص أبو بكر الهزلي وهو عبد الله بن أبي سليمان كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار وقص ابنه مطرف بن عبد الله بن الشخير في مكان أبيه. ومن كبار القصّاص ثم من هذيل مسلم بن جندب وعبد الله بن عرادة بن عبد الله بن الوضين. ومن القصاص موسى الأسواري وكان من أعاجيب الدنيا كانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية وكان يجلس في مجلسه

المشهور به فيقعد العرب عن يمينه والُفرس عن يساره فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ثم يحول وجهه إلى الفُرس فيفسرها لهم بالفارسية فلا يدري بأي لسان هو أبين واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منها الضيم على صاحبتها إلا ما ذكروا من لسان موسى بن سيار الأسواري.

قال أبو عثمان: وشأن عبد القيس عجب وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين فرقة وقعت بعمان وشِقّ عمان وفيهم خطباء العرب وفرقة وقعت إلى البحرين وشقّ البحرين وهم من أشعر قبيلة في العرب ولم يكونوا كذلك حين كانوا في سرة البادية وفي معدن معدن الفصاحة وهذا عجب ومن خطبائهم المشهورين صعصعة بن صوحان وزيد بن صوحان وشيخان بن صوحان ومنهم صحار بن عياش وصحار من شيعة عثمان وصوحان من شيعة علي ومنهم مصقلة بن رقبة ورقبة بن مصقلة وكرب بن رقبة.

نقل ابن النديم من خط ابن مقلة أسماء الخطباء فإذا هم: أمر المؤمنين علي عليه السلام طلحة بن عبيد الله، خالد واسماعيل ابنا عبد الله القسري، عبد الله بن العباس ابن عبد المطلب، جرير بن يزيد بن خالد، يزيد بن عبد الله بن خالد، خالد بن صفوان، عبد الله بن الأهتم، صعصعة بن صوحان، ابن القرية، محمد بن قيس الخطيب، زياد بن أبي سفيان، قطري بن الفجاءة، الوليد بن يزيد، أبو جعفر المنصور، المأمون، شبيب بن شبيبة، العباس بن الحسن العلوي، محمد بن خالد بن عبد الله القسري وعبد الله ابنه، شعبة بن عقال.

(11) من خطب البلغاء

قال أبو جعفر النحاس: إن حفظ خطب البلغاء والتفنن في أساليب الخطباء من آكد ما يحتاج إليه الكاتب وذلك أن الخطب من مستودعات سر البلاغة ومجامع الحِكم بها تفاخرت العرب في مشاهدهم وبها نطقت الخلفاء الأمراء على منابرهم بها يتميز الكلام وبها يخاطب الخاص والعام وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة وعلى طريق الخطباء مشت الكتّاب. قال أبو الهلال العسكري: الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة وكذلك فواصل الخطب

مثل فواصل الرسائل والفرق بينهما أن الخطبة يشافه بها بخلاف الرسالة والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة.

وعلى هذا رأينا أن ننقل هنا نموذجاً من خطب الرسول وأصحابه وبلغاء الخطباء جاهليةً وإسلاماً ونحن نوصي القارئ أن لا يغفل خصوصاً عن خطب علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه فأن نهج البلاغة أكبر نهج للخطيب والكاتب يستقيان منه مادة عقل وعلم وأدب وبلاغة وسياسة وإدارة. ونحن نضمن لِمن كان له طبع شفاف إذا استظهر نهج البلاغة وتفطن لما فيه من النكات العلمية معتمداً مثلاً على شرح أبي الحديد المطول وتمرن في أساليب الخطابة على مناحي البلغاء والعرب المستعربة والعاربة والعرباء يوشك أن يكون من لغة هذا الشأن في هذا العصر أيضاً فإن كلام أمير المؤمنين رضي الله عنه لا تبلى ديباجته وجدته، وكلما كرر حلاً، ومهما تأملته علا، ففي كلامه عبقة من النور الإلهي، ونفحة من الروح النبوي، ولو لم يكن للسان العرب غير خطب الخليفة الرابع، لكان كافياً في شرفه وبيانه، وأن يجر على لغات الشرق والغرب ذيول الفخر والمباهاة.

خطبة رسول الله في حجة الوداع

أن الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهد الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعته واستفتح بالذي هو خير. أما بعد أيها الناس اسمعوا مني أبين لكم فأني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا. أيها الناس إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تَلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا هل بلّغت؟ اللهم أشهد فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذي ائتمنه عليها. وأن ربا الجاهلية موضوع وأن أول ربا أبدأ به ربا عمي العباس بن عبد المطلب. وأن دماء الجاهلية موضوعة وأن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب. وأن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية.

والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية.

أيها الناس أن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه ولكنه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم. أيها الناس إنما النسيء زيادة في الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحقرونه عاماً ليواطنوا عدة ما حرم الله. وأن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض وأن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق الله السموات والأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم ورجب الذي بين جمادى وشعبان، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس أن لنسائكم عليكم حقاً وأن لكم عليهن حقاً لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ولا يأتين بفاحشة فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرّح فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنما النساء عندكم عون لا يملكن لأنفسهم شيئاً، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً، ألا هل بلّغت اللهم أشهد. أيها الناس إنما المؤمنين أخوة فلا يحلّ لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفْس منه، ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض فأني قد تركت فيكم ما أن أخذتم به لم تضلوا بعده كتاب الله وأهل بيتي ألا هل بلّغت؟ اللهم اشهد. أيها الناس أن ربكم واحد وأن أباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلّغت قالوا: نعم. قال: فليبلغ الشاهد منكم الغائب أيها الناس أن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية في أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من دعي إلى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

نموذج من خطبة الوفود

لما فتح رسول الله مكة وفدت وفود العرب على حضرته الشريفة فقدم وفد بني تميم في جملة من وفد مع حاجب بن زرارة بن عدس وفيهم الأقرع بن حابس والزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم والحتات ومعتمر بن زيد في وفد عظيم ومعهم عيينة بن حصن الفزاري فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله: أن اخْرُج إلينا محمد فآذى ذلك رسول الله وخرج إليهم فقالوا جئنا نفاخرك فائذن لشاعرنا وخطيبنا فأذن لهم فقام عطارد فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل الذي جعلنا ملوكاً ووهب لنا أموالاً عظاماً نفعل فيها المعروف وجعلنا أعز أهل المشرق وأكثرهم عدداً فمن يفاخرنا فليعدد مثل عددنا فقال رسول الله لثابت بن قيس: أجِب الرجل فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي له

السموات والأرض خلقة قضى فيهن بما أمره ووسّع كرسيه عليه ولم يكن شيء قط إلا من فضله ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمهم نسباً وأصدقهم حديثاً وأفضلهم حسباً فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله تعالى من العالمين ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه أكرم الناس نسباً وأحسن الناس وجوهاً وخير الناس فعالاً ثم كان أول الخلق استجابة لله حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله نقاتل الناس حتى يؤمنوا فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه ومن كفر جاهدناه في الله أبداً وكان قتله علينا يسيراً والسلام عليكم. فقالوا يا رسول الله ائذن لشاعرنا فأذن له فقام الزبرقان بن بدر فقال:

نحن الكرام فلا حيّ يعادلنا	منا الملوك وفينا تنصب البيعُ
وكم قسرنا من الأحياء كلهم	عند النهاب وفضل العرب يتّبعُ
ونحن يطعم عند القحط مطعمنا	من الشواء إذا لم يؤنس القرعُ
بما ترى الناس تأتينا سراتهم	من كل أرض هوياً ثم نصطنعُ
فننحر الكوم غبطاً في أرومتنا	للنازلين إذا ما أنزلوا شبعوا
فلا ترانا إلى حي نفاخرهم	إلا استقادوا وكان الرأس يُقتطعُ
إنا أبينا ولم يأب لنا أحد	إنا كذلك عند الفخر نرتفعُ
فمن يفاخرنا في ذاك يعرفنا	فيرجع القول والأخبار تستمعُ

قال وكان حسان بن ثابت غائبا فدعاه رسول الله ليجيب شاعرهم قال حسان فلما سمعت قوله قلت على نحوه:

إن الذوائب من فخر وأخوتهم	قد بينوا سنّة للناس تتبعُ
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم	أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

يرضى بها كل من كانت سريرتهم — تقوى الإله وكل البر يصطنعُ

سجية تلك منهم غير محدثة — إن الخلائق فاعلم شرها البدعُ

إن كان في الناس سباقون بعدهم — فكل سبق لا دنى سبقهم تبعُ

لايرقع الناس ما أوهت أكفُّهم — عند الدفاع ولا يوهون ما رقعوا

إن سابقوا الناس يوما فاز سبقُهم — أو وازنوا أهل مجد بالندى متعوا

أعفة ذكرت في الحي عفَّتهم — لا يطمعون ولا يزري بهم طمعُ

لا يبخلون على جار بفضلهم — ولا يمسهم من مطمع طبعُ

إذا نصبنا لحيّ لم ندب لهم — كما يدب إلى الوحشية الذرعُ

كأنهم في الوغى والموت مكتنع — أسد ببيشة في أرساغها فدعُ

أكرم بقوم رسول الله شيعتهم — إذا تفرقت الأهواء والشيعُ

فإنهم أفضل الأحياء كلهم — إن جدّ بالناس جد القول أو سمعوا

فلما فرغ حسان قال الأقرع بن حابس إن هذا الرجل لمؤتىً له خطيبهم أخطب من خطيبنا وشاعرهم أشعر من شاعرنا ثم أسلموا وأجارهم رسول الله وفيهم أنزل الله تعالى: {إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون}. انتهى عن الكامل لابن الأثير.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد اختلف الأنصار والمهاجرون في يوم السقيفة: (إن الله قد بعث فينا رسولا شهيدا على أمته ليعبدوه ويوحّدوه وهم يعبدون من دون الله آلهة شتى من حجر وخشب عظم على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخصّ الله المهاجرين الأوّلين من قومه بتصديقه والمواساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم إياه وكل الناس لهم مخالف زارٍ عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنف الناس لهم فهم أول من عبد الله في هذه الأرض وآمن بالله

وبالرسول وهم أوليائه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده لا ينازعهم إلا ظالم وأنتم يا معشر الأنصار من لا ينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم في الإسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل إليكم هجرته فليس بعد الأولين المهاجرين عندنا بمنزلتكم نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفاتون بمشورة ولا تقضى دونك الأمور).

فرد عليه حباب بن المنذر قائلاً: يا معشر الأنصار املكوا عليكم أمركم فإن الناس في ظلكم ولن يجترئ مجترئ على خلافهم ولا يصدروا إلا عن رأيكم أنتم أهل العز وأولوا العدد والمنعة وذوو البأس وإنما ما تصنعون ولا تختلفوا فيفسد عليكم أمركم أبى هؤلاء إلا ما سمعتم فمنّا أمير ومنكم أمير.

فأجابه عمر رضي الله عنه قائلاً: هيهات لا يجتمع اثنان والله لا ترضى العرب أن تؤمركم ونبينا من غيركم ولا تمتنع العرب أن تولي أمرها من كانت النبوة فيهم ولنا بذلك الحجة الظاهرة من ينازعنا سلطان محمد ونحن أولياؤه وعشيرته.

فأجابه حباب قائلاً: يا معشر الأنصار املكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر فإن أبوا عليكم فاجْلوهم عن هذه البلاد وتولّوا عليهم هذه الأمور فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم فإنه بأسيافكم وأن الناس لهذا أدين أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب أنا أبو شبل في عرينة الأسد والله لئن شئتم لنعيدها جذعة.

وقال أبو بكر في هذا الموقف أيضاً من رواية أخرى:

يا معشر الأنصار لو شئتم أن تقولوا إنا آويناكم في ظلالنا وشاطرناكم في أموالنا لقلتم فنحن وأنتم كما قال طفيل الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين ازلفت ... بنا نعلنا في الواطنين فزلتِ

أبوا أن يملوها ولو أن أمنا ... تلاقي الذي يلقون منا لملّتِ

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت ادفأت وأظلتِ

يا معشر الأنصار أن العرب لا تدين لهذا الحي من قريش فلا تنفسوا على أخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله.

إلى آخر ما ورد في هذا المقام على اختلاف الروايات فيه عند المؤرخين وكذلك لا ينسى الإسلام للخطابة صنيعها يوم اليرموك إذ خرج المسلمون متساندين فخطبهم خالد بن الوليد رضي الله عنه قائلاً: هذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر والبغي أخلِصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فإن هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون. فأمّروه عليهم ونبذوا التساند ظهريّاً فأنزل الله عليهم نصره وأيديهم بروح منه وهو ولي المؤمنين.

من خطب أكثم بن صيفي بني تميم:

يا بني تميم لا يفوتكم وعظي أن فاتكم الدهر بنفسي أن بين حيزومي وصدري لكلاماً لا أجد له مواقع إلا سماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقّوه بإسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته، الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والرؤية مقيدة ولم يعدم المشاور مرشداً والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل ومن سمّع سُمِّع به ومصارع الرجال تحت بروق الطمع، من سلك الجد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ولا تُجاوز مضرته نفسه. يا بني تميم الصبر على جرح الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون مال استهدف للذم وكَلَمُ اللسان أنكى من كلم البيان والكلمة مرهونة ما لم تخرج من الفم فإذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب ورأي الناصح دليل لا يجوز ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب. ولما دعا النبي بمكة إلى الإسلام أرسل أكثم ابنه حبشياً فأتاه بخبره فجمع بني تميم وقال:

يا بني تميم لا تحضروني سفيهاً فإن من يسمع يخَل أن السفيه يوهن من فوقه ويثبت من دونه لا خير فيمن لا عقل له كبرت سني ودخلتني زلة فإذا رأيتم مني حسناً فاقبلوه وأن رأيتم مني غير ذلك فقوّموني استقم، إن ابني شافه هذا الرجل مشافهة وأتاني بخبره وكتابه يأمر فيه المعروف وينهى عن المنكر ويأخذ فيه بمحاسن الأخلاق ويدعو إلى توحيد الله تعالى وخلع الأوثان وترك الحلف بالنيران وقد عرف ذوو الرأي منكم أن الفضل فيما يدعو إليه وأن الرأي ترك ما ينهى عنه. إن أحقّ الناس بمعونة محمد ومساعدته على أمره أنتم فإن يكن الذي يدعو إليه حقاً فهو لكم دون الناس وأن يكن باطلاً كنتم أحق الناس بالكف عنه والستر عليه وقد كان أسقف نجران يحدث بصفته وسفيان بن مجاشع يحدث به قبله وسمّى ابنه محمداً فكونوا في أمره أولاً ولا تكونوا آخراً ائتوا

طائعين قبل أن تأتوا كارهين، إن الذي يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان في أخلاق الناس حسناً أطيعوني وأتبعوا أمري اسأل لكم أشياء لا تنزع عنكم أبداً وأصبحتم أعز شيء في العرب وأكثرهم عدداً فأني أرى أمراً لا يجتنبه عزيز إلا ذلّ ولا يلزمه ذليل إلا عَزّ أن الأول لم يدع للآخر شيئاً وهذا أمر له ما بعده.

فقال مالك بن نويرة قد خرف شيخكم فقال أكثم ويل للشبحي من الخلي ولهفي على أمر لم أشهده ولم يسبقني. ومن أمثاله السائرة ما قاله في وصيته لبنِيه:

تباروا فإن البر يبقي عليه العدد، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه، إن أقول الحق لم يدع لي صديقاً، الصدق منجاة، لا ينفع التوقي مما هو واقع، وفي طلب المعالي يكون العناء، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه، التقدم قبل التندم، أصبح عند رأس الأمر أحبّ إلي من أن أصبح عند ذنبه، لم يهلك من مالك ما وعظك، ويل لعالم أمر من جاهله، يتشابه الأمر إذا أقبل وإذا أدبر عرفه الكيّس والأحمق، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أفن. ومنها: تباعدوا في الديار تقاربوا في المودة، لا تغضبوا من اليسير فأنه يجني الكثير، لا تجيبوا فيما لم تسألوا عنه، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه، نِعمَ لهو الحرّة المغزل، حيلة من لا حيلة له الصبر، المكثار كحاطب ليل، من أكثر أسقط، لا تجعلوا سراً إلى أَمَة. ومن هذا النوع خطبته أمام كسرى وهي:

أن أفضل الأشياء أعاليها وأعلى الرجال ملوكها وأفضل الملوك أعمها نفعاً وخير الأزمة أخصبها وأفضل الخطباء أصدقها، والصدق منجاة والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطيء، آفة الرأي الهوى، والعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة وسوء الظن عصمة، اصلاح فساد الرعية خير من اصلاح فساد الراعي، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء، شر البلاد بلاد لا أمير بها، شر الملوك من خافه البريء، المرء يعجز لا المحالة (الحيلة)، أفضل الأولاد البررة، خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سيرته، يكفيك من الزاد ما بلغك المحل، حسبك من شر سماعه الصمت حكم، وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدّد نفّر ومن تراخى تألف.

خطبة لقس بن ساعدة الأيادي أسقف نجران:

لما قدم وفد أياد على رسول الله قال: أيكم يعرف قس بن ساعدة الأيادي قالوا كلنا نعرفه قال فما فعل قالوا هلك قال يرحم الله قساً اني لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحده إني لا أنساه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أحمر وهو يخطب الناس ويقول:

اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت إن في السماء لخبراً وأن في الأرض لعبراً، سماء تمور ونجوم تغور في فلك يدور ويقسم قس قسماً أن لله ديناً هو أرضى من دينكم هذا مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ارضوا بالإقامة فأقاموا أم تركوا فناموا؟. أيكم يروي من شعره. فأنشد بعضهم:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائرُ
لما رأيت مورداً	للموت ليس لها مصادرُ
ورأيت قومي نحوها	تمضي الأكابر والأصاغرُ
لا يرجع الماضي ولا	يبقى من الباقين عابر
أيقنت أني لا محا	لة حيث صار القوم صائرُ

وكان قس يفد على قيصر ويزوره في قصره فسأله يوماً ما أفضل العقل قال: معرفة المرء نفسه قال: فما أفضل العلم قال: وقوف المرء عند علمه قال: فما أفضل المروءة قال: استبقاء الرجل ماء وجهه قال: فما أفضل المال قال: ما قضي به الحقوق.

ومن خطبه في إياد قوله: تباً لأرباب الغفلة والأمم الخالية والقرون الماضية يا معشر إياد أين الآباء والأجداد وأين المريض والعواد وأين الفراعنة الشداد أين من بنى وشيّد وزخرف ونجَّد وأين المال والولد، أين من بغى وطغى وجمع فأوعى وقال: أنا ربكم الأعلى ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً وأطول آجالاً طحنهم الدهر بكلكله ومزقهم بطوله فتلك عظامهم بالية وبيوتهم خاوية عمرتها الذئاب العاوية كلا بل هو الله المعبود ليس بوالد ولا مولود.

ظلامات عصر الظلمات

كل من ألقى نظرة إجمالية على تاريخ القرون الوسطى والقرون الحديثة في هذه البلاد يوقن بأن القرون الأخيرة أي القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر كانت أشقى العصور على هذه البلاد لا حُكم فيها إلا للقوة لا عدل يحييها ولا عِلم ينهضها، وخصوصاً في الأيام التي سادت فيها حكومة الاقطاعات وساد معها جيش الإنكشارية (يكى جري) أو العسكر الجديد فكل ما تراه عينك في دمشق مثَلاً من بيوت ضيقة متلاصقة وأرتجة واطئة وأحياء لا منفذ لها وقصور ومدارس في الضواحي خربة إنما نشأ من اعتداء هذا الجيش على أفراد الرعية المسكينة. وما نجا من أيديهم يتناوله الظلَمة من الحكّام ويصادرونه ويستصفونه هنيئاً مريئاً لا وازع يزع ولا إدارة منظمة: أحكام في الدمار مسمطة وقواعد في السياسة معسلطة وآراء في جلب المصالح ودرء المفاسد مخلّطة مغلّطة.

ولقد وقع علينا مخطوط نافعٌ أورَدَ فيه مؤلفه بالعرض في جملة قصائده بعض ما شاهد في عصره من الكوائن فأحببنا نقلها إلى هنا دلالة على القضية التي قررناها آنفاً ولتكون متممة لتاريخ هذه الحاضرة. وهاك ما ورد في هذا المعنى بمناسبة مدحه لأحد حواشي سليمان باشا ابن المعظم (والي الشام إذ ذاك) قال: «واتّفَقَ لهذا الممدوح قصة من غرائب القصص وهي أنه سعى في خلاص جماعة من أهل حيّه وغيرهم من القتل وفداهم بنفسه ودافع عنهم عند والي الشام بما يُستطاع وسلموا من الهلاك بسبب مدافعته عنهم. وفرّ قوم من دمشق خوفاً من واليها وأوقع الوالي القتل والنهب بقوم آخرين ظفر بهم في دمشق، ثم أنّ الوالي خرَجَ من دمشق أميراً بقافلة الحج وخرج معه هذا المذكور حاجّاً ومؤدياً ما عليه من خدمة السلطان في طريق الحج. فلمّا وصل الأمير والحاج إلى المزيريب رجعَ أولئك النفر الذين فرّوا من الوالي بعد أن أرسلوا مكاتبة إلى جيران هذا الذي سعى في خلاص أكثرهم من القتل تشتمل تلك المكاتبة على أنهم في ليلة كذا يرجعون ويدخلون دمشق بقصد انتهاب دار هذا المذكور وقتْل من يظفرون به من أهاليه وقراباته. فأجابهم كل من كاتبوه بذلك

بالسمع والطاعة وأنهم سيكونون لهم عضداً وعوناً على ما يبيتوا عليه وأرادوه من السوء بهذا الأمر الذي عزموا على فعله فلما كانت الليلة الموعودة دخل أولئك النفر الفارون دمشق ومعهم نفرٌ من النصارى والدروز والأشقياء أعداء الدين والمسلمين، ولما وصلوا إلى القرب من الدار المقصودة بالسوء تلقّاهم الناس بالترحيب وتحزب معهم غالَب الناس من أهالي ذلك المحل حتى بلغوا العدد الكثير. فلمّا قربوا من الحي ترفّع أهله في منازلهم وفر من كان في الدار المقصودة من كبير وصغير طالبين للنجاة بأنفسهم، فلما وصل أولئك النفر المغضوب (عليهم) ومن معهم من المنافقين الذين انضموا إليهم كسروا الأبواب وهجموا على الدار وانتبهوا وضربوا وأفسدوا إفساداً ما سُمع بمثله وأصبحوا ماكثين في دمشق لا يهابون أحداً. فخرج إليهم نائب الوالي والأعيان والموالي فتلقوهم بالحرب والضرب وقُتل جماعةٌ وجُرحَ آخرون ورجع النائب ومن معه منهزمين ومكث أولئك النفر الأشقياء بدمشق ريثما بلغوا إربهم من سلب واغتصاب وتهكّم وتحكّم لا يردّهم عن ذلك أحد ولا يهابون أحداً.»

قال: «ولقد حقق الله تعالى جميع ما نطقَت به هذه القصيدةُ من الظفر بأولئك النفر المفسدين والطافة المعتدين المارقين من الدين على يد والٍ آخر غير ذلك الوالي المذكور في ترجمة هذه القصة قد عينه السلطان وولّاه دمشق لأجلهم بسبب فتنة أضرموا في الشام نارها وأثاروا غبارها، وأفسدوا إفساداً فظيعاً فقتلوا وخرّبوا واستلبوا وانتهبوا وأحرقوا الدور والأماكن، وحرّكوا من الشرور كل ساكن، وتجاهروا بالفواحش وارتكبوا كل أمر مخالف للدين فاحش، وأعلنوا الفطر في شهر رمضان على رؤوس الأشهاد، وتعطّلت الأسواق والمعاملات بسببهم في دمشق قريباً من سنة لا تقام جُمعة ولا يُسمع أذان ولا يُفتح جامع، ولا يمكن أحد أن يخرج من منزله لحاجة ولا لغيرها لفسادهم وإفسادهم وتعديهم على الخاص والعام. وإنما كان سبب تمكّنهم من ذلك عدم وجود والٍ في الشام، فإنّ واليها كان قد خرج منها إلى الحج أميراً ففي رجوعه من الحج عارضه العربان في أثناء الطريق ففر منهزماً بعد أن أعجزوه وانتهبوا قافلة الحاج بأسرها بعد أن كانوا انتهبوا جردة الحاج وقتلوا من الجردة والحاج الجمّ الغفير. فهذا كان سبب تمكنهم من إقامة الشرور والفتن فجاءهم بعد ذلك هذا الوالي المذكور ثانياً وقتَل منهم من قدر عليه وفرّ منهم من فرّ منهزماً وسلب دورهم ومتاعهم وأثاثهم ووجه أخبارهم وتركهم أذل من اليهود وأحقر من الذباب وأوهن من الكلاب. ولحِق دمشق وأهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده أسوأ السوء بسبب قيامهم على أولئك الأشقياء وانتُهبت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من البراء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس

وأخرجوا أهلها منها عنفاً وجبراً وقسراً وظهَرَ من أَتباع الوالي ما أَنسى أهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند إليهم. وأعقب مجيء هذا الوالي إلى دمشق في دمشق ضيقٌ وشدائد وشرور وظلم وجور وعسف وتعدٍّ واحتقار لأهل دمشق من شدة فظاظتهم وغلظتهم وكان فيهم من النصارى والرافضة ما لا يُحصى عددُه. وخُتم ذلك بزلزال في دمشق ونواحيها ورجفات زعزعت الجبال وردمت الدور في غالب الأماكن وهدمَت كثيراً من المساجد والمعابد والمنارات. وعند كتابتي لهذا المحل كانت مكثت في دمشق خمسة وأربعين يوماً وقتل إذ ذاك تحت الردم خلق كثير وخرج غالب الناس من منازلهم وتركوها خالية وتوطنوا البساتين والجبانات. وقال في مكان آخر: «قد تقدَّمَ في هذا الديوان ذِكرُ بعض ما وقع في دمشق من الفتن والمحن والشرور والغلاء والظلم وغير ذلك مما مر وتقدم وكل ذلك قبل تاريخ سنة ألف ومائة وسبعين وها أنا أذكر ما وقع واتّفَقَ لدمشق وأهلها في سنة سبعين وما بعدها من العظائم والحروب والأزمات والزلازل والرجفات، وما تأتّى من ذلك من خراب الدور والمنارات والجوامع وما كان في تلك الأيام من ظلم وجور وعسف، إلى أن تداخلت الدواهي والبلايا بعضها في إثر بعض حتى كان آخر ذلك الطاعون الذي أنسى ما كان قبله مما يفسد الأديان ويهلك الأبدان ويشيّب الولدان».

وهنا أورد المؤلف أرجوزة مطولة في وصف تلك المحن قال فيها:

لما تقضت عشرة	من صومنا محرَّرة
قامت طغاة فجرة	في شامنا المطهّرة
وأضرموا نار الفتن	وأظهروا خافي الإحنْ
وأوقعونا في محن	وكدروا منا الفطنْ
ومذ رأيت الفتنا	ثارت وقامت علنا
وكل مكروه أنا	وكل سوء وعنا
ناديت رباً ذا منن	بعد الفروض والسننْ

وجنح ليل قد سكن وفيه قد فر الوسنْ

وقلت قول الملتجي وطالب للفرجِ

وهارب من حرج يا من إليه ألتجي

يا دافع البلاء يا عالم النداء

يا سامع الدعاء يا كاشف اللأواء

خلّص أناساً ظُلموا من بطش قوم ظَلَموا

عن الرشاد قد عَموا ومن سداد حُرموا

وعجِّل انتصاراً واهلك الأشرارا

وأيد الأبرارا وسدِّد الأخيارا

وهت ربوعُ الشام من زمرة طغام

وعصبةُ لئام أخذوا من الحرام

وفرقةُ فجّارِ طاغية أشرارِ

قد أزعجوا الذراري بأقبح الضرارِ

لم يرحموا صغيراً لم يستحوا كبيراً

لم يتركوا نقيراً نهباً ولا قطميرا

وأعلنوا الفسادا وأذهبوا العبادا

وأخربوا البلادا　　وأحرموا الرقادا

وحللوا الحراما　　وأهملوا الصياما

وقهروا اليتامى　　وفضحوا الأيامى

وأظهروا الإسرافا　　وقتلوا الأشرافا

وضيعوا الإنصافا　　وأكثروا الخلافا

وشتموا الإيمانا　　وكذبوا الأيمانا

وهدموا الأوطانا　　وأورثوا الهوانا

وضيعوا الأمانة　　وشهروا الخيانة

وحرموا الديانة　　وفارقوا الصيانة

وغلبوا الحكاما　　وأبطلوا الأحكاما

وأكثروا الضراما　　وأفحشوا الكلاما

مدّوا يد الفجائع　　سنوا مدى المواجع

وقتلوا في الجامع　　لساجد وراكع

وتابعوا الأذية　　وأعظموا الرزية

وأوقعوا البلية　　وأقلقوا البرية

وأغلقوا المساجدا　　وأقفلوا المعابدا

وأكثروا المفاسدا	فحرّموا المحامدا
وعطّلوا المنابرا	وحقّروا الأكابرا
ودمّروا الأصاغرا	وأشهروا المناكرا
وقصّدوا أذاناً	وأسكتوا الآذانا
وتابعوا الشيطانا	وخالفوا السلطانا
وبات كل حالم	من جاهل وعالم
وقاعد وقائم	بالغمّ كالرمائم
وكل سوق سَكّرا	وقل بيع وشرا
وقام سوق الإفترا	ودام هذا أشهرا
يسوء فينا مدة	حكت ليالي الردة
فلم تنزل في شدة	ومحن ممتدة

والأرجوزة طويلة وهي على هذا النمط وقعت في نحو خمس ورقات بالخط الدقيق المندمج قال في آخرها: «وجميع هذه الشكاية إنما هي مما وقع من الشرور والفتن في سنة ألف ومائة وسبعين في دمشق وما جرى واتفّق خارجها من نهاب الجردة في سنة إحدى وسبعين، ثم ما وقع فيها من انتهاب الحج وما حصل إذ ذاك من الفساد والإفساد من طائفة الأعراب والأوغاد. ولما انتُهبت الجردة ثم مات أميرها ثم انتُهب الحج وانهزم أميره ورجع إلى دمشق مَن سلِم من القتل منهوباً من السلب وكانت نار الفتنة لم تزل ثائرة في دمشق بين طائفة القول وطائفة الينكشارية من مضي عشر ليال من شهر رمضان، والقول إذ ذاك محاصرون في القلعة فلما أقبل المنتهبون من الحجاج إلى دمشق خرجت طائفة الينكشارية يتلقون المنهزمين والمنتهَبين من الحجّاج فكل من

ظفروا به وكان من القول قتلوه وأخذوا ما يجدونه معه من متاع أو دابة أو غير ذلك. حتى أنه قد بلغني أنهم ظفروا بأحد القول خارج دمشق فقتلوه شر قتلة وأخذوا ما كان معه ثم أحرقوه بالنار واستمرت الشرور والفتن قائمة في دمشق وهي إذ ذاك خالية من والٍ، حيث أن أمير الحاج لما انهزم في أثناء الطريق استمر منهزماً ولم يدخل دمشق فبقيت بلا والٍ ولا حاكم.

ولما بلغ السلطان مصطفى أخبار ما تقدّم ذِكره من انتهاب الجردة والحج وما في دمشق من الفتن والهرج، وأنّ طائفة القول محاصرون في القلعة ساءه ذلك وعيّنَ عبد الله باشا الشتجي وأمّره على دمشق وعلى الحج وأنه يستقصي الخارجين عن أمره والمتعصبين على القول ويقتلهم ويرسل برؤوسهم إلى الباب العالي وألزمه أن يباشر إصلاح طريق الحاج بما أمكنه. فجاء عبد الله المذكور والياً على الشام وأعمالها وأميراً على الحاج ودخل دمشق في أوائل سنة إحدى وسبعين وجاء معه بجند الغالب منهم نصارى وأعاجم.

فلما قرب من دمشق تحزبت الينكشارية وتجمعوا في جهة الميدان والقبيبات والحقلة ووقع منهم إساءة في الأدب في حق الوزير وجنده وانتهبوا من نزل منهم بالقرب من محلهم الذي تحصنوا فيه. ثم بعد يومين من ذلك نزل من الينكشارية نفرٌ إلى جهة باب الجابية وتلك النواحي فظفروا باثنين من الجند فبطشوا بهما فقُتل أحدهما وجُرح الآخر فبلغ الخبر إلى الوزير فأمر من عنده من الجند أن يذهبوا إلى المحل الذي فيه الينكشارية ويقتلوا من يقدرون عليه ويأسروا من قدروا على أسره. فخرج الجند متوجهاً إلى جهة حارة الميدان وتلك الجهات فلما وصلوا إلى وجوه المطلوبين وتوجهوا فرّت طائفة الينكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند ساعةً من نهار وقتلوا منهم عدداً قليلاً ورجعوا عنهم. واستمرّ أولئك هاربين ثم أن الجند أخذوا في قتل من رأوه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والحوانيت من حدود الحقلة إلى باب الجابية. واستمرّ ذلك من الضحوة الكبرى إلى وقت العصر والجند يأتون بالرؤوس إلى حضرة الوزير فقتل في ذلك اليوم من الرعايا العدد الكثير وانتهب المتاع والمال الغزير، إلى أن دارك الله تعالى باللطف بعد أن أخذوا العدد الكثير من الرعايا البرآء وسجنوهم ووضعوا القيود والأغلال في أيديهم وأرجلهم وأعناقهم. ولما بلَغ الوزير أن هؤلاء النصارى والأعاجم حصل منهم التعدي في القتل والنهب خرج إليهم ولامهم على ذلك وأمرَهم بالكفّ عن ذلك، وجَمَعَ ما قدر على جمعِه مما انتهبوه ووضعه في المساجد وأرصد له من يحرسه وندب المنتهبين أن يأتوا وينظروا في الأمتعة فمن وجد شيئاً من متاعه أخذه. ففعلوا ذلك فما حصلوا على عشر معشار ما انتُهب من متاعهم وأموالهم وأطفأ الله

تعالى نار الفتنة، ثم أخذ النصارى والأعاجم الذين هم من جُند هذا الوزير يتحكّمون في أهل دمشق بالسلب والاستحلال والشتم والقذف والضرب والقتل حتى أشاعوا الفواحش وتجاهروا بالزنا وشرب الخمر. وحتى تعدّوا إلى أن يُخرجوا أهل المنزل من منزلهم ويسكنون فيه وكان الإنسان في تلك الأزمان لا يأمن على نفسه إذا خرج من منزله بعد المغرب ومتى خرج أصيب بنفسه أو ماله. وهذا الذي ذكرته هنا هو الذي أشرت إليه في الأرجوزة المتقدمة من الشكاية مما وقع في دمشق من الرزايا سنة إحدى وسبعين بسبب ما وقع من طائفة القول والينكشارية من الفساد والإفساد، ثم بسبب ما وقع بعده من طائفتي النصارى والأعاجم الذين هم من جند الوزير المذكور. وسلّطَ الله تعالى الزلازل والرجفات فوقع الردم في المنازل والجوامع والمنارات ومات تحت الردم خلق كثير وقبل أن تسكن تلك الرجفات والزلازل أرسل الله عز وجل الطاعون فأخلى البيوت وفرّقَ الجُموع وشتت الشمل وكدر العيش».

وقال بعد أن مدح عام اثنين وسبعين ومئة وألف: «وقد كان أهل دمشق في غاية الوجل ونهاية الفرق والقلق من جهة الحاج من شرّ الأعراب الأشقياء قياساً على ما وقع منهم من الشر في العام الذي قبل هذا العام، وكان الوجل الواقع من أهل دمشق في محلّه حيث أن العرب بالغوا في التعدي وفجَروا واعتادوا سلب الأموال وتكدير الأحوال. ولكن الله يؤيد بنصره من يشاء فإن أمير الحاج الذي هو عبد الله باشا المذكور ووقع بينه وبن الأعراب حربُ شرّ من أجل مال الصرّ المرصود للعرب من جهة السلطان فتوعدهم بالشر فاحتال عليهم وقتل أمراءهم وفر الأذناب منهم ومضى الأمير والحاج سالمين غانمين. ولما رجع الأمير بالحاج رجع على طريق آخر بعد أن تجمعت العربان بين الحرمين بقصد المعارضة للحاج فخيب الله آمالهم ولطف سبحانه وتعالى بعباده المؤمنين وسلمهم من غوائل الأشقياء المجرمين وبلغنا ذلك كله بعد هلة عام اثنين وسبعين بأيام. فلأجل ذلك خصصتُ هذا العام بالمدح أيضاً فقد كان الناس قبل هلته يشكون من قلة الغيث فلما استهل أغاث الله عز وجل العباد وأحيا البلاد وإلا فإن الدواهي الواقعة فيه وفي أيامه بدمشق وقراها لم يُسمع مثلها بفساد الجند وإفساد العساكر وظلم رئيسهم وجور حواشيه وعسفهم.

وعاد المؤلف فكرر أهوال ما وقع سنة سبعين وما بعدها وقد دام ما وقع من أذى الجند السابق والجند اللاحق الذي جاء مع الوالي الجديد من عشر ليال من شهر رمضان إلى جمادى الأولى و«القول منحشرون في قلعة دمشق واليكنشارية ومن تبعهم من الحشرات حول القلعة والحرب قائمة على ساق وقدم وقد أخرج الجند الجديد بعضَ الناس من دورهم وتوطنوها ومع

اختطافهم لبعض النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع لذلك ولا ممانع، حاكمين على جميع أهل الشام بالكفر وبأنهم قوم يزيد مصرحين بذلك».

هذه نموذجات من عصر الظلامات والظلمات والكتاب نسخة كُتبت بقلم مؤلِّفه وشِعرُه متوسطٌ حسَن بالنسبة لعصره عصر الانحطاط في كل شيءٍ، كتبها في ذي القعدة سنة ألف ومائة وثلاث وسبعين.

غلو الشرقيين

عرّفَ علماء البيان المبالغة بأنها وصف شيء بما لا يزيد على الواقع واختلفوا في جوازها وإباحتها فجعلوا منها المقبول ومنها المردود وهو الرأي الراجح وقسموا المبالغة إلى أقسام ثلاثة: الأول التبليغ وهو وصف الشيء بالممكن البعيد وقوعه في العادة، والثاني الإغراق وهو وصف الشيء بالممكن في العقل دون العادة، والثالث الغلو وهو الوصف الذي لا يمكن في عقل ولا عادة.

ولقد راجت سوق الغلو ولا تزال رائجة في الشرق بما سرى إليه من ضعف العقول بضعف العلوم التي تَنفع في التمييز بين ما يقع وما يمتنع. والغلو موجود عند كل أمة ولكنك تراه على أشده عند المشارقة فإن المفهوم من تاريخ المغاربة وآدابهم بأنهم دوننا في المبالغات والسبب في ذلك والله أعلم أن فلسفة أبناء الغرب فلسفة حسّية مبنية على الحس وفلسفتنا فلسفة خيالية.

الشرقي يبالغ ويفحش في الغلو بالدقيق والجليل من شؤونه الدنيوية والأخروية فقد بالغ في تصوير الأمور الروحية حتى صار كثير من أممه يؤلّهون المخلوقات ويسجدون للجمادات والعجماوات أو يثبتون لما يحترمون من الآداميين من ضروب الصفات ما تضل في تكييفه العقول ويعتريها الذهول.

جاءت الأديان السماوية لنزع هذا الغلو من العقول فسلمت بتعاليمها العقول في بعض أصقاع الشرق حيناً من الدهر حتى عادت بالتدريج إلى سابق إغراقها وإفراطها في وصف البشر وتأليههم إلى حد الهزل فدلّ ذلك على عموم الجهل وضعف العقل. الشرقي يبالغ في تصوير الصفات فإذا وصَف أحداً بالعفة اختلق له النعوت ما تمليه المخيلة وتساعد عليه محفوظاته من ألفاظ اللغة، وأقلّ ما يصف به من يريد وصفه أن يثبت له من الصفات ما لا يليق بعضه إلا بأكبر دعاة الحكمة من أفراد العالم.

الشرقي يبالغ إذا وصف أحداً بالسخاء والشجاعة والمروءة والشمم وكل ما يرفع النفوس إلى المقامات السامية. وفي دواوين الشعر وكتب المحاضرات أمثلة أكثر من أن تحصى أو يشهد بها فاقرأها يتجلى لك كيف تضيق الأحلام بالأوهام وأنى تسطو الخرافات على المخلوقات.

نعوذ بالله من شعرائنا الجاهلين والمخضرمين والمولّدين إذا أنشأوا ينشئون القصائد ويشدون بالمناقب والمحامد. تأمَّلها ملياً وضَعْها على محك النقد الصحيح وأنصِف في تطبيق مفاصلها على الحقيقة وانظُر إذا كنت لا توجب عليهم الكفارات لفرط ما غلوا في المبالغات، وإذا غاليت أيضاً فاحكم عليهم بالجَلد مئين واسجنهم لئلا يعلّموا الناس هذا الخلق المشين ويحملوا إليهم ذاك الرأي الدفين. وقل معي أن أمة تقول أعذب الشعر أكذبه وأشعر الناس من استجيد كذبه هي أمة المبالغة والغلو.

ومع أن الحساب من اختراع الشرقيين وكان له فيما مضى بين ظهرانيهم شأن عظيم ترى خاصتنا دع عنك عامَّتنا في القديم والحديث إذا عَدّوا وقاسوا نسوا الحساب والمساحة وإذا قدروا أوغلوا في عالم الخيال عن طور الحس وتناسوا التدقيق فكالوك أو وزنوك بالألوف وربما كانت في العشرات.

ترى قومنا هداهم الله إذا سألت أكثر الطبقة العالية منهم كم قوة الدولة الفلانية أجابوك لساعتهم كذا وكذا بتحديد الأرقام مع أنك لو سألت كبار رجال تلك الدولة لتمهلوا في الجواب واضطروا أن يرجعوا إلى حساب وربما بقيَت في نفوسهم بعد ذلك من صحة ما قالوا أشياء كما مات الفراءُ وفي نفسه شيء من حتى.

ترى كثيرين من خاصتنا إذا سألتهم عن الثروة لا يسعك إلا أن تقف شاخصاً تستعيذ بالله من غلو المشارقة وتجويزهم الكذب وإيغالهم في الباطل وضعف استقرائهم واستنتاجهم وغفلتهم عن القياس. قف واسأل الله السلامة وهم يصورون لك صاحب المئة من أصحاب الألوف وصاحب الألف من أصحاب مئات الألوف وهكذا إلى ما شاء الله وشاء اتساع عقولهم.

ولقد كان بعض الظرفاء يقول: إذا ذكرت أموال صاحب الثروة في الشرق وقدر ما تملك يمينه فاحذف صفرين من يمين الأرقام فإذا قالوا لك فلاناً يملك عشرة آلاف فاعرف أنه يملك مئة وإذا قيل لك مئة ألف فاعرف أنه يملك عشرة آلاف وهكذا افرض أقل تعديل لعلك تسقط على الحقيقة

وكان يقول إذا لم تصدق فاسأل العادّين ممن يقدرون ثروات الأفراد إلى آخر درهم مما عندهم على حين أنك لو سألت أصحابها عما يملكون لما عرفوا أن يقدّروا لك إلا بالتخمين والتقريب هذا إذا لم يكونوا من أهل الغلو والإغراق.

أجارك الله من شرقي يتشدق بذِكر عالم عرفهُ أو سمع به أو جدّ نسب إليه ولاسيما إذا كان ذاك العالم في عالم الأموات والشرقي يرى المبالغات بالأموات من أقرب القربات ولعله يحيل على بعيد عن قصد لأن الحكم على الأحياء القريبة يستلزم منه أن يأخذ المتكلم من عنان لسانه وبيانه.

ساعدت الجرائد والمطابع والمدارس على تخفيف الشرقيين من المبالغات ولكنها لم تتمكن إلى اليوم من نزع هذا الخلق المتأصل في السواد الأعظم وبعض الناس في الغالب مسوقون إلى المبالغة بحكم العادة والبيئة. ولقد وقعت من ذلك حادثتان كانتا من أكبر الأدلة على أن هذا الخلق فينا لا يُنزع إلا إذا أكثر الكتّاب من التنديد فيه وعملنا كلنا على قلب أوضاع مجتمعنا وعاداته.

فالحادثة الأولى جرت في مصر إبان العقبة في السنة الماضية فقالت إحدى الجرائد المتحمسة أن الدولة حشدت في عريش مصر ثمانمائة ألف جندي كتبَت ذلك برقم غليظ، ولما سُئلت من الغد في معنى هذه المبالغة قالت أن المحشود من الجنود هو ثمانون ألفاً وأن الصفر زائد. وبعد التحقيق تبيّن أن ما كان جمع هناك من الجند لم يتجاوز الألفين؛ فتأمل مبالغة تقولها جريدة كبرى في مدينة كالقاهرة في مثل هذا العصر عصر الإحصاء والتقدير في قُطر اتصل جنوبه بشماله وشرقه بغربه بالخطوط الحديدية والأسلاك البرقية والتلفونية بحيث لا يحتاج تحقيق هذا الغلو إلا لشيء من البحث.

والحادثة الثانية جرت لصاحب هذه المجلة أذكرها للقارئ على سبيل التمثيل والفكاهة فإني ما ذكَرتها إلا وذكرت معها غلو الشرقي. ذلك أني كنت منذ تسع سنين أكتب جريدة الشام فنعى الناعي ذات يوم رجلاً من وجهاء الأكراد في صالحية دمشق كان معروفاً بين أهل جيله وحيِّه بأنه من المعمرين الممتعين فقال لي الناعي وكان من أكابر الفضلاء: اكتُبْ أنه مات عن خمس وثلاثين سنة بعد المئة. فقلت له: أن العدد عظيم فهل لك أن تنزله فنهرني وقال: اكتُب والحق أقول أن المرحوم كان أطول عمراً مما قلت لك، يعرف الناس حتى أن فلاناً قال لي ذلك وأكده أفلا يسعك ما يسع العارفين به؟ وعندها كتبتُ: ومات عن عمر جاوز الخامسة والثلاثين بعد المئة. ولم يكتف الناعي بذلك بل قال أن المتوفى خلّف خمسمائة نفس ذكوراً وإناثاً فكتبت بعد تأبينه والغلو في ذكر

عاداته وصحته طول حياته: ومما يجدر بالذكر أن له من الوَلد ووَلَد الولد ما ينوف عن خمسمائة نفس ذكوراً وإناثاً.

كتبت هذا وأنا بين الشك واليقين في صحته، لكني كنت والحق يقال إلى اليقين أقرب لأن الناقل ممن اعتقد فيهم سعة العقل وصحة القياس. فأعجب الناس بما كُتب وتحدثوا به وربما زاد بعضهم فقال: أن عُمر المرحوم كان أكثر مما ذكر وأن الجريدة أخطأت في تقدير عمره ولعل سنّهُ لا تقل عن مئة وخمسين وأولاده وأحفاده أكثر مما ذكر وأن الجريدة أخطأت في تقدير عمره ولعل سّنه لا تقل عن مئة وخمسين وأولاده وأحفاده أكثر من ذلك بمئين.

ولما انتشرت الصحيفة في البلاد تناقلت الخبر عنها بعض المجلات العلمية وأكثر الجرائد السيارة في البلاد العثمانية وربما لم تغفل زميلاتها في مصر أيضاً عن نقل هذا النبأ الغريب فدُهشتُ من هول ما رأيت ونبّهني أحد العقلاء إلى هذا التسرع في الحكم على عُمر الميت وأولاده فلم يسعني إلا أن أخذت في تحقيق الخبر فتبين أن الرجل لم يتجاوز المئة وأن أبناءه وأبناء أبنائه هم دون الخمسين بيقين، وإن ظل بعض أحباب المبالغة يقولون أن الرجل مسن جداً وقد حارب في جيش إبراهيم باشا المصري ولكن لم يسعهم أن يكثروا في عداد أولاده لأن الإغراق في عددهم يكذّبه العيان وأما عمر والدهم فليس فيه مستند تاريخي صحيح يعوَّل عليه ما دام الشرقي يأخذ تاريخ رجاله وأكثر ساسته في الأكثر من أفواه الشيوخ والعجائز. وبعد مدة ظهر لي أن المتوفى المشار إليه كان جاء إلى إدارة تلك الجريدة بنفسِه قَبل سنتين وكتبَتْ تعجَبُ من صحته ونشاطه وقالت أن عمره مئة وخمس وعشرون سنة. فكان ما جرى من المبالغة في تقدير عمر الرَجل وأولاده وأحفاده أشبه بما تأتيه الجرائد الصفراء في أميركا من الغلو في تجسيم الأخبار لإلفات الأنظار.

وأحسن تعليل للمبالغة ما ذكره ابن خلدون بقوله: «وقد نجِد الكافّة من أهل العصر إذا أفاضوا في الحديث عن عساكر الدول التي لعهدهم أو قريباً منه وتفاوضوا في الأخبار عن الجيوش المسلمين والنصارى، أو أخذوا في إحصاء أموال الجبايات وخرَاج السلطان ونفقات المترفين وبضائع الأغنياء والموسرين توغلوا وطاعوا وساوس الأغراب، فإذا استكشفتَ أصحاب الدواوين عن عساكرهم واستنبطتَ أحوال أهل الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجليتَ عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار ما يعدونه، وما ذلك إلا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على المتعقب والمنتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يطالبها في الخبر بتوسط

ولا عدالة ولا يرجعها إلى بحث وتفتيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه ويتخذ آيات الله هزواً ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسْبُك بها صفقةً خاسرة».

الإتّكال الشرقي

قليل في القارئين من لم يسمعوا باسم المستر روزفلت رئيس جمهورية الولايات المتحدة السابق الذي خدم بلاده أجلّ خدمة فعُدّ العالمَ الاجتماعي الاقتصادي والقائد العظيم والسياسي الإنساني وأعظم ملوك عصره ورؤساء الجمهوريات بلا منازع.

أصل هذا الرجل هولاندي نزل أجداده الولايات المتحدة منذ مائتي سنة وتخرّج هو في كلية هارفرد الجامعة وكان قبيل الحرب الأميركية الإسبانية مساعد أمين سر وزارة البحرية، فلما نشبت الحرب استقال وتطوع في الجيش حتى إذا عاد ظافراً عينته الحكومة والياً على نيويورك ثم معاوناً للرئيس ماكنلي فلما قُتل هذا انتخبته الأمة رئيساً عليها على الرغم مما كان يكيد له بعض منافسيه في السياسة ثم أعيد انتخابه بعد أربع سنين وهي المدة النظامية لكل رئيس جمهورية. ضرَبَ روزفلت على أيدي رجال الاحتكار في الغرب وطأطأت لأقواله رؤوس ملوك الفولاذ والبترول وغيرهم من الأميركان ونصَر المستضعفين والفقراء وهاله اجتماع الثروة في أيدي أفراد وحرمان سائر الأمة، منها فقام يضرب على المحتكرين الرسوم الفاحشة ويداوي الأجسام والجيوب بأفعاله كما يداوي الأرواح والعقول بأقواله، وله عدة تآليف اجتماعية سياسية ومقالات كثيرة في المجلات والجرائد وهو الذي ألّف بين جمهوريات الجنوب وجمهوريات الشمال وجعل لبلاده مقاماً سامياً في السياسة الخارجية وحلّ المعضلة التي كانت استحكمت بين روسيا واليابان فاستحق على عمله جائزة السلام لنوبل وعيّنه مجمع العلوم السياسية والأخلاقية في باريز عضواً مراسلاً له دلالة على اعتبار أوربا لأعماله.

ولما لم يرض المستر روزفلت أن يُعاد انتخابه لرئاسة الجمهورية للمرة الثالثة عملاً بالتقليد المأثور عن الرئيس واشنطون وجفرسون رأى أن يهجر البلاد مدة ليخلو الجو للرئيس تافت الجديد فرحل إلى أفريقية الشرقية ليكمل نفسه في العلم والتجارب ويفيد أمته من رحلته حتى إذا عاد إلى

نيويورك يوسد إليه تحرير مجلة الأوتلوك الأسبوعية وهكذا يرجع الرئيس من زعامة خمسة وثمانين مليوناً من البشر الراقي إلى رئاسة تحرير مجلة. وناهيك بمنتصِب العلم من منصب.

خطب المستر روزفلت في الخرطوم قاعدة السودان جماعة من طلبة المصريين والسوريين في دار أحد مراسلي الأميركان في شهر آذار1910 وانتقد ما يرمي إليه كثير من الشبان في أوربا وأميركا وأفريقية من الرغبة في التوظف وخدمة الحكومة فأرادهم على ترك الاتكال والعمل في أعمال المعاش على طريق الاستقلال قال:

«فمتى قلت لكم أنه يجب عليكم أن تؤيدوا الحكومة لا أريد أن يخطر لكم أنني أريد من قولي هذا أنكم مضطرون إلى السعي وراء احراز الوظائف فيها (ضحك) بل إن الأمر على عكس ذلك. وأرجو يا حضرة الدكتور جفن (رئيس الإرسالية الأميركية في السودان) أن الأعمال التي قمتم بها هنا والتي تقوم بها سائر المعاهد العلمية التي لكم صلة بها سترمي إلى تلك الغاية. فتذكرون دائماً أن أعظم الناس خدمة ونفعاً للحكومة هو الرَجل الذي يأبى على كل حال أن يشغل وظائفها.

أما أنا فلا أريد أن أرى كلية من كليات الإرسالية موجهة سعيها الأول وجاعلة غايتها الرئيسة من التعليم مجرد تخريج طلبة لإحراز الوظائف في مناصب الحكومة. بل أريد أن أرى المتخرّج مستعداً للعمل باستقلال وبدون أقل اهتمام بأية مساعدة ينالها من راتب يتقاضاه من الحكومة. فإن أفضل الوطنيين شأناً هو من برع في الهندسة والصناعة والزراعة ومن سوء الحظ أن يقع في الأذهان سواء في أميركا وأوربا وأفريقية أن الرَجل المتعلّم يجب أن يجعل غايته الوحيدة اتخاذ وظيفة في خدمة الحكومة. إنني أرجو أن يتخرج من هذا المعهد العلمي وأمثاله عدد من أفضل الموظفين لخدمة الحكومة في أعمالها العسكرية والمَلكية ولكن إذا وافقت الأحوال فإن موظفي الحكومة بين ملكيين وعسكريين يكونون دائماً العدد الأقل من المتخرجين. لأن الغاية العظمى التي يجب أن ترمي إليها المعاهد العلمية هي تخريج رجال يستطيعون العمل بدون مساعدة ويستطيعون أيضاً مساعدة أنفسهم وغيرهم وهم على استقلال تام بدون أن تكون لهم أقلّ علاقة بالحكومة. وهذه مسألة أهتمُّ بها كثيراً هنا اهتمامي بها في أميركا بالذات....

وفي الختام أقول لا تقعوا في الخطأ الذي يقع فيه الشبان منكم فتظنوا أن عِلمكم قد انتهى بخروجكم من المدرسة أو الكلية. بل اعلموا أنكم إنما أنجزتم نصف العلم فأنا الآن في الخمسين من

عمري ولو أني توقّفت عن تحسين حالي وزيادة معارفي لشعرت أن قد أوشك أن ينتهي نفعي للجمهور.

فعلى كل واحد منكم تخرّج من مدرسته أن لا يقول الآن قد انتهى تعلمي ففي وسعي أن أكسل بل أريد أن تقولوا قد سهلوا لي وضع أساس قوي للتعليم الناضج وفيما أنا أقوم بأعمالي سأواصل تمرين نفسي وتعليمها. فبدلاً من أن تمر بي الأعوام وأنا واقف في مكاني أراني أتقدم وأصير أكثر كفاءة للعمل وأوفر مقدرة على إنجاز الأعمال الحسنة».

هذا ما قاله في هذه الخطبة وهو كما نراه يدعو إلى الاستقلال في التربية وقال في خطبة له في القاهرة ألقاها في الجامعة المصرية ابتدأها بالأسف لأنه ليس من أهل العلم ليتكلم بالعربية ولو كان منهم لما تكلم إلا بها:

«اجتنِبوا الباطل والادعاء الفارغ كما تجتنبون التعصب الديني والجنسي والسياسي. إن في كليات أوربا وكليات بلادنا أموراً كثيرة تستفيدون منها ولكن فيها أموراً كثيرة يجب اجتنابها. فاقتبِسوا عنها ما كان حَسناً ولكن انتقِدوه قبل اقتباسه حتى تثقوا بأنكم إنما تقتبسون ما هو الأفضل والأصلح لكم.

وأهمّ من اجتناب التقصيرات التعليمية اجتناب التقصيرات الأدبية. فإنكم ترسلون الطلبة إلى أوربا لكي يَدرسوا فيها ويستعدوا لأن يصيروا أساتذة. وهذا الاستعداد لازم إذ من الأمور الجوهرية أن تكون الجامعة مطّلعة على أحسن ما يجري في معاهد أوربا وأمريكا العلمية، ولكن ليعتنِ الشبان الذين يُرسلون باقتباس كل ما هو حَسن وجميل وواجب لأرقى أنواع التقدم الحديث وليجتنبوا كل ما كان غير ضروري في تمدن هذا العصر ولاسيما رذائل الأمم المتمدنة الحديثة، ولتكن أذهانهم مفتوحة إذ من الخطأ العظيم أن تأبوا اقتباس ما رقي به الغرب في مرقاة القوة والعدول والعيشة الطاهرة وأن تقضوا به حاجاتكم، ولكن من الخطأ العظيم أيضاً أن تقتبسوا ما كان رخيصاً أو مبتذلاً أو رديئاً. ليعلم الذين يُرسلون إلى أوربا أن فيها أشياء كثيرة يجب أن يتعلّموها وأخرى يجب أن يجتنبوها ويرفضوها فليأخذوا الحَسن ولينبذوا القبيح.

واعلموا أيها الخلان أنه إن كان عندي شيء أقوله لكم فذلك الشيء هو أن الأخلاق أهم من العقول بكثير وأنه يجب على كل جامعة عظيمة بالفعل أن تسعى في تربية الصفات التي تكون منها

الأخلاق أكثر من تربية الصفات التي تقوم بها العقول المثقَّفة. نعم إنه ما من رَجل يَبلغ الطبقة العليا بين الرجال إذا لم يكن ذكياً عاقلاً بنفسه ولم يكن مثقفاً بعقل وذكاءٍ إذ التثقيف لازم كالذكاء. ولكن الذكاء وحده لا يجدي ما لم يسترشد بقلب مستقيم وما لم تكن وراءه قوة وشجاعة. فالآداب والحشمة والعيشة الطاهرة والشجاعة والمروءة واحترام الإنسان لنفسه كلها صفات أهم في تربية الأمم من ذكاء العقول فاجعلوا هذه الجامعة بحيث تساعد أمتكم على الارتقاء دوماً.

واحذروا خصوصاً من نقص واحد في التربية الغربية، فقد كثر الميل في مدارس الغرب العالية إلى تعليم الشبان حتى يكونوا رجال علم وأدب ورجال صناعات وموظفين في وظائف رسمية كأن لا تربية حقيقية إلا التربية العلمية ولذلك سررت غاية السرور بأنكم شرعتم في بناء المدارس الصناعية والزراعية في مصر، إذ التربية العلمية نوع واحد من أنواع التربية المختلفة وليس من الحكمة أن يقتصر عليها وحدها سوى جزءٍ قليل من أهل كل البلاد. أما بقية الأمة فيجب أن تستبدلها بغيرها وتتمرن على أعمال أخرى. إن سمو الخديوي في أعماله الكثيرة التي تتناول جميع وجوه العيشة المصرية أظهر حكمة عالية بعد أن نظر وأدرك حاجات بلاده بما يظهره من الاهتمام بترقية زراعتها وتحسين الزرع والضرع.

فهذه البلاد كسائر البلدان تحتاج إلى عدد معين من الرجال تؤهلهم تربيتهم الانقطاع إلى العلم والتعليم في المدارس أو تقلّد مناصب الحكومة. ولكن ليس من مصلحة بلاد ما أن ينصرف إلى هذه الأمور سوى جزء صغير من ذوي العقول الكبيرة فيها.

ويجب أيضاً ترقية الميل إلى الصنائع وتمرين الأهالي حتى يُحسِنوا الزراعة وينبغوا فيها كما ينبغ أمهر المحامين والموظفين وحتى يخرُج منهم التجار والمهندسون وأصحاب الأعمال الأخرى التي لا غنى عنها في بلاد عظيمة متمدنة.

إن وجود سياسي شجاع مستقيم بعيد النظر مفيد في كل بلاد ولكن فائدته تتوقف خصوصاً على استطاعته التعبير عن مشيئة أمته وللسياسي النصيب الأكبر في قيادتها وللتاجر والزارع والمهندس وأهل الفنون الأخرى النصيب الأوفر. كل أمة لا يكون لها من القادة إلا الكَتبة والساسة والمحامون لم تدرك شأواً يستحق الذِكر. فأساس الحياة الصحيحة في كل بلاد واجتماع إنما هو الرجال الذين يعملون الأعمال المختلفة من حراثة وصناعة وتجارة ولا فرق أن يشتغلوا بأيديهم أو

بعقولهم. وخير للإنسان أن يشتغل برأسه ويديه معاً فهؤلاء الذين يعملون الأعمال الكبرى في حياة المجموع، وما المشتغلون بالعلوم والمعارف والسياسة والقانون وموظفو الحكومة سوى مكملين لهم.

على أن الأمر المهم أن يقوم العمل على الأمانة والكفاءة مهما يكن مركز العامل من أكبر كبير إلى أحقر حقير. وما أقوله هنا على ضفاف النيل هو نفسه ما قلته على ضفاف أنهر الهدسون والميسيسيبي وكولومبيا.

واذكروا دائماً أنه لا الفرد ولا الشعب يتربيان التربية الجوهرية بمجرد فعل يفعلانه وإنما يتربيان بطريقة تتعاقب فيها الأفعال كطريقة النمو فإنك لا تجعل الإنسان متربياً ومتعلماً تعلماً حقيقياً بمجرد إعطائه دروساً معينة وكذلك لا تجعل أمة صالحة لأن تحكم نفسها بنفسها بمجرد إعطائها دستوراً على الورق. بل تربية الفرد وتعليمه حتى يصير صالحاً للعمل في العالم تستغرقان أعواماً طويلةً. وهكذا تربية الأمة وإعدادها حتى تنجح في قضاء واجبات الحكومة الذاتية لا يتمان في عشر سنوات أو عشرين بل يلزم لهما أجيال متعاقبة».

وخطب أيضاً تلميذات كليات البنات الأميركية في القاهرة فقال:

«لا تقوم أمة في العالم أبداً إذا لم تكن فيها المرأة قادرة على القيام بعملها بجدارة وأهلية مثل الرَجل وأنه من العدل أن تفهم وهي في حداثة السن في مدرستها وتعلَم كيف تؤدي أعمالها وأشغالها.

إني أفتخر بكل مدرسة لا تقتصر على تلقين العلوم بل تعلِّم العمل ولا أشك في أن تلميذات هذه المدرسة متى صرن صاحبات بيوت يبرهن على اقتدارهن على أن يقمن في بيوتهن كما تقوم نساء الإرسالية في بيوت رجالهن.

يسرني جداً في هذه المدرسة أنها تعمل على قاعدة التسامح الديني. يسُرّني جداً ما علمته من أن ثلث تلميذات هذه المدرسة مسلمات والثلثين مسيحيات وإسرائيليات ومن طوائف أخرى.

أود الآن أن أتكلم عن المدارس عامة. لمّا جئت إلى مصر من زمن بعيد لم تكن الحالة كما هي الآن إنني لا أقدر أن أصفها تماماً ولكن أتذكر منها ما يجعلني مع المقابلة أرى الآن النجاح والتقدم العظيم. إنني شاهدت الآن بيوتاً وترتيباً ومعيشة لم أشاهدها حينئذ. رأيت في بيوت عديدة ما

دلّني على أن الزوجات والأمهات اللواتي فيها قد كن تلميذات في هذه المدرسة أو أنهن عاشرن معلماتها والمتعلمات فيها.

إنني في كلامي عن المدارس لا أخصص جنساً منها بل أمتدح كل المدارس على اختلاف نزعاتها وصفاتها والقائمين بالعمل فيها ولا أقول أنه توجد مناظرة بين هذه المدارس أو أنني أكره المناظرة في هذا السبيل بل أقول أنني أرجو الخير لجميعها إذا كانت تعمل وهي ولا شك تعمل لخير المصريين».

هذا ما قاله العلامة المشار إليه وهو كما تراه يرمي إلى الاستقلال وينفّر الناس عن الاتكال إذ قد عز عليه أن يرى شبان الشرق يقلِّدون بعض شبان الغرب في مكاسبهم ومعايشهم فيصبحون عالة على الحكومات يرزقون من خزائنها مختارين في عملهم الراحة على السعي والكسل على المضاء والتضييق على الانطلاق والاتكال على الاستقلال فتخرب البلاد بإهمال أبنائها لها ويفتحون بأيديهم أبواب بيوتهم للدخلاء والغرباء وتترك خيرات الأرض لمن يقوم على تعهدها واستثمارها واستنباتها.

ومن طبيعة المرء أن يحب العيش المضمون المريح وليس أحسن من الوظائف في هذا الباب تضمن معاش الإنسان في حياته وبعد مماته، فيتدرج في سلسلة المراتب ولاسيما إذا كان على شيء من المعرفة المكتسبة والجربذة والدهاء ومعرفة المدْخل والمخْرج في نيل رضى رؤسائه بحيث يكون كالآلة في أيدي محركها ولا يطلب من الآلة إلا تنظيم سيرها فإن نطقت هي وسألت عن السبب كان للموظف ولاسيما إذا كان صغيراً أن يسأل عنه. يكفي في مضار التوظيف في الحكومات أنها تسلب الإرادة ومن سلبت إراداته فنيت نفسه ومن فنيت نفسه كان كالميت لا يتحرك إلا إذا حُرّك. وإن أمّة يرضى أرباب نوابغ الذكاء فيها لأنفسهم أن يكونوا بلا إرادة ولا شخصية ولا استقلال جديرة بالضعة والمقت والفقر والخمول، وإذا حاز النبهاء هذه الصفات السيئة فأَولى أن يكون حظ الخاملين أتعس. ولا رجاء لعامّة ضعف خاصّتُها عن تعهد أمرها.

ومن أكبر الدواعي في تراجع عمران البلاد العثمانية والمصرية أنه وقر في النفوس مع الزمن أن من لم يخدِم الحكومة لا يعد من الأشراف ولا من أرباب المكانة والرأي والوجاهة. وإن كل مروءة وحكمة وعقل وعِلم ورفعة وقفٌ على الموظفين، ومن لم يحتك بالحكومة كان وضيعاً مهما رفعه مقامه وشرف آبائه وأجداده وجده ومضاؤه وحنكته ودربته ومعرفته وثروته.

هذا الخلق من طبيعة الحكم الاستبدادي وكم رأينا بيوتاً خربت لأن أربابها عزّ عليهم ألا يجاوروا بيوتاً أخرى كانت منافِسة لهم في التسابق إلى دواوين الحكومة فغفلوا عن تجارتهم وزراعتهم المعقولة المشروعة وتعلّقوا بالتافهات من خدمة أرباب الحُكم، فما استفادوا بقديمهم ولا أحسنوا تلقّف حديثهم. وأكثر ما يكون هذا الخلق ظهوراً الآن في سكان العواصم مثل الآستانة والقاهرة ودمشق وحلب فترى كثيرين من أهلها كالحلمة الطفيلية ينتظرون نقل أحدهم أو استقالته أو موته حتى يخلفوه في مكانه.

إن أقوال المستر روزفلت حَرية بأن يجعلها أهل هذه البلاد رائداً بين أيدي أعمالهم ومهمازاً لهم في أقوالهم وأفعالهم. إن انصراف وجوه الناس كلهم نحو التوظف قد عطل في بلادنا القوى المعنوية والمادية وغادر القوم كإعجاز نخل خاوية تركوا موارد الثروة الحقيقية وراحوا زرافات يطرقون أبواب الحكومة وما هي بمُغنِية رعاياها كلهم وهم هم مادة حياتها وبغناها تغنى وبشقائهم تشقى.

لا يتعلّم المتعلِّم منا من أهل الطبقة العالية والمتوسطة والدنيا إلا ليكون ضابطاً أو قائمقاماً أو موظفاً في الأقلام أو من رجال القضاء. وقليل جداً من يريدون أن يتعلموا ليستعدوا لإنجاح تجارتهم وزراعتهم وصناعتهم ولاسيما من أهل الإسلام الذين حصروا آمالهم في الحكومة في كل دور من أدوارهم. ولذلك قلّما رأينا ابن تاجر منا علَّمه أبوه على الأسلوب الجديد حتى يكون كتجار الإفرنج بتعليمه وتجاربه ويعود عليه القرش قرشين بدل أن يعود قرشه ببارة.

طُفْ مخازن القاهرة والآستانة وأزمير وسلانيك والإسكندرية وبيروت واسأل عن تراجم أربابها وأجناسها فهل ترى فيهم إلا إفرنجاً وغير مسلمين من أهل البلاد.

وإذا وقع لك أن صادفت تاجراً مسلماً فيكون في الأكثر غريباً عن تلك المدينة أو أنه أحوج إلى التعلم في عمله من أصغر تاجر من أولئك التجار أرباب الأموال الطائلة والمعارف الواسعة.

تجوَّل في القرى وافحَص المزارع هل تجد لمسلم وطني مزرعة نجحت بسعيه كما نجحت مستعمرات الألمان في فلسطين والفرنسويين في البقاع ومستعمرات الطليان والروم والأرمن في مصر؟ وإذا رأيت مسلماً أخصبت تربته على سبيل الاتفاق فابحَث عن السبب تراه اهتدى إلى استخدام أناس ممن تربّوا على غير طريقته وعرفوا في الأمور الدنيوية من أين تؤكل الكتف.

وابحَث عن صناعات البلاد هل تراها كل يوم إلا ترجع القهقرى؟ لأن أربابها جمدوا على ما تعلموه من آبائهم ولم تحدثهم أنفسهم في تقليد الراقين من صناع الأيدي ولأنك لا تجد في الألْف منهم واحداً يعرف ما يقتضي لنجاحه من الأسباب وأي الطرق سلكها الغربيون حتى بزّوا بمصنوعاتهم مصنوعاتنا ويوشكوا أن يقضوا عليها قضاءً أبدياً.

كل هذا نتيجة الكسل والاعتماد على الحكومة في الرزق والبلاد لا ترتقي إلا بالمسلمين في المملكة العثمانية لأنهم الجمهور الأعظم من السكان ومنهم جلُّ رجال القضاء والإدارة وأرباب الأملاك والأراضي ولا سبيل إلى ارتقائها إلا إذا ارتقوا هم أنفسهم إن لم يكن أكثر من مواطنيهم فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم. ونظنّ هذا التصريح جارحاً ولكن هي الحقيقة لا تدليس فيها ولا دهان.

إن كل ما كان الموظفون يجمعونه من دماء الأمة لم يثمر لهم الثمرة الجنية لأنه مال حرام أتاهم من غير طرقه المشروعة من كدّ واقتصاد فلم نر ثروة تسلسلت في أعقاب الموظفين إلى جيلين إلا نادراً وكثيراً ما كان يفتقر الموظفون في حياتهم، ولولا رواتب التقاعد رأيت أعظم الموظفين في السنة التي يضطرون فيها إلى ترك وظائفهم الفارغة أيديهم من مال يعتاشون به ولو كانت مشاهراتهم تعد بعشرات الليرات.

هذا من حيث المال أما عن سلب حرية الموظفين فحدِّث ما شئت أن تحدِّث ولولا أن العادة تسهّل الأشياء لقضي على أكثر الموظفين في سن الكهولة لكثرة ما يلقون من عنت رؤسائهم وتضييق وجداناتهم وكم من ذكاء ذهب سدى لأن صاحبه لم يستعمله بل حصره في دائرة ضيقة من عمل أصبح له شيئاً معروفاً في بضعة أشهر وقضى عمره وهو يَبْيضّ ويسوَدّ أو يحاسب في موضوع لا يكاد يتعداه.

إن التوظف عمل من أعمال الناس لا يصح أن يترك وإلا فمن يدير شؤون البلاد ولكن لا يجب التهالك عليه كما نراه يتزايد اليوم بعد اليوم، فالأم التي كانت تفرح ابنها فيما غبر وتقول له إن شاء الله أراك باشا ينبغي لها أن تربيه مع أبيه على أن يكون بعد اليوم ممتازاً في حرفة من الحرف أو صناعة من الصناعات، فقد جربت الأمة ورأت من إفلاسها ما لا ينكره عاقل لأنه لم يتعلم منها أحد إلا ليكون من المستخدمين. كأن خيرات الأرض والسماء لا تُغدق إلا على من ينصّب نفْسه وجسمه للجري على إرادة غيره لينال بزَعمه رزقاً هنياً ليناً.

إنا والله مع احترامنا لكل موظف أمين يخدم الأمة بصدق ويقبض راتبه بالسماد بعرق جبينه لنفضّل عليه من يتّجِر السماد لتعمر به الأرض ومن يخرج الحجارة من المقالع ويعتمد على خالقه وعمله في معاشه على فرد ينسى كل شيءٍ ويتجرد عن كل شيءٍ ليقال عنه أنه موظف.

نزل مصر بعض المتعلمين من السوريين منذ عهد الخديوي إسمعيل وقبله وأخذوا بما فيهم من النشاط والقوة والمعرفة يتولون الوظائف وينافسون فيها المصريين في بلدهم فبقيت أرزاقهم محدودة ولم يخرجوا عن كونهم مستخدَمين يَصرفون في آخر شهرهم كل ما قبضوه في أوّله. ولما صعَّبت الحكومة المصرية وصول غير المصري إلى تولي الوظائف بالقانون الذي سنَّته على عهد الوزارة الرياضية حوّل السوريون وجلُّهم مسيحيون وجهتَهم إلى التجارة والزراعة فماذا كان من إثر ذلك عليهم؟

كان منه أن أصبحوا يتكلمون على عملهم وكدّهم ويبتاعون الأطيان البائرة في القطر المصري فيعمرونها بنشاط ومعرفة ويتّجرون بمصنوعات البلاد ومصنوعات أوربا ويتوفرون على تنمية أموالهم بطرق اقتصادية، حتى لم يمض عقد أو عقدان من السنين إلا وقد أصبح أبناء سورية النازلون في مصر أغنياء بعد الحاجة موسعاً عليهم غبّ الضيق يملكون القصور الباذخة ويتمتعون بالعيش الخضال حتى قدر أحد العارفين ثروة السوريين في مصر بخمسين مليون جنيه أي بعشر مجموع ثروة مصر. ولو ظلوا راضين كلهم بالدون من المعاش لما جمعوا واحداً في المئة من هذه الثروة الطائلة ولا يكون ما يجمعونه إلا من التقتير والشحّ وكذلك فعل المسيحيون في البلاد العثمانية لما قطعوا آمالهم من الحكومة فباتت أعمال المعاش المهمة كما تقدّم بأيديهم ودرّت عليهم أخلاف السعادة ولو قلّدهم سائر العثمانيين في هذه الخطة الشريفة لخلصنا من الإشكال الذي لم تبلغه أمة من الأمم في سالف القرون والأجيال.

قال الجاحظ في رسالته مدح التجار وذم عمل السلطان: وهذا الكلام لا ينجم من حشوة أتباع السلطان فأما علّيتهم ومصاصهم وذو البصائر والتمييز منهم ومن فيقَتهُ الفطنة وأرهقه التأديب وأرهبه طول التفكر وجرى فيه الحياء وأحكمته التجارب فعرف العواقب وأحكم التفضيل وينطق (؟) غوامض التحصيل فإنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حالهم ويحكمون لهم بسلامة الدِين وطيب الطعمة، ويعلمون أنهم أورع الناس أبداً وأهنأهم عيشاً وآمنهم سرباً لأنهم في أفنيتهم كالملوك على أسرّتهم يرغب إليهم أهل الحاجات وينزع إليهم متلمسو البياعات لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم

ولا تستعبدهم الضرع لمعاملاتهم. وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه وقاربه بخدمته فإن أولئك لباسهم الذلة وشعارهم الملق وقلوبهم ممن هم لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب وأَلِفَها الذلّ وصحِبها ترقّب الاحتياج فهم مع هذا في تكدير وتنغيص خوفاً من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول واعتراض حلول المحن فإن هي حلّت بهم وكثيراً ما تحلّ فناهيك بهم محرومين يرقَ لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله وبين ما قد نال الوفاء عنه والدعة وسلم من البوائق مع كثيرة الإثراء وقضاء اللذات من غير منّة لأحد ولا منّة يعتدّ بها وكم بينَ مَن هو من نعم المفضلين خليّ وبين من قد استرقه المعروف واستعبده الطمع ولزمه ثقل الصنيعة وطوّق عنقَه الامتنان واسترهن بتحمّل الشكر الخ.

القديم والحديث

لم يأت على هذه الأمة دور مثل هذا اشتد فيه النزاع بين القديم والحديث وانهزم القديم بضعف القائمين به وقوة أنصار الحديث. عنينا بذلك أرباب التقليد ممن يرون السعادة في الاكتفاء بما تعلّموه من آبائهم وورثوه عن أجدادهم من العلوم والآداب ويعدّون ما عداها ضرراً يجب البعد عنه ومحاربته بكل وسيلة، كما عنينا أرباب التجديد الذين يزعمون أن الاكتفاء بعلوم أهل الحضارة الحديثة وحدها كافية في رفع شأننا.

نشأت للأمة ناشئة بعد أن كثُر احتكاكنا بأوربا في أواسط القرن الماضي عادت القديم معاداة خرجَت فيها عن طور التعقل وذلك نكاية بما رأته من دعاة ذلك القديم وأكثرهم مثال الجمود والبلاهة وأنموذج الفساد وسوء التربية، فقامت تزهد فيهم وفيما يَدعون إليه تَحمِل عليهم حملاتها وتتحامل عليهم بتمحّلاتها وكذلك كان شأن أنصار القديم مع دعاة الحديث يرمونهم بكل كبيرة ويسلبونهم كل فضيلة ويطعنون بعلومهم إلا قليلاً ويعدّون النافع منها مما لا يضر ولا ينفع.

لا خلاف في أن ملَكة الدين والآداب ضعفت في البلاد الإسلامية لضعف حكوماتها والعامل الرئيسي في كل البلاد هو السياسة، إذا ضعفت يتبعها كل شيء فجهل الحكام والملوك منذ نحو ألف سنة هو الذي رفَع شأن المنافقين من العلماء الرسميين فصار العلم الديني يتعلمه المرء لا لينال السعادتين ويكون عضواً مهما في جسم المدينة الفاضلة، بل ليخدم به أغراض أمراء السوء ويستولي على عقول العامة وتقبّل يداه ويكرّم بالباطل وهذا ما حدا بحجة الإسلام الغزالي وأضرابه في عصره وبعده أن ينحوا على فقهاء السوء أنحاءهم على أمراء السوء لأنهم يتعلمون علوم الفقه والفتيا ليتقربوا بها فقط من السلاطين ويجعلوا من الدين سلاحاً يقاتلون به من يناصبهم في شهواتهم وأهوائهم. ولقد فضل الغزالي في الإحياء وتهافت الفلاسفة من يتعلمون الطب على الفقهاء وقال أن من يقولون أن علوم الدنيا تنافي الدين يجني على الدِين.

شغلت الأمة زمناً بنفسها فضعفت ملكاتها وكانت الحروب الصليبية وغارات التاتار من العوامل المنهكة لقواها ثم قام ملوك الطوائف وفرّقوا الشمل بعد اجتماعه إلى أن جاءت الدولة العثمانية وهي تاتارية لا تقيم للمدنيّة وزناً ولا تعرف لعلوم العمران لفظاً ولا معنى قوتها بجندها وعلمها في أرهاف حدها وعظمتها ببطشها ومجدا باكتساح البلاد وإخضاع النفوس لسطوتها، فحاول محمد الفاتح أحد ملوكها أن يجعل من القسطنطينية دار عِلم كما هي دار ملك مجاراة لدولة الجراكسة في مصر والشام وأعظمَ لذلك الأعطيات والهبات وأنشأ المدارس وحبَس الأوقاف، ولكن ذلك لم يدُم إلا بدوامه حتى إذا مضى لسبيله عادت الحكومة إلى زهدها في العلوم وقد صارت رسمية على عهد المفتي أبي السعود الذي سعى لجعل العلم وراثياً وصار ابن العالم يرث أباه ووظائفه ورواتبه وإن كان أجهل من قاضي جُبَّل. وعالَمٌ هذه حاله هو الجناية الكبرى على الدين والدنيا والبلاء العمم على البلاد.

ومع أن الفُرس والترك سواءٌ في العجمة فالفرس أقدر من الترك على تلقّف اللغة العربية منذ القديم. والعربية لغة الدين لا يبرز في علومه من لم يتعلمها ولا يفهم الكتاب والسنة من لم يحكم بيانها. وما تراه من حال علماء فارس اليوم وإتقانهم العربية وارتقاء علومهم الشرعية وانحطاط العربية في بلاد الترك وضعف ملَكة العلوم الدينية فيها لا يرجع إلا إلى أن ميل أبناء فارس إلى إحكام العربية قديم فيهم وأن الترك بأمرائهم المتبربرين جمدوا على فروع قليلة من الفقه والكلام وزهدوا فيما عداها فجنوا على البلاد جناية كبرى.

لما أرادت الدولة أن تنهض وتتشبه بأوربا وأخذت على عهد سليم الثالث تتعلم فنون الحرب والبحر والسياسة وما ينبغي لها من الطبيعة والرياضة والاجتماع، أخذت روح التفلسف تسري إلى الأستانة ومنها سرت إلى الولايات ومصر، فلم يعبأ أنصار القديم بما رأوه أولاً واحتقروا ذاك السيل الجارف الآتي عليهم من أوربا وارتأى بعضهم أنّ خير ما يُقابل به المتزندقون أن يُكفّروا أو يُحرموا أو يُضربوا أو يُحبسوا أو يُهدَّدوا بالقتل أو يُقتلوا ولم يعدوا لذلك من العدد اللازمة لبث دعوتهم وحفظ ملكة الدين في القلوب لتسير مع علوم الدنيا كتفاً إلى كتف، وجاءت أدوار أصبح الوزراء وولاة الأمر إلا قليلاً من الطائفة التي نزعت ربقة القديم فلم يبق عليها إلا اسمه، بل كان بعض المتطرفين في انحلالهم يدعون سراً وجهراً إلى عدم التأدب بآداب الدين محتجين بما هو مائل للعيان من فساد القائمين عليه وانحطاط المنتسبين إليه.

وها قد أصبحنا بعد هذا النزاع بين علوم الدين والدنيا والأمة شطرين: شطر هو إلى البلاهة والغباوة وشطر إلى الحمق والنفرة، وبعبارة أخرى نسينا القديم ولم نتعلم الجديد. ومن الغريب أن معظم المستنيرين بقبس العلوم الأوربية منا لا يرجعون إلى آداب دينهم ويميلون في الظاهر والباطن إلى أن يكون الدين فقط جامعة تجمع الأمة على مثال الجامعات السياسية والجنسية، وإذا سألتهم عن الحلال والحرام وعما شرعته الأديان صعروا إليك خدودهم وقالوا لك أن الأمة تعيش بحديثها دون قديمها، وأن ذاك القديم إن لم يضرنا الأخذ به فهو لا ينفعنا والعاقل لا يُقبِل إلا على ما ينفعه ويعلي قدره.

تلك هي شنشنة أصحاب الحديث أو الملاحدة والزنادقة الطبيعيون كما يطلق عليهم المتدينون وهذه حالة هؤلاء مع أولئك وستكون الغلبة لأنصار الحديث إذا لم يقم خصومهم بلمّ شعثهم على صورة معقولة مقبولة وبين هذين الفريقين فريق ثالث اختار التوسط بينهما فلم ير طرح القديم كله ولا الأخذ بالحديث بجملته بل آثر أن يأخذ النافع من كل شيء ويضم شتاته وهذا الفريق المعتدل على قلّته لا يقاومه العقلاء من أهل الفريقين الآخرَين مقاومة فعلية وعامّتها غير راضين عنهم بالطبع لأن أكثر الناس يحبون أن تكون معهم أو عليهم ولا وسط بين ذلك.

ولقد كتب إلينا أحد علماء الشرقيات في برلين وهو ممن طافوا بلاد المشرق وسكنوا فيه زمناً وانقطعوا لدرس أحواله الاجتماعية وعلومه الإرثية كتاباً بالعربية يصف فيه المقتبس وما يجب للمسلمين أن يقوموا به لقيام أمرهم بعد ذاك السبات الطويل قال:

أما الرسائل التي هي لبها (المجلة) فرأيتها تدور أبداً على حث الناس على درس العلوم المدنية التي تركت في العالم الشرقي منذ نحو خمسمائة سنة واقتباس الآثار الإفرنجية الحديثة فيها وإحياء الأدبيات العربية وهذا مطابق بحسب اختياري للطريقة الصحيحة لسعادة الأمم، إذ لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية (الوطنية) وحده بل الخير كل الخير في الأخذ من هنا وهناك وتعميم الدرس والبحث مع إضرام تلك الشعلة العظيمة التي هي ذات نور وذات حرارة وذات إنبات، وأعني بها المبدأ الشعبي ولنا أن نسميه الشعوبية على شرط أن نجرده من الرائحة غير المقبولة.

اجتهد الإسلام والنصرانية أن ينشآ جمعية تقوم بالدين وحده ليكون أصل الشهادة بذلك الدين ظاهرين على الدين كله إلا أنهما فشلا. ولقد تنبأ بعض المسلمين بأن الجامعة الإسلامية التي ستكون

في أواخر هذه السنة لن تأتي بما يرجوه أكثرهم من تقوية عروة الدين بل ستقوي الأحزاب الشعبية وربما يتسع الخرق بين الجماعات من جهة المذهب الديني. أما أنا فأقول أن تقوية روابط المسلمين مع من حولهم من غير المسلمين المبنية على وحدة التربية والأخلاق والعادات وعلى وحدة اللسان لا تخلو حقيقة من تقوية الدين نفسه، لأن هذا الاجتماع من شأنه أن يدعو إلى نمو عامة القوى فيزيد من له ميل إلى الحياة الدينية اعتقاداً وعملاً كما يزيد من له ميل إلى غير الدين قوة فيما اختاره، وعلى هذا فمن مصلحة كل دين أن يكون نصف منتحليه مجتهدين مخلصين من أن يكون الجميع فاترين غير مكترثين بشيءٍ.

هذا ما كتب لنا به العالم الغربي الشرقي منذ أشهر نشرناه ليطلع عليه أنصار القديم والحديث فيعلم الجامدون على مسطور القديم أن لا قيام لأمرنا بغير الأخذ من مدينته أوربا ويدرك أنصار الحديث بأن هذه المدنية الجديدة التي بهرتهم بزخارفها وسفاسفها لا تنفعهم وتنفع بني قومهم إلا إذا رافقها ما يجملها من علوم الأسلاف وآدابهم والأمة التي تنزع ربقة قديمها جملة واحدة وتنتقل إلى طور آخر دفعة قد ينعكس عليها الأمر ويلتوي عليها القصد ولم تنجح اليابان إلا لكونها اقتبست المدنية الغربية ومزجتها بأجزاء مدنيتها وهذا سر قول العالم المشار إليه «لا فائدة من تقليد الأجانب وحده ولا فائدة من التناغي فقط بالآثار الشعبية» أي ما ورثناه عن أجدادنا من التشبث بأهداب الوطنية وذكر القديم والحرص عليه.

ولنا في الغرب دولتان كبريان هما مثال في اقتباس الجديد والحرص على القديم. فقد شهدنا ألمانيا إلى اليوم تجري في مدارسها وكلياتها على آداب النصرانية المنقحة فلا توسد التدريس فيها إلا لرجل عرفت ترجمته وحياته مخافة أن يفسد عليها تربية أبنائها فتكون مدنية دينية أما فرنسا فناهضت الدين منذ زهاء مئة سنة وزادت مناهضتها له في السنين الأخيرة حتى نزعت لفظ الجلالة من المعاهد العامة وأخذت تضيق الخناق على أهل التدين من حملة العلم والأقلام حتى صار المتدين سراً يتجاهر بالانحلال جهراً ليأمن على معاشه ورزقه وسموا هذا حرية، ولكن الله يحصي على الأمم ذنوبها كما لا يغفل عن الأفراد وها قد أخذت المدنية الإفرنسية التي بهرت العيون في الزمن الماضي ترجع القهقهرى وعلماء الأخلاق فيها يبكون دماً على انبتات شملهم وتراجع عمرانهم حتى روى بعض الإحصائيين أن عدد الفرنسيس سينزل في أواخر القرن العشرين إلى ثلاثة ملايين لأن المواليد أخذت تنقص عن الوفيات أما في ألمانيا فبفضل التربية الدينية والحرص على الأخلاق قبل الحرص على تلقين العلوم فإن النفوس تتزايد سنة عن سنة بحيث خيف من تكاثر نسلهم على البلاد

المجاورة لهم مع ما هم عليه من المدنية الصحيحة والعلم بالصناعات والفنون ولا غرو فإن مِن خُلق الألماني أن يترك من القديم كل ما ينفع منه أما الفرنسوي فيجرف منه النافع مع الضار وشتان بين الخلقين والمدنيتين وها هي النتيجة قد ظهرت للعيان منذ الآن.

وبعد فإن كل عاقل عرف تاريخ هذه الأمة يرى الخير كل الخير في احتفاظها بقديمها وضمّ كل ما ينفع من هذا الجديد على أن يكون للدين والعلم حريتهما، فتكون المعتقدات بمأمن من طعن الطاعنين بها كما تجري المدنية على الشوط الذي تستنسبه وإذا رأى بعضهم في بعض المعتقدات ما لا ينطبق على روح الحضارة والعلوم العصرية فالأَولى أن يطبّقوا العقل على النقل كما هو رأي كبار علماء الإسلام منذ القديم. وإذا عجزت عقولهم عن ذلك فالأجدر بهم أن يأخذوا بعض القضايا بالتسليم ويتركوا العالم حراً يسير وجده دون أن يعوقه عائق وما نخال كل عاقل إلا ويعتقد أن صحيح النقل لا يخالف صريح العقل والله أعلم.

إذا كان المرء ساعياً في إصلاح داره يجب في الأكثر أن يسترشد بآراءِ من سبقوه إلى إصلاح دورهم ليضم اختباره إلى اختبارهم ويقتصر عليه مسافة عمله وربما أتى ببعضهم وأراهم ما هو آخذ بسبيله فإن قدِر أن يعمل بآرائهم كلها إن كانت صائبة وإلا فلا أقل من أن ينتفع ببعضها.

أولع الغربيون منذ حدث انقلابنا العثماني الأخير بالبحث في شؤوننا بعد أن كانوا يئسوا من إصلاحنا فصار بعض خاصتِهم يزورون العاصمة وبعض الولايات ويكتبون تصوراتهم عن السلطة العثمانية ويقيسون الحاضر بالغابر فبعضهم يستهزيء بنا وبانقلاباتنا وهم في الأكثر أرباب الأغراض السياسية، وفريق يتوسط فيمزج استحسان ما يستحسنه باستهجان ما يستهجنه ومن هذا الفريق المسيو مارتين هرتمس أحد علماء المشرقيات في برلين. وهو من الذين قضوا سنين طويلة في سورية وعرَف طبائع المملكة العثمانية واشتهر بمعرفة العربية من تآليفه التي نشرها وهو يجيد الكتابة والفهم بلغتنا كأَحد فضلاءِ كتّابنا في أحوال المسلمين ولا سيما في البلاد العثمانية والتركستان الصينية.

زار هذا المستشرق عاصمة السلطنة وبعض قواعد بلاد الروم فكتب كتاباً بالألمانية وصف فيه ما شاهده في رحلته، وقد اطّلَعنا على زبدة من كتابه في مجلة العالم الإسلامي الفرنسوية فآثرنا الإشارة إليها ثم نعلق عليها ما آخذناه به من حُكمه على المسلمين والإسلام ليرى أهل هذه الديار ما ينصح لنا به جيراننا لإصلاح بيتنا. قالت المجلة: أراد بكِتابه أن يعرّف ما رآه وما سمع به مدة مقامه في البلاد العثمانية فأورد ما انتهى إليه من المواد على علّاته ولم ينظُر فيه نظرة أخيرة ومهما يكن فإن كتابه يتلى بإمعان وفائدة لأنه من أفيَد ما ظهر من الأسفار على البلاد العثمانية حديثاً. وربما ظهرَت على كلام المؤلف رشاشة من سوءِ النظر في العواقب ولكن ما لا مرية فيه أنه كفوءٌ في الموضوع الذي خاض غماره لا غرض له بل هو نظّار جدير أن يحل كلامه موقع الاعتبار.

ربما قيل للمؤلف أن مقامك قليل في تلك البلاد فكيف ساغ لك أن تحكم بهذه السرعة؟ فقد رأينا من يطيلون مقامهم في بلد يبالغون بمنزلة المسائل الرسمية والحياة الإدارية متسرعين ويطرحون النظر في حياة السواد الأعظم من العامة فيفوتهم كثيرٌ من المسائل الاجتماعية ذات الشأْن العظيم على أن السائح قد يلاحظ هذه المسائل أحسن من المقيم.

وهناك اعتراض آخر وهو أن المؤلف قال إن كتابة عبارة عن سلسلة رسائل غير سياسية والناظر فيها تتجلى له السياسة من أعطافها وأطرافها لأول وهلة. ويردّ هذا الاعتراض بما هو معروف عن المسيو هرتمن من عدم التحزب لفئة وأنه يحاول أن ينصف الكل فهو لا يبغض أحداً ويرمي إلى أن تعمل كل أمة وكل جماعة وكل شخص في خدمة المدنية والحضارة ما ساعدتها أسبابها. فقد رأَيناه يأسف عندما يرى العنصر الإسلامي وهو ممن يحبه لا يسير إلى هذا الغرض لأن الجمع بين الشريعة وبين مطالب الحياة الحديثة لا يخلو من تناقض. وهو يرى أن فكر الارتجاع في الأستانة والمدن الكبرى في الولايات غير موجود ولكن إذا انقضت أيام السياسة الحميدية فإن نتائجها ما انقضت.

قالت المجلة ولو قلنا في العام الماضي أن على الحكومة العثمانية إذا أرادت الاستمتاع بالبذور التي يحويها القانون الأساسي في مطاويه أن تربّي الأمّة تربية دستورية ديمقراطية فهذا مما تشتد حاجتها إليه. أَيد المسيو هرتمن هذا الرأْي فقال أن الانقلاب العثماني لا يشبه الانقلاب الفرنسوي فقد كانت الأمة في فرنسا تتبع القائمين بالثورة متحمسة وتشاركهم في آرائهم أما الشعب العثماني فلا يزال على آرائه القديمة ولذلك أراده المؤلّف أن يرجع عنها وأقسم عليه أن ينظر للأمور نظراً صحيحاً لأن ارتفاع كلمة العثمانية معلق على اعتدالهم ويمكن أن يكون للنساء العثمانيات عمل عظيم في النهضة الوطنية.

وقد درس المسيو هرتمن حالة الاتحاديين السياسية في سلانيك ولا سيما تأْثيرات طائفة الدنمة وفيها وهم شعب إسرائيلي دان بالإسلام. وجاءَ الأستانة يبحث عن كل شيء من سياسة ودين وأدب وصحافة وحياة اجتماعية وعقلية واقتصادية. وانتقد الإسلام انتقاداً شديداً فقال أنه يراه عقبة في سبيل الإصلاح فلا رجاءَ معه لتنظيم الإدارة. والطرق الدينية في الإسلام تختلف عن الطرق الدينية في النصرانية لأن لها تأْثيراً سيئاً وإنّ ما يظهر من أمرها يُفسد الدين ويقلل من اعتباره. فأهل الطرق البكداشية والملامية والمولوية والنقشبندية والقادرية على اختلاف أسمائهم هم خطر على

الأمة مهما كانت مكانتهم وإن اتفقوا مع أهل التربية الحديثة من العثمانيين، وهؤلاءِ ملاحدة يعرفون كيف يتظاهرون بالدين واحترام الشريعة. ورجال الدين على الجملة هم قوة عاملة محترمة وإن قلَّ التسامح فيهم.

يقول المؤَلف أن تسعة أعشار رعايا المملكة العثمانية متعصبون فالأكراد أكثر تعصباً من غيرهم ويقل تمسك العرب بالدين في باطنهم فهم أقل تعصباً وليس المسلمون من الألبانيين من التسامح على جانب عظيم وأهالي البوسنة الذين انفصلوا حديثاً عن المملكة العثمانية موغلون في التعصب وأدعياءُ للغاية. ومن الأسباب التي تساعد على بقاءِ الحمية الدينية مظاهر شهر رمضان المنوّعة فالدين تسيطر عليه الحكومة ويصعب الآن أن يكون من الأعمال الخاصة بالنَفس.

تدخُل الأفكار الغربية البلاد العثمانية ببطء فالاشتراكية التي ينشرها البلغاريون خاصة في البلاد ومنهم رئيس منتدى سلانيك حيث تُقرأُ المطبوعات الفرنسوية والألمانية في هذا الموضوع ولهم أشياع من الروم وتصدر في أزمير جريدة اشتراكية رومية كما تصدر جريدة إسلامية اشتراكية وإذا كان قراؤها على ما هو معلوم من حالتهم صعب أن يكون ارتقاؤُها سرياً بين المسلمين. فليس في البلاد العثمانية طبقة وسطى كما في سائر ممالك أوروبا.

ويتيسر للمرأَة العثمانية أن تكون ذات نفوذ فقد رأَيتها في سلانيك ترقى بسرعة خارقة للعادة. ولكن ارتقاءَها في البلاد الأخرى بطيء جداً. ويمكن أن يقال أن حالة المرأَة العثمانية أحط من المرأَة المسلمة في روسيا التي تستمتع بحرية عظيمة فيتيسر لها أن تدرُس في المدارس الثانوية وهم يهتمّون بما يجري في آسيا الوسطى والشرق أكثر من كل بلد سواه وربما كان المسلمون في روسيا غالباً أثقب أذهاناً وعقولاً من حكامهم الصقالبة.

هذا ملخص كتاب الباحث الألماني وفيه الجيد ولكن فيه مغامز كثيرة لا نحب أن يفوتنا النظر فيها نعرضها على المؤلف وعلى القائمين بمذهبه وأولها وهو ما كنا نرجو أن لا يقع فيه أمثال الأستاذ هرتمن قوله أن الجمع بين الشريعة وبين طلب الحياة الحديثة لا يخلو من تناقض وأن الإسلام عقبة في سبيل الإصلاح ولعلّ المؤلف يقصد من ذلك الشريعة النافذة في بلاد المسلمين اليوم وبعضها مما يخالف الأصول الصحيحة وهديَ الشارع وأصحابه وتابعيه والأئمة المهديين والعلماء العاملين.

لا جرم أنه دخَلت بدع وخرافات وموضوعات على الإسلام عبثت بجماله وكادت تضيّع به أصوله لو لم يقيّض له في كل زمن مجددون ومصلحون يدْعون الأمة إلى الوقوف عند حد الكتاب والسنة وطرح الزوائد التي تضر ولا تنفع وأكثرها مما تسرب إلى الدين من الوثنية الأصلية وسرى إلى الإسلام كما سرى إلى اليهودية والنصرانية من قبل.

فالإسلام دين التوحيد وهو أكثر الأديان تشديداً فيه وحرصاً عليه ومع هذا نرى بدعاً دخلت عليه تكاد تقربه من الوثنية لولا سلامة الأصول المحررة المعتبرة وقيام الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في كل مِصر وعصر.

لم يعهد المسلمون أيام كانوا يدينون بالإسلام الحقيقي أن دينهم كان مانعاً لهم من الرقي الاجتماعي والأدبي والعلمي والسياسي. فالدين الذي جعل من أموال الأغنياء صدقة للبائسين والمعوزين قد فرض على منتحليه ما يسمونه بالتضامن والتكافل فلم تنشأْ فيه الاشتراكية المتطرفة التي تهتز لها أعصاب المفكرين في الغرب اليوم. والدين الذي يأْمر كتابه في الزواج بقوله «فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع وإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة» إلى أن قال «ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم» قد قلل من العهر والفجور وحفظ نظام البيوت أحسن حفظ وراعى حقوق المرأة ومن سنّة الطلاق لزوجين لم يتأَت أن يتعاشروا بالمعروف ليس فيه ما يؤخر المدنية ويحول دون سعادة أهله. ولكن خلف بعد السلف خلف أضاعوا الأصل والفرع وانتهكوا حرمات الله وجهلت الأمة فأغلطت حَجاب المرأَة بعد أن كان رقيقاً معقولاً حتى مُنع الرجال من الاختلاط ببنات حواء فنشأَت عن ذلك مضار ومنافع والمضار أكثر. ولو وقَف الحِجاب عند حد ما رسمَته الشريعة من أن لا يبدي النساءُ زينتهن إلا لبعولتهن ويضربن بخمرهن على جيوبهن لكان نظام البيوت في المسلمين اليوم أرقى مما هو وخلصوا من معاكسة الطبيعة في رغائب النفس ولتفاهم الجنسان أكثر من الآن ولما أصبحت حياة رجالنا وحياة نسائنا لا تخلو من نغص وغصص.

والدين الذي يأْمر صاحبه أصحابه أن يتعلموا لغة اليهود والحبشة ويحث على تفهم أسرار الكون من طرقها حتى لم يأْت على الإسلام قرنان ونصف إلا وقد تناول أهله بمعونة الخلفاء ما عُرف من علوم البشر وتداولوه بينهم وصبغوه بصبغتهم حتى أنشؤُا لهم مدنية لو لم يكتب لها القيام لانقطعت من العالم سلسلة علوم المصريين واليونانيين والرومانيين والفرس والهنود ولاضطر أهل

المدنية الحديثة أن يرجعوا مبتدئين بالعلوم بحيث لا يتيسر لهم تأْسيس المدنية التي أسسوها في ثلاثة قرون إلا أن تؤسس في عشْرين أو ثلاثين قرناً - إن ديناً هذا شأْنه وهو لم يمنع أيضاً من تعلم العِلم والفلسفة ليس من الأديان التي لا تنطبق مع روح هذا العصر.

والدين الذي انتشرت كلمته في الآفاق وسلاحه الهداية والرفق بالمستضعفين وحماية العاجزين وجهاد المنافقين والخائنين حتى دانت به أمم كثيرة عن رضىً هو دين لم يخرج عن المعقول من استتباع الناس وإرشادهم، ومعظم الفتوح التي ينتقدها عليه الناقدون هي للاستعمار ومع هذا لم يحدث فيها من الويلات ما يحدث لأكثر دول التمدن الحديث عندما تهمُّ أن تستعمر قطراً من أقطار الشرق.

وإنا لنرى الغربيين في أحكامهم على الشرق يخالفون ما يجرون عليه في بلادهم فترى الدول الراقية منهم في آدابها هي التي تحافظ على دينها فقد رأينا ألمانيا قد احتفظت بالنصرانية المشرّبة أي البروتستانية ولم تعقها عن سيرها في مدارج الكمال العلمي والصناعي والاجتماعي وكذلك نرى انكلترا تحرص كألمانيا على تقاليدها القديمة حتى عدّ الاجتماعيون من حملة ارتقائهم أنهما لم ينبذا الدين كما نبذه رجال فرنسا فكان منه الويلات حاضرها ومستقبلها. وما نظن النصرانية لو أنصفنا أكثر انطباقاً على قوانين العلم من الإسلام.

ولو قال الأستاذ هرتمن أن حالة المسلمين اليوم لا تنطبق على الإسلام أمس ولذلك يصعب قيام الإصلاح بينهم لأصاب الغرض بعض الشيء، فقد ذكَر الطرق الدينية التي تفسد الدين وتقلل من اعتباره في الأنظار ولو أنصفنا ونظرنا إلى من أسسوا تلك الطرق لرأَيناهم على جانب من الأخلاق الفاضلة والتدين الحقيقي وأكثرهم كانوا من جملة علماء الإسلام العاملين لا المعطلين الجامدين.

وهذا الجمود لم يحدث إلا في القرون المتأخرة بصنع أناس لأخلاق لهم من الملوك أملوا لرؤساء المذاهب والطرق ليتخذوهم ذريعة إلى السياسة كما اتخذ الشاه عباس الصفوي من مذهب الشيعة مستنداً له في سياسته فاستعمل العلماء واسطة للتفريق بين أجزاء الأمة ونشط كل ما أملاه التعصب الذميم وسكت عن كل قصور وكذلك فعل السلطان سليم العثماني وقتل من الشيعة أربعين ألفاً في وقت واحد في الأناضول بحجة دينية والحقيقة أنه لا يقصد غير السياسة.

فالملوك المتأخرون استعملوا الدين ذريعة إلى الدنيا وعبثوا سراً بحُرم الله وأَدخلوا في الدين ما ليس منه وجعلوا العامة مسيطرين على الخاصّة ففسد النظام وعاق ذلك سير الإصلاح في القرون الجامدة. وإلا فأي مانع اليوم يمنع العثمانيين ولا سيما المسلمين منهم من الرقي وقد ارتفعت أكثر الحواجز والقيود بفضل القانون الأساسي الذي لا يناقض أصلاً من أصول الشريعة؟ وإذا رأَينا بعض تناقض وجب علينا أن نفسر الشريعة لنطبقها على العِلم كما يأْمر بذلك العلماءُ الراسخون.

أما اغتباط الأستاذ هرتمن بحال المُسْلمات في روسيا من أنه يباح لهن الدرس في المدارس الثانوية والعالية مع الفتيان فهذا على إطلاقه لا يصحّ أن يكون حجّة على المسْلمات العثمانيات والاختلاط إلا إلى حد محدود لا يخلو من مفاسد يعرفها علماء الأخلاق في الغرب وهم منها أكثر شكاية منا. ويرجى بفضل الأفكار الغربية التي تدخل ببطءٍ إلى بلادنا كما قال المؤَلف أن تكون بعد اليوم حال المرأَة المسلمة أكثر انطباقاً مع المدنية والعقل والشرع فليس كل ما نراه هو ما كان عليه السلف الصالح كما قلنا.

وإن معظم ما نشكو منه من أمراضنا الاجتماعية ليس الدين منشؤه بل الجهل بأمور الدنيا فينبغي لنا تهذيب نسائنا وتعليمهن على الأصول الدينية والمدنية ورجالنا كذلك وعندئذ لا يرمي مثل المسيو هرتمن أهل هذا الدين كله بما رماهم به. ونحن نرى اليابان وهي الدولة الوثنية من أرقى دول الحضارة الحديثة ولم تعقها وثنيتها عن ذلك ونظن المؤلف يوافقنا على أنّ الإسلام بما دخَله من خرافات المتأَخرين أكثر اتفاقاً مع المدنية من وثنية يابان.

فحياة الأمم بالدين الذي لا يمازجه تعصّب أكثر منها بالانحلال من كل دين وأمّة لا قديم لها يصعب عليها الارتفاع بحديثها كما فعلت فرنسا فأرادت نبذ كل قديم وإحلال الحديث مكانه فخسرت الصفقتين أو كادت، ولو ربي شعبها تربية دينية خالصة مع ما يلقَّنه من التربية العصرية لما شكَت فرنسا من زيادة العهر فيها وقلة نفوس سكانها سنة عن سنة. وإنا لنعتقد أن قلة التسامح الذي نراه في الجامدين من أهل الطرق وأدعياء الدين يقل جداً من السلطنة يوم نعلّمهم أو نعلّم أبناءهم التعليم الوسط المنظم دع عنك العالي وحياتنا مناطة باستنارتنا ولا جمود إلا مع الجهل. وطريقة دينية على أصولها يدخلها النشوءُ والإصلاح بحسب سنة النموّ والتدريج أنفع من طريقة دنيوية لا تتشرّبها نفوس من تعرضها عليهم ولا تناسب تقاليدهم وأوضاعهم.

التربية الإجتماعية

أخواني الأعزاء

لا بد أنكم قرأتم أموراً كثيرة عن ذلك الفيلسوف الإنكليزي الشهير داروين. اصطدمت مخيلة هذا العالم الطبيعي صاحب الفكر الثاقب والنظر النافذ بحادثة فجائية تجلّت أمامه أينما حل وحيثما ذهب، حادثة عامة وجدها تتناول جميع ما يدخل تحت عنوان الحياة نباتاً كان أم حيواناً: تلك الحادثة، كما تعلمونها هي التنازع على البقاء أو بتعبير أخص من عزم على محافظة حياته وجب عليه أن يتجهز لرد طوارق الحدثان التي لا بد من أن يصطدم بها في كل آن.

جذبت نظره تلك الحادثة العامة فابتدأ من ساعته يبحث عن دواعي ذاك النزاع والأسباب التي تؤدي لتقوية بعضهم وتفوقهم وإضعاف الآخرين وتقهقرهم. فمن جملة الأسباب التي وجدها، الصبر على شدائد الطبيعة، والتفوق من جهة الاقتدار المادي والمعنوي، وتزايد النسل عند فريق أكثر من الآخر. غير أنه لم يقف عند هذا الحد، بل واصل البحث والتنقيب حتى ظهر له بأن نتيجة هذا النزاع الدائم بين العناصر الحية هو بقاءُ الأنسب في العالم وأن السيادة مع تقلب الزمان تبقى في أيدي أولي العزم والتدبير، فوجد على توالي الأيام أن الضعيف محكوم عليه والقوي حاكم، أو بعبارة أقرب إلى الحقيقة، الضعيف يموت والقوي يسود.

فهذه حقيقة قد أيدها علماء كثيرون قبل داروين، وفي جملتهم الفيلسوف العربي الشهير ابن رشد فإنه قال: (ليس على الضعيف على مر الأزمان إلا حالتان، إما أن يموت مذلولاً وإما أن يتمثل بأقوى منه فيكتسب صفاته وبذلك يقوى فيسهل عليه النزاع مع معامع الحياة). ولكن داروين، أيها الأخوان، لم يكتف بإثبات ما ذَكَر، بل تدرّجَ من القانون العمومي، قانون بقاء الأنسب، وظهر بنظريته المشهورة التي طالما تجاذبتها العقول وتشاحذت بها القرائح والأذهان وهي: الارتقاء في العالم.

سردت لكم أيها الأخوان هذه العبارات لا لأنني أريد شرح نظرية ذاك العالم المدقق، ولو أردت ذلك حقيقة لأضحككم حالي لعلمكم أن الوقت ضيق جداً وأن شرح تلك النظرية يتوقف على معرفة مسائل جمة لا تدخل في موضوعنا، كما أني لست بقادر على إتيانها، وإنما أردت أن أذكركم والذكرى لتنفع، أن الحياة ليست كما يتوهمها كثير منا. فالطفل لدى خروجه من حجر أمه يقع في ارتباك ظاهر لما يتهاجم عليه من العوارض الكثير: فلمسة يد تؤذيه ولفحة قر تؤثر فيه. فيربو وينمو بين حرص الطبيعة وصعوبة المعيشة وكلما تقدم في السن كثرت احتياجاته وتراكمت عليه المشاكل وتضاعف على جانبيه الرقباءُ حتى إذا ما أراد شيئاً وجد ألوفاً مع الموانع تزاحمه.

فهذه المناقشة أو بالأحرى هذا النزاع والتزاحم يتجلى بكل سعته وشدته عندما يخرج الإنسان من المدرسة، إذ يكون حينئذ قد قبض على زمام إرادته وافلت من الحماية العائلية، فيدخل إذ ذاك في حياة جديدة يطلب الرغيف والزاد متكلاً على قوة ساعديه وقيمة كسبه، فالوسط الذي يلجه يجد فيه أناساً كثيرين يزاحمونه على مرغوبه ويحولون بينه وبين مطلوبه. وهناك الطامة الكبرى إذا لم يكن قادراً على دفع المشكلات وإزالة العثرات.

فحالة الأمم في وقتنا هذا لا تختلف عن حالة الأفراد إن لم تكن أشد وطأة وأعظم خطراً. فالأمة التي لا تنظر إلى حقائق الأمور بعين الاعتبار، وتهمل نفسها بمجاراة مجاوريها في سبيل الرقي الأدبي والمادي، تمسي ولا شك متدهورة في هاوية الدمار من حيث لا تشعر.

قلنا أنه يجب على الأمة أن تنظر إلى عواقب الأمور وتسعى بكل جهدها وطاقتها وتستعمل جميع الوسائط لترقية أبنائها لا لترقيتهم بصورة مطلقة إذ أن ذلك لا يكفي، بل لإيصالهم إلى درجة يقدرون بها، بواسطة التعاون والتضامن بينهم، على الاحتفاظ بحريتهم وشخصيتهم. لا جرم أنكم تعلمون أيضاً أن بعض الأمم في حالة من الرقي تختلف درجاته.

الوقت حرج جداً ومن ضيّع الفرصة لا ينفع أن يعض أصابعه ويندم حيث لا ينفعه الندم. فيكتفي بمدح ماضيه ويعقد يديه أمام المستقبل. فمن أحب وطنه وعشقه حقيقة وجب عليه قبل كل شيء أن يصلح نفسه ويزينها بالعلوم العصرية ثم يفكر بأن هناك أمة له عليها حقوق عديدة منها حق بقائه فيجتهد إذ ذاك للقيام بواجبه نحوها وإيصالها إلى درجة الرقي والإسعاد، درجة تمنحها حق البقاء بين الأمم الحية.

أخواني، لا تظنوا بأني أعرّض بالذين يفاخرون بماضيهم لأني أعتقد أن الإنسان لا يمكنه تسلق سلم المعالي إلا إذا عرف نفسه ومعرفة النفس لا تتم إلا بمعرفة الآباء والأجداد وما تركوا من الآثار. لأن الإنسان ليس ابن يومه بل ربيب أمه وأن هناك سلسلة تربطه، شاء أم أبى بالماضي. وما أصدق ما قاله الفيلسوف الشهير رينان: الأمة مؤلفة من أمواتها أكثر من أحيائها فمن أراد خدمة أمته كان جديراً بأن يبحث عن ماضيها ويدرس تاريخها ويكشف التراب عن تلك الجذور التي تسنده في حياته دون أن يراها، ثم يستعين بها لخدمة مبدأه وتعزيز غايته، غير أنني قصدت بقولي إذ ذاك من يتحمس مفاخراً بقوميته مع أنه يجهل أصلها وفرعها ويجهل رجالها وآثارها، قصدت بقولي من يصرخ دائماً، أمتي، أمتي، كانت صاحبة علم ومجد، صاحبة مدنية عظيمة، أوليست هي مهد المدنية الغربية؟ وكلها جُمل مفخمة سمعها من رفيقه واكتفى بترددها في كل محفل ومحضر دون أن يفكر بأن الألفاظ لا قيمة لها إذا لم تستند على دلائل علمية وأدلة حية.

من أحبَ أمته فليبحث عن أحوالها وآثارها وليجتهد في تلقيح ما هو موفّق من المدنية الغربية فيها. نحن العرب، يقال عنا أننا أذكياء، فلو سمعنا بهذه القضية أليس يجدر بنا أن نفهم الآن أننا في القرن العشرين، قرن الجهاد المتمادي والسعي المتوالي وإن الذكاء وحده لا يكفل للإنسان حياته إذا لم يأخذ بالأسباب بإرادة أشد من الحديد. نعم هذه الصفات صعبة المنال غير أنه يجب على الإنسان أمام المصاعب أن لا يقنط، وإنّ أمة لا تعمد على حالها وليس لها ثقة بأفرادها تكون قد أساءت الظن بنفسها ومن أساء الظن بنفسه تدرج إلى اليأس وهناك الطامة الكبرى إذ ليس بنتيجة اليأس إلا الفتور والخمول.

فحينئذ يجب على كل أمة أن تنتبه كالأفراد إلى شخصيتها وتتأهب إلى يوم معلوم. يوم لا بد أن تختبط مع غيرها فيه فإذا كانت خبيرة متيقظة في أمورها حازت قصب السباق وإلا وقعت كما هي حالتنا الآن في هوة الذل والهوان.

تذكرون ولا ريب قول ذاك الحكيم الاجتماعي مونتسكيو بحق القوة: القوة تجري إلى أن تجد مانعاً فيصدها، فهذا القول ينطبق على جميع القوات طبيعية كانت أم اجتماعية. أليست تشكلات أوربا السياسية وتجمعها حول الاتفاق والائتلاف مستندة على هذه النظرية؟ أوليس ضعفنا وتشتت شملنا هو الذي أطمع الحكومات البلقانية أن تزحف علينا بقواتها وترغب في ابتلاعنا؟. التساهل

بالأمور وحسن النية والاتكال على الغير أمور لذيذة. لأنها هينة التناول ولكن يا للأسف إننا نرى السياسة متلونة تلون الحرباء لا ثقة بها مطلقة. وما التساهل وحسن النية بالأمور إلا بلاهة ومسكنة.

كنت أظن أننا قد اعتبرنا بما قد أتى على رؤوسنا من الدروس التي أوشكت أن تقضي علينا بتاتاً، كنت اظن أنه لم يبق أحد في المملكة العثمانية إلا وقد اعتبر بما انتهت إليه سياستنا العنصرية التي بعثرت قوانا وكادت تفرق قلوبنا بعضها عن بعض، ولكني وجدت ويا للأسف - بالرغم عما كنت آمل - منشئاً يكتب السطر الآتية في جريدة تنشر في العاصمة: العناصر المختلفة التي تعيش في السلطنة العثمانية لا يمكنها أن يكون لها قوة نافذة بجانب العنصر التركي. منذ خمسة عصور ونحن عائشون تحت عنوان العثمانية، ففي القرن العشرين ينبغي أن نعيش تحت عنوان الترك.

لم اذكر لكم معشر الشبان الكرام هذه الأمثولة إلا على سبيل الاستطراد وليس جديراً بالإنسان أن يغالي بسوءِ الظن، لأن التسامح واجب والتعاضد ضروري خصوصاً في الهيئات الاجتماعية، - غير أنه ينبغي على الفرد أن ينظر إلى المستقبل بعين الدقة خصوصاً إذا كانت حياة أمة في موضع البحث وأن يعتمد على نفسه واجتهاده وعند الحاجة يكون مقتدراً على العمل بوصية الشاعر:

وإذا بليت بظالم كن ظالماً وإذا لقيت ذوي العدالة فاعدل

أخواني الكرام،

أريد الآن أن أتكلم عن التربية الاجتماعية أو بالأحرى عما تحتاج إليه التربية الديمقراطية.

والذي دفعني لتخصيص هذا البحث في هذا الموضوع ظاهر على ما أظن. لأن هذا الفرع من التربية هو الذي شَغَل أكثر المفكرين لتناوله جميع الأفراد وله في وقتنا الحالي مكانة عظمى عند الأمم الراقية.

إن الوقت الذي كانت تستعد به الأمم بمجيءِ رجل ذي دهاء يتولى أمورها قد قَلَّ حظه وسيدفن عن قريب بين صفحات التاريخ وإن الدول الذي كان الأمر فيه بيد شخص واحد يتصرف كيف يشاءُ قد مضى وانقضى.

وها نحن الآن في زمن، لصغير القوم وكبيرهم حقوق يطالب بها ووظائف يدعى إلى القيام عليها، يشترك برأيه بمهام الأمور ويضع إصبعه في كل مسألة تتعلق بحياة أمته وارتقائها، فمن ثم وجب عليه أن يكون قادراً على تمييز الغث من السمين ليفيد الهيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها بسعيه وعلمه. هذه المسألة من أهم المسائل الاجتماعية قدّرتها الأمم الغربية حق قدرها وهي تشتغل ليلاً ونهاراً بتطبيقها، بنشر العلم وتعميم الفائدة بين جميع أبنائها حتى يكون كل فرد مفيداً لأمته برأيه وسعيه وعلمه وماله.

إن من الأفراد من يعلقون آمالهم وترقية أمتهم على حياة شخص واحد. إن الأمة التي لا يمكنها أن تكون معجن الرجال والتي تعلق شقاءَها وسعادتها على شخص واحد ليس لها الحق في أن تدخل مصاف الأمم الحية. الأمة الحية هي من إذا فقدت بالمرستون أتاها بيكونسفيلد ومن إذا أضاعت بيكونسفيلد وجدت غلادستون ثم شامبرلين، فساليسبوري، فالبسفور فاسكويس من الرجال الدهاة. والأمة الحية هي التي تملك أمثال هؤلاء الرجال ولا يهمنا إذا سقط واحد فإن هناك جماً غفيراً قادراً على أن يخلفه. فالروح الأساسية هي التي تأتي بالأعمال العالية وهي روح الأمة من حيث المجموع. ولا تظنن أن بسمارك كان يمكنه أن يفعل ما فعل ويوحّد العنصر الجرماني تحت يد واحدة لو لم يكن مستنداً على أمة غذاؤها العلم والانتظام وأعني بهما التربية المدرسية والروح العسكرية، ولا تظنن بأن تيير الفرنسوي كان يستطيع دفع الخمسة مليارات ويخلص وطنه بمدة وجيزة لو لم يكن وراءَهُ أمّة تعودت الاقتصاد وتأصلت فيها مزايا الاستثمار.

فحري بنا نحن أبناء العرب أن نقتفي إذا أردنا لنفسنا حياةً حرةً أثر تلك الأمم وأن نبث روح التربية الديمقراطية بكل صقع من أنحاء جزيرة العرب وسورية.

إن الأخصائيين في هذا الفن قد عرفوا التربية بصور عديدة فقال الفيسلوف الألماني (كانت) التربية تنمية الصفات الكمالية في الإنسان بقدر ما تستطيع طبيعته أو بقدر ما يتحمل استعداده. وتقول مادام نكور دوسو سور وهي آنسة اشتهرت بهذا الفن: تربية الطفل، هو إيصاله الحالة التي يقدر بها أن يفي بوظائفه الحيوية بأحسن صورة، ويرى هربرت سبنسر أن التربية هي إحضار الطفل للحياة الكاملة، وعرفها جيمس ميل الفيلسوف الأميركاني هكذا: المقصد من التربية هي جعل الطفل آلة سعادة لنفسه ولغيره.

وبعد فإن جميع ما ذكرناه من التعاريف في التربية يتعلق بغايتها لا بذاتها ولا يخلو أحدها من الإبهام. لأنه إذا سئلنا ما هي الحياة الكاملة وما هي السعادة يصعب علينا أن نجاوب جواباً شافياً لأن هذه الكلمات تدل على أشياء نسبية لا يمكن حصرها ثم فهمها. عرّف جان جاك روسو التربية بذاتها فقال: التربية هي صنعة لتنمية الأطفال وإعداد الرجال. فحُسن هذا التعريف أنه قصير ومختصر غير أن قصره المفرط ولّدَ فيه نوعاً من الإبهام.

ولذلك أرجّح التعريف الآتي وإن كان مطوّلاً غير أنه يدل على المقصود ويؤلف بين التعارف التي ذكرناها. التربية هي مجموع الأعمال المفكرة لمعاونة طبيعة الإنسان في ترقية خصائصه الجسمية والعقلية والأخلاقية، بقصد تكامله وإسعاده وإيفاء وظيفته الاجتماعية. فهذا التعريف يجلو للأنظار بأن التربية ينبغي لها أن تنطبق على الصفات الثلاث المتمم بعضها بعضاً في الإنسان وهي الصفات الجسمية والفكرية والأخلاقية.

أستأذنكم أن أتبع كلمتي في التربية الديمقراطية بما يتعلق بالمعلومات الأساسية والصفات الفكرية والإرادية التي يجب أن تؤسس في عقل الطفل من حيث أنه عضو فعّال وأن يكون بحثي بصورة خاصة في الولد الذي دخل مدرسة لتكميل ما تعلّمه. لأجل ذلك خصصت بحثي بالتربية وتركت تربية الأسرة والتربية اللامدرسية (إن صح التعبير) أي التربية الذاتية بعد الخروج من المدرسة. ولي بذلك مأرب يهم الحياة العربية.

لا بد أنكم اطلعتم على بعض المقالات التي نشرت في المدة الأخيرة على صفحات الجرائد في دمشق تحت هذا العنوان: «المبادئ العالية» فتوالت المقالات على إثر انتشار المقالة الأولى حتى ظن أنه يوجد اختلاف بين آراء الكتاب في هذا الشأن. ولكن الخلاف لم يكن إلا اختلافاً وهمياً، ومن ادعى أنه لا صلاح إلا بإصلاح الأسرة فقد نطق بالصواب لأن العائلة على التحقيق هي أساس كل جمعية وقوامها. غير أنه إذا سئل كيف تصلح الأسرة، فماذا يكون إذاً الجواب؟

أيتمكن الأبوان أن يتوفرا على تربية ابنهما أو بنتهما مع أنهما لا يفقهان ما هي التربية وما معناها، وهل يكفي أن يلقن الآباء والأمهات معنى التربية بواسطة المحاضرات والمؤلفات والجرائد؟ وهل هم يُحسنون القراءة وإذا قرؤوا أو توصلوا لفهم معنى التربية هل يتمكنون من تطبيقها؟ وهل يمكننا أن نغيّر طبائعهم وعاداتهم بعد أن وصلوا إلى تلك السن ونعلمهم الثبات والدوام في العمل لأجل أن يتيسر لهم اقتطاف الثمرات؟ وهل يمكننا أن ندخل البيوت ونأخذ النفس بتربية

الأطفال؟. كل هذا وهم باطل إذاً فلنوجه أنظارنا إلى المدارس لأن هناك آمالنا وهناك مستقبلنا هناك يمكننا أن نؤثر في الطفل وأن نغرس فيه بقدر الإمكان بعض الطبائع الحسنة ونعلمه الثبات والمضاء. إنني لا أنكر ما للمؤلفات والمحاضرات من الخدم العظيمة بهذا الشأن كما أنني أعتقد أن تلك الخدم بالرغم من مكانتها ثانوية بالنسبة لتربية أمّة كأمّتنا.

الولد الذي يتيسر له نيل تربية حقيقية في المدرسة يمكنه أن يؤثر في إصلاح أسرته وأن يكون سبباً لإسعاد أولاده وترقية أمته في المستقبل. ولكن من قال لنا بأن الولد يربى تلك التربية التي أشرنا إليها في مدارسنا؟ ومن هم أولئك الرجال الذين يعلمون فيها الآن؟ فكفى بنا ذهولاً واسمحوا لي بأن أهتف إلى الغرب الغرب.

لنرجع إلى موضوعنا أي إلى كيفية المعلومات الأساسية والصفات التي تتعلق بالفكر والإرادة والتي يجب على المعلم أن يلقنها تلميذه بصفته عضو من أعضاء هيئة اجتماعية وديمقراطية ولذا فلنبدأ بالتربية العقلية.

قلت فلنبدأ بالتربية الفكرية لأن الطبيعة الأخلاقية في الرجل وإن كانت هي التي تعطيه القوة اللازمة لاقتحام المصاعب غير أن الذكاء هو الذي ينير طريقها ويعين لها وظيفتها.

وعليه فالتربية يجب أن يكون أساسها العلم وأن تستند في جميع أوقاتها على مكتشفاته وأصوله الثابتة. لأننا في قرن الحقائق العلمية والخرافات الناشئة عن الجهل التي تدرس في مدارسنا بدون أن يشعر بها المعلم هي لائقة بعصر كان للخرافات والتخريفات فيه حظ وجاه. فالعقل البشري في عصرنا هذا خاصة لا يطأطئ بسهولة أمام البداهة العلمية.

ولكن ماذا يفهم من قولنا أن العلم يجب أن يكون روح التربية الفكرية في مجمع ديمقراطي؟

هل يمكننا أن نطلب من الخلق بان يملكوا كلهم فنون العلم بحذافيرها ويتمثلوا بها. كلا! فإن ذلك لا يدخل تحت دائرة الإمكان. وحيث أن الجمعية مرتبة من أعضاء مختلفين في استعداداتهم وطبائعهم فقسم منهم بطبيعة الحال يبرع مثلاً بالعلوم الاجتماعية وآخر بالعلوم الرياضية وآخر بالتجارة والصنائع والزراعة... الخ. وعلى كل منهم أن يكون عالماً في صنعة آمراً كان أو مأموراً، وما العالَم إلا من أخصى في شعبة من شعب الفنون الحاضرة. فعليه، ليس المقصد كما قال رينان أن يكون كل الأفراد علماء بل المقصد أن يشترك الكل بثمرات العلم أو بعبارة أجمل كما قال نوسيديد

ليس المقصود أن يكون الفرد قادراً على حل كل المعادلة بل يكتفي أن يقتدر على إدراك النتيجة من حلها.

فعليه ماذا يترتب لاستحصال هذه النتيجة العامة التي يجب أن تشمل الجميع بدون استثناء؟ أو بعبارة أخص وأوضح ما هي الأمور الضرورية التي يلزم نشرها بين جميع أبناء العرب؟ تلك الأمور ثلاثة: أولاً نشر الحد الأصغر من المعارف الأساسية بين جميع أبناء الناطقين بالضاد، ثانياً تأسيس عادات فكرية حسنة، ثالثاً نشر بعض المعلومات التي تتعلق بالاكتشافات الفنية.

الحد الأصغر الذي يجب نشره من المعارف لا يمكن تحديده بصورة قطعية، لأنه يتغير بتغير الأحوال والاستعدادات. فمنهم من يبرعون ومنهم من يتأخرون غير أن القاعدة العامة هو أن يبتدأ بنشر المعلومات الابتدائية التي هي بمثابة الآلات الضرورية لترقية الفكر في المستقبل كالقراءة والكتابة وبعض قواعد اللسان العربي والحساب بإضافة بعض المعلومات التي تتعلق بالتاريخ وبما يحيط بالإنسان. إذ لا بد لها لمعرفة الماضي والحال وإنارة طريق المستقبل، فإذا دعمت هذه المعلومات الابتدائية بصورة مختصرة معقولة وبواسطة المدارس على الأخص تمكن الرجل من أن يوسع معارفه فيما بعد بدرس المؤلفات وسماع المحاضرات، هذا إذا لم يدخل في إحدى المدارس العليا ولم يساعده الحظ على إتمام عقبات التعليم.

غير أن المقصد الأساسي من تلقين هذه المعلومات الابتدائية يلزم أن ينصرف لتأسيس عادات وطبائع فكرية حسنة بحيث يكون الرجل صاحب فكر سليم في جميع أفعاله ومحاكاته، وأن يتعود فهم الحقائق بدون أن ينخدع بالظواهر وأن يرى، كما قال المسيو ألفرد كروازي، مدير كلية العلوم الأدبية بباريس، من وراء الكلمات المعاني، ومن وراء المعاني الأشياءَ بذاتها. المقصد من المعرفة أن يستطيع الإنسان فهم الحقائق، والحُكم على الأشياء لا يتيسر إلا بالاطلاع على كنهها ومعرفة القوانين التي تدار بها.

سلامة الفكر تقتضي نفوذ النظر وشدة الثبات لنيل المقصد والذي يجب أن يولّد عند الطفل الميل لمعرفة الحقائق لأجل أن يستخدمها، يجب كما يقول ديكارت الفيلسوف، أن نتمثل بالأشياء بدل من أن نقودها بميولنا الهوائية. الطبيعة لا تنقاد لمن يغضب عليها بحمق وجهالة، لأن الغضب وسواه عندها سواءٌ. وماذا يا ترى، نفع كيكاوس عندما أخذ السوط بيده وجلد به البحر ليؤدبه على هيجانه أمامه؟.

فعليه يجب علينا أن نعوّد الطفل النظر في الأشياء بعين البصيرة والتروي، وأن نولّد عنده طبيعة البحث عن حقائق الأمور والمثابرة على العمل ليتلذذ بثمراته.

قلت أن المثابرة على العمل والبحث ضروريان لكل شخص إذا أراد أن يتمتع بثمرات حياته، ويا للأسف نحن معاشر أبناء الشرق وأخصّ أبناء العرب تنقصنا هذه الفضيلة الاجتماعية، لأن لذة التحصيل ومعنى الحياة لم تمازج أرواحنا. فالذي يخرج منا من إحدى المدارس العالية يعدّ نفسه أنه وصل إلى منتهى الكمال في العلم فيعقد يديه ويتمدد على سريره كأنه بلغ الغاية القصوى. هذه حالتنا الآن وهذه حالتنا في زمن ليس بقريب. درس كلوت بك أحد المستشرقين أخلاق العرب على عهد محمد علي باشا الكبير بمصر وسورية فامتدح منهم وأعجب بذكائهم وسرعة انتقالهم وقال إنهم لا يقصرون عن أبناء الغرب شيئاً، غير أنهم يملّون بسرعة ولا يداومون العمل بصورة جدية.

فهذه الخصلة، أيها الأخوان، من أتعس النقائص الاجتماعية في زمننا هذا ولقد ثبت أن الألمان لم ينجحوا ويبزوا أكثر الأمم إلا لأن هذه الصفة امتزجت بطبائعهم وقبضوا عليها أكثر من غيرهم. فيمكننا نحن العرب، والأمثال عديدة احتذاء مثال الناهضين بأن نعطي للحياة حقها ونتخلق بهذه الصفة الضرورية لنا إذا أردنا أن نخدم أنفسنا ونقوم بأمتنا.

بقي عليّ أن أقول كلمة في القسم الثالث ألا وهي الأفكار العامة التي يجب أن تلقن للطفل في صغره. أول شيءٍ يمكننا أن نعلمه للطفل أن يعرف شخصه ومن هو وإلى أي أسرة ينتمي، وبأي لسان أمة ينطق ومن هي تلك الأمّة التي يرتبط بها بعاداته وطباعه. ثم ننتقل به إلى الأمم الأخرى بحيث تدخل في ذهنه النقطة الأساسية وهي الفرق بين الماضي والحاضر فتنشأ له بذلك فكرة عامة وهي فكرة الترقي الدائم في العالم. يلزم أن يعرف أن العالم لا يتبع الأهواء والأهوية في تقلباته ودورانه بل هناك نظام وقوانين يدار بها يخضع لها لا بد أنكم توهمتم بعظم هذه التعابير التي ذكرتها كالرقي الدائم والنظام في العالم، وسألتم أنفسكم كيف يمكن تلقين ولد حديث السن فهم هذه الحقائق العالية ؟ولربما ضحك بعضكم في سره من هذا الفكر.

نعم ليس المقصد أن يدخل المعلم في تفاصيل هذه المسائل لأنه يستحيل عليه إفهامها كلها للطفل ولكن يمكنه أبداً أن يوضح ما أشرنا إليه بيان الخطوط الأولى فقط المدونة في التواريخ والكتب الاجتماعية. وعلى وجه الاستدلال أريد أن أنقل لكم عبارة للمؤرخ العالم الكبير المسيو لافيس أحد أعضاء المجمع العلمي بباريز قال: «إن التقلبات التي أتت على الإنسانية مرئية محسوسة

ولا حاجة للإنسان لأن يكون عالماً نحريراً أو فيلسوفاً كبيراً ليتمكن من التوقف على سرير الروح البشرية التي تقلبت بين الأعصر الغابرة». لا يكتفي المعلم بتفهيم شروط الحياة بين الأدوار المهمة فقط وليقل مثلاً أن الإنجيل يفرق بين كليتمنستر ولاسيل وأتالي لرسين والحروب الصليبية بين أشيل والسيد والصليب بين أفلاطون وباسكال ويبن الفروق الأساسية بين القسمين، فعندها يحس الولد من نفسه بأنه منقاد بتاريخ الإنسانية على الدوام. وفي الوقت نفسه يقوده معلم التاريخ من الجمعيات الابتدائية إلى أن يوصله إلى الجمعيات الحاضرة بشرط أن يوقفه على الأصول ويهمل ما دون ذلك من الفروع.

وبديهي أنه لا يمكن استحصال هذه الشروط ولا يتيسر توسيع الفكرة وإنارة الذهن إذا لم يكن هناك حرية فكرية مطلقة. فالحرية هي غذاء الفكر وقوامه وبدونها يصبح الفكر كالعضو المعطّل عن الحركة، فبعد أن يمضي عليه مدة من الزمن يتحضر ثم يعجز عن الإتيان بعمل واحد. أحب أن أذكر لكم هذه الأمثولة التاريخية بهذا الشأن.

دخلت دوقة أورليان ذات يوم سنة 1842 ومعها ولدها على فيكتور هوجو وسألته ماذا يجب أن تعلم ولدها فقال: يجب أن تعلميه أن فرنسا تقيّد العالم بأسره وأن الذكاء يقيدها. ماذا كان القصد من هذا الجواب يا ترى؟ القصد، هو أنه إذا ساعد الحظ ابنها الدوق دي باري وجلس على سرير السلطنة بعد والده لوي فيليب، يعرف أن الفكر حاكم على كل شيءٍ وأن مراعاته واجبة حتى على الملوك. فبالحقيقة لا يقف شيءٌ أمام الإنسان إذا كان متبصراً مستنداً على حرية الفكر وقوة الإرادة.

وهاءَنذا أختم حديثي بكلمات عن التربية الأخلاقية فأقول: تعرفون ولا بد أن قسماً من الأخلاق تكون على مدى الأزمان وسير الأيام بصورة قطعية. فالمذاهب والأديان العالية كلها تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر مثل: يلزم عليك أن تطيع والديك وتعين جارك وتحافظ على حرمتك وتصبر على المحن والآلام وتفتش عن السعادة باكتساب الفضائل فهذه الأحكام هي أحكام ثابتة، تتعلق بغايات عالية وبمقاصد شريفة. غير أن هناك صفات أخرى من الأخلاق بالنسبة إلى التشكلات الاجتماعية الحاضرة يجب أن تضاف إلى القسم الأول وأن ترسخ في عقول الأطفال وهذه الصفات تدعى بالأخلاق المدنية فأريد أن أجعلها كلمتي الأخيرة.

المقصد من الأخلاق المدنية مزدوج فمن جهة، هو توليد فكر الاستقلال الشخصي في الطفل وجعله قادراً على أن يأتي بأعمال شخصية مثمرة، ومن الجهة الأخرى حسن التأليف بين الأعمال

واستقلال الإرادة وسوقها إلى هدف معين. فالمراد من الأول هو الشخص ومن الثاني الجمعية. فالأول يقوي الفرد على السعي والعمل والثاني يحمله على إشراك مساعيه مع غيره فنقول بذلك لتأمين منفعة الشخص ومنفعة الهيئة الاجتماعية معاً. ولا شك بأنه يتيسر للأمة رقيها ونجاحها إذا كان الأفراد أقوياء متقدمين على فكر التعاون والتضامن.

الرجل القوي صاحب الاستقلال الشخصي والجرأة المدنية هو، على مذهب سقراط، من تغلّبَ العقل فيه على الأميال والذي إذا تحقق لديه عمل نافع وغاية شريفة مشى نحوهما بقدم ثابتة دون أن يبالي بكثرة الموانع وازدحام المهالك.

المستر روزفلت، رئيس جمهورية أميركا الشمالية سابقاً، هو مثال في هذا الشأن ومن درس حياته ومناقشاته الاجتماعية إلى الآن يدرك أنه هو ذاك الرجل الذي يقول في كتابه (الحياة المتينة): الأمة لا يمكنها النجاح إذا لم تعوّد أولادها بذل الجهد. لا لاجتناب المصاعب، بل لقمعها، ولا للبحث عن الراحة فقط، بل لمعرفة إحراز الظفر من أيدي المشاكل والمخاطر. يجب على الرجل أن يفرح إذا أتى بعمل الرجال ويسر إذا تجرأ على تحمل الصعوبات وكدّ وجدّ وحافظ على نفسه وعلى من يلوذ به. يجب على المرأة أن تكون مديرة لبيتها، رفيقة لزوجها، عاقلة لا تجزع من كثرة الأولاد الأقوياء الأشداء حولها». فرجاؤنا إلى أبناء العلم والتعليم على الأقل أن يبذلوا الجهد في إنشاء هذه الصفات العالية بين الناشئ الجديدة ومن يليها.

و هل يكفي أن يكون الأفراد أقوياء إذا لم تتنور أفئدتهم بحب المنفعة العامة وتعلق آمالهم وغاياتهم برقي الشعب الذي يرجعون إليه؟ الرجل المتفرد لا قيمة له وما قيمة المرء إلا بقيمة الهيئة الاجتماعية التي ينتسب إليها. وهل ينكر أحد أن مبدأ الترقي والمدنية هو التعاون والإخلاص المتقابل بين الأفراد! أليست هي الجمعية التي تحمل الفرد أن يتجول بكل حرية ويظهر استعداده ولياقته أينما كان؟ إذاً، على كل فرد أن يحب أمّته ويسعى لإرضائها وإسعادها، تلك الأمّة التي ضمته إلى حجرها وضمنت له الحياة ثم دربته إلى أن تيسر له استنارة مداركه وأعماله. الرَجل الذي تبرأ من أمّته ويهمل أمرها بعد أن أخذ غذاءَهُ منها هي ولا شك، غنية عنه وعن أمثاله.ومن يقدّر المنفعة العامة يخدمها ولو كان ذلك يؤدي في بعض الأحيان إلى ضرره الذاتي، فهو مبجل في جميع الأزمنة في نظر أمته ونظر الإنسانية.

حكمت أثينة ظلماً على سقراط بشرب السم. فبدلاً من أن يركب العار ويفر من قانون أمته رضي بحكم الجمهور وتجرع كأس المنون صابراً غير جازع. فحب الأمّة وحسن المفاداة بمنافعنا الخسيسة بحبّها يجب أن ينير أفئدتنا ويعلي مقاصدنا وما أحسن ما كُتب على نصب قبر أحد أولئك الأبطال الذين فادوا بأرواحهم في حرب ترموبيل حباً بأمتهم: أيها العابر اذهب وخبّر إسبارطة إننا لم نمت في هذا المكان إلا حباً بإعلاء شرفها وتأييد حريتها! وهل فعلت الأعراب أقل من ذلك وما السائق الذي دفع طارق بن زياد أن يحرق المراكب وينادي بعسكره: الموت أو الظفر، وما الذي ساق محمداً المنصور الوزير الأندلسي الشهير أن يتمدد على الطريق ويصد الفارين بنفسه إذا لم يكن حب الوظيفة وحب الأمة والوطن؟.

الفضيلة التي تأمر الإنسان أن يضع نفسه دون مبادئه العالية هي من أول الفضائل التي سطرها التاريخ على صفحاته. فلنجدّ أيها الأخوان لاكتسابها فإن لنا باكتسابها الفوز العظيم.

أعداء الإصلاح

الطرق شتى وطرق الحق مفردة	والسالكون طريق الحق أفرادُ
لا يعرفون ولا تدري مقاصدهم	فهم على مهل يمشون قصّادُ
والناس في غفلة عما يراد بهم	فجلهم عن سبيل الحق رقّادُ

ما خلا عصر من عصور الإسلام من أعداء لكل جديد ومن جامدين ينكرون ما لا يألفون. فقد لقي المعتزلة والفلاسفة والمتكلمون والنظار من أعداء العقل كل شدة في القرون الراقية، وكان عقل الملوك هو الذي يحول على الأغلب بين الجامدين وبين ما يشتهون من الأعتداء على القائمين بتأييد سنن العقل والناصرين بأقوالهم وأفعالهم مذاهب السُنّة والنقل. ومن نظر نظرة مجردة عن الغرض في سيرة المناهضين للمصلحين على اختلاف الأعصار يجهدهم جروا على غير ما يعتقدون، وطلبوا بمقاومة المصلحين إرضاءً العامة ونيل الحظوى لديهم، واستتباع الجاهلين من الملوك والسلاطين وقليل جداً من كان الإخلاص رائدهم في أعمالهم ومآتيهم.

يقاوم في العادة الخامل النابه لتكون له مكانة كمكانته، ويتحامل الجاهل على العالم ليُعرف بين قومه بأنه قسيمة في صناعته، ومثيلته في فضيلته، ويطعن الجامد الممخرق بمن يحب أن يعبد الله بعقل، ويبحث في عالم الكون والفساد بروية ليتظاهر بأنه بعيد الغور شديد الغيرة وما أقواله إلا رياء وما أفعاله إلا وساوس وأهواء.

لقي المصلحون من الأهاويل في الأمة العربية مما لقيه أمثالهم في الأمم الأخرى فيما نحسب وخصوصاً بعد القرن السابع، وقد توزعت بلاد الإسلام ملوك الطوائف وكان أكثرهم على جانب من الجهل والغباوة لا يهمهم إلا إرضاء المشعبذين بالدِين، ليحولوا العامة إليهم، فيقوى بهم ضعفهم

ويستعينون بهم على تكبير رقعة ممالكهم وبسط ظل سلطانهم على النفوس، فيستمتعون بشهواتهم وبذخهم ورفاهيتهم:

عجبت لمتاع الضلالة بالمدى ومن يشتري دنياه بالدين أعجب

وأعجب من هذين من باع دينه بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

ساعد على الانتقام من العالمين العاملين ناس من أرباب المذاهب سرَت أحكامُهم بقوة أربابها فكان الحكم يجري على المبتدعة وأرباب الأهواء بزعمهم بموجب قوانين لهم سنوها، ومنها المذهب المالكي الذي كان يحكم قاضيه بقتل أكبر عالم في الأمة - والقتل يُعد من التعزير في مذهب مالك - خالف المألوف من العادات التي اعتقدتها من أصل الدين وعُدَّ الخروج عنها كفراً وإلحاداً وما أسهلها صدور الحكم بهما من أعداء الإصلاح المماحكين.

سالت الدماء كالأودية في بغداد للفتن بين الحنابلة والشافعية مرات. وسالت دماء كثير من الخاصة في كل قرن وعُذِّبوا وأوذوا بواسطة أرباب المظاهر من المتنطعين ممن شق عليهم أن يروا كلمة الإصلاح الديني والدنيوي تفعل في الأرواح فعلها المطلوب، فحدّثَتهُم أنفسهم أن يتساوى المفكرون وغيرهم في نظر العامة إن لم يتمكنوا من إسقاطهم، ليخلو لهم الجو ويقتصر في تقبيل الأيدي وطلب الدعوات والتماس البركات عليهم دون سائر المنتسبين للعلم والشريعة.

ومن غريب أسرار الله في خلقه أنّ جميع من قاوموا المخلصين من المصلحين دثروا ودثرت أسماؤهم وظلت أسماء من عادوهم وآذوهم تشهد بالجهل المركّب على أعداء العقل السليم والتعاليم الصحيحة.

أين أعداء الغزالي والسهروردي والآمدي وابن جرير وابن تيمية وابن رشد ذهبوا كلهم كأمس الدابر وبقيت الأمة تردد على وجه الدهر أسماء هؤلاء المصلحين العاملين وتتناقل ما خطّته أناملهم من سطور الإصلاح فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

لا يذكر التاريخ اليوم إلا أفراداً ممن ناوأوا رجال العقل الرجيح والنقل الصحيح اشتهروا لاحتكاكهم بالحكام، وموهوا على العامة بحسن حالهم لمظهر دنيوي وحطام من الدنيا تطالت نفوسهم

لأن يقتنوه، كأن يكون أحدهم قاضياً يخاف أن يشركه ذاك العالِم المستنير في قضائه، أو شيخ عامّة حدثته نفسه بالاستئثار بهذا المظهر الذي يعتقده جماع فضائل الدنيا والآخرة:

أمثال هؤلاء الممخرفين المنافقين بدّلوا المعالم والتعاليم مرضاة لأرباب الرئاسات والزعامات، وسجّلوا على أنفسهم العار للبت فيما لم ينزل به السلطان، وجازوا حدّ الشرع وهم يتظاهرون بأنهم المؤتمنون عليه ومنهم ومن أعمالهم يشكو ويئن كما تشكو المدينة والإنسانية.

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوءٍ ورهبانها؟

إن من يتظاهرون بالدين وباطنهم منه بريء أضرُّ على الدين ممن يعقّونه. ومن يدعو في الغالب إلى الإصلاح ويتخذ التقية أمام العامة درعه يكون أقرب إلى الإنحلال والضلال منه إلى من لا يطنطنون بأنهم دعاة الدين والقائمون عليه وعنهم يؤخذ وبهديهم يُهتدى. وشر الناس من يسرّون غير ما يظهرون، ويتلونون باللون الذي يرون أنه أوفق لهم لجر مغنم وإحراز مظهر.

إن هؤلاء العامة ممن يتطالون إلى مقامات العلماء هم أفسد من العامة لأن شيطانهم يتكلم وشيطان هؤلاء أخرس لا يبدي ولا يعيد. هم سوس الفساد في كيان هذا المجتمع يدعون معرفة كل شيء وهم لم يتقنوا شيئاً إلا ما سولته له أنفسهم وحدّثته به شياطينهم، شِعارهم التدليس والتظاهر بالغيرة على المحارم. ولو بحثت عن أعمالهم لرأيتهم أول المجترئين على انتهاك حرمات الأديان والشرائع وهم يقدسونها بلسانهم والعابثين بحدودها وهم يدعون الناس إلى الوقوف عند مراسيمها والسعاية بالمصلحين ليفتّوا في أعضادهم ويفسدون عليهم أمرهم ويأبى الله أن يتم نوره ولو كره أبالسة التدجيل والتضليل من علماء السوء.

لو كان أعداء المصلحين على شيء من التدين الحقيقي لكانوا اشتغلوا منذ القديم بإرشاد العامة وإنكار المنكرات المائلة في كل عصر أمامهم مثول الشمس في السماء رأد الضحى، ولكن المتدلسة أمثالهم يتعلمون من قشور العلوم ما يستعينون به على الأخذ من أموال الحكومات والأغنياء والتعزيز بالعامة، ولذلك كان أكثر اشتغال من سموا أنفسهم بالعلماء في كل عصر بالفقه لأنه سلم إلى ما يتطالون إليه من الجاه والمال وحسن الحال. قال حجة الإسلام الغزالي في الإحياء: «اعلمْ أن الخلافة بعد رسول الله (ص) تولاها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً في

وقائع لا يُستغنى فيها عن المشاورة، فتفرّغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نُقِل من سيَرِهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم. وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمت علماء السلف، فكانوا إذا طولبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتوليه القضاء والحكومات، فرأى أهل تلك الأعصار عزّ العلماء وإقبال الأئمة والولاة عليهم مع إعراضهم عنهم فاشرأبّوا لطلب العلم توصلاً إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة. فأكبّوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة وتعرفوا إليهم وطلبوا الولايات والصلات منهم، فمنهم من حُرم ومنهم من أنجح، والمنجح لم يخلُ من ذُلّ الطلب ومهانة الابتذال. فأصبح الفقهاء بعد أن كانوا مطلوبين طالبين وبعد أن كانوا أعزة بالإعراض عن السلاطين أذلة بالإقبال عليهم إلا من وفقه الله في كل عصر من علماء دين الله. وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات. ثم ظهَرَ بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه إلى سماع الحجج فيها، فعُمّمَت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام، فأكبّ الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف، ورتّبوا فيه طرق المجادلات، واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات، وزعموا أن غرضهم الذبّ عن دين الله والنضال عن السنة وقمع المبتدعة، كما زعم من قبلهم أن غرضَهُم بالاشتغال بالفتاوى الدينُ وتقلّد أحكام المسلمين إشفاقاً على خلف الله ونصيحة لهم، ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولّدَ مِن فتح بابه من التصعبات الفاحشة والخصومات الفاشية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه إلى المناظرة في الفقه وبيان الأَولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص. فترك الناس الكلام وفنون العلم وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير علل المذهب وتمهيد أصول الفتاوى، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتّبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرون إلى الآن وليس ندري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار، فهذا هو الباعث على الأكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير. ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى

الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو علم آخر من العلوم لمالوا أيضاً معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين.

هذا موجز من تاريخ المتحذلقين في الدين وصف به حجة الإسلام طغمتَهُم في عصره، وعصرُه الخامس من أفضل عصور النور في الإسلام، فما بالك بأمثالهم بعده وقد حدثت من الأحداث ما كان الجهل سداها ولحمتها والنيل من المخلصين مبدأها وغايتها. وما أصدق ما قاله حجة الإسلام أيضاً في هؤلاء الطغام أعداء الإسلام والسلام في أول كتابه التفرقة بين الإسلام والزندقة قال: «وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم، ومعبوهم سلاطينهم، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم، وشريعتهم رعونتهم،، وإرادتهم جاههم وشهواتهم، وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم، وذكرهم وساوسهم، وكنزهم سواسهم، وفكرهم استنباط الحلية لما تقتضيه حشمتهم، فهؤلاء من أين لهم ظلمة الكفر من ضياء الإيمان؟ أَبِإلهام إلهي ولم يفرغوا القلوب عن كدورات الدنيا لقبولها؟ أم بكمال عملي وإنما بضاعتهم في العلم مسألة النجاسة وماء الزعفران وأمثالهما؟ هيهات هيهات هذا المطلب أنفس وأعز من أن يدرك بالمنى أو ينال بالهوينا فاشتغل أنت بشأنك ولا تضيع فيهم بقية زمانك و(اعرِض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم أن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى).

وبعد فإن في هذا العصر فئات في هذا الشرق ممن استعاذ منهم المصلحون في كل عصر ولكنهم ويالأسف حثالة الحثالة، ومثال الجهالة والضلالة، إن قلت لهم تعاليم فلان، قالوا لك أونسيت تعاليم فلان؟ فهي أحسن وأسلم، وإن حرضتهم على علم كذا قالوا علم كذا أفضل،، وإن شرحت لهم أساليب المدينة، قالوا إننا لم نؤت إلا من قبل ديننا فتركناه فصار حالنا إلى ما ترى، وإن حدّثتهم بطُرق الارتقاء قالوا إنه يدعونا إلى الانحلال كأنه ما كفانا ما نحن فيه من البدع، وإن دعوتهم إلى الأخذ بما صح من أحكام الحلال والحرام، أوردوا لك مِن أقوال شيوخهم وأقاصيص عجائزهم وأحلام حالميهم ومثبطات المتزهدين والمتورعين منهم ما تسأل الله معه السلامة، وإن حببت إليهم المعروف قالوا لك ما أكثر المنكرات.

حملة أهواءٍ، لا حملة شريعة، وجعاب لغو وحشو لا قوّام على ما يقوم العقل، سلاحهم المغلطة، ومجنهم السفسطة، رأس مالهم الثرثرة، وربحهم الغلبة بالباطل، والمهارة في المهاترة على غير طائل، مناهم، من دينهم ودنياهم، أن تفخمَ ألقابُهم، وتملأ كراشيهم وعبابهم، وترفع بين

الغاغة منازلهم، ويزيدوا بسطة في الجسم لا في العقل، وتُكتب لهم في العالمين شهرة بعيدة بدون أن يعدوا لها أداة من أدواتها، ويصرفوا في التحصيل ساعة من أوقاتهم، دأبهم الحط من الفضلاء، وهجيراهم النيل من العظماء، يرقّعون ويلفّقون، ويراوغون ويماحكون، وآكِسون ماكسون، مدلّسون موالسون، يعادون ما يجهلون، يجمدون على ما يعرفون، يصانعون ولا يتلطفون، يفتون وهم لا يعلمون، يجتهدون ويخطئون، يهرفون بما لا يعرفون، يعدّون علوم البشر ذرة من معارفهم، ويحتقرون ما لا تبلغه مداركهم. كأن فضل اللّه محصور فيهم، وكأن من لا يجري على هواهم محروم من السعادة هالك، أولئك هم ثعالب الإنس يأكلون لحم أخوانهم بالغيبة والوشاية، ويمشون بين الناس بالنميمة والسعاية، أسود ولكن على نحت أثلات مخالفيهم، نمور ولكن لا يحسنون الوثب إلا على من لا يصلحون خدمة لهم. يفترون ويغرون، يغوون ولا يخافون، يخربون ولا يدرون، يخرفون ولا يستحون، يمخرقون ولا ينتهون، فهم أضرّ على الناس من قطاع السابلة، وأفسد في جسم المجتمع من الأدواء القتالة، يرجعون بالأمة القهقرى، والدواعي تهيب بها إلى التقدم، ويزينون لها الفناء والعدم، والمصلحة قاضية بالتماسك والتعاون، ويملون لها الذلّ والصَغار، وركوب متن العار، والحالة تدعو إلى تحكيم العقل في كل قول وعمل.

فاللهم ثبّت أقدام المصلحين وهيء لهم من الكفاءة ما يقوون به على رد غارات أعداء الأمة في إصلاحها فقد كفاها جهلاً وضلة بما كسبت أيدي المنافقين وما جلبوا عليها من الخزي المبين و«عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً... والذين لا يشهدون الزور وإذا مرّوا باللغو مروا كراماً».

النهضة الفكرة في سورية

الإقبال على الآداب منظومها ومنشورها أول ما تنصرف إليه وجوه الأمم الآخذة بالنهوض ثم تنبعث الرغبة في الفنون والعلوم بحسب الحاجة والدواعي. وبعد أن اضمحلت الآداب في سورية فبلغت حداً غريباً من الابتذال في القرن الثاني عشر للهجرة وآنت أدبيات أهل الطبقة الراقية في ذاك العصر تافهة بشعة لا شأن لها ولا ذوق فيها عادت فأخذت تسير نحو الحياة في منتصف القرن الثالث عشر بما هبّ عليها من نسمات التجديد السارية من عقول المنورين المتأدبين من السوريين والمصريين والتونسيين.

فنشأ للغة كتاب وشعراءٌ من مصر والشام أخذوا يعودون بمنظوماتهم ومنشوراتهم إلى سالف نضرة اللغة من الرصانة ويقلدون أدباء الإفرنج في تصوراتهم. وكان لمصر في هذا الشأن يد طولى أسداها إلى الآداب العربية جد البيت الخديوي الأول، فعمّت المعارف في مصر ومنها انتشرت إلى سائر الأقطار، وإنْ كان بعض من يريدون أن يحصروا الفضل كله في سورية ولاسيما في المدارس الأجنبية يتكررون هذه الحقيقة التاريخية المدركة.

لا جدال في أن المدارس الأجنبية قد أحسنت على عهد نشأتها في بلاد الشام واهتمت بخدمة الآداب العربية اهتمامها بخدمة آداب لغتها الأصلية، وإن بذلك كثرت صلاتنا التجارية والعلمية مع أوربا وأميركا وصار الإفرنج يطوفون أو يسكنون ديارنا وأمسينا لا نفزع من نزول ديارهم أو الرحلة إليها.

وعلى هذه الصورة أخذنا ندرك اليوم بعد اليوم نقصَنا بالقياس إلى الغربيين فيسعى المنورون منا إلى بث أنوار المعارف والفضيلة ويشعرون بالمصلحة العامة ويتوفرون على إصلاح الأفكار السقيمة.

النهضة الفكرية في سورية متلونة كأبي براقش بتلون الأوعية التي تخرج منها: فنهضة المسلمين مثلاً آتية من مدارس الحكومة على الأغلب على يد أُناس من العرب تعلموا التركية في المدارس الملكية والعسكرية في الولايات السورية أو في الآستانة وهؤلاء في الأكثر تعلموا ما تعلموا ليصبحوا موظفين وغايتهم أن يتدرجوا في سلك المراتب والمناصب ليعيشوا عيش الراحة والاتكال. ولولا نفر منهم تداركوا أمرهم بعد نيل الشهادات المؤْذنة بكفاءاتهم من المدارس الأميرية فأخذوا يحاولون أن يكتبوا بلغتهم ويتذوقوا أدبياتها ليلمّوا على أمتهم بعض ما غلب عليهم من المعارف الجديدة لقلنا أن تلك المدارس لم تأتنا بخير إلا بكونها صاغت من سورية موظفين آخرين فزادت الدولة بهم عبئاً فوق عبئها الثقيل من الأتراك الذين جعلوا وظائف الحكومة أقصى ما يبلغونه من درجات الكمال وسعادة الحال والمآل.

ثم أن طبقة الموظفين في جميع الأمم التي تسير على نظام الأوربيين لا يأتي في الغالب منها كبير أمر لأن الاستخدام مبني على الطاعة وارتقاء الموظفين مناط باعتزالهم وأحسن أعمالهم الخضوع لإرادة الرؤساء مهما كانت وهناك الارتقاء مضمون. ولذلك قلّما أثّر موظفٌ في نهضة الأمة الفكرية خلا أفراداً في مصر عرفوا منذ زهاء سبعين سنة إلى اليوم كيف يستخدمون أوقاتهم وحريتهم ليجعلوا لكل من حكومتهم وأنفسهم وأمتهم حظاً وتكون أعمالهم سلسلة نافعة من كل وجه.

أما في سورية فإننا نجد من تذوقوا شيئاً من الأدب وحبسوا أنفسهم على التوظيف لم يأتوا بما نفع في النهوض، اللهم إلا إذا كانوا يرون تلك الدواوين الشعرية والأماديح النثرية التي يرسلونها في تمجيد الحاكمين على اختلاف درجاتهم تعد من الآداب في شيءٍ. ولا يحضرنا الآن اسم بضعة من الموظفين يصح أن نوردهم مثالاً صحيحاً نحتج به على من يوقن كل الإيقان أن الموظفين مهما بلغوا من التربية والتعليم فلا يرجى أن ينتفع بهم إلا في الفروع التي تمحضوا لها من خدمة الحكومة.

وإذا كانت الشام واقفة عند حدّ الاعتماد على مدارس الحكومة، والحكومة لا تعلم إلا ما ينفعها ومدارس الأجانب لا تعنى إلا بالعَرَض بما نفع البلاد، بقيت النهضة الفكرية مذبذبة لا تركية ولا عربية ولا إفرنسية ولا أميركانية ولا إنكليزية ولا ألمانية ولا روسية ولا يونانية ولا إيطالية. كما أنها ليست إسلامية سنية ولا شيعية ولا باباوية كاثوليكية ولا مارونية ولا أرثوذوكسية ولا برتستانتية ولا إسرائيلية ولا درزية، وبهذا صَحَّ أن نقول أن سورية بابل اللغات واللهجات كما هي

بابل الأديان والمذاهب وإن النهضة في أصقاعها كأجوائها في التلون وأغوارها في الحرارة ونجادها في البرودة.

لم تنشأ في البلاد مدارس أهلية إلا في دمشق وبيروت وحمص وطرابلس وصيدا مثلاً منذ عهد قريب، وهي لم تَطُل أعمارها بعد حتى يتخرّج منها تلاميذ يكون واحدهم بألف في غنائه وكفاءته ويبذ المتعلمين في مدارس الأجانب ومدارس الحكومة معاً ويتلقّن في مدرسته أن المقصود من العلم إنارة المتعلم نفسه وذويه ونفع قومه ولغته وأمته.

وممن يساعدون اليوم على ترقية الأفكار وإزالة غشاوة الأوهام بعض الصحف وفئة من ناشئة الشام تتلقى العلوم المختلفة من مدارس، ولاسيما في فرنسا وسويسرا وإنكلترا وألمانيا وأُناس من وجوه البلاد أخذوا يغشون ديار الغرب للزيارة وهم على قلّتهم يفيدون فيم يقصونه على قومهم من مشاهداتهم وإعجابهم بأوضاع المدنية الحديثة وقصور سورية بالنسبة إلى ذاك التقدم المدهش.

هذه العوامل الثلاثة في ارتقاء سورية وهي الصحف والمتعلمون في مدارس الغرب والسائحون في ديارهم إذا حسنت أكثر من الآن وقويت وكثر عديد الشاعرين بها تنهض بالبلاد ولاسيما مدن الداخلية كما أفادت هجرة اللبنانيين خاصة في تمدين لبنان، فعُدَّ من سورية بمثابة باريز من ولاياتها أو القاهرة من بلاد أقاليم مصر ولذلك كانت الحركة الفكرية في لبنان وبيروت أرقى منها الآن في دمشق وحلب، إذ التعلّم فيهما أكثر من هاتين القاعدتين وحركة لبنان وبيروت في الفكر مادية، ولذلك قلما ترى الرغبة اليوم في مدارس بيروت والجبل منصرفة على العلوم الأدبية والفنون بقدر انصرافها إلى إتقان اللغات الأجنبية ولاسيما الإنكليزية والإفرنسية يستخدمونهما في التجارة ويتسلحون بهما للاستعانة على الهجرة إلى أميركا الشمالية وأوستراليا وكندا وجنوبي أفريقية ومصر والسودان.

وبعد فإن حال النهضة غريب في هذا القطر فكما كان العمران في السهوب والوهاد في كور محدودة معروفة، هكذا تجد النهضة الفكرية في انتشارها موزعة على المدن الآن، وبعضها لا حظ لها منها إلا بقدر حظ الدساكر والقرى فترى اللاذقية وعكا مثلاً بنهضتها الفكرية دون حيفا ويافا مثلاً مع أن للمدينتين الأوليين تاريخاً مجيداً مهماً ونابلس وحماة متشابهتان وإن كانت الأولى تفوق الثانية بكثرة الناهضين للتعليم من أبنائها وحمص تشبه طرابلس والصلت تشبه بعلبك ولكن هناك نحو مئة بلدة لا تقل نفوس الواحدة منها على بضعة ألوف من السكان وهي لا تَخرُج في نهوضها

الفكري عن أحقر المزارع وذلك مثل دومة وجوبر وعربين وداريا في غوطة دمشق ويبرود وجيرود ودير عطية والنبك في جبل سنير (قلمون) وحاصبيا وراشيا في وادي التيم والسويداء والرمثا ودرعا ونوى وبصرى في حوران وغيرها من أُمهات القصبات في ولايات سورية وحلب وبيروت ومتصرفيات لبنان والقدس ودير الزور وهي جماع أقاليم بلاد الشام.

قلنا أن نهضة سورية ذات ألوان كثيرة وذلك لاختلاف مصالح الأمم الغربية في هذه الديار، وللسياسة والدين تأثير شديد في هذه الحركة ولولاهما ما رأينا تلك المدارس المبثوثة في القدس والناصرة وبيروت ولبنان ودمشق وحلب ومرعش، بل في بعض القرى والقصبات. وبينما الدولة تجدّ ولاسيما في العهد الأخير بنشر لغتها وكادت ولاية حلب تعد من الولايات التركية نجد الأرض المقدسة ولاسيما طبريا وحيفا ويافا والقدس توشك أن تعد ولاية إسرائيلية وذلك لكثرة المهاجرين في العشرين سنة الأخيرة من الإسرائيليين الروسيين والنمساويين والألمان وغيرهم ومنهم دعاة الصهيونية يريدون أن ينشئوا مع الزمن في فلسطين مملكة تكون سداها ولحمتها بيد أبناء إسرائيل. من أجل هذا تراهم في مدارسهم لا يعلمون العربية ويجعلون اللغة العبرية لغة التعليم والتخاطب ولهم في فلسطين جرائدهم ومطبوعاتهم ينشرونها على مناحيهم بمأمن من مراقبة الحكومة وتوفيق الخطة على ما يلائم مصلحة البلاد ولذا تشهد في مدن فلسطين ولاسيما في القدس ويافا وحيفا غرائب الألسن فتظنك في بور سعيد اليوم تسمع بضع لغات والبلاد عربية ولكن بالاسم فقط.

ومهما يكن من صيغة النهضة في قواعد البلاد ومدنها فإن أعمالها من بلاد الأقاليم كالقرى والدساكر لا تزال بمعزل عن كل نهضة. وحسبك أنك تمر إلى اليوم في بضع قرى ولا تجد من يستطيع أن يقرأ القراءة البسيطة فضلاً عن كتابة سطرين. وهذا شان الأقاليم التي لم تدخل إليها الإفرنج أو دعاة البرتستانتية مثل الصلت والكرك وتنشئُ المدارس لبث دعوتها كمعظم ألوية حوران والكرك واللاذقية ودير الزور.

نعم تسير الأيام الطويلة ولا تشهد السكان إلا كما كانوا منذ بضعة قرون تجتاز تدمر وجرش وبلاد موآب وأرض الشراة والبلقاء وارض منبج وحران والرقة وبلاد الجولان وارض الصفا واللجاة وغيرها فلا تكاد ترى مدرسة أهلية تذكر ماضي هذه الأقاليم، فلا تلبث أن تنهل عبراتك على بلاد نام عليها رعاتها وأقاليم كل منها بمساحته وخصبه وذكاء أهله ومضائهم لا يقل عن أحسن أقاليم قارتي أوربا وأميركا.

ربما توهَّم واهم أن الحرية العثمانية أبرزت من القوى ما كان كامناً في النفوس، ولكننا لم نشهد من علائمها شيئاً يستحق الذِكر، اللهم إلا أولئك النفر من المتأدبين الذين جربوا أنفسهم في نشر الصحف والمجلات وتأليف الأسفار والمترجمات يحاولون منها الرزق أولاً فخسر أكثرهم. على أن معظم ما نشر في السنين الأربع الأخيرة من المصنفات والمقالات يدل على أن الأمة هنا لم تزل في دور التجارب وهيهات أن تعد في مصاف الأمة المصرية حتى بعد ربع قرن، فالأسماء هنا أكثر من المسميات وإن تكن الهمم عالية أكثر من مصر في الجملة ولكن أين نحن من نضوج العلم في وادي النيل وتلك الفئة الرشيدة من العلماء والكتاب والمفكرين والسياسيين والخطباء الواعظين؟.

يقولون أن الكليتين الأميركية واليسوعية في بيروت تخرّجان رجالاً أكفاءً، فأين آثارهم نستدل بها على فضلهم ووطنيتهم؟ وما نخالهم يستطيعون أن يأتونا بغير مقالات خيالية أو قصص غرامية مسلوخة أو ممسوخة من اللغات الأجنبية. وكان في مقدرة أولئك المتعلمين على التواءٍ في نظام تعليمهم أن يأتوا وهم متوفرون على أعمالهم المادية بشيءٍ من المعارف لوطنهم يخدمونه بها، ولكن القوم بلغت بهم الأثرة وحب الماديات حتى صاروا لا يتعلمون العلوم إلا إذا كانت تنفعهم لجلب الرزق وما عدا ذلك فليس له حظ من الأعراب في جملة حالهم.

وهذا من أحد الأسباب التي دعت فئة من المتعلمين ولاسيما في لبنان والساحل أن يعرضوا عن درس اللغة العربية ويستعيضوا عنها بالانصراف إلى تعلّم إحدى اللغات الأجنبية، لأن هذه بزعمهم تعود عليهم بجماع الفضائل والمحامد والغنى وتلك لا تفيدهم في مادياتهم ولا في أدبياتهم. ولكن فات هذا الفريق من المتعلمين إنهم مهما بلغوا من أحكام ملكة اللغات الأجنبية لا يتعدون فيها قدر الترجمان البسيط وإن من جميع من اشتهروا بإتقان اللغة الإنكليزية أو الإفرنسية حتى الآن من أبناء سورية لا نعرف بضعة أشخاص يستحقون أن تنشر مكتوباتهم في مطابع الغرب، إلا بعد أن ينظر فيها أبناء تلك اللغة وينمقونها ويتعاورونها بالحذف والإثبات.

وبعد فإن النهضة الفكرية لا تكون على أتمّها إلا بالتعليم وهذا التعليم مفقود من سورية اللهم إلا علة مناحي الفرنسيس والأميركان وغيرهم، ولذلك كانت النهضة السورية أشبه بجنين لم تظهر سحنته وتتم خلقته. وما دام التفرنج من جهة والتترك من أخرى، يستحيل على بلاد الشام أن تدّعي بأن فيها نهضة فكرية عربية ولا يفعل أكثر من يتعلمون إلا أنهم ينقلون أنفسهم إلى أبناء اللغة التي يتعلمونها وينسلخون من قوميتهم.

وربما يقول بعضهم: ما هذا الغلو في تقدير هذا الخطر الداهم؟ والمتعلمون أفراد والسواد الأعظم لا في العير ولا في النفير لم يبرحوا على الفطرة وسيتعلمون ما سيكتب لهم، فالجواب أن الأفراد هم العمدة والفرد المتعلم اقدر على معرفة المدخل والمخرج من عشرة آلاف أُميّ. ولو كانت كثرة العدد تنفع كل حين لما رأينا سكان الهند يخضعون للإنكليز وجزائر الملايو أو جاوة يخضعون للهولانديين وغيرهم من الأمم الشرقية الضعيفة يخضعون لغيرهم من الأمم الغربية القوية. وعلى الجملة فإن نهضة سورية على غير ما تقتضي الحاجة الوطنية فهي لا شرقية ولا غربية بل هي من كل البلدان وثمرة كل الشعوب والناس قد شعروا بنقصهم ويسعون على تعليم أبنائهم في معظم الأقاليم والشعور بالنقص أول درجات الكمال. كما أن ميل الناس إلى المشاركة في المسائل العمومية دعا إلى ترقية المحيط والتجافي عن تافه الأحاديث، فعسى أن تنمو هذه الجراثيم وتنتقل من دور الحضانة إلى دور الطفولة والفتوة في قليل من السنين.

نهضة العربية الأخيرة

سادتي الأخوان

سألتموني سعدَتْ بكم أوطانكم أن أحدّثكم بطرَف من تاريخ نهضة اللغة العربية في المئة سنة الأخيرة وما منكم إلا من أستفيد منه وأتشرف بالأخذ عنه. أنتم من أهل الفئة الفاضلة في وطنكم يتوقع منكم أن تنيروا آفاق جهْله بأنوار معارفكم وأن تعمروا أكناف معالمه ومجاهله بما ثقفتموه في هذه العاصمة السعيدة (باريس) من تجارب نافعة وتلقفتموه من علم صحيح وآداب رافعة. فأنّى لي وأنا نازل بينكم متعلِّماً لا معلِّماً أن أفوه في حضرتكم بكلام وقد اعتادت آذانكم سماع مصاقع الخطباء وتقرير جهابذة الباحثين والعلماء. وما حالي وحالكم لو أنصفتكم وأنصفت نفسي إلا حال من يحمل التَمر إلى هَجَر أو المسك إلى أرض الترك استغفر الله بل إنَّ حال من يلقي محاضرة على جمعية الإخاء المصرية في باريز أعجب وأغرب.

إخواني: تعلمون قرَّتْ بكم عيون مصر أنه أتت على اللغة العربية أدوار وأطوار وعرَضَ لها ما يعرض لكل كائن في الوجود من ضعف وقوة وعزة وذلّة، وأن أتعس أيام ضعفها كانت في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر للهجرة وهو عهد الفتور في جسم الأمة الإسلامية عامة والأمة العربية خاصة. ثلاثة قرون بل أكثر مَضت في مرَض مستحكِم كانت تكفي لموت هذه اللغة الشريفة التي تَعقِد اليوم على أمثالكم خناصرها وترجو بمساعيكم أن يكون مستقبلها خيراً من حاضرها وغابرها، بيد أن لغة يُفرض على زهاء مائتي مليون من المسلمين أن يتعلموها ليفهموا بها كتابهم العزيز يستحيل عليها الاضمحلال ما دام في الأرض مسلم يوحّد الله.

لابد لكل حركة من سبب. وسبب ما عرا العربية من الضعف في تلك القرون انقطاع الملوك عن الأخذ بيدها، فأصبحت الأمور العلمية صوَرية يُنظر فيها إلى الأشكال لا إلى الحقائق واقتصر الناس على فروع الفقه والكلام والتوحيد وعدّوا ما عداها من العلوم فضولاً لا غناة فيه. وساعد على

انتشار هذا الرأي السخيف ما أصاب البلاد من ضعف الأحكام وفساد النظام ولا عِلم حيث يُفقد الأمن وفي النادر أن يهتمّ جاهل بتعليم أو يربي من لم يتربَّ.

وكأن قدرة المولى تعلّقت بأن هذه اللغة التي نشأ لها الضعف من أبنائها أن تأتيها الصحة على أيدي غيرهم. وربما يَعجَب بعضهم الآن إذا قلنا له أن مبدأ نهوض اللغة العربية كان في مصر أيام محمد علي وقد صحَت عزيمتُه على خدمتها مسوقاً بسلامة فطرته ودلالة بعض مستشاريه من أهل العلم من الفرنسيس، فكان من أعماله الجليلة ما خلّد له الفخر على الدهر وجعله من حيث خدمته للغة والعلم لا من حيث منازعه السياسية من أعاجيب الحكام في الشرق، والشرق أبو المعجزات والكرامات.

ليس من يجهل أن محمد علي كان أمياً أو يقرب من درجة الأمية. مات ولم يحسن التكلم بالعربية العامية لأنه كان ارناؤدياً ولم يخطّ سطراً واحداً لأنه تعلم في الكهولة مبادئ طفيفة من حسن الخط والقراءة فقط. ومع هذا فقد عُني بما لم يعن به أحد من ملوك المتأخرين وشرع منذ استتب له أمر مصر يختار الأذكياء من أبنائها ممن قرؤوا الدروس الوسطى فيبعث بهم على نفقة الحكومة إلى أوربا ليخصوا في العلوم التي أولعوا بها، حتى إذا عاد أحدهم وأتمّ تحصيله يحبسه عنده في قلعة الجبل ويُخرج له كِتاباً بالإفرنجية في الفنّ الذي أتقنه ويوعز إليه بأن لا يخرج من القلعة قبل أن يترجمه بالعربية ويأمر له بأسباب الراحة والمعِينات على الترجمة والتأليف. فإذا ما انتهى الطالب من عمله يعرضه على أمير البلاد وهذا يدفعه بالطبع للعارفين من الناس أو إلى لجنة كانت معروفة إذ ذاك بلجنة الامتحان، فبعد أن تنظر فيه ترخص بطبعه في المطبعة الأميرية ويغدِق الأمير على المترجم أنواع الهبات ويشرع في ترقيته في المراتب إن كان ممن استعدوا للإدارة أو الجندية أو البحرية. وإذا كان من الأساتذة يوسد إليه التدريس في بيوت العلم موسّعاً عليه في الرزق ليتخرج به أبناء مصر. وهو عمل يذكرنا بما كان يأتيه المأمون العباسي من الإنعام على المترجمين ولكن ما يصدر عن المأمون وهو أعلم خليفة في الإسلام لا يستكثر منه وعصره شباب هذه الأمّة بقدر ما يُستكثر ما تمّ على يد محمد علي الأمّي الألباني وعصُره عصرُ شيخوخة الإسلام والمسلمين.

قال لي صديقي الدكتور عثمان بك غالب أحد حسنات مصر الذين نبغوا بفضل الطريقة التي اختطّها محمد علي لمن يجيء بعده وشاهد تلك الحركة العلمية في إبانها ثم شاهدها في انحطاطها

وهو يشهدها الآن في تجددها: لقد ظلت نهضتنا العلمية سائرة أحسن سير إلى سنة 1882 فما بعدها وبدأ انقطاعها سنة 1887 وقد قام بعدها رجل من أبناء مصر نفسها وهو علي باشا مبارك ناظر المعارف فسعى وربما كان بدون قصد سيء منه لإحلال اللغة الإنكليزية محل اللغة العربية في المدارس الأميرية، زاعماً بأن الواجب على المصريين مخاطبة المحتلين بلغتهم وهذا لا يتأتّى إلا إذا أتقن المصريون لغة البريطانيين. فبدأت نظارة المعارف في أيامه وبعدها تسلُب وظائف التدريس من المصريين وتعطيها لأبناء انكلترا وقُطعت الإرساليات العلمية إلى أوربا حتى لم يكد يبقى اليوم من أولئك المدرسين المصريين غير شيوخ قلائل إذا عادوا إلى منابر التعليم لا يسدّون حاجة مصر وأَخذت المعارف في عهد المبارك تطهّر المدارس بأمثال دنلوب وارثين من كل ما ينفع اللغة أو كان من آثار النهضة الأولى، حتى لقد كانت تُطرح الكتب المترجمة أكداساً من مستودعاتها كما يطرح القذى والنوى لتسجِّل العار على من عقّوا لغتهم وأُمَّهم كما عق أخوة يوسف ابن أبيهم، على حين كان علي مبارك من جهة ثانية يؤسس دار العلوم ويؤلف التآليف التي تخدم العربية مثل الخطط وعلم الدين وغيرهما من مصنفاته.

قال غالب بك: كان أكثر أساتذة المدارس التي أنشئت في مصر على عهد نهضتها الأولى من الفرنسويين المستعربين يكتب الأستاذ درْسَه بالفرنسوية والمترجِم معه ينقله إلى العربية فيلقي على الطلبة بلغتهم دام ذلك منذ سنة 1830 إلى سنة 1854. وقد كتب فيها الأستاذ بروجر بك الفرنسوي رئيس مدرسة الطب والولادة والصيدلة والمستشفيات المصرية إلى خديوي مصر في عهده يقول له في تقريره السنوي أن الوقت قد حان لأن تكون وظائف التدريس كلها بيد المصريين إذ أصبح فيهم الأكفاء الآن، وأنّ مهمة فرنسا في تربية أبناء مصر في هذه الفروع العلمية قد انتهت أو كادت.

نعم في ذاك العهد تمّ للعربية ما تريد من تعريب المصنفات العلمية والأدبية على اختلاف أنواعها فأضحت لغة علم بعد أن انقطع سند العلوم منها قروناً، وأحيا أولئك المصريون أمثال الطهطاوي والرشيدي والشباسي والهيهاوي والنحراوي وحماد وبهجت والفلكي وندى والنبراوي والبقلي ألفاظاً من لغتنا كانت في حكم الدارس هُجرت منذ كان العرب يترجمون وينقلون على عهد الدولة العباسية في بغداد والأموية في قرطبة والفاطمية في مصر، وأضافوا إلى تلك الألفاظ ما حدث بعد عهد الحضارة العربية من المستحدثات العصرية والمصطلحات الفنية وعرّبوها على الطريقة التي سلك عليها أجدادنا المعرّبون غالباً، حتى أن الأتراك والفرس لما شرَعوا يعلّمون العلوم في البلاد العثمانية والإيرانية باللغتين التركية والفارسية لم يجدوا أمامهم كنزاً حاضراً يُنتفع به في

الحال مثل تلك المعربات المصرية الحديثة في الهندسة والطب والعلوم والاجتماع والفلسفة والتاريخ والجغرافية وغيرها، فنقلوا المصطلحات العربية برمّتها وأدمجوها في تضاعيف لغتهم.

كان الطلبة الذين أرسلهم محمد علي إلى التخرج في أوربا وتلامذتهم وتلامذة تلامذتهم مدة نصف قرن حمَلة لواء العلم لا في القطر المصري فقط بل في البلد العربية كافة، وأصبحت مصر ببِيض أياديهم من هذه البلاد بمثابة باريز من الممالك اللاتينية تفيض عليها النور وتهز أعصابها للارتقاء حتى بلغَت الكتب التي تُرجمت في فنون مختلفة من الإفرنجة زهاء ألفي مجلد. والأثر الأكبر فيها للشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ من ألّفَ وتُرجم في عهْدِه بما خلّفَه من قلَمِه أو عُرِّب في قلم الترجمة برئاسته وما بثه من المبادئ في مدرسة اللغات ومجلته روضة المدارس. وكلها أعمال مهمة تدل على نفَس طويل وفضْل جزيل. خلِّ عنك تلك الجرائد والمجلات التي صدرت في تلك الأثناء ومنها جريدة وادي النيل لأبي مسعود ومجلة الطب لكلوت بك.

ورُبَّ معترِضٍ يقول: أي علاقة لتعلّم العلوم الجديدة ونقلها إلى العربية بحياة اللغة التي يُراد منها آدابها المنثورة والمنظومة ليس إلا؟. والجواب أنه لا أدب لمن خَلَت لغتُه من أمثال هذه المعارف. فكما أن للعلوم ارتباطاً كلياً بعضها ببعض، هكذا للّغة دخل عظيم في سلاسة آدابها بما تأخذه عن غيرها بل إن لغةً مهما حوت من أنواع البديع والمعاني والبيان لا تُعدّ من اللغات الحية إن لم تكن لغة عِلم قبل كل شيء.

وهنا مسألة مهمة لا أحب أن أمرّ بها وأنا منطلق لأن لها علاقة كبرى بموضوع النهضة الأدبية وهي أنا إذا تدبرنا تاريخ محمد علي وحسناته على العلوم والمعارف لا نلبث أن نشبهه من ملوك الإفرنج بالإمبراطور شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا الغربية. وشارلمان كما لا يعزب عن علمكم كان من أعظم ملوك دهره وله صلة بملوك المسلمين وهو الذي أنفذ إليه الرشيد العباسي رسولاً من قِبَله سنة 801م يحمل إليه هدايا فاخرة ومفاتيح القبر المقدس وهذا الذي كان يحمي الملتجئين إليه من أمراء المسلمين الهاربين من الخلفاء في قرطبة. كان شارلمان لأول أمره أمياً تعلّمَ الكتابة البسيطة على كِبَر مثل محمد علي إلا أن تنشيط التجارة والصناعة والآداب كان مغروساً فيه بالفطرة فجعل قَصرَهُ معهد المستنيرين والمتعلمين الذين يستعين بهم على نشر المعارف بما أنشأه من المدارس بإشارة الكوين المشهور أستاذه وأمين سرّه وباذر الجراثيم الأولى من المعارف في هذه

الأرض الفرنسوية، وبمساعيه أُنشئت المدارس في «إيكس لاشبيل» عاصمة البلاد إذ ذاك وتور واورليان وليون واستُنسخت الكُتب الوافرة لينتفع بها الطلاب.

ومن العجيب أنه حدث لنهضة شارلمان ما حدث لنهضة محمد علي حذو القذة بالقذة، وذلك أنه لما مضى لسبيله عادت تلك الحركة العقلية فركدت ريحها جملة واحدة لأن من خلفوه على سرير الإمبراطورية لم يكونوا على قدمه ولا رزقوا سعة عقله وصفاء طبعه، ولأن الأعمال العظيمة في البلاد المنحطة قد تقوم بالفَرد أكثر من قيامها بالأفراد وعلى العكس منها في البلاد الراقية. أتت خمسون سنة على فرنسا بعد وفاة شارلمان مات في خلالها التعليم أو كاد، ولم تدبّ روح التجديد فيها إلا بانتباه عقول الأمة وعلى يد أناس من أبنائها، كما قامت مصر منذ نحو عشر سنين تُجدّد حياة آدابها بيدها بعد محمد علي بنحو خمسين سنة متّكلة في مهمتها على نفسها لا على الحكومة. وبذلك جاز لنا الاستنباط بأن كل اصلاح يقوم بالأمة في هذا الوجود يكون الأمل في بقائه أكثر مما يقوم بيد الحكومة ولا سيما في الدول الاستبدادية التي تجد فيها تمييزاً بين الأمّة والحكومة. والحكومات قد تَعرضُ لها عوارض تنسى معها الترغيب في العلم ومنها إلى اليوم من يُفضّل الجهل على العلم. ولهذه المسألة نظائر كثيرة في تاريخ الأمة العربية فقد رأيناها تسعد وترقى في برهة قليلة على يد فرد عظيم عاقل من ملوكها وشاهدناها تشقى وتنحط بفرد آخر لا يرجع إلى عقل ولا إلى نقل.

كان الأدب العربي قبل دور النهضة الأخيرة عبارة عن سجع كسجع الكهّان طول بلا طول ولا طائل وجُمَل باردة سمجة وشعر ركيك أكثره في الأماديح والأهاجي، وإن ارتقى الشاعر انفلق لسانه في وصف الخدّ والخال وذات النطاق والخلخال من ربّات الحجال أو الذُكران من الرجال. وما أظنكم أعز الله بكم دولة الأدب إلا قد وقع لكم شيءٌ كثير من أمثال هذه الركاكات والسخافات فضربتم بها عرض الحائط وحمدتم الله على أن خلقكم في زمن قام فيه من الكتاب أمثال محمد عبده وأحمد فارس وإبراهيم المويلحي وإبراهيم اليازجي وإبراهيم الحوراني وطاهر الجزائري وعبد الله فكري ومحمود شكري الألوسي وجمال الدين القاسمي وحفني ناصف ويعقوب صروف وإبراهيم مصور وسليمان البستاني وعبد الرحمن الكواكبي وشبلي شميل وقاسم أمين وأحمد فتحي زغلول ورشيد رضا ورفيق العظم وعبد الحميد الزهراوي وعبد العزيز جاويش وصالح حمدي حماد ولبيب البتنوني وفريد وجدي ومحمد فريد وعلي يوسف وأحمد تيمور وزكي مغامز وشاكر شقير وسامي قصيري وشحادة شحادة وسعيد الشرتوني ورشيد الشرتوني وفرح انطون وجرجي بني وإبراهيم

النجار وأديب اسحق ونعوم لبكي ونعوم مكرزل وأحمد فؤاد وسعيد أبو جمرة ومصطفى الغلاييني وعبد الباسط فتح الله ومحمد بيرم وخير الدين التونسي ومحمد المهدي وشكري العسلي وشاكر الحنبلي وعبد الوهاب الإنكليزي ونجيب شاهين واسكندر شاهين وسعيد الباني ومحمد مسعود وحافظ عوض وحسن حسني الطويراني وأحمد سمير وعبد الغني العربي ورزق الله حسون ويوسف البستاني وأنطوان جميل وعادل أرسلان ونسيب أرسلان وجرجي حداد ورشيد عطية ونجيب طراد ويوسف زخم وعبد الوهاب النجار وميشيل بيطار وخليل زينية ومحمد مصطفى وأحمد زكي ومصطفى لطفي المنفلوطي وأمين ظاهر خير الله وعيسى اسكندر المعلوف وديمتري قندلفت ويوسف الخازن وروحي الخالدي ومحي الدين الخياط ومحمد المويلحي وخليل سعداة وداود بركات وبشارة زلزل وبولس زوين وعبد القادر المغربي وبدر الدين النعساني ومرسي محمود ومحمد صادق عنبر وعبد الرحمن البرقوقي وعبد القادر المؤيد وعبد الكريم سلمان وأحمد الصابوني وعشرات غيرهم لا تحضرني الآن أسماؤهم من شيوخنا وكهولنا وشبابنا. وقام من الشعراء محمود سامي وعبد المحسن الكاظمي وإسماعيل صبري وحافظ إبراهيم وأحمد شوقي ومعروف الرصافي وجميل الزهاوي وشكيب أرسلان وفارس الخوري وخليل مطران وعبد الله البستاني ومصطفى صادق الرافعي وبطرس كرامة وناصيف اليازجي وعبد الباقي العمري ونجيب الحداد وأمين الحداد وولي الدين يكن ونقولا رزق الله وشبلي ملاط وداود عمون وفضل القصار ورزق حداد وغيرهم ومن الخطباء جمال الدين الأفغاني وعبد الله نديم وإبراهيم الهلباوي وسعد زغلول وأحمد الحسيني ونقولا توما ومصطفى كامل وعبد الرحمن الشهبندر وأنيس سلوم واسكندر العازار وفارس نمر ومحمد أبو شادي وأمين ريحاني ومحمد لطفي جمعة وأحمد لطفي السيد وأحمد عبد اللطيف وعمر لطفي وأحمد لطفي وإبراهيم اللقاني وأحمد محمود وعبد العزيز الثعالبي وغيرهم ممن هم عمدة العربية في نهضتها الأخيرة عملوا لخيرها في مصر والشام والعراق وتونس أعمالاً وخلف أكثرهم من مآثر فضله ما يطرس المتأدبون عليه وينسجون على منواله.

وبينما كانت اللغة العربية تزهر في مصر في الإمارة العلوية عزَّ على الشام أن تكون دون شقيقتها في هذه الخدمة الشريفة فنشأت لهذه اللغة حياة جديدة في سورية لا بواسطة الحكومة كما في مصر بل بواسطة الأفراد والجمعيات وذلك في أواسط القرن الماضي، وكانت بيروت مدينة وهي ثغر لبنان وسورية موطن تلك الشعلة وقد جاءها أناس من مرسلي الفرنسيس والأميركان وأنشؤا فيها مدارس جعلوا لغتها الأولى اللغة العربية وأتقنها كثيرون من أهل لبنان فحمُدَ مسعاهم وكانت

اليد الطولى في تنشيط لغة قريش للدكتورين كرنيليوس فانديك ويوحنا ورتبات وهما من أعظم مؤسسي الكلية الأمريكية الأنجلية في بيروت تعلّما العربية والأول أميركي والثاني أرمني ودرسا بها مع أقرانهما العلوم الطبيعية والرياضية والطبية. ومن غيرتهما عليها أن عمدت المدرسة لمّا عمدت أن تجعل لغة التعليم في الكلية اللغة الإنكليزية بدل العربية قاوما ما وسعتهما المقاومة، ولما أخفقا استقالا من وظيفتهما لأنهما أبت مروءتهما إلا أن يمحضا النصح للبلاد وللغتها. والدكتور كرنيليوس فانديك الأميركاني في سورية بفضله على اللغة العربية وما عرّب لها من كتب العِلم أشبه بالشيخ رفاعة الطهطاوي في مصر ووجه العجب في فانديك أعظم لأنه أميركي والمنشأ غارَ على لغة العرب أكثر من أهلها. ومن الغضاضة على مصر والشام أنهما لم تعرفا لهما حقهما على ما يجب وكان على القطرين أن يرفعا لهما تمثالين كما رفعت باريز لهوغو وروسو وكما رفعت مصر لمحمد علي وإبراهيم. والعلماء لم يكونوا أحق بالرعاية من رجال السياسة في بلادنا فلا أقل من أن يكونوا على مستواهم.

ولقد كان من أعظم من خدموا الآداب العربية في بيروت على ذاك الدور أيضاً بطرس البستاني وأسرته بما نشره من دائرة المعارف العربية وغيرها من الكتب والجرائد وبثه في مدرسته الوطنية من أصول العلم وفروعه، وكذلك يوسف الأسير وإبراهيم الأحدب وناصيف اليازجي وأسرته وغيرهم. فهؤلاء كلهم توفّروا على التعليم وتخرّج بهم مئات من الطلبة الذين انتشروا بعد في أقطار الشام ومصر وأميركا وكان منهم الكتاب والصحافيون والمحامون والخطباء. ولم تحرم الأستانة - والعواصم مرزوقة منذ خلقها الله من نزول عالِم بالعربية فيها اتخذها مباءة علمه ومثابة درسه وبحثه وأعني به أحمد فارس الشدياق الذي اقترح عليَّ صديقي سيد أفندي كامل من رجال الجامعة المصرية أن أتوسع في الكلام عليه.

أصلُ هذا الرجل من لبنان من أسرة مسيحية خرج من بلاده مغاضباً فقضى زمناً طويلاً في مصر وتونس ومالطة وفرنسا وإنكلترا وتعلّمَ خلال ذلك الإنكليزية والإفرنسية ثم دان بالإسلام وألّفَ بعض الكُتب ومنها «اللفيف في كل معنى طريف» طُبع في مالطة سنة 1839، ومِن كتبه في أوربا كتاب «الساق على الساق في ما هو الفارياق» أو «أيام وشهور وأعوام في عجم العرب والأعجام» طبعه في هذه العاصمة سنة 1270هـ. وضمّنه ترجمة حياته وشؤوناً وشجوناً على أسلوب يجمع بين الجد والفكاهة تقدر أن تعدّه من الإنشاء المعروف عند الإفرنج بالامورستيك[1] (الجد في الهزل) أو الرياليست (الحقيقي) الذي حدث في عهد فلوبير أو الناتوراليست (الطبيعي) الذي تم على يد زولا،

وانك لتُدهش من قدرته فيه على التعبير ورشاقته في التصوير ومتانته في التحرير والتحبير. فكأن اللغة التي كان من جملة محفوظات أحمد فارس فيها قاموس الفيروزابادي الذي ألّف كتاباً مهماً في نقده سماه «الجاسوس على القاموس» كانت نصب عينيه يأخذ منها كل ساعة ما يشاء ويستحضر في دقيقة ما يصعب الإتيان به في ساعة ويتقن ما شاء بيانه وتبيانه. ولفظ الفارياق مقتطع من أول اسمه فارس وآخر اسم أسرته الشدياق. وقد حَمَل في كتابه على رؤساء الدين حمْلةً منكرة لأن بعضهم قتلوا أخاه ظلماً وتعصباً جعلوه في بناء لهم وبنوا فوقه لأنه دان بالمذهب البرتستانتي.

هبط أحمد فارس مدينة الأستانة بعد أن خبر حالَ أوربا خبرةً زائدة وأنشأ جريدة الجوائب التي طار صيتها في الأفاق ورُزِق الحظوة بعلمه فكان ملوك الأطراف يهادونه ويمنحونه المنائح وممن كان يساعده خديوي مصر وباي تونس وملك باهوبال في الهند حسن صديق خان الذي طبعت له مطبعة الجوائب معظم تآليفه العربية، وكان هذا المَلك أعلم الملوك المتأخرين بل أشبه بأبي الفداء صاحب حماه في جَمعِه حِكم الناس إلى معالجة التأليف وهو بلا نزاع نابغة العجم والعرب في فهم أسرار الكتاب والسنة.

ولقد كانت جريدة الجوائب مثال الإنشاء العربي البحت سارت جميع صحفنا التي أسّست بعدها على نسقها وقلَّ أن نشأت جريدة في صحتها وديباجتها العربية، اللهم إلا أن تكون جريدة العروة الوثقى للشيخين جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده ومصباح الشرق لإبراهيم بك المويلحي والبرهان للشيخ حمزة فتح الله وذلك لأن جريدته كانت كهاته أسبوعية وله فيها مساعدون في الأقطار العربية كان يهاديهم ويهادي علماء عصره حتى كثُرَ أحبابه من العلماء في شمالي افريقية وغربي آسيا ووسطها وهو الذي يتولى النظر في كل ما ينشر فينمّقه ويزوّقه وناهيك بكلام تصقله الأنامل الفارسية. فأحمد فارس هذا لو أنصفنا هو واضع أساس الصحافة العربية وباعث روح الحياة في آدابنا بما خلّفه من آثاره ومن أراد أن يطّلع على شيء من كتاباته في جوائبه فعليه بالرجوع إلى كنز الرغائب في منتخبات الجوائب وهو مطبوع متداول وإن أحب الإطلاع على الجوائب برمتها في حجمها ووضعها فليرجع إليها في خزائن الكتب في أوربا ومصر والأستانة.

ولم يقِف عمل أحمد فارس عند حدود نشر جوائبه وكتبه ومنها كتاب «سر الليال» ورحلة له إلى أوربا وكتاب نحو اللغة الإنكليزية وديوان شعره وغيرها بل نشر طائفة من كتب الأدب واللغة والشعر ككتب الثعالبي والتوحيدي والطغرائي والبديع وغيرهم من أئمة الأدب، نشَرَها على أحسن

أسلوب راقٍ في طول البلاد عرضها بأثمان بخسة فعمّت بها الفائدة وأنشأ طلاب الآداب يتحدّونها في أسلوبها. وما برحت مطبوعات الجوائب إلى اليوم يتنافس فيها المتنافسون ويدّخرها غلاة الكتب لينتفع بها الأحفاد والبنون على ممر الدهور والقرون.

ابتليَ أحمد فارس بأناس حسدوه وأي عالم خلا من حسّاد وطفقوا يشنعون عليه ويزيّفون شعره ونثره وينتقدون جريدته وكتبه ولكن تلك المناقشات اللغوية والأدبية بينه وبينهم بل بين حزبه وحزبهم لم تزد فارسنا إلا جرأة على الجري في مضماره وقبولاً بين العالمين بمصنفاته وآثاره، فكان بنَقده بعض كتّاب اللغة العربية أشبه بسانت بوف في نقده كتّاب عصره من الفرنسويين فاستفاد أرباب الأقلام من تلك المحاورات كما استفادوا بعد مما دار بين التقدم والمقتطف والبيان والضياء والمشرق، وبذلك أخذ من يعانون صناعة القلم يتأنّون قليلاً فيما يكتبونه وأخذت تخفّ أغلاط الكاتبين والشاعرين وتسلم عبارة التأليف كلما نقل الناقلون عن اللغات الإفرنجية ونحا المؤلّفون مناحي قدماء الكتاب في ترك التكلّف والتعسّف، حتى صح لنا أن نقول اليوم أن أسلوب الكتابة العربية لا ينقص عن اللغات الإفرنجية الراقية بإيجازه واندماجه وتقطيعه وفيه بلاغة قدماء المنشئين وسلاسة المعاصرين وأفكارهم.

نعم عادت للغة العربية ولا سيما في الثلاثين سنة الأخيرة نضرتها الأولى في القرن الرابع والخامس والسادس للهجرة وخلصنا من ذاك السجع المتكلف الذي أتانا به العماد الكاتب الأصفهاني من فارس - وفارس مورد بِدع كثيرة في الإسلام منها الزندقة والزنادقة ثم الباطنية ومنها الموسيقى والعود المطرب - ونقلَه إلى العربية فأجاد في أكثره، إلا أن من جاؤا بعده قد أفسدوا علينا لغتنا لأنهم لم يتقنوه.

وإني لا أزال أذكر ما كنت أكثر من مطالعته واستظهاره أيام ولوعي بالأدب من مقامات الحريري ورسائل الخوارزمي ورسائل الصابي وتاريخ اليميني للعتبي ومقامات الزمخشري ومقامات الأصفهاني وقلائد العقيان وذيله مطمح الأنفس للفتح بن خاقان وخطب أبن نباته وفاكهة الخلفاء لأبن عربشاه وخزانة الأدب لأبن حجة والريحانة للخفاجي وغيرها من الكتب التي كنت أَطرَب لتلاوتها ولا أكاد أفارقها في خلوتي وجلوتي. ولما كُتب لي الإطلاع على الآداب الفرنسوية والتركية وأنشأت أبحث عن كتب كُتبت بلا تكلف وتعمل ككتابات الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب وسهل بن هرون وأبي حيان التوحيدي وابن مسكويه والراغب الأصفهاني والغزالي

والماوردي والطبري والمسعودي والصاحب وابن العميد وابن خلدون وابن الخطيب وغيرهم من جهابذة المنشئين غدوت أعجب من نفسي كيف أضاعت وقتها في تلقف تلك الأسفار المسجعة وفي اللغة مثل «نهج البلاغة» و«البيان والتبيين» و«الذريعة والإحياء» وغيرها مما لا يتسع المجال لتعداده وهو في الحقيقة ونفس الأمر مادّة أدب كما هو مادّة عِلم لا تبلى على الدهر جدتها ولا تخلق ديباجتها، كما كنت أعجب من إقبالي أيام الطلب على تلاوة شعر ابن النبيه وابن معتوق والصفي الحلي وابن منجك وابن مليك والجندي من شعراء المتأخرين وعند العرب من أهل هذا الشأن أمثال أبي الطيب وأبي عبادة وأبي نواس والشريف الرضي وابن حمديس وأبي فراس الحمداني.

يرجع الفضل الأكبر في انتشار دواوين الأدب والتاريخ واللغة من كتبنا لعلماء المشارقة من الغربيين أمثال دوزي ودساسي ووستنفيلد وعشرات غيرهم من أهل أوربا ولبعض ما نشره اليسوعيون في مطبعتهم المتقنة في بيروت وما نشرته الجمعيات الكثيرة التي أُلِّفت في أوقات مختلفة في مصر لإحياء الكتب العربية وآخرها تلك الجمعية التي طبعت لنا «المخصّص» لابن سيده أحسن كتاب عني بطبعه في شرقنا، ولما طبعته المطبعة الأميرية ومطبعة الجوائب ومطابع الجرائد في مصر والشام وتونس. كل هذه الأعمال أعانت العربية على تحسين آدابها وترقيتها. ولا ننسى غيرة أولئك الذين نسجوا في منظومهم ومنثورهم على مناحي الأوروبيين من حيث قلة الكلفة ومجاراة الطبع ومحاكاة الطبيعة ووصف عواطف النفس بإيجاز وإعجاز.وأولئك الذين وقفوا أنفسهم منذ عشرات من السنين يعرّبون لنا كل يوم في جرائدهم ومجلاتهم أفكار الغربيين في سياستهم وعلومهم واجتماعهم فكوَّنوا مجتمعنا الأدبي على ما ترونه وجّددوا للّغة شبابها بحيث أمّتنا بفضلهم عليها ما عليها من العفاء وأصبحنا نرجو لها دوام النماء والارتقاء.

أنا لا أقدم لكم مثالاً من أمثلة ارتقاء لغتنا أكثر من أن أحيلكم على مراجعة مجموعة من جرائدنا العربية قبل ثلاثين سنة مثل الجنان والجنة في سورية والفلاح والمحروسة في مصر، وأن ترجعوا إلى كتابة الدواوين في مصر في منتصف القرن الماضي مثلاً وترجعوا إليها اليوم وإن كانت إلى الآن عشيقة الركاكة بعض الشيء. قابِلوا المنشورات التي تصدر اليوم في الوقائع الرسمية في مصر وما كان يصدر من أمثالها منذ مئة سنة مما أورد الجبرتي في تاريخه نموذجاً صالحاً منه بنصّه وفصّه. عارضوا بين لغة القضاء اليوم وما تفيض به ألسن المحامين وأقلامهم في مصر من التفنن في أساليب الدفاع والتأثير الخطابي وبين ما كان للّغة من نوعها مما ذكر صاحب كتاب المحاماة طرفاً صالحاً منه يتجلى لكم كيف ارتقت لغة القضاء. استمِعوا للخطباء اليوم ممن درسوا

الدروس النظامية وتشبّعوا بالعلوم العصرية وقابلوها بأكثر ما يحفظه خطباء الجوامع أو يقرأونه من السجعات في دواوين الخطب القديمة. تدبَّروا لغة التمثيل اليوم وإن كنا فيه دون سائر فروع الآداب تأخُّراً واسألوا كيف كانت منذ البدء حليفة الضعف والسماجة. اقرأوا المحاضرات التي تتلى اليوم في نادي المدارس العليا ونادي دار العلوم في مصر الخالية من التعقيد والغلط الحالية بالرشاقة والبيان وقابلوها بالخطب التي كانت تُتلى زمن الثورة العرابية وبعدها مثلاً تدركون كيف وفّقنا الله إلى قيام بناء آدابنا على هذا الأسلوب الرائق والإبداع في الأداء والإلقاء.

أليس مما يُعدّ من نهوض اللغة ما نراه من أحكام ملكتها في طلبة دار العلوم ومدرسة القضاء الشرعي فقد رأينا طلبة أحداثاً تخرّجوا من دار العلوم فكانوا والله أعرف بالعربية وفنونها مِن أكثر من اشتهروا في قرون الانحطاط الأخير على غير حق. أما مَن تمحّض منهم للتدريس والنفع فهم مفخر من مفاخر العربية في هذا العصر استحكمت فيهم ملكة البيان استحكامها من العرب العرباء وأحاطوا بعلوم الوقت إحاطة نبهاء الغربيين.

وإليكم أيضاً مثالاً صغيراً أذكُره لكم على ما أتت به بعض مدارس مصر في حياة اللغة فقد شاهدت في وادي النيل بعض العمد ممن لم يدرسوا غير الدروس الثانوية يكتبون كتابة صحيحة في الجملة تسقُطُ فيها على روح البيان والتلطف في التعبير مما لا تتلوه في عسلطات المحشين والمهمشين والشارحين من الفقهاء والنحويين المتأخرين. وما ذلك إلا بفضل المدارس المنظمة وما تلقيه الجرائد على مسامع الناس وأنظارهم كل يوم من فصح العربية وشواردها وتتفنن فيه من أساليب التعليم. نعم إن مطالعة الجرائد والمجلات أعانت على انتشار الآداب وأدخلت الغيرة على التعلم في نفوس أرباب الاستعداد.

ولذا رأينا البلاد العربية التي لم تنشأ فيها مدارس لتعليم العربية على الأصول الحديثة ولم يولَع أهلها بمطالعة الجرائد لقلة انتشارها بينهم ما زال أهلها إلى اليوم يكتبون لغة سقيمة ويتكلمون بلغة سقيمة. ومن هذه البلاد مرَّاكش فإن مدينة فاس منذ القديم ما خلت من أفراد يعانون الآداب على الأصول القديمة ولكنهم في الجملة خير من أهل الجزائر الذين لا تكاد تجد فيهم فرداً يُعدّ في الطبقة الثانية في كتابنا فيما علمت. وما ذلك إلا لأن اللغة العربية لم تقم لها في بلاد الجزائر في دور من الأدوار سوق نافقة ولأن حكومتها تحاول منذ القديم أن تجعل أهلها فرنسيساً في لغتهم وأفكارهم ومنازِعهم.

ولئن ضعفت في تونس تلك الروح الشريفة التي بثّها فيها خير الدين باشا التونسي وأشياعه فإن الآمال قويت الآن بارتقاء ملكة العربية لانتباه التوانسة الأذكياء من الخلدونيين وغيرهم. أما طرابلس الغرب وبرقة الصحراء والسودان فهي من أخوات الجزائر في ضعف ملكة البيان وقلّة الجرائد فيها بل عدَمِها، ولكن هناك في صحراء مراكش بلد غريب في تلقف ملكة العربية وأعني به شنقيط بلد الشيخ محمد محمود الشنقيطي الحافظ المشهور في عصرنا. وطريقة أهلها طريقةُ الأقدمين في التلقي والاستظهار وقد شوهدت في شنقيط بعض البنات الشنقيطيات إلى اليوم يحفظن كامل المبرد مع الفهم وأظن من يحسن فهم هذا الكتاب قلائل حتى في شيوخ الأزهر.

أما سورية فقد كاد ينحصر الفضل في إحياء ملكة العربية الجديدة ببعض المدن وبقيت الأخرى غريبة عن تلك الحركة مثل فلسطين وبلاد حلب وداخلية ولاية سورية ومثلها الحجاز واليمن ونجد وحضرموت ومسقط وعمان وزنجبار والجزيرة والعراق، إلا أنّ ذلك لم يحُل دون نبوغ بعض أفراد شاركوا أتمَّ المشاركة في حياة العربية ونعني بهم بعض أولئك العراقيين النوابغ الذين ألّفوا وكتبوا ولم يعقْهم الحجز على الأفكار الذي دام في البلاد العثمانية إلى يوم 23 تموز 1908. ولذلك لا نغالي إذا قلنا أن ثلاثة أرباع ما تمّ للعربية من الارتقاء في القرن الأخير يرجع الفضل فيه لمصر والربع الآخر يوزَّع على سورية والعراق وتونس. ومن الأسف أننا لا نزال نرى بعض الجرائد في الولايات العربية تصدُر باللغتين التركية والعربية ولكن القسم العربي منها يكاد يكون أشبه بالمالطية والكرشونية منه بالعربية الحجازية فتسقط فيها من الأغلاط في التركيب والتأليف والألفاظ والوضع ما تسأل الله معه السلامة. وأقلُّ من ذلك غلطاً تلك الجرائد التي صدرت مؤخراً في طرابلس الغرب وبعض مدن سورية الصغرى وبغداد والبصرة والموصل وأحسن منها جرائد مهاجري سورية في أميركا الشمالية والجنوبية وهي لا تقل عن ثلاثين جريدة وفيها الجيّد والرشيق. ومع هذا فإن الآمال قويت بأن لا ينتصف هذا القرن الرابع عشر للهجرة إلا وتكون ملكة الآداب عمّت البلاد التي ينطق فيها بالضاد بل بالصاد والحاء والخاء والعين والغين والثاء والذال والظاء ورقيَت لغتُنا بمساعي المنورين من أبنائها أمثالكم درجة عالية خصوصاً في البلاد التي كانت كعبة هذه اللغة ومنبعث أنوارها وأريد بها الحجاز واليمن ونجداً فإن فيها بقايا من أرباب الذكاء النادر إلى الآن من لو تمرّنوا على العمل إذا تهيأت لهم الأسباب لأتى على أيديهم خير كثير للأمة. ولا يرجى ذلك إلا متى انقطعت شأفة الفتن من تلك الأقطار وأمن الناس على أموالهم وأرواحهم ليتفرّغوا أو أفراد منهم للدرس والإستنارة.

هذا ما حضرني في موضوع نهضة العربية الأخيرة ألقيته في هذه المحاضرة وربما خرجتُ عن البحث بعض الشيء وساحةُ عفوكم تسعُني أستودعكم الله والسلام عليكم.

نهضة سورية

لم يبق مجال للشك بأن بلاد الشام ناهضة نحو الترقي بقَدمٍ ثابتة وعزم أكيد فقد بدأت تباشير النهضة من بيروت بُعيد حوادث سنة الستين التي انتهت بمنهج الاستقلال الإداري لجبل لبنان وضعُف أمرُها في أواخر مدة السلطان المخلوع عدو المعارف اللدود ثم سرَت نفحة من تلك الروح الطيبة بعد إعلان الحرية إذ أيقن بعض الأهالي أن العهد عهد كفاءات لا عهد شفاعات والدَور دور نشاط وإقدام لا دور جمود وإحجام، وأنّ من لا يعدّ للدهر عُدّته يهلكه الدهر ولا من يرحمه.

ولقد نال من نعمة الدستور في السلطنة كلٌّ بلد بقدر استعداد أهله، وكان من توفرت لهم ذرائع التعلم أكثر ركوضاً إلى ورود مناهل العلم وليس في سورية مدينة استقام لها أمر التعليم كثغر بيروت الذي حمل إليه الإفرنج ولا يزالون يحملون علمهم وأموالهم ليربّوا بها ناشئة الشرق ويخرّجوهم على المنازع الغربية مازجين إلى تلقين المدنية تلقين النصرانية وقد وفقوا إلى ما قصدوا إليه منذ نحو نصف قرن.

ولكن أهل البلاد انتبهوا إلى ما يلحقهم من الغضاضة إذا ظلّوا عيالاً على ما أسّسه لهم الإفرنج من المدارس فبدؤوا بتأسيس مدارس طائفية أهلية سبَقَ إليها المسيحيون أولاً في بيروت وبعض المدن السورية ثم حذا حذوهم المسلمون في بيروت فدمشق فغيرهما. ولكن البيروتيين على قلة عددهم وغناهم بالنسبة للدمشقيين فاقوا جيرانهم هؤلاء لأن اعتمادهم كان على أنفسهم واعتبروا حقّ الاعتبار بما حمله إليهم المرسلون من الأميركان والألمان والروس والفرنسيس وقدّروا المبادئ والخواتيم فرأوا أنه لا ينقذهم من سوء المصير إلا العمل لتثقيف عقول أبناءهم على الطرق الوطنية الحديثة.

أما الدمشقيون فقد استمرأوا وظائف الحكومة فكانوا ولم يزالوا إذا تعلموا شيئاً لا يقدّرون له من الفوائد إلا بقدر ما يقرّبُهم زلفى من الحكام ويولّيهم التصدرَ في دست الرئاسة ولذا يرجَّح أن

يكون مستقبل البيروتيين أكثر ثماراً جنيّة من مستقبل جيرانهم اللهم إلا إذا اعتمد الدمشقيون على أنفسهم وحسبوا التوظف ثانوياً وقللوا من توقيره في نفوسهم.

هذا مثال ضربناه أما سائر مدن سورية كالقدس وحيفا ويافا وصيدا وعكا وطرابلس واللاذقية وحمص وحماة وحلب واسكندرونة وزحلة وغيرها فقد هبّت للتعلم بقدر ما تساعدها أسبابها. ومن كان أقرب للاختلاط بالغربيين كانت نهضته أقوى وأرقى كما المشاهد في حال حمص إذا قيست بغيرها بالنظر لموقعها وحالها وكثرة المهاجرين منها إلى مصر وأميركا فإنا نراها آخذة نحو الرقي وهي لا تتجاوز الخمسين ألف نسمة أكثر من حلب التي تربو على مائتين وشتان بين مركز قضاء من أعماله عشرات من القرى والمزارع وبين قاعدة ولاية عظمى من بعض عمالاتها إنطاكية والرها ومرعش بل ألوف من القرى والمزارع العامرة الغنية وتجارة واسعة تمتد إلى بغداد وإلى ولايات الأناضول كافة بل كانت فيما مضى دار ملك بني حمدان.

ولكن الحلبيين ابتُلوا بما ابتُلِيَت به من قبل بعض الحواضر والعواصم كالآستانة التي يعوّل أهلها على الحكومة في ترقيتهم وكاد بعضهم يتناسون لسانهم ليتعلموا اللسان الرسمي فيتسنّى لهم به أن توسد إليهم الوظائف التي تتلمظ بحلوائها شفاه كل وُكَلَةٍ تَكَلَة يحب أن يعيش كالحلمات الطفيلية بامتصاص دم غيره.

أمام الأُمة اليوم طرق ثلاث تسلكها أو أحدها للخلاص من ربقة الجهل ومصافحة أنامل الحضارة علَى ما يجب وبقدر ما يجب، وهي إما أن تضع جميع أمانيها بالحكومة وتنتظر الفرج يأتيها على يد نظارة معارفها وهو بعيد الحصول قليل الثمرة مهما برقَشَه المبرقشون وزيَّنه السائسون والحاكمون.

فنظارة المعارف العثمانية قد سنت نظام التعليم الابتدائي والثانوي والعالي بحيث يلائم الآستانة وبعض ولايات الأناضول التي يتكلم أهلها بالتركية ولم تسنّه بحيث ينطبق مع حاجة ابن قوصوه ويانيا ومناستر وأشقوردة انطباقه مع حاجة ابن وان وأرضروم وتبليس ومعمورة العزيز أو سورية وبيروت وطرابلس الغرب واليمن. فالذين سنّوا قانون المعارف كانوا متأثرين بعوامل حُبِّ قوميتهم ولسانهم فلم ينظروا إلى الأثر النافع الواجب إعطاؤه لأهل كل إقليم بحسب محيطهم ومزاجهم، بل سنّوه وأكثرهم لا يعرف من حال الولايات إلا النزر اليسير الذي لا يخوّل صاحبه حق التشريع لأمّة مختلفة اللهجات والحاجات.

وبعد فإنا لا نعرف كيف نعلّل إجبار ابن جبل عجلون على دراسة التركية قبل أن ينال حظاً من لغته. فإذا حملناه على تلقّف لغة أجنبية قبل أن يُحكم أصول لغته هل يكون فائدة منه لأمته ووطنه يا ترى؟ وهل بدراسة مختلة الأسلوب يتيسر لنا أن «نترّك» هذا العجلوني ما دام لا غِنية له عن بلاده وقد لا يخرج منها إلا لقضاء الخدمة في الجندية ثم يعود لمحراثه وسكّته وثوره وجَمَله وحماره.

أليس الأولى له أن يتعلم من لغته القدر اللازم من كتابة وقراءة وبعض العلوم العملية الضرورية؟ وكيف يتيسر عن غريب عن لغة لا يعاينها ولا يسمع لهجتها ولا يقرأ آدابها أن يستطيع بها التعبير عن مقاصده في مثل هذه المدة القصيرة من دراستها؟. أما هو أنفع للدولة والأمة إذا تعلم هذا الفلاح باللغة التي هي أقرب إليه وانصرف إلى أرضه وزرعه أكثر من تعليمه لغة صعبة عليه لا تنفعه إلا إذا طمح للاستخدام في الوظائف الإدارية والعسكرية؟ ومن يبقى عند ذلك يا ترى للتوفر على إخراج ثروة البلاد والإنفاق على هذا الجيش الكثير العدد والعدد وسائر ما يشترك العثمانيون في تسديده في ميزانيتهم من النفقات.

إن معنى الوقوف بالعجلونيين عند حد تلقين مبادئ التركية هو أن الحكومة تريد أن تجعل من جمهور الأمة حكاماً وأمراءَ وضباطاً حتى تكون مادة حياة البلاد آخذة بالدثور ويصبح الناس كلهم كمسلمي الآستانة لا يحلمون بغير الوظائف ولا يرون السعادة إلا من طريقها.

هذا ما كان من إصلاح نظارة المعارف في البلاد العربية أما مدارس الأجانب فلا تخلو أيضاً من مضارّ لأن معظمها يأتينا باسم النصرانية ليلقنها الموافق والمخالف وينشر آداب لغته وحب بلاده، فترى التلميذ يتخرّج من تلك المدارس وهي أرقى من المدارس العالية في الآستانة أيضاً ملمّاً بلغته ولكنه مُحكماً اللغة التي تلقّى بها مبادئ العلوم وجاهلاً كل الجهل بما ينفع بلاده. وقد لا يعرف من تاريخها وعمرانها واجتماعها أكثر مما يعرف عامة الطليان والأسبان عنا فلا يلبث وقد زيّنوا له حال الغرب أن ينقلب إليها مهاجراً فكأن هذه المدارس برزخ تنقل الدارسين فيها من وطنهم لتعدّهم لخدمة أوطان أخرى. وبفضل تلك المدارس هاجر من سورية زهاء ثلثمائة ألف نسمة وبعضهم من المتعلمين يطلبون الرزق في جمهوريات الشمال والجنوب من أميركا ومستعمرات أفريقية فخربت بذهابهم بلادهم وهم لم يستفيدوا بقدر ما فادوا به.

ومن ثم لم يبق لنا سوى الأمر الثالث الذي يجب علينا الاعتماد عليه الآن لنهوضنا ونعني به المدارس الأهلية والسعي في تحسين حالتها المادية والأدبية فهذا النوع من المدارس هو معقد آمالنا ومنه تنبعث شعلة نور الحق وتأييد كلمة الوطنية وتحيا اللغة العربية. فلو أُنشئت مثلاً في كل بلدة وقرية مدرسة أهلية كالمدرسة العثمانية والمدرسة العلمية في دمشق والمدرسة العثمانية ودار العلوم في بيروت مثلاً ووسد التدريس فيها إلى خيرة رجال العلم والأدب يثقفون العقول على منازع الفضيلة وحب الوطن والسعي إلى الكمال العقلي لنشأ لنا منها بعد زمن وإن كانت بدرجتها أدنى من المدارس الثانوية وأرقى من الابتدائية ناشئةٌ تستطيع أن تعمل كل عمل وتستعد إلى التبريز فيه، لأنها تكون عارفة بتاريخ بلادها وعظَمة أمتها ومنزلة لغتها من لغات الشرق والغرب تنفع بما تعلمته العامة قبل الخاصة.

شاهدنا غير واحد من أهل هذه البلاد ممن درسوا في مدارس الأجانب العالية فأحكموا لغة أوربية أو درسوا في مدارس الحكومة العالية فأحكموا اللغة التركية فما رأيناهم إلا قاصرين غير نافعين لأنهم ضعفاء في التعبير عن مقاصدهم بلغتهم وشاهدنا من عانوا لغتهم وشدوا شيئاً من آدابها فاقتدروا على الكتابة والخطابة فيها مع ما أحكموه من اللغات الأجنبية والعلوم الحديثة وأصبح العلم الذي درسوه ملكاً لهم لا مالكاً لهم يصورونه متى شاؤوا في المظهر اللائق به فينقلون من أسباب المدنية ما يطبّقونه على مصلحة بلادهم لأنهم يعرفون داءها ودواءها ويشعرون بالواجب عليهم لها.

رأينا أكثر من أحكموا اللغات الأعجمية الأجنبية إحكام أبنائها لها إذا قضي عليهم أن يبقوا في أرضهم بعد سن الدراسة صماً بكماً في المجالس عمياً عن مصالح الأمة والبلاد لا يحسنون المدخل والمخرج دأبهم التأفف من أهل بلدهم لأنهم لا يفهمونهم وما ذلك إلا لأن تلك اللغة التي أحكموها وزهدوا في لغة آبائهم قد نقلتهم إلى عداد أهل تلك اللغة فكثروا سواد العارفين بها ولو تعلموا العلوم بلغتهم لنقلوها إليها فزادوها قوة بدلاً من أن تزيد بضعفهم ضعفاً.

وأحسن واسطة لإرضاء العناصر العثمانية التي لا تقل عن اثني عشر عنصراً تتكلم باثنتي عشرة لغة مختلفة أن تُترك حرية التعلم لكل عنصر يتعلّم لغته وبعض ما يبدو له غناؤه من اللغات الأخرى والعلوم، وبذلك يسهُل إشرابُ القلوب محبةَ الوطنية وتحضيرَ العامة على أسرع صورة مقبولة وربطَهم برباط الوحدة العثمانية. ومَن أحبَّ الاستخدام يدخل المدارس الثانوية فيحُكم التركية ومن أحبّ الاتجارَ والتمحض للعِلم يُحكم لغة راقية من لغات أوربا مشفوعة بالعِلم الذي يلزمه

الإخصاءُ فيه فإن الفلاخي والبلغاري والرومي والأرناؤدي والأرمني واللازي والجركسي والتركي والكردي والبشناقي والإسرائيلي والعربي يصعُب جدّاً تحضيرهم في قرون كما صعب على النمسا أن تربط الجرماني بالمجري بالتشيكي بالبوهيمي بالبوشناقي بالكرواتي بالبولوني إلا بعد أن أطلقت لأهلها حرية أن يتعلّموا بلغتهم وبدون ذلك لا تنهض البلاد.

[1←]

Humouristique.